محمد عزالدين التازي

الأعمال الكاملة

الجزء الثالث

3 الروايات

منشورات



وزارة الثقافة

محمد عز الدين التازي : الأعمال الكاملة
الجزء الثالث : الروايات
الإيداع القانوني : 2004/1587
ردمك : 9981-822-76-0
منشورات وزارة الثقافة - 2005
سحب : مطبعة دار المناهل

محمد عز الدين التازي

الأعمـــال الكاملـــة

الروايــــات

الجزء الثالث

منشورات وزارة الثقافة
2004

خفق أجنحة

طوب بريس، الرباط، 2002

[يا سيد الكلام هل لك من كلام بعـــد هذا الكلام؟ وهل أنت راءٍ أم مرئيٌّ فيما بين الضوء والظلام؟ وما المعنى وما الاختيار وما هذه المخاتـــلات لوقت كأنه ليس للتوقيت لشيء؟

إذا ما استبدت بك الكتابة، وهي أخت الانشراح والكآبة، فدع المرآة فهي قانطة بأن ترى عليها ما تراه، إلا إذا كانت مرآة للمرآة يظهـــر عليـــها ما تراه وما لا تراه، أفما كنت تُوسِّعُ لك طريقا غير هذا الطريق وتتجنب طريقا كهذا الطريق؟

في الكتابة كـــل هذا التجلي لحياة أخرى هي غير حياتك، وفيها مقـــام ومرام وسكرات لموت آخر هو غير مماتك، فـَتـــِـهْ في هذا التيهان، وغُصْ في بحران هذا البحران، وخـــيِّـــلْ لنفسك ما كان قد تخـَيـــَّـلَ لك من الأخاييل، قبل أن يكل نظـــرك فلا تستطيع أن تـــدْخلَ خيط الكلام في ثقب إبرة ما تبلغ به المرام. كان الله لي ولك، وللورّاق ولقارئ هذه الأوراق.]

ابن ضربان الشرياقي

المشهد الأول:

إضاءة الأرض

الطريق نحو الجبل

الليلة غائمة يا أصحاب، لم يتجلَّ فيها القمر ولم يظهر لي فيها ضوء النجوم. النهار بادئ والليل ما زال يدخل في النهار، وأنا هنا بين هذه الجبال، ورائي جبل وأمامي جبل، وخيوط الشمس الأولى تظهر من بينهما في أعالي المنحدرات التي لا يمكن أن يهبطها أحد، تتصاعد معها الأبخرة ولا نبات حولي أرى عليه قطرة من قطرات الطل.

الصباح يبدأ بغبش في العينين، والمساء كأنه تداعيات الروح، والليل آخر فرح بمضيّ الوقت الذي لا يمضي، فالفرح لا يكون إلا في تلك اليقظات الجميلة التي يأتي بها الليل ولا يمنحها النهار إلا كسولة عجلى ماضية في السهو وأنا أمشي وأُحَدِّثُ نفسي.

يمضي نهار ويأتي آخر.

أيام وشهور قضيتها هنا، أنام في العراء، ولكن سهري طويل وأضراسي توجعني، ويرد الليل يُجَمِّدُ جسدي، وأنا أغفو قليلا ثم أنهض من ذلك الإغفاء بعد سماع صرخة عظيمة لطائر أسود يأتي من جهة ما بين الجبلين وهو يميل على أحد جناحيه هابطا نحوي، وعندما يبدو و قد رآني يعود إلى تحليقه في السماء حتى يتوارى.

عوّدني الطائر على الصرخة التي توقظني من أحلام يقظتي، فصرت أتوقع مجيئه في غبش الفجر وقبل أن يهبط ظلام الليل، ليحوم فوقي ويقترب وكأن نظراته تلتقي مع نظراتي ثم يصرخ صرخته المدوية تلك، ويولي طائرا في سماء الفجوة التي بين الجبلين حتى يتماس جناحاه مع أطراف السحاب.

لم أدرك ليلي من نهاري خلال الأيام الستة التي مضت، وهذا هو اختلاط الليل بالنهار. وأنا أعرف أن الأيام القادمة سوف تنسيني عدد الأيام و الليالي، فالأعداد التي أعدها ليست من قبيل العدد، الأيام والشهور والسنوات، وربما تنسيني الأيامُ والليالي اسمي وبلدي ولون بشرتي، فلأنس برَصِي، وبرص الأيام والليالي، وهو نسيان جميل سوف يساعدني على الوصول.

الأيام غائمة والليالي حالكة وسماء الغيم لا تبين لي ما تخفيه وراءها من أقمار ونجوم وشموس لو كانت قد ظهرت وأغْشَتْ عينيّ فلربما كنت سأضع خطوتي الضائعة على حافة ذلك المَهْوَى السحيق الذي يمثل أمامي كحد للمجهول وأسقط في الفراغ، أو كنت سأمسك بالصخور الجارحة متسلقا ما هو ليس بطريق نحو الجبل.

لكن هذه الليلة ككل الليالي، غمامها يَغُمُّ كل شيء، وحتى لو غفوت قليلا فستنهضني صرخة ذلك الطائر في نفس ميعاده الذي يأتي فيه، عند هبوط الليل أو مع انبلاج ضوء الصباح. وأنا لا أنتظر ذلك الميعاد بل هو الذي يأتي فيه وقد كان يفاجئني. أجعل أصابعي في أذني متقيا صمم تلك الصرخة فأسمع صراخا آخر في داخلي. ولكني أسمع صرخة الطائر تدوي في كل جسدي، وأظنكم تسمعونها أنتم أيضا على بعد. صرخة ترتعد لها أسوار فاس وترددها كالصدى يكون له ترديـــده. أسمعها في السهول الغربية، في الماوراء، في أندلس وشام، في البراري والمحيطات ومفازات الصحراء. طائر أسود لم أتشـــاءم من لونه وما خفت من انقضاضه علي بما يشبه الافتراس، وربما رأيت فيه صورة رجل أو امرأة، أو خروج الروح من الجسد، أو إجلاء الناس عن أراضيهم ومنازلهم والحرب تخوضها الصلبان ضد من لم يدينوا بدين الصليب، أو ربما رأيت في ذلك الطائر صورتي أنا وقد بدأت أتحرر من التواريخ والحروب ووحشة العالم وثرثرات تأتي من ذاكرات هرمة ومن

الناس وكآبة الدروب وأحاديث الإذاعة ومن قنوطي بنفسي والروح ما شاءت أن تزهق لتريحني وهي تذهب نحو برزخها. وما عاد لي شيء هنا سوى أن أنظر إلى نفسي وإلى ما حوالي. لكن صرخة ذلك الطائر ظلت تأتي في ميعادها، لتعيدني إلى أسكن في عالم الناس حتى وأنا في عالمي.

صرخة تمزق الصمت، ظننتها تأتي إلي من حلم أو ذكرى ولكن الطائر الأسود يهبط نحوي وينظر إلي ثم يعود طائرا وهو يضرب الفراغ بجناحيه العظيمين. لم يكن نسرا أو عقابا و لكنه يملك بجناحيه ما تملكه العقبان والنسور من سطوة على التحليق والطيران. ولماذا يذهب ثم يؤوب؟ أله عندي شيء أو حاجة أم أن لي عنده بشارة أو نذير بالخسارات ؟ طالما قلت له اذهب واتركني في هذه الخلوة وحيدا، و لكنه لم يسمع، وظل يلح على المجيء.

الريح عاصفة تضرب أطنابها. عصفُها يصم الأذن، وتجاويف الجبل تردد ذلك الصفير. بدني لا يقشعر، وصوت الريح مُسلٍّ، أتبعه وهو ذاهب وقد أصبحت أنا الريح، وأنا الجبل الذي يردد صدى الريح.

غيم سماوي يبرقش ألوان السماء.

أبهاء فراغات يسكنها الضوء.

مملكة عائمة في الفراغ.

تيه في وحدة تملأها الأخاييل والذكريات والتجليات والوجادات.

تسبيح لليل و النهار.

وجودٌ كائنٌ أم مُتخَفٍّ في وجود الكائن.

صعقات الجسد و انحناءاته و ظله الذاهب في حركة الضوء.

لا تحديد لشيء أو وجود

الوجود علامات

و العلامات هي دليل الوجود.

القنافذ والأرانب البرية تحوم حولي و تقترب ثم تبتعد، تبدو وكأنها تشم لتتعرف على رائحتي، والعجيب أن الأرانب تشع عيونها فأرى وبرها الناعم، وأما القنافذ فوجوهها جميلة وما كنت أظنها بهذا الجمال، لونها القرنفلي وبروز الأنف والعينان الوديعتان، ولكنها بخلاف وبر الأرانب الذي يوحي بالنعومة تبرز أشواكها على ظهورها.

الطيور الصغيرة تنط على الأرض أمامي، تنقر من الأرض حبًّا لا أراه ولكني أظنه حبا فهي لا يمكن أن تنقر الفراغ، أحدها يقترب مني حذرا وهو يتقدم خطوة ويتراجع، يقترب من قربة الماء، ينقر جلدها بمنقاره، ينظر إلي وينقر سدادتها، أُقَرِّبُ يدي منها فلا يفزع ولكنه يظل يتقافز على حذره، أفتح السدادة وأملأ كفي بالماء، يقترب الطائر وينط فوق كفي ليشرب من الماء، ويلحق به ما كان حوله من الطير حتى تجمعت فوق راحة يدي، وأنا أرى الماء ينحدر من حواصلها الزغباء.

يتدفق الماء من بين أصابعي ويشربه عطش الأرض.

أتذكر خصة الماء في جامع القرويين والطيور تشرب من مائها وتبلل ريشها في استحمام بهيج يبهر العين بحركة الطير، ونفور الماء من الخصة يندفع عاليا وهو ينحدر ويسيل على الحواف. وإذا ما شربت تلك الطيور الصغيرة فقد راحت، محلقة في سماء الله البعيدة، و لكنها تعود، كما تعود هذه الطيور التي أمامي الآن، تزق وتنقر التراب وتحرك ذيولها وتتقافز فوق بعضها دون أن أدري لها أعشاشا ستؤوب إليها مع المساء.

ظل الغمام يغم الجبل ويلفني.

هل أذهب أم أبقى هنا ؟

الأماكن سواء. وسواء أبقيت أم ذهبت فأنا ذاهب بغير وجهة لمعرفة الاتجاه، وكل ما أعرف هو أنني ما زلت أحلم، والحلم تجلى لي فيه طريق لا

نهاية له، محفوف بكل الأشياء والكائنات، وبالصمت و الظلام. حلم لم أره في منام ولكني أراه في اليقظات ساريا في خيالي .

في هذا الحلم لا يمكنني أن أصحو، فالصحو سوف يفسد علي لذة ما أنا فيه من اتساع بعد أن ضاق بي المكان. و لكي يتسع المكان فأنا لا أنظر إليه ولا إلى نفسي وإنما أنظر إلى ما وراء المكان وما وراء النفس، وفي ذلك ما يشيع الأفكار والرؤى ويهيج الوجد ويجعل القلب خافقا.

وأين أنا الآن ؟

أنا قريب من القريب.

بعد ذلك المشي الطويل بالليل والنهار فقدت معرفتي بالمكان، وكنت أمشي متحاشيا أن أمر بالقرى والدواوير والساكنة والرعاة، أتجنب نباح الكلاب وأصوات الآدميين وأدخنة نيران المواقـد وأقترب من البعـد، لا أطلب شيئا من أحد ولا أرتجي غير ما هو مُؤمَّلٌ في النفس. الأصقاع أمضي فيها كما لو كنت أمضي في طريق لم يسلكه غير من سلكوا هذه المسالك. وقد يكون ذلك ممكنا، فقد أصبحت أشعر بأقصى درجات العزلة، وبالتغير، تغير طريقي وتغير معالم هذه المسالك من حولي، فلا شك أن وجهي قد أخذ يتبدل حتى لو رأيته على صفحة ماء لما أيقنت أنه وجه عبد الحي، كما تبدلت هيأتي فلاشك أن شعري قد اغبرَّ وأن أظافري قد طالت واتسخت، وأما الخرقة فطهارتها لا تضاهيها طهارة، وهذه علامة من علامات الوصول.

لم تعد لي رغاب صغيرة أو طموحات أو أمانٍ، فأنا أنتظر البشائر، ولست قانطا أو ملولا فالوقت لي أصرفه في هذا الذهاب، وأنا ذاهب حتى مع قر الليالي ونومي في العراء أو تحت الشجر أو مستندا إلى صخور الجبل. ذاهب وقد صار الوقت غير الوقت، والزمان غير الزمان، والمكان غير المكان، والعين هي التي ترى ذهابها، والقلب محترق باللواعج والفكر ظمآن،

والنشوة الآن لا تتسرب إلى المسام والخلايا و لكنها نشوة إن أتت فستذهل العقل والوجدان وستضعهما في الحيرة.

أنا حيران.

ولو أفسح لي هذا الغمام طريقا وسط هذا الطريق فهل كنت سوف أعود إلى أرض فاس، المشمولة بأضواء الصوامع حتى وهي تغرق في الظلام؟

وإذا ما أعادتني الخطى الحائرة في الطريق فهل سأرى ما كنت قد رأيت، وهل سأستعيد حياة عبد الحي السرّاج، الولد الصغير الضائع بين الماء والظلام في أزقة فاس وكأنها مدينة الماء والظلام على ما يضيئها من أضواء؟

وما الفائدة ؟

منها خرجت و إليها سأعود، لكن ما خرجت منه ليس هو ما سأعود إليه. لا يمكن. أبواب الخروج في فاس ليست هي أبواب الدخول إليها. الأبواب محيرة لأنها كما تكون للخروج تكون للدخول أيضا، وأنا الآن في المنازل كلها، فما شأني بالدخول والخروج ؟

الغمام يلفني كما يلف الجبل، ولو أفسح لي هذا الغمام طريقا وسط الطريق لظهرت لي الشموس والأقمار و الكواكب والنجوم وأضواؤها تغشى عيني .

ولأن عيني لم تغشهما تلك الأضواء كلها فلهذا أنا مازلت أتذكر أرض فاس، وأرى نفسي ما أزال ملتصقا بعرق سيد الحبيب ورائحته وآكل من يد لالة الطام. سيد الحبيب الصحراوي المنحدر من قصر السوق، والدي الذي لم يلدني، ولالة الطام، الفاسية الدهقانة الكبيرة، اللعوب بالكلام، التي أشترك معها في أصلنا الأندلسي، ولا أشترك معها في حليب الرضاعة حتى وهي أمي التي لم تلدني. وستعرفونهما فيما بعد، أراهما معا، الآن، هو في قبره و هي في دنياها، وأرى فاسا تكبر وتتسع حتى تتاخم الجبل والصحراء وحد الماء. أرى

التواريخ والنبوءات وأحوال الوقت في أوقات عصية على التوقيت، وأرى البرص الذي هو داء كان يرده سيد الحبيب إلى أكل السمك ومعه شرب الحليب أو اللبن، فما جمعت بينهما خوفا من أن أصاب بالبرص، وما كان سيد الحبيب وهو يردد على مسامعنا ذلك الكلام أن عبد الحي سيصبح من البرصان، ولكنها البقع على جسدي ووجهي وحول العنق تصعد نحو الوجه وتكبر وتتسع، ظننتها بهاقا في أول الأمر، وفركت أماكنها بالكيس الصوفي الخشن والصابون البلدي في الحمام حتى تزول، لكن عمق بياضها على الجلد وانتشارها، هو ما أكد لي ما كنت لا أحب أن أصدقه، وقد تراها المرآة فلا تصدق كما قد يراها الآن ملاك الموت فيسألني، وقد تراها الجارات في الحي القديم، أو بنات أعمامي الساحرات بجمالهن فلا يعرفنني.

البرص هو الداء، وما الجذام والديدان التي تأكل من لحم ابن آدم وهو يمسكها بأصابعه ويرميها بعيدا عن الجسد وديدان أخرى تظهر أكلة للجسد ؟ وما أيوب وصبر أيوب ؟

الألم في النفس وليس في الجسد.

الألم تجربة تنقل الإنسان من إحساسه بذاته إلى إحساسه بالوجود. لكن الألم ليس سوى ابتهاج يعقد للمرء علاقة أخرى مع نفسه و مع الناس.

هو التشفي ربما في عيون بعض الناس الذين لم تلحقهم الإذاية، أو هو الإشفاق، أو المشاركة في الألم. ولما كان للبرص ألم غير ألم الجسد، فهو مرآة للعيون، تعكس تشفيها أو إشفاقها أو خوفها من أن تصبح عيونا برصاء.

في غابة هذا الألم كله لا يبقى للجسد ألم حتى و إن كان وجع الأضراس أو داء أيوب.

ما الذي كان قد قاله لي سيد الحبيب ذات يوم؟ هل كان حكيما أم رائيا لرؤيا كل ذلك الجنون الذي يكمن وراء العقل ؟

نسيت قوله ذاك. ولو أنني قد ذهبت مرة أخرى نحو أرض فاس فسأرى التوابع والزوابع، وأحوال الوقت وهي تتبدل، وانشغال الناس بالريح والتسريح، وموت الملوك وبقاء الأضرحة، وضحكات الجنيات الصاعدات من تجاويف كل ما هو ماء وما في فاس غير الماء. وقد أرى اللصوص والقتلة والمرابين، وموازين العالم وهي تُحمل على أكتاف الساسة والعلماء ورجال الدين وهم يَزِنُونَ فيها أو لا يَزِنُونَ بموازين العدل والقسطاس؟

يا ويحي ماذا يمكنني أن أفعل بكل هذا؟

أهذا كل ما يمكن أن يتكشف عنه الغمام؟

إذن لقد وقعت في الخسران، فتلك أمور عشتها أوعاشها الناس في فاس أو في غير فاس، وما عادت تهمني بعد أن أدَرْتُ ظهري لباب بوجلود وخرجت.

يا أصحابي هذه ليلة ظلماء لا يَهِلُّ فيها القمر و لا تتلألأ فيها النجوم، وأنا لا أرى ما حواليَّ فكيف أرى ما ورائي وأمامي؟

القوانيس والشموع وأضواء الصوامع لا تضيء ظلمة هذا العالم ولا تُبَدِّدُ وحشة ما في النفس من ظلام.

أظلمت فاس على ما تلألأ فيها من أضواء وها أنا أسكن في الظلام، ولي أن أذيب من عيني آخر ما تبقى لهما من رؤية العين، فالرؤى لا تتوالد إلا في ظلام يغمر هذا العالم كله.

المشاهدات والتجليات لا تشع إلا في حالة الجلوس القرفصاء.

الكون كلـــه كما يرتـــعش الجسد مُنْذِراً بما سوف يذهب إليه من غشية أو تحلل أو فناء . جلستُ القرفصاء وأطرافي هي التي ترتعش، وأنا على وشك أن يُغْشَى عليّ .

وما هذا هو كل شيء.

هي خطوة الخطى الحائرة التي في حيرتها قد تصل وقــد لا تصل، لأنها تراوح مكانها وتبقى في المكان،

وما الخطى سوى ما يفعله الجسد بصاحبـــه من تضليل يوهمه به أنه يقترب وهو لا يقتــرب، وقد يقترب بأشياء أخرى ولا يقترب بالخطى .

أتفكركم في هذا الظلام يا أصحاب وأنتم تتبعون طريق من علّمونا الرماية، فما رمينا سوى أنفسنا بسهام حادة ومسنونة أصابت منا القلوب والجوارح، ولم تصب شجرة لينز من قلبها الدم الأخضر، كما لم تصب طيرا يُخَالُ لنا أنه قد سقط مصابا بسهم وهو طائر في سربه. فأي شيء تعلمناه من الضرب بالنبال والسهام، نبال وسهام الكلام ؟

ما كان أحدنا

يظن نفسه حتى سعى إلى طهارة الـــروح والجسد

في بياض الملائكة

أو طهارة سادتنا وشيوخنا الأجلاء الذين ذهبوا نحو فناء الجسد كل مذهب

فمنهم من أصاب ومنهم من جاهد النفس على أن يصيب،

لكننا لم نتورع،

ولم نعش ساعة يظهر لنا الظلام حتى يتجلى لنا الضوء.

هذه هي محنة المحن،

فمن لا يكاشف نفسه بسره فكيف تتجلى له التجليات والمكاشفات،

كيف يصبح من أصحاب الرؤيا فتتجلى له الغوامض وقد أصبحت من المكشوفات ؟

المكشوفات هي الغوامض يا أصحاب.

وها أنتم في حالكم وأنا في حالي وقد فرّقَتْ بيننا المحن، محن الواضحات التي لا علاقة لها بالمكشوفات، فالمرء يأكل ويشرب وينام

ويضاجع امرأته ويعمل ويعيش أحوال الوقت، والواضحات بكل هذا الحد مفضحة لحيوانية بهيمية جل عنها الإنسان. المكشوفات هتك لأستار السر، والأسرار خفية وغير مباحة للدهماء. وأنا لا أشتم أحدا بصفة أنه من الدهماء ولكن طموح الذوق و الوجدان والعقل يسكن الباحثين عن المكنونات من الأسرار. لا أريد أن أعطلكم عن أشغالكم فأنا أيضا لدي أشغالي. أنتم في أسواق المدينة تعملون وتبيعون وتشنرون وفي فرش الزوجية تتوالدون وتؤجلون الصلوات عن أوقاتها وتخشون الإملاق وأنا هنا في هذا الجبل أعكف على جسدي في انتظار هل سأتهاوى أم سأخف وأحلق في الفراغ.

لو كان ممكنا وتخليتم عن أشغالكم فهل كنتم ستخرجون معي لهذه القفار؟ هل كنا سنقف جميعا، كابرا عن صاغر، على حافة هذا الجبل الذي ليس مزارا ولا هو خلوة من الخلوات المعروفة ولا هو له اسم بين الجبال ؟ أتصور لو كابدتم النفس على ذلك لكنا قد وقفنا جميعا على حواف هذه الصخور المسنونة ننتظر هل سنسقط في الفراغ الهائل أم سنسقط في بستان التين والزيتون والماء الجاري في النهرِ والجبلُ يرانا ويدعونا إلى الصعود من جديد، ولو حدث ذلك بالفعل لكنا قد جلسنا القرفصاء، جماعة، متحلقين ننظر إلى الظلام حتى يتجلى لنا الضوء.

هل أنا في محراب اتسع حتى شمل كل هذه القفار، أم أنا في نسغ الحياة أو في أعلى قمم الذات وفي سوء الحال ولا أحد؟ وأيان كان جسدي فثمة وجه للسؤال، وأيان كان عقلي فثمة رياح لا كالرياح.

هي المكابدات.

البحث عن الرؤية في الظلام.

النسيان من أجل المعرفة.

و لكن الوهج المرتقب حارق للعين،

يسكن في المسام و الخلايا،

و يوهج الجسد بوهجه،

فهو نور الأنوار.

لم أتخذ قراري بالصعود إلى الجبل بمشاورة أحد، ولا يهمني الآن أن تلوموني على غيابي فأنا أسعى إلى حضور آخر خروج من الزمان و المكان، حتى أدخل فيهما من جديد، بيقظة أكثر إدراكا وباقتراب قريب من القرب، وهو حضور مع الكائنات، ودقائق الأشياء، ومع الريح والظلام والجبل المتاخم للصحراء، فلا بستان ولا تين ولا زيتون ولا ماء. لا حصان ولا محارب ولا سيف. لا مرآة تُرى فيها الزينة لعيون الناظرين. لا بكاء ولا ضحك ولا مؤامرات للسياسة، وأقول لكم ربما، لا أحد، فبهذا الحضور هنا أقترب، ساحبا ورائي ظلال ما تظللني به الشمس الحارقة في النهار، وأمامي قر الليالي والمطر والصواعق التي تردد صداها النفس.

أنتم يا أصحاب ترون في خروجي لملاقاة هذه المنزلة ذهابا نحو الغربة والوحشة والموت، وأنا أرى فيه أمرا جميلا له طرافته واختباره للجسد والنفس، فحالما ينتفي العالم، يستيقظ وهج حضور العالم، والخلوة ليست هروبا ولكنها تقدم نحو أمام لا يدرك أحد أمامه إلا من أراد السير فيه وسط الغمام والظلام. وأنا ليس لي سوى الصبوات، وتيقنوا من أنني أتذكر ثم أنسى، ولست في عجالة من أمري ولا أنا في قنوط من هذه الحال، بل أنا فرح غاية الفرح بالصعود إلى الجبل لرؤية ما يظهر لي في التجليات.

قد لا أرى سوى الفراغ و لكنه فراغ لامتلاء، وقد لا أعايش سوى الصمت ولكنه صمت مسكون بالكلام الذي يزخر بالكلام.

لا يمكن لي في هذه المفاوز والقفار والبراري التي أنا فيها أن أرى المستحيل غير ممكن، سيما وقد أفاضت الكأسُ قطرتَها في هذه الوهلة، فقبل

أن أرشف منها كانت أضواء العالم تحف بي وأنا في هذا الظلام، ومن غير أن أرى أية أقمار أو نجوم أو شموس ساطعة.

أقول فاضت الكأس، كأس كأنها مليئة بالدموع أو كأنها تقطير من مُقَطِّرِ السحاب. مُرة أو حلوة أو لها مذاق الرحيق أو عذوبة أنهار الجنة أو هي الزقاق. لها في الفم طعم وفي الأنف رائحة ولها فعل بالعقل تذهب به نحو الوجدان كما لها فعل بالوجدان يذهب به نحو البكاء، وحيث تعود بعد فراغها لتملىء من فيضه مهيجة للعقل والوجدان. وهي ليست بين يدي ولا من خلفي أو أمامي، ولكنها قريبة مني، والحميا في دمي، والعقل نشوان والمزيد منها يزيد في النشوة حتى أصير خفيف الظل، سمحا وطلق المحيا، رخيصا يمكن أن يشتريني الحبيب بكلمة أو إشارة، غاليا لا أبتذل نفسي مع حبيب هو غير الحبيب، أراه وأضحك له وأسير معه خارج المدن والأعــراف والشرائع، فإن كان امرأة صرت له رجلا وإن كان رجلا صرت امرأته وإن كان ضوءا فقد سكن في قلبي وإن كان نارا فقد احترقت بها وإن كان فراغا فقد أصبحت أنا الفراغ.

شرح:

[اسمه القرِيب فهو من ذلك قرب يقرب قربا فهو قريب والقرب يكون للرجل والأنثى والواحد والجمع. والقربان ما تقرب به إليه أتيته قِرَابَ العشي وإناء القربان قد اقترب من الامتلاء ومنه القرية التي قدمت ماءها للطيور الغطاش ويقال لوزير الملك قربان لقربه منه ويقال ما قربت الأمر قربانا ولا قربا أي ما اقتربت منه ولا فعلته وهذا كلام حول أسمائه يكاد ينسيني فيه ولو نسيته لأكلتني الضباع وافترستني العقبان في هذا الخلاء ولكن أنا من المقربين.]

وهل يصير المرء وهو على القرب وهذا البعد سمحا طلق المحيا بغير كأس؟ كأس أنا بخمرتها نشوان، وفي نشوتي أرى البعيد في المراقي، وأنا صاعد، شكله هو أن لا شكل له، وله كل ما يملأ الخيال بالأشكال، يحل في الدم والخلايا ولا أراه، أراه في نفسي قبل أن أراه في توهج ذلك الضوء الذي يغشى بصري فلا أراه.

وما عذري في كل هذا البوح وانصرافي عن وصف ما أراه من أضواء غير أني وحيد أعزل في عالم مليء بالضباع والخنازير البرية، ولكني لست خائفـــا منها، بل هي التي تتجرأ على هذا الظلام الذي لا يرشدها إلي، كما أخاف أنا هذا الظلام الذي يتباطأ أرى فيه سطوع أنوار فاس، وقد تجلت لي وأنا في الجبل أو الصحراء أو وأنا مرفوع فوق الماء، جالس القرفصاء في رمضاء هذه الصحراء وفي متاهات هذا الظلام ألاعب الماء وهو ينبجس من العيون وأمسك من مويجات البحر ولا أرى الماء بل أحسه يتدفق بين يدي وحول عيني، فأخاطب الحيتان فلا تسمعني وأتجرأ على ثعابين الصحراء فتبدو لي كجبل من اللحم، وأصعد إلى أوكار النسور فأجدها عمياء مكبلة الأجنحة، وأسحب الخطى من طريق لطريق والطرق لا تشبه الطرق فهي دروب من دروب عالم لا يشبه هذا العالم، ولعلها دروب لترويض الحواس والاقتراب من المستحيل.

لا يمكن يا أصحابي أن نموت قبل أن نرى أنوار فاس تسطع من صوامع فاس وكأنها المدينة الأولى في هذا العالم.

ولا يمكن أن نموت تباعا وما جاء وقت الأضواء التي تخلب البصر قبل أن تعيد إليه شيئا من حسه البصري ليذهب في الذهول نحو ما يراه.

ماذا إذن ؟ هل العالم لم يولد بعد وهو في حشرجاته الأخيرة ؟

وهل هو كل هذا الوجع الذي يستدعي مزيدا من كؤوس المُدامِ لكي نبلغ المقصود والمرام ؟

يا أصحابي أنا أسمع جدران العالم ترتج، كما أسمع أصوات الأرض وهي تندك دكا وتصير خاسفة وقد انقلب سافلها على أعاليها، وما تورع أحد لكي يبقي على ما تبقى من وضاءة وجوه الأطفال، كي نرى في ذلك الوضوء شيئا مما تبقى، فنسبح بحمد من خلق الإنسان وسَوّاهُ على هذا النحو من البراءة وهو يخفي وراءها أشرس وسائل القتال وأعنف مظاهر التلذذ بالدم، دم الأطفال. فهل العالم يا أصحابي لم يولد بعد أم هو في حشرجاته الأخيرة، وهل هو بدء العالم ؟

قبل أن تعطوني الجواب أخبركم بأني في بحران، وقد ثقلت مني المسامع فلن أسمع أي جواب، فأنا طريح في خرائب لا مكان لها من خرائط هذه الخرائب، يداويني شيخ عجوز أعزل يمتلك الحكمة في الداء والدواء، كي أعود إلى مراوغاتي لامتلاك الضوء في هذه الأزمنة الطويلة من الكلام والظلام، وهو لا يعالج عيني من العمى بل يعالج ظلام العالم حتى يأتي النور إلى عيني كما قال، التقيت به بالأمس، في خلائي وقفاري، صدفة وأنا أنظر إلى المدى وقد ظهر لي قادما يتكئ على عصاه، فاقترب مني واقتربت منه وقد ظننته واحدا منكم، كما رأيت فيه صورة سيد الحبيب، أو ظننته والدي الذي لم أره الحاج عبد الرفيع السراج، وقلت هو واحد من الدهماء، أو ممن خرجوا مثلي من أرض فاس باحثين عما يخيله الكلام، ثم تبين لي أنه شيخ مسن لا أعرفه، وهو عرفني وعرّفني بنفسي، نفسي التي أنا لم أعرفها بعد، فأدركت أنه مُدَّعٍ أو قاطع طريق أو هارب من العدالة، فقد كان على سنه التي تجاوزت الثمانين قوي البنية غير منحني الظهر صلب النظرات إلي، لحيته الشيباء تبدو مشذبة وكأنها ديكور على وجهه، وظننته يبحث عن شربة ماء،

ولكنه كما قال لي كان يبحث عن أعمى حتى يعيد النظر إلى عينيه، ولما حدثته عن الظلام والأنوار حدثني عن العمى، عمى العالم الذي لابد أن يعالج حتى تعود الرؤية إلى عيون العميان. فقلت له عمى الأبصار لا يعالج إلا بمعالجة عمى القلوب، فنظر إلي نظرة شك وطلب مني سيجارة لم تكن معي فحاولت أن أقطع عليه أي طريق وقلت ما معي شيء فقال لي معك عماك، فهل تدركه أم أنك واثق من رؤيتك وأنت أعمى ؟ فقلت له العميان مبصرون، فضحك و قال لي لو كانت معك سيجارة تجعلني أدخنها لأعطيتك الجواب، ولكن لا بأس، فأنا سوف أفحص عينيك قبل أن أفحص سريرتك، وقال لي نحن أطباء نجول في هذه القفار بحثا عن العميان، لكي نكتشف في عيونهم ذلك الداء الذي هو ظلام العالم، وهو يظهر في العيون عادة على شكل احمرار وتصلب في القرنية وفيروسات يمكن لنا نحن الأطباء أن نراها حتى بالعين المجردة، ودعك من الفراسة فنحن نستعين بها فقط، ولكننا نعتمد الوسائل العلمية للعلاج.

تذكرت سيد الحبيب والعجوز يقول لي هذا الكلام، فقد كان الرمد يأكل جفنيه حتى و هو خياط يحتاج إلى بصره لإدخال الخيط في الإبرة.

وأنا لست أعمى. أنا أبرص والعجوز لم ير برصي ولكنه رأى عماي، ولو قال لي أنه يداوي البرص لقلت له ما أنا في حاجة إلى دواء، فما البرص سوى ألم في النفس وفي مرايا الناس، وهو ليس سوى علامة على ألم آخر مستور لا تراه المرايا التي هي عيون الناس.

كيف يمكن أن أكون أعمى وأنا أرى الغيم والسماء والتراب الأعفر والحجر الجارح والملح الذي في الدمع وأرى ذلك الطير الأسود يحط بجناحيه ليراني ثم يصرخ صرخته النكراء يطير بأجنحة العقبان والنسور؟

جاء العجوز إلى الجبل أو الصحراء أو إلى هذا المكان الذي أنا فيه وأنا لا أعرفه ولكني أعرفكم فلم تأتوا بالنور إلى عيني بعد أن أخذ العالم يسلح في الظلام.

ومثلي في هذا المقام لا يتورط مع الغرباء، فأنا غريب والغربة لها أساها العميق في النفس، لكني مبتهج بأوهام هي الحقائق كلها، فأنا أتوهم طريقي وعالمي والمراقي التي أصبو إليها والتوهم دليل على أول خطوة في الوصول.

أوقات لا وقت لها.

هذا ما أخذني إليه ذلك البحران، وكانت جدران العالم ترتج، فوجدتالعجوز بجواري ينظر إلي وأنا أنظر إليه.

قال لي:

ــ سأداويك.

فقلت:

ــ وهل تعرف مرضي ؟

قال بثقة:

ــ آه ! العمى.

وقلت:

ــ وأنت هل تراني ؟

قال:

طبعا. أنت أمامي الآن.

قلت:

ــ وهل ترى البرص على وجهي ؟

نظر إلي مستغربا و قال:

ـــ هل جئت إلى هذا الخلاء هاربا من مرض فاس؟ البرصان كلهم من أهل فاس. يظنون أن مرضهم هو البرص و لكنهم عميان لا يبصرون، وليست لديهم مرايا يرون بها إن كانت لهم عيون مبصرة، ترى برصهم على المرايا.

وقلت:

ـــ وهل أنت من فاس؟

قال:

ـــ أنا من هذه الجبال. ولأنك أعمى فأنت لا تراها.

قلت:

ـــ أي عمى تقصد ؟

قال:

ـــ عماك أنت يا أخي . مالك ؟ ألا تدري أنك أعمى ؟

ـــ وما شأنك أنت بعماي ؟

ـــ أنا الطبيب المداوي.

وفي تلك اللحظة اختلط علي الأمر فظننته واحدا من رجال الله الذين استوطنوا الجبال وقد درى بحالي أو هو واحد من الأولياء والصالحين، وخشيت أن يكون قد خرج من ضريحه وقد بعثه الله، فلعله مولاي بوشتى الخمار، أو هو مولاي عبد الله الموقر، أو هو صاحب الرسالة أو صاحب الجلالة أو صاحب السرِ وقلت لنفسي كل هؤلاء قد أصبحوا ضمائر، ثم قلت لنفسي إن من يكون حاله على تلك الحال لا يتشغل بأحوال الناس، ومرضه لابد أن يشغله عن المداواة، فما شأن هذا الصحيح الجسد على شيخوخته، الفصيح اللسان، وماذا يريد ؟ خشيت أن يكون واحدا من أولائك وأن يكون هو الطريق وأن يزل لساني معه بكلمة أو بأخرى فأضل الطريق، وجلست

القرفصاء كما أجلس عادة في هذه الرمضاء، وتوجهت بنظري نحو الجبل، فقال لي:

ـ دعك من التعرض للأخبار عبر الإذاعات والقنوات الفضائية، فهي تسقم الفؤاد وتغل الروح وتبعدك عن المراد.

فقلت له:

ـ وهل أنا في هذا الخلاء أتوفر على راديو أو تلفزيون؟

فقال:

ـ يا ولدي، هذه الصناديق العجيبة تأتي إلينا بالصور والأخبار أينما كنا، وهناك أناس يتاجرون بها من أجل أن يوصلوا إلينا كل هذا الغم وهذا الانصراف عما نحن فيه.

قلت:

ـ و بماذا تنصحني أن أفعل؟

قال:

ـ فتوسل وتوكل، واترك للباري أن يمنحك عاقبة الأمور.

وفجأة اختفى من الظهور أمامي فقلت له:

ـ أنا متوسل ومتوكل، لكني لا أراك.

قال:

ـ ألم أقل لك إنني أداوي عينيك من العمى ؟

لكنه ظهر أمامي وهو يضع بعض القطرات في عينيه، ناظرا إلى السماء، فتفحصته بنظراتي وحسبتني أعرفه، فهو وجه من وجوه فاس القديمة التي كنت أصادفها في طريقي، وحسبته لم يتخل عن جلبابه الذي كان يرتديه ومنذ تلك السنوات البعيدة، فلمت نفسي على التمسك بالحصاة وأنا في الصحراء، وعدت أنظر نحوه نظرة شك فعرفت أنه مخرف ولا عقل له، فقد

ترك عقله في سيدي فرج وجاء إلى هذه الفيافي ليجد له شغلا في المداواة إن وجد أحدا يداويه. ثم شككت فيما عرفت وقلت لعله أحد الجواسيس، أو القتلة، أو هو أحد المحاربين وقد جاء ليختفي عن طالبيه في هذه الأرض. ثم قلت لنفسي لعله واحد من أصحابي وقد صار على تلك الحال كما صرت أنا على حالي. ولما لم أجد حيلة في التخلص منه فقد جعلته يرى الأرض ينقلب سافلها على أعاليها وهي تندك دكا فأصابه الفزع وولى هاربا عنى يبحث عن مأمن فضحكت من غبائه وقلة تجربته حتى على ما تعلمه من الحكمة وهو على هذه السن.

لكنه عاد يجري ورائي وأنا هارب منه حتى استوقفني وقال لي الحي من له الحياة وهو معنى باطن متصل بائن عن ذلك المعرف الذي تعرفه وهو يعرفك، فأنت عبد الحى، والحركة في الحي ظاهرة وباطنة وإن تفرق ذلك على وجوه، فأنت عبده وهو سيدك ومولاك، والمطر حي إذ عنه يكون كل ذي حياة، وحييت أخي أي جعلته يحيا بالمحبة معي، والقبيلة تجتمع بيوتها بموضع واحد يسمى الحي، منه حياً الناقة وهو مُجتمع فرج الرحم منها، وسمي الحي لاجتماع أسمائه وصفاته بالحياة والحياة معنى باطن تدل عليه الأسماء والصفات كالعلم والمقدرة والإرادة وغير ذلك مما استتر.

واجهته بنظراتي وأنا أستمع إلى كلامه فلما انتهى مما أراد قوله اختفى فتبعته جاريا ولكنه اختفى فأخذت أجري وراء الفراغ.

ولكن يا أصحاب، أ صحيح أن الأغصان الشجرية قد أصبحت معفرة بالتراب والبارود، وأن الاخضرار يصبح يباسا فيتفتت وتذروه الرياح، وأن الناس في هذا العالم لا يرون الظلام كما أراه، وهل صحيح أن الأرض لم ينقلب فاسلها على أعاليها بعد، وأننا ما نزال نعيش فوق الأرض ؟

هل تعرفون أين أنا الآن ؟

إنني في وعثاء السفر، والليلة ليست قمراء وأنا لا أتبين طريقي نحو الجبل، لكني أعرف أين أنتم، فأنتـــم تقيمون بين العادة والعبادة وما تبين لكم ما الضوء وما الظلام من تلك لعادات والعبادات، أما أنا فقد تبين لي أنني ساهر في هذا الخلاء وهذه القفار مع ضوء سوف يبزغ من مكان ما، لا موقع له في الجغرافية أو في حركات الأفلاك والنجوم، وحالما سيبزغ ذلك الضوء فسيحررني من الزمان والمكان وسيلدني من جديد.

هو وسواس الضوء

وقاماته المديدة

يقارب بين المسافات راغبا في اصطناع مسافات أخرى للاقتراب من المستحيل.

هو رجع الضوء

كالصدى غارق في بحار وأقانيم الظلام.

الآن يضيء على نفسه بنرجسية عجيبة

مالئا هذا العالم باحتمالات للبقاء

ناسيا أنه سوف يتبدد ويترك ضوء النبراس لنبراس آخر،

ولعله يضيء من نار حداد

وقد وضع في المرجل فحما حجريا ظل متعلمه ينفخ عليه بالكير،

أو يضيء من كوة في زقاق،

أو يضيء من صومعة أو محراب،

ولعله يضيء من ميضأة بجوار جامع،

وفي كل الأحوال فهو يضيء على نفسه قبل أن يضيء الظلام للناس.

ضوء الظلام أم ظلام الضوء ؟

ظلال الضوء أم أضواء تلك الظلال القابعة في الدروب والشمعة التي هي مصدر الضوء تحركها الريح وحيطان الدروب تتحرك مع ظلالها ذاهبة وعائدة وكأنها تترجرج، وقامةُ حاملِ الشمعة يصبح لها ذلك الظل كله، المضاعف في السموق، وهو يتلاشى في الظلام.

هكذا تواريخ الأضواء الخادعة لن تُرَدد غير ما تبقى من بقايا الظلام، وهي في ذلك الترديد لا تصعق العين بالأذى بل ترشد الخطى إلى حيث هي وحشة الدروب، وعلى بعد كل المسافات وهي قريبة فالضوء هو ما يمازح قليلا وهو يتباطأ ليخترق الظلام، وفي تلك الممازحات العابرة قد تتجلى أشياء خارقة كأن نور الكهرباء قد انقطع فجأة لنأتي بنور الشمعة حتى نراها، وكأن تلك الأشياء الخارقة لا تُرى إلا على أضواء الشموع. وهذه مرحلة من الكشف، ستؤدي إلى مرحلة أخرى وهي الرؤية في الظلام، والملاعبة نفسها بين العين وظلامها وبين اختراقات الأضواء، مؤقتة بأنوار الكهرباء في الليل ونور الشمس في النهار، والعين التي ترى في الظلام، أو تحاول ذلك، لا تهمها هذه المواقيت من الليل والنهار، وما يهمها هو مواصلة رحلة البحث عن الأنوار، وإن كان ذلك بعيدا فالمسافات تراوغ كما تراوغ الأضواء العابرة، وأن كان ذلك قريبا فهو ما يمنح الاقتراب.

وهذه شطحة من الشطحات،

أو هي إدراكٌ كليٌّ للعالم

يلغي الجماليات الحسية

في اتجاه الاقتراب من الجماليات المعنوية،

ويلغي الذات في مقابل الحصول على مكنونات الجوهر،

والعرض زائل الجوهر باق.

وعرّفوني يا أصحاب ما الضوء وما الظلام. عرفوني بهما لكي أعرف، وإن كنتم غير عارفين فأنا ما جئت إلى هذا الجبل إلا لكي أعرف.

تذكرون أن اسمي السّــرّاج، وأنا عبد الحي، السّرّاجُ الأندلسي. أسمعكم على كل هذا البعد تتداولون الاسم الآن بين أنفسكم، أو في جلسات الصحاب، تصنعون مني أسطورة واقع أو واقع أسطورة. ولا أدري كيف مر الزمان فتغيرت الصناعة من سروج الخيل كما كانت صناعة أجدادي في الأندلس إلى تجارة الحرير في قيسارية فاس كما كان والدي إلى خياطة الملابس العصرية كما تعلمتها من سيد الحبيب.

هي أزمان و حقب تمر من وراء هذا الغيم أراها أمامي والوقت يدخل في الوقت والعبث يدخل في العبث والشائعات كثيرة عني فأنا لم أعرف أسماء ولا قتلت أحدا ولا بحث بوثائق سرية أو أسرار وكيف لي و أنا عبد الحي، الساكن في الظلال أبدا، ولربما أوحى إليكم ذلك العجوز بأني المتصف بكل الأوصاف.

وما السراج كما كانت صناعة أجدادي في الأندلس سوى صانع يصنع سروج الخيل، هكذا سمعت، ولكن لا تنسوا أن للخيل حوافر قبل أن تكون لها السروج، وأنا الحافر لفرس دهماء تدري أن من يركبها هارب من بطش أعدائه، وسواء أكان يهوديا أو مسلما فهذا لا يهم، غرناطيا أو إشبيليا فهذا لا يهم أيضا، عالما في الدين أو قارئا للأجفار أو خبيرا بالبستَنَةِ والزراعة والطب والفلك والموسيقى فهذا لا يهم، فالسروج التي صنعها السراج لتكون صهوات لكل تلك الخيل لا يدري منها سوى أن خيلا قد أرادت بها الفرار نحو تطوان وسلا وفاس من أرض المغرب، ليصبح السّرّاجُ نفسه واحدا من أولائك الذين استوطنوا أرض فاس، التي جاء إليها فرارا، وليشرب كأس الدهشة ويقلب الموازين ويغير اتجاهات الريح.

الزمان يدور.

حدث هذا قبل أن ينهد منزل العائلة في حينا الفاسي الصامت بدروبه الحلزونية، وفي قاع الدرب كانت دارنا، لا أدري لماذا اختارها الحاج عبد الرفيع، والدي المرحوم، لتكون في قاع الدرب، وأنا استرشدت إليها حتى عرفت أنها كانت هناك، هي آخر دار بعد أن يصير الدرب المعتم أكثر عتمة، بابها واطئ يتم النزول لدخولها بدرجة أو درجتين، والباب كانت عليها مطرقة على شكل يد مضمومة، ولكن الباب انخلعت مع الردم وتم نزعها من تحت الأنقاض، وربما كانت تلك اليد المضمومة من حديد قد أحست ببرودة الموت، فما عاد أحد يبث فيها حرارته وهو يطرق الباب.

هل كان لي أن أتخيل الدار وأنا ما رأيتها إلا وأنا رضيع ؟

لكني استرشدت ووصلت إليها فكانت الحيطان عالية، وهي حيطان الجيران، وأما الفراغ فقد تحول إلى خرابة تُلقى فيها الأزبال.

وقفت أمام الخرابة وتساءلت أين كانت غرفة نوم والدي الحاج عبد الرفيع، تاجر الحرير في القيسارية ، فلاشك أن سرير النوم كان محاطا بأروقة من حرير لَيْلَكِيٍّ أو زبَرْجِدِيّ، ولاشك أن مصباحا كان ينير لنقاء سريرته كما كان ينير لذهابه إلى الميضأة، وأين كان المطبخ فما بقيت روائح للأطعمة التي تُحَلِّبُ الريق، وأين كان موقع الأدراج الصاعدة إلى السطح، حيث الأغراس الطافحة بالاخضرار وأخمام الدجاج؟ أين كان السطوان الذي هو المعبر للدخول، كما يكون دخول الدار يبهر العين بذلك الزليج والجبس والفسيفساء، والبرطال الذي هو مكان لجلوس عابر مفتوح على نافورة الماء وأشجار النارنج التي تضوع المكان رائحة زهورها في أوقات الإزهار، إن لم تكن هناك ياسمينة تتدلى عرائشها بتيجانها البيضاء الصغيرة، وأين كانت السقلابية التي هي مخبأ للفرش الزائـدة وبطانيات الصوف المخبأة لليالي برد فاس

القارس، وأين المرح والدعابات وأحاديث الوسادة والفرح بالمولود الذي سموه عبد الحي؟

ولما قال لي شهود عيان إن والدي الحاج عبد الرفيع السّرّاجَ كان يركب بغلته كل صباح قبل أن يذهب إلى القيسارية ليركن البغلة في إسطبل مجاور، وفي بعض الأماسي التي يروق فيها الجو ذاهبا نحو وادي الجواهر أو وادي سبو يمرح بين الحقول أو كان يذهب في اتجاه غير معلوم، فقد بحثت عن المكان المحتمل الذي كان بجوار الدار، والذي هو ولا شك إسطبل لتلك البغلة. والإسطبل كان جزءا من الدار، له بابه البراني، كما للمصرية بابها البراني، إن كانت هناك مصرية، فيمكن أن أتصور أن الوالد كان زهوانيا يقيم في المصرية لبعض الوقت ليشرب كأسا أو يلتقي مع امرأة، وكحال الأندلسيين فلقاؤه بتلك المرأة ما كان إلا لكي يزيد من تأجج حبه لامرأته التي كانت هي أمي. قيل اسمها شرفة، لالة شرفة، وما كنت أقيم أية مقارنة بينها وبين لالة الطام، التي أصبحت أمي، ولكن لا أدري لماذا تصورتها بلهاء، يكثر عنها الكلام الذي لا معنى له، فهي بنانية كما قيل، وآل بناني رجالهم كالنساء، ونساؤهم كالزلق في اليد تشتد رخاوته حتى إنك لا تمسك على شيء ولا تسمع كلاما كالكلام. ولكن هي أمي رحمة الله عليها، وأخوالي ما عرفتهم بقدر ما عرفت القليل عن أعمامي. ولالة شرفة البنانية لم تلد ولدا أو بنتا غيري، ثم ماتت تحت الردم، ولا أدري ما كانت تقول وهي ترى السقف يَنْهَدُّ فوق رأسها وفوق مهد الصبي أو أنها لم تدرك وقت أن تقول شيئا، وماتت.

أنا أمام خراب، وحتى الردم أخرج ليلقى به في واد الزحون، وربما أخرج معه ذلك المهد الذي كنت أنام فيه، وأخرجت معه أشياء تكسرت، أو فقدت قيمتها، صحون عليها نقوش بديعة أو كراس مرصعة بالعاج أو مرايا من البلور، وأما ما بقي سالما فلاشك أن النهابين قد نهبوه.

وقيل لي إن من يموتون تحت الردم، أو بالحرق أو بالغرق، هم شهداء عند الله، وقيل أن يضاف إلى الردم و الهدم والغرق، المخزن، فيصبح رابع الشهداء هو من مات على يد المخزن. وهذه القصص لا تهم إلا قليلا أو كثيرا ما يمكن أن يتبين بين الضوء والظلام، ضوئكم أنتم وظلامكم، وأما أنا فصبرا علي، وسيتبين لكم حال من أحوالي، وليس كل الأحوال على كل حال، وأما الأحوال التي لم تتبين لي فلن تتبين لكم، إلا إذا ما كنتم قد ذهبتم في طريق هو غير هذا الطريق.

رأيت الظلام تحت الأنقاض و البيت يَنْهَدُّ عاليه عن سافله ولكني كأني ما رأيت، فلربما كنت في مهد أو أحبو في باحة الدار.

رأيت الظلام كله، ظلام فاس وأندلس وهو يتلاشى رويدا رويدا، والصوامع كلها، والأرض التي كانت تخب عليها حوافر تلك الخيل سالكة كل مسلك لتصل إلى البحر وتعبر البوغاز نحو أرض كأنها النجاة، وما بقي في عيني شيء سوى النعاس والطرب والقصيدة وترف العين وانتصارات الملوك وهزائمهم وسيوف تحمل رايات رسم عليها الصليب تجتاح الأرض كلها وتخرج الناس من بيوتهم وتجعل من المساجد كنائس و في ذلك النعاس الجميل رأيت و سمعت كل ما رأيت وسمعت.

الآن تصبح هذه التفاصيل أقرب إلى أن تقع في مخبأ تاريخي خفي عن الرؤية وما زالت تفوح منه رائحة جثث الذين ماتوا في الطريق قد أن يصلوا إلى القصر الكبير أو تطوان، ولكن الدار الفاسية تهدمت و أنا كنت ناسيا كل التواريخ محمولا فوق الماء أو سائرا في الضباب لكي أحيا و يموت والدي الحاج عبد الرفيع و تموت أمي لالة شرفة البنانية.

هل أنا أسترجع تاريخ ولادتي المقرون بحادثة الردم أم أنا أسترجع تاريخ فاس وأندلس وشام ؟

لا يفيد ذلك في شيء.

الجبلان أمام ناظري والشمس تشرق أو تغيب والقمر لا يتجلى ضوءه ولست ملولا فلي من الوقت ما أمضيه في المسافات أراهن على المستحل وأشرب كأس الدهشة وأقلب الموازين وأغير اتجاهات الريح.

فأنا من يركب ظهور الجبال ومن يزيح الشمس عن أماكن المغيب ومن يضاهي الأشياء التي لا تضاهى.

أنا صاحب الشطحات.

أنا الضوء في عيون العميان .

وأنا الأعمى الأندلسي، الأبرص الهارب من البرصان،

صريع الغواني، المغني ومراود الكأس في شعشعتها.

النائم القائم بعد النومة لتكليم الحيتان في قيعان البحار والقبض على حيات الصحاري لتدجينها.

الساهر مع الأفلاك والنجوم أنا الصعود والهبوط.

السهران على فتيل فانوس يمكن أن يتبدد حتى يعم الظلام ليلحق به الضوء.

لا شيء يجمع بين ما تفرق من كائنات المستحيل. لا ذهاب للكائن إلى غير ما جاء به الكائن. فما الخواسف والعواصف والنجوم التي تتهاوى غير براقع للفواجع، وما اندحارات الكائن سوى أبراج لصعوده المحتمل إن هو كان قد عرف طريقه إلى الصعود.

ولن نجمع ما كان قد تفرق في لحظات قليلة، وبهذه البساطة كلها، فالرياح لم تتحرك في هذه الليلة، والضباع والخنازيرالبرية قد راوحت مكانها في المخابئ فما تجلى لي شيء في الظلام، ولا يمكن يا أصحابي أن أكون الأعمى أو يكون العالم بكل هذا العمى فلاشك أن شيئا من العمى يحل بي أو بهذا العالم، فإن كان العمى قد حل بي فأنا أعرف الطريق قبل أن أراه، وإن

كان العمى قد حل بالعالم فأنتم العميان، ولا دليل لأعمى يرشد به العميان. فكيف نجمع ما تفرق بيننا وأنا في عزلتي هـذه أستجير بالرياح التي بدأت في هذه الليلة، خفيفة ثم عاصفة ثم مُعْصِرةً حتى أطارتني وخلت أني أنا الذي أطيرها فطرنا معا وأنا الوسنان وهي تلك الرياح الصرصر العاتية، ولا أحد منا رغب في أن يخفض الآخر وقد رفعه نحو مرتفع، ولا أحد منـا رأى الآخر، أو تشممه أو أحس به بحس من أحاسيسه، فهل كانت تلك الريح امرأة من سبع نساء عرفتهن، أم كنت أنا في ويلاتي ودركي الأسفل أقـاوم هُوجَ الرياح وأنواء الأعاصير، وأنتم يا أصحاب تبرحون مضاجعكم لتقفوا على الشرفات تتفرجون على انخفاض وصعود الريح، ريحي أنا وريح نسائي.

وهذا هو البحران، فأنا في الجبل أو في الصحراء أو فيما فوق أو تحت الماء، أمسك بظلام عيني وأهديه للظلام، منتظرا حدا للمراوغة بيني وبين ليلة ظلماء لم يَتَـوّجْ فيها القمر ولا تلألأت في سمائها النجوم، وها أنا أنتظر.

كلام الموتى

لم يكن عبد الحي وحده هو الذي يحكي حكايته بل كان كل الناس يحكونها في عقبة الزرقاء وباب الخوخة والبطحاء وفي مقاهي باب بوجلود حيث تشتعل جمرة الكيف وتحمر العيون وتبدأ الثرثرة التي تقود إلى عبد الحي السراج، عبد الحي الخياط، أو عبد الحي الأبرص، أو الخياط الأبرص، كما كانوا يسمونه. وما كان له مع جرائم قد يكون هو مرتكبها، أو فخاخ للسياسة ربما وقع فيها، وما جرى له مع النساء. هو وحده خياط وأبرص، قارئ وليس بقارئ، فقد درس في ثانوية مولاي إدريس ولم يحصل على البكالوريا وكان خلال دراسته قد أتقن الخياطة في محل متبنيه سيد الحبيب الذي كان خياطا، ومع حميد في نفس المحل. فاسي أندلسي الأصل تربى في أحضان شملت فاس والصحراء، ولم يدر أهو كائن إلا في فاس التي فيها المولد والمحتد وإن لم يذم نقاء الصحراء الذي هو نقاء سيد الحبيب القادم إلى فاس من قصر السوق، حاميه وراعيه.

اللغز يجب أن يحل. الخياط الأبرص صار له محل للخياطة في الطالعة الصغيرة وزبائنه من المعلمين وصغار الموظفين، لكنه كان يحتك في المحل بأناس غامضين، لا يدري عنهم أحد من أين كانوا يأتون، وأحاديثهم كانت غامضة كما كشف عنها الصناع. وبخلاف ما كان يعرفه محل الخياطة الذي كان يديره سيد الحبيب، من نقاشات وطنية، واحتفالات بعيد العرش، فقد أصبح التشكيك في استمرار الملكية في المغرب حديثا يخوض فيه الخياط الأبرص مع زمرة من الطلبة يجالسونه في المحل وهم غالبا ما يلتقون في أماكن أخرى

ليزيحوا الغموض عن تلك الأحاديث التي كانت تدور بينهم، وربما كانوا من الماركسيين.

لكن اللغز يجب أن يحل.

في لحظة واحدة صار وسنان هو عبد الحي، أو صار عبد الحي هو وسنان.

هما رجلان ولكن كيف صار كل واحد منهما هو الآخر، أو كيف صارا معا رجلا واحدا وهما معروفان عند الناس كل واحد منهما بصفاته؟

عبد الحي هو الخياط الأبرص ومحل الخياطة الذي يعمل فيه معروف. ووسنان هو صاحب الخرقة الصوفية التي يرتديها على اللحم والدراجة النارية التي تحيط بها القوارير الزجاجية الكبيرة التي تمتلئ بعشرين لتر من ماء سيدي احرازم، تكون من حول الدراجة فارغة أو ممتلئة، وهو ذاهب لملئها أو عائد بها من سيدي احرازم ممتلئة، وحتى وبعد أن ظهرت العلب البلاستيكية التي تباع في كل الحوانيت فوسنان لم يكف عن عمله اليومي، لأن مرسليه لإحضار الماء المعدني أخذوا يتشككون في مياه تلك القوارير البلاستيكية، وهم يحبون أن يشربوا الماء المعدني وقد أحضره وسنان ساخنا من الحامة.

وسنان. يأكل الخبز والزيتون وينام في مسجد باب بوجلود على حصير. لا يتكلم أبدا. يسلم القوارير لأصحابها ويأخذ عن ذلك ثمنا زهيدا يكفيه لملء خزان الدراجة النارية بالمزوط، كما يكفيه لطعامه وهو خبز وزيتون. في أيام الأعياد كان الناس يبحثون عنه ليقدموا له طعاما فلا يجدونه، وكان لا يقبل الصدقات، ولا يستحم، فلحيته غير حليقة وقد استرسلت، وربما كان لا يصلي حتى وهو ينام في المسجد، وقيل إنه كان يفعل كل شيء من غير أن يغتسل، وما استنكر أحد على إمام المسجد قبوله للمبيت في المسجد، فلربما كان عمله في سقاية الماء للناس من حامة سيدي احرازم، وصمته الدائم، وعدم إذايته

للناس، وعيشه خارج الباب، كلها أشياء جعلت الناس يتسامحون معه ويتركونه على حاله.

لكن كيف اختفى وسنان، واختفى عبد الحي معه في نفس اليوم؟ ابد لهذا اللغز من تفسير.

الكوميسارية قريبة من الباب والمقهى، وهي نفس الكوميسارية التي كان يعذب فيها الوطنيون أيام الاستعمار، وكانت تقف ببابها السيارات السوداء التي يركبها فرنسيون يتكلمون الدارجة المغربية مع ماسحي الأحذية والخارجين من السجون لاستعمالهم في التبليغ، وكان ناك من يحظى بثقتهم ولكنه يدخل الكوميسارية ويخرج منها عربة مليئة بالخضر التي تخفي تحتها مسدسات وقنابل ويعيدها للفدائيين. كانوا لصوصا أو مشردين، يعيشون خارج الباب ومن الباب نفسه يدخلون المدينة بحثا عن الأخبار، في عيونهم قلق بين بقاء الاستعمار وذهابه، وبين عيشهم في السجن وفي ساحة باب بوجلود التي تكثر فيها حركات نقل المسافرين القادمين إلى فاس والذاهبين منها إلى المدن والقرى، يحيون بين السرقة والسجن والكوميسارية، بين البوليس الفرنسي وبين الوطنيين.

الباب يتغير. وهو في كل يوم يتغير، لا يشعر أحد بتغيراته بين تاريخ وتاريخ، وبين زمان وآخر، وبين لحظة وأخرى.

الكوميسارية القديمة المعروفة في العهد الاستعماري هي نفسها، وبعد الاستقلال صارت مركزا للشرطة وهي ما تزال إلى اليوم وراء الباب، قرب فرن تركوه على حاله، وقد كان الناس يأتون للفرن بوصلات الخبز فيسمعون صرخات من كانوا يُعذبون بالجلد بسياط الجلد المفتولة والجلاد يغمسها في سطل الماء وقد احمرت عيناه، أو يعلقون في المعلاق من الأرجل ورؤوسهم إلى الأرض. كل الناس الذين أكلوا خبزهم من ذلك الفرن سمعوا أصوات

الوطنيين تئن من التعذيب كما سمعوا صرخات الجلادين، واستمر ذلك حتى جاء الاستقلال فتغير اسم المكان من الكوميسارية إلى مركز الشرطة، كما تحولت الحافلات التي كانت تقل الناس من باب بوجلود إلى الملاح ودار الدبيبغ إلى ساحة البطحاء، لكن مقاهي باب بوجلود لم تتغير، ولم يتغير أناسها حتى ونحن الآن في السبعينات.

كيف يمكن لوسنان أن يخدعنا، وللخياط الأبرص أن يمارس علينا الخديعة، فكلاهما اختفى وأصبح أمامنا شخص ثالث لما رأيناه يخرج من باب بوجلود يرتدي الخرقة فقد عرفناه وما عرفناه وقلنا هذا هو وسنان يرتدي خرقته ثم قلنا هذا هو عبد الحي الخياط والبرص باد على عنقه ووجهه؟

لم نعثر على الدراجة النارية وما عثرنا على عبد الحي في دكان الخياطة. فما الذي حدث؟

السر يجب أن يكشف، اليوم أو غدا. هل هو وسنان أم عبد الحي ؟

كانوا أربعة. شداد غلاظ تكشف زنودهم العارية عن قوة أجسادهم، يرتدون في الشتاء ملابس الصيف لتي تبدو مشتراة بأزهد الأثمان من الجوطية القريبة من المقهى، زنطار تظهر الوشوم على ذراعيه، والهيباوي غليظ الوجه مرسل الشعر، وبومرقة يستف الدخان من السيجارة التي لا تفارق إصبعيه، والساقوط حول عينيه كدمات زرقاء تشعر الرائي أنه قد خرج قبل يوم أو يومين من مبارزة.

نهض الساقوط من المقهى ومشى وراء الرجل حتى صار محاذيا له فنظر إلى وجهه وظن أنه هو لخياط الأبرص، فالرجل كان يحث خطاه كالهارب من الناس والمدينة، ولكن الساقوط كاد يوقن، ولو أيقن لكان في الأمر سر يجب أن يكشف، وكشفه يساوي أموالا أو وقفا لعقوبة يالسجن.

الساقوط لا يرى إلا اللكمة وهي تسدد إلى العين أو الأنف، وأحيانا وإذا ما اشتد به الأمر فهو لا يرى إلا طعنة السكين تخترق الأحشاء، ولذلك فقد أراد أن يمسك بصاحب الخرقة ويسأله من هو، وأن ينزعها عنه فيتركه عاريا أمام الخلق إن لم يقل من هو، لكنه لما اقتنع بأنه هو الخياط الأبرص، فقد ترك للبوليس ما يؤدي عليه ثمن التبليغ، وعاد يخبر جلساءه في المقهى بما تأكد له ولكنهم لم يصدقوه، وقالوا له أنت محشش وقد اختلطت عليك وجوه الناس وتشابهت، وقالوا لا يمكن، فكيف يترك الخياط دكان الخياطـــة ويذهب للعيش في المقابر؟ هل رأيت البرص على عنقه ووجهه؟ أنت محشش ولم تر شيئا. كيف يتخلى عن بذلته الرومية التي خاطها لنفسه من أرفع الثياب وعلى أحسن طراز ويلبس لباس الصوف الخشن؟ لعله واحد يشبهه علينا أن نبحث عن سره أو هو وسنان وسبحـــان من خلق من الشبه أربعين.

راقبوا دكان الخياطة لأيام ولما لم يظهر لهم فيه أثر للخياط الأبرص، وكان العمل جاريا في الدكان على عادته، فسألوا عنه الصناع فقال أحدهم المعلم مسافر. السي عبد الحي مسافر. وألحوا في السؤال عن جهة سفره فقال لهم أحد الصناع يمكن مشى لطنجة، أو الدار البيضا. رأينا ورقة السفر في القطار في يده ولكننا لم نعرف إلى أين. وما كان العمال يجيبون عن تلك الأسئلة إلا خوفا من بطش قتلة سفاحين، وإن استبد بهم الفضول عن سبب سؤال هؤلاء عن المعلم، ولم يستطع واحد منهم أن يسألهم لماذا يبحثون عنه.

زادت مراقبهم للدكان لأيام أخرى فلم يظهر أثر للمعلم، ولم يظهر أثر لوسنان، هو الذي مـــا كان يغيب يوما واحدا عن أنظارهم، يرتدي خرقة الصوف، ويركب دراجته النارية وينطلق بها حتى يثير الغبار حواليه، وينطلق نحو سيدي احرازم ليملأ من الماء المعدني كل القوارير الزجاجية الخضراء المسدودة الأفواه بسدادات الفلين، يضعها خلف الدراجة وحواليه، ويعود بأخف

من البرق، ليوزعها مليئة على أصحابها الذين يقدمون له زجاجات أخرى ضمانا لرحلته في الغد، و كان يقبض الثمن.

كيف اختفى إذن وسنان وعبد الحي الخياط في يوم واحد ؟

ماذا نفعل وهل تنطلي علينا هذه الأفاعيل؟ لسر يجب أن يكشف، وكشفه يعني الكثير. علينا إذن أن نتحرى وأن نستدرج الناس للكلام عن غياب وسنـــان وغياب الخياط الأبرص.

بدأت الحكايات تختلق في فاس، وخاصة بين الطالعة الصغيرة وباب بوجلود حول ما يمكن أن يكون قد أقدم عليه عبد الحي أو وسنان وهل في الأمر صدفة لغيابهما معا أم أن القضية سياسية وتعني سرا من الأسرار.

واكب البوليس هذا السؤال الذي كانوا قد بلغوا عنه، ولم يتسرعوا في تعقب صاحب الخرقة وتقدير الاتجاه الذي كان قد ذهب إليه وتقدير سرعة مشيه على الأقدام لشن حملة تمشيط، فقد كانوا غير مطمئنين إلى وجود سر وراء ترهات يأتي بها عادة حشاشو المقهى ليستجدوا بها بعض المال أو ليجعلوا منها ذريعة لإطلاق سراح من قبض عليه من بينهم وقد ارتكب جريمة قبل أن يكتب له محضر و يحال على وكيل الملك، فهم هكذا دائما، يتظاهرون كمتعاونين، ولكنهم لا يتعاونون إلا على هجمات ليلية على المارة أو الدكاكين، لممارسة السرقة أو الاغتصاب. ولكن إذا كانت معلوماتهم صحيحة حول تورط الخياط في تنظيم سري، فإننا سنكتشف خلية قد تقودنا إلى التخطيط لمؤامرة على النظام.

بدأت الظنون تتجه نحو وسنان، الذي لم يعرف أحد فصله من أصله ولا يعقل أن يكون واحد لا يتوضأ ولا يصلي و ينام في المسجد ويعد من رجال الله، لعله كان طوال هذه السنوات يستغفلنا.

ربما كان وسنان واحدا من أبناء الريف الذين وإن كانوا قد سلموا أسلحتهم فقد ظلوا يحملون الضغينة بعد أن كان الجنود يبقرون بطون الحوامل و يغتصبون النساء ويقتلون الرضع. ولعله يخفي أسلحة في المسجد، يمكن، لكن حوادث الريف كانت قد وقعت في نهاية الخمسينات، ووسنان هنا في باب بوجلود ولا أحد يتذكر متى جاء، وهناك من يقول إنه لا يتكلم مع الناس لأنه لا يعرف العربية، وقد سمعوه في بعض المرات يقول كلاما بالريفية يعرف أن سامعيه لن يفهموا منه شيئا، ولا عجب، فقد كان يشم رائحة الكيف ويقترب، وهناك من يقول إنه كان يختفي في المقابر أو في غابة الصفصاف في طريق سيدي احرازم اختفاء غامضا وباعثا على الريبة، وهذه الأمور لا تهم، لكن تمرد سكان الريف عن النظام ما كان ليجعل الجنرال أوفقير يتفرج، فهو الذي أرسل الباطايون إلى الناضور لخوض حرب الريف الثانية مع الفلاكة، وهو من كان يرمي المتظاهرين بالرشاش من فوق المصفحة في شوارع الدار البيضاء فيما بعد، وهذه تواريخ مضت، فما علاقتها بوسنان السقاء أو بعبد الحي السراج الخياط الأبرص؟

وسنان قد يكون ريفيا ولكن عبد الحي فاسي أندلسي وأهل فاس كلهم كانوا مع حزب الاستقلال أو مع حزب الشورى والحرب بين الحزبين لم تهدأ إلا مع ظهور وضع جديد تجاوزها وأدى إلى ظهور مناخ سياسي أصبحت فيه المؤسسة الملكية موضع سؤال، وحيث عارضها اليسار بالاختيار الثوري كما ظهرت أحزاب أخرى إصلاحية تؤمن بالاندماج الكامل في منظومة النظام الملكي على ما هي عليه.

في هذه الوضعية، ومع تطوراتها، يمكن أن يوجد خياط أبرص، له علاقة بتنظيمات يسارية تجد دعمها من الخارج، كما يمكن أن يوجد سقاء ماء

مختف وراء الخرقة الصوفية له ثأر قديم من حرب الريف الثانية، وكلاهما خطر على البلد، فوجب توسيع دائرة التحقيق.

جاءت التعليمات بالاستعلام عن الرجلين، وحياتهما لحظة بلحظة، وتم استنطاق الصناع في محل خياطة عبد الحي، كما تجرع شاربو الماء المعدني من تلك القوارير الخضراء سم الأسئلة وواجهوا صلف محققين هم أنفسهم الذين كانوا يحققون مع الوطنيين في أيام الاستعمار.

قال زنطار القضية ليست فيه سياسة ولا ريح.عبد الحي قتل امرأة وتنكر على تلك الحال في خرقة الصوفي حتى لا يصل إليه البوليس. وبدأ يتقمص شخصية الكوميسير، وقد لعب الكيف برأسه، واتقدت عيناه كجمرتين، فنسي كأس الشاي الذي برد وهو لم يرشف منه في خضم الكلام.

وقال الهيباوي والسلاح الذي اقتحم البوليس المسجد للبحث عنه، هل وجدوه؟

قال بومرقة يمكن، يمكن أن يكون وسنان هو الذي قتل تلك المرأة، ويمكن أن نصحو ذات يوم على انقلاب فاشل كذلك الانقلاب السابق، ليقبض على الخياط الأبرص ويعدم بالرصاص. الحق مع السي إدريس البصري وعاش جلالة الملك .

ضحك الساقوط وقال الأمر في غاية البساطة، فوسنان هو عبد الحي، وعبد الحي هو وسنان.

قالوا له أنت محشش ونزعوا منه مطوي الكيف والسبسي فاحمرت عيناه وحاول أن يهدأ ثم أخرج سكينه وأظهرها أمامهم فأعادوا له مطوي الكيف والسبسي، فقال سئمنا من جرائم السرقة والسكر والاعتداء، وها نحن نلعب في السياسة.

وقال الساقوط ما لكم ومال السياسة؟ لن يصبح أحدكم حتى مجرد منظف لميضأة يدخلها البوالون والخرائون ليلقوا في صحن التبرعات درهما ويطلبوا فوطة يمسحون بها أيديهم وهو يغسل في المراحيض بولهم وخراءهم. اليوم أصبحت المراحيض نفسها برخصة من البلديـــة، والبركاكة شاطوا على البلد حتى أصبح كل الناس بركاكين. أنت تبركك علي وأنا أبركك عليك. مسألة معروفة، و كل تبريكة لها ثمن، ولكن هاد عبد الحي كله سوقه خاوي، ووسنان مشى للريف والسلام، دائما كان يغيب من وقت لآخر، ولا أحد كان يسأل أين كان يذهب، وطبعا، فقد كان يذهب بدراجته النارية، فلماذا أنتم تبحثون عنها الآن، وكأنها جثته ؟

ثم إن بومرقة كان قد جلس صامتا يدخن سبسيه وينظر إلى الفراغ، ثم قال هذا هو المغرب، مغرب أي مغرب ؟

كانت كؤوس الشاي التي وضعت على الطاولة عبقة برائحة نعناع الجنانات هي التي أخرست كل ذلك الكلام، وكان من طلبها من النادل رجل طويل عريض لم يسبق لهم أن رأوه من قبل، ثيابه نظيفة وقصة شعره تتراقص على الجبين.أخذ كرسيا وجلس فظلوا ينظرون إليه. قال لهم:

ـــ أين هو وسنان ؟

قالوا له:

ـــ و من أنت ؟

قال:

ـــ والخياط أين هو؟

عادوا يسألونه:

ـــ قل لنا من أنت.

قال:

ـــ اشربوا الشاي وأجيبوني أينهما ؟

ملأ أحدهم شقف السبسي بالكيف فأشعله وقدمه إليه. صرف السبسي بحركة من يده و قال:

ـــ نتكلم هنا أو في مكان آخر؟

قال زنطار:

ـــ عن أي شيء سنتكلم؟

وقال الساقوط:

ـــ نحن لا نتكلم مع من لا نعرفه.

قال الرجل:

ـــ لكنكم تعرفون وسنان، و تعرفون الخياط الأبرص.

قال بومرقة:

ـــ ماذا تريد أن تعرف عنهما ؟

قال الرجل:

ـــ أريد أن أعرف أينهما الآن، في هذه اللحظة بالذات.

قال الهيباوي:

ـــ الخياط هو الذي لبس الخرقة، وهو الآن في المقبرة، وأما وسنان فلعله ذهب إلى الريف.

نهض الرجل و خصلة شعره تتراقص على جبينه وقال:

ـــ نا هو عبد الحي السراج، اشربوا الشاي وعودوا إلى أحاديثكم القديمة، فليس بيني وبينكم دم أو عداوة، وكل ما بيني وبينكم هو هذا الباب، وهو واحد من أبواب المدينة، يدخل منه من أراد ويخرج منه من أراد، فلا تبالغوا الكلام.

انصرف وتركهم ينظرون إلى بعضهم باندهاش. قال زنطار:

ـ لكنا حراس هذا الباب.

وقال بومرقة:

ـ الرجل جاء ليضحك علينا، فهو غير أبرص.

قال الهيباوي:

ـ ألم أقل لكم؟حتى البرص كان مجرد صباغة بيضاء يجعلها بقعا على عنقه.

المشهد الثاني:

وجوه الإنكار

لالة الطام

حادث الدراجة الهوائية كان وراء كل ما حدث، فلو أن سيد الحبيب في ذلك الصباح لم يركب دراجته لما كان قد حدث كل ما حدث، لو كان قد تركها في الدار وصعد إلى باب بوجلود ليمتطي الحافلة ويصعد إلى دار الدبيبغ لما كان قد حدث ما حدث، ولكنه جال بالدراجة عدة جولات وكان عرقان وقلبه يدق، فتوقف ند البقال وطلب زجاجة كوكا كولا باردة جدا فأخرجها البقال من الثلاجة وفتح سدادتها فتلقفها سيد الحبيب وجرعها دفعة واحدة فتوقف قلبه وسقط ميتا إلى جنب دراجته.

جاءوا به إلى الدار محمولا على الأكتاف.

ولولت لالة الطام ولطمت خديها وتهاوت على الأرض. أمسك بها حميد وعانقها وبكى معها وقال لها أنت امرأة خالي ولكنك ربيتني وأنا صغير، وإذا كان سيد الحبيب قد مات فكلنا سنموت، ومسح دموعها ثم أخذها إلى غرفة وأغلق عليهما الباب من الداخل.

فهمت أنهما يرتبان للجنازة، تأكد لي ذلك عندما خرج حميد من الغرفة وأخذ يتقبل التعازي ويصدر بعض الأوامر حول استخراج رخصة الدفن وشراء الكفن وحنوط الدفن واستدعاء الطلبة وتحضير عشاء الميت.

ما اصفر وجه لالة الطام بعد كل ذلك الاصفرار، هي التي كانت موردة الخدين رقيقة الحاجبين شفتاها رقيقتان مرسومتان بالعكر وعيناها كحيلتان، قصيرة القامة ولكنها متحفزة في مشيتها اعتداد، وهي على تَرَفُّعِهَا ونظرتها المتعالية تبدو مرحة في أغلب الأحوال، تضاحك الرجال والنساء من الجيران، وتتبرج في خروجها كاملة الزينة وقد كشفت عن وجهها في وقت كانت فيه

النساء ملثمات، وما كانت تكتفي بألوان الجلابيب وأشكال خياطتها بل كانت أيضا تلبس اللباس الرومي، وسيد الحبيب هو من كان يخيط لها ذلك اللباس ويملأ منها نظره وهي تقيسه بعد أن اكتملت خياطته، ويضاحكها ويقول لها ها أنت كأورباوية، فتتغنج ويعجبها حالها.

لكن صفرة وجهها في ذلك اليوم، وظهور الأسى على نظرتها، وميلها إلى الصمت والشرود، كل ذلك جعل منها امرأة أخرى.

ظلت تطوف بالغرف وهي لا تقترب من باب الغرفة التي أسجي فيها سيد الحبيب. لم تطفر من عينها دمعة وكانت تتجنب أن تتقابل عيناها مع عيني أحد، تتقبل العزاء صامتة وسرعان ما تنسحب من وجوه المعزين الذين تداولوا حكاية زجاجة الكوكاكولا الباردة كل واحد من جانبه، منتهين إلى أن ذلك كان سببا وأسباب الموت مقدرة عند الله.

وبعد ساعة ظهرت لالة الطام ترتدي لبياض، وقد زاد اصفرار وجهها، وغابت نظراتها الأسيانة وهي تطرق برأسها إلى الأرض متمتمة بكلمات مبهمة لم كن يسمعها أحد. وحال خروج الجنازة صعدت إلى سطح الدار تشيع سيد الحبيب بآخر نظرة وجثته مرفوعة على الأكتاف.

كان البيت قد امتلأ بالجيران وأصحاب سيد الحبيب وصناع محل الخياطة، وظلت قطط لالة الطام التي توارت خلف الأدراج تطل بنظراتها البريئة متسائلة عما حدث، بعد أن كان كل من يصادفها في طريقه يركلها بركلات توجعتها.

لم يذرف حميد دمعة واحدة على خاله. كان مضطربا كثير الحركة، يتقبل التعازي ساعيا نحو الاقتضاب في الكلام والانتقال من مهمة إلى أخرى متسرعا في إنجاز كل المهام.

وسط كل ذلك اللغط وإقبال جموع من المعزين لم يلتفت إليّ أحد. وكنت لا أعرف ما الذي سوف يحدث لي بعد موت سيد الحبيب الذي و أبي بالتبني.

لم أشاهد أي شيء مما حدث بعد ولادتي، وانهيار المنزل، فقد كنت صبيا ولكني سمعتهم يتحدثون أكثر من مرة عن تلطف سيد لحبيب مع أخوالي وأعمامي راغبا في أن يتبناني، سيما وأن لالة الطام لم تنجب له ما تقر به عيناه، والحكاية تكررت على مسامعي عدة مرات. كان سيد الحبيب عطوفا علي يطعمني من يده حتى وقد بلغت الثانية عشرة، ويأخذني معه كل ليلة خميس إلى الحمام فيغسل جسدي وينفحني كل جمعة بما أتصرف فيه من ريالات على حريتي، وكان يحرص على دراستي في إحدى المدارس الحرة ويدفع الأجر ويتصل بالمعلمين لاستخبارهم عن سير دراستي، يجلسني في حجره وقد كساني مما خاطه لي بيده من ثياب ويستغرق في النظر إلى وجهي ثم يقبل خدي وينفحني ببعض الريالات، وكان أصحابه يستدرجهم الفضول إلى أسئلة عن والدي ووالدتي وحادثة انهيار المنزل. يسأله أحدهم:

ـــ هل أشهدت العدول على تبنيه ؟

ويقول آخر:

ـــ الأجر لله. في سبيل الله، ولكن ...

فتغيم عيناه ولا يرد إلا بكلام حاسم:

ـــ هذا ولدي عبد الحي أمام الله والعباد، وأبوه الله يرحمه، والكلام الزائد لا فائدة فيه.

كنا نخرج في مساءات الجمعة إلى باب الساكمة لسماع نتف من الأزلية والعنترية وسيرة الزير سالم في الحلاقي ونصعد راجلين من هناك إلى دار الدبيبغ فيشتري لي لعبة أفرح بها وكيسا من الحلويات تلقطها الشابة الفرنسية الباهرة الجمال بملقاط ويدها مغشاة بقفاز من البلاستيك الشفاف فتضعها في

كيس الورق قبل أن تضعها في الميزان، ويزيدني على ذلك لوحا من الشوكولاط، ثم يأخذني معه إلى مقهى لارونيسانس ليطلب لي كوبا من الحليب ولنفسه قهوة إكسبريس، ويوصيني خلال جلسة المقهى بألا أنام قبل أن أراجع الدروس وأحفظ سور القرآن الكريم وأحل بعض المسائل، وقبل أن أتعشى من الحريرة والكفتة المشوية على موقد الفحم كما ستعد ذلك لالة الطام.

من فرط حدبه علي فقد رأيت فيه والدي، ولكني صنعت صورة للحاج عبد لرفيع السراج اجر الحرير في القيسارية من خلال حكايات متفرقة كان أعمامي وأخوالي في لقاءاتهم العابرة معي يسردونها، مؤكدين لي أني ابن السراج وما ذلك الصحراوي سيد الحبيب إلا من يربيني بعد أن نزل قضاء الله.

ولم أكن أحس مع أعمامي وأخوالي بأية علاقة تربطني بالعائلة، فهم لم يسعوا لإحضاري إلى بيوتهم في بعض المناسبات إذا زوجوا بناتهم أو أقاموا حفلات عقيقة أو توفى منهم أحد فلا أدري بذلك إلا بعد حين. كانت لالة الطام هي التي تنبهني إلى ذلك فيزيد كلامها من جفائي لهم، لكني كنت ألتقي معهم في الطريق صدفة فلا يمنحونني سوى قليل من الكلمات أحسست بعد مضي وقت أنني لست في حاجة إليها فبدأ تبرمي من اللقاء بهم وكبر الجفاء. كنت أعرف أن من بينهم تجارا في القيسارية وسوق الذهب ومنهم علماء في القرويين ولهم بيوت نساء وأولاد وخدم، لكني لم أذق شيئا من طعـــام بيوتهم وبقيـــت أسمع أن خالي فعل كذا وكذا وأن عمي ذهب إلى الحج وأن أشياء كثيرة تحدث في العائلة الكبيرة، وكنت أسمع كل ذلك من أترابي في المدرسة أو من أصحاب سيد الحبيب المجتمعين معه في محل الخياطة وهم يشيرون إلي بالغمز:

ـ عمه عبد الحق تزوج امرأة أخرى.

ـ خاله سيد العابد بناني خلاوا فيه الفرنسيس قرطاسة وجايوه تم تم.

ـ عمه الحاج إدريس أصبح قريبا من القصر، وقد زوج ابنته لوزير، وهو بين فاس والرباط.

ـ خالته لالة فخيتة، مسكينة ماتت بالسل.

ـ ولد عمه الهادي رجع مدير اديال البانكا.

ـ واحد السراج ولد عمه مشى يقرا ففرنسا.

ـ عمه الحاج عبد الحق عاود تزوج امرا أخرى.

كان الحرج يبدو على سيدالحبيب فيبقى صامتا أو يحاول أن يغير الموضوع، وما كنت أحفل بهذه الأخبار، سوى أنني قد صادفت فتـــاة وأنا في الرابعة عشرة وكانت في الثامنة عشرة من عمرها، بنات البطحاء، بهية رائعة الجمال، فتفرستني وقالت لي:

ـ آجي أ الجن. واش عرفتي أنا بنت عمك ؟

نظرتُ إليها وهي ترفل في ثيابها وقد بدا عليها اكتمال الأنوثة وارتبكت، فقالت:

ـ ياكما اخذاك الصحراوي منا؟ الدم تيعرف دمه. أنا بنت السراج وأنتَ ولد عمي.

بقيت مبهوتا فقبلتني على خدي وقالت لي:

ـ شف. أنا شفيقة ابنة عمك عبد الحق، أدرس في ثانوية أم البنين. هل تعرف دارنا؟ تعال للغذاء معنا في يوم الأحد وسأراجع معك الدروس، وأقدمك إلى إخوتي، فهم أبناء عمك.

زكمتني رائحة عطرها الفواح وارتبكت فلم أدر ما أقول، لكنها قبلتني على خدي وتركت شيئا من عطرها على الخد وراحت. كانت تعرف ولاشك

أنني لا أعرف الحي الذي توجد فيه دارهم، فكيف آتي إليهم في يوم الأحد وأنا لا أعرف الدار؟ وهل كان سيد الحبيب سوف يقبل ذهابي إليهم؟ لاشك أنه كان لن يقبل خوفا من أن يفكر أعمامي في أخذي للعيش معهم، وحتى لو حدث فما كنت أنا سأقبل، فقد تعلقت به وأصبح هو أبي و هو كل شيء في دنياي.

وها قد مات.

كانت تلك المواجع تؤرقني. وكان سيد الحبيب يشعر بها. ففي محل الخياطة كنت أسمع كلاما آخر من أناس آخرين يعرفون والدتي لالة شرفة البنانية وأخوالي آل بناني ويتحدثون عنهم بما حدث لهم اليوم والبارحة.

أرقتني تلك المواجع وأنا صغير وجاءت إلى بلحظات الشرود في الفصل الدراسي فكنت منطويا ضعيف التحصيل أنفر من زملائي وأحب أن أبقى وحيدا في الساحة لا أختلط بباقي التلاميذ.

لم أدر ما الذي سوف يحدث لي بعد موت سيد الحبيب، ولقد انفطر قلبي دما، حزنا على فراقه، ولما أردت أن أخرج مع الجنازة منعتني لالة الطام بحركة من يدها ولم تقل شيئا. لم أشعر في يوم ما بأمومتها لي، فقد كانت شديدة الاعتداد بنفسها تقضي وقتها كله في الاعتناء بالقطط وفي المطبخ وصباغة أظافرها وجلوسها أمام المرآة، وما كانت تجافيني ولكنها ما عطفت علي، وبالرغم من أن الله لم يرزقها من حزامها ولدا أو بنتا فهي كانت تضحك من سيد الحبيب وهو يمشط شعري ويغير ثيابي ويراقب أدوات المدرسة في حقيبتي، وتقول له:

ــ الله يبقي الستر. ما صبتي شغل.

ويخزر نحوها فتكف عن سخريتها منه وتقول:

ــ قالوا زمان: الولد لمن ولده والعبد لمن شراه. وأنت بلا شقا عليك.

يقبل خدي ويقول لي:

ـ لا تسمع كلام هذه الهبلاء. أنت ولدي وحبيبي آ عبد الحي.

كان سيد الحبيب بسمرته الصحراوية وعينيه العمشاوين وانحسار الشعر عن جبهته بما يشبه الصلع، لا يكف عن تقطير بعض القطرات التي يأتي بها من الصيدلية في عينيه، ويقول أنا خياط والإبرة ما عاد يدخل الخيط في ثقبها حتى وقد اشتريت هذه النظارة من بائع للنظارات البصرية في الشرابليين، جرب لي عدة مقاسات حتى ظننت أنني قد ارتحت إلى إحداها فقال لي يمكنك بها أن تدخل الخيط في ثقب الإبرة وأن تقرأ كتاب الله العزيز وما تحب من الكتب، وقمنا أنا وإياه بالتجربة فأدخلت الخيط في ثقب الإبرة، وتبينت لي أحرف الكتاب واضحة، فقال لي وإن كان على النظر البعيد فأنا أعطيك نظارة أخرى تصلح للبعد، ولكني اكتفيت بتلك النظارة ودفعت له فيها أربعمائة ريال. لكن الوقت يمضي والكلل في نظري يزداد حتى صرت أتحرج من أن أطلب من أحد الصناع أن يضع لي الخيط في الإبرة، وما كنت أقرأه من (دليل الخيرات) و(الأربعين النووية) و(سيرة ابن هشام) تركته بسبب ضعف بصري، وحتى الإبرة تركتها وبـدأت في محل الخياطة أكتفي بالتفصيل وأترك للصناع الخياطة وإن كانت عيني على المكينات وفتح الجيوب وتلبيس ياقات الأعناق ووضع الأكمام على الأكتاف.

حميد ولد أخي هو الذي يفتح المحل ويتابع عمل الصناع وأنا أعرض على الزبناء الأثواب من دوبل ليس وفلانيل وتيركال، ومن صوف إنجليزي وأثـواب فرنسية، وأحدد سعر الثوب والخياطة، فإذا لم يعجب أحدهم ذلك أوجهه نحو القيسارية ليشتري ثوبه على قدر ذوقه واستطاعته ويأتي بالثوب لكي أفصله على مقاسه وأخيطه ليوم العيد الصغير أو العيد الكبير أو إذا ما كان له عرس سوف يحضره في الصيف أو في ليلة من ليالي الخميس.

كان الشغل كثيرا وحميد يساعدني وهو مطعوم مكسو وله أجر معلوم في كل أسبوع أدفع له منه ما يرضي به حاجاته وأحفظ له الباقي أوراقا من المائة ريال في غلاف باسمه أخفيته في مكان في الدار حتى لا تتكاثر علي مستحقاته، وإن مت والموت والحياة بيد الله أو أراد حميد أن يتـــزوج ويستقل عني بفتح حانوت للخياطة فله في ذلك المال الذي هو عرقه نصيب.

الدنيا لا تدوم لأحد، وولدي عبد الحي لن يعرفه أعمامه السرارجة بعد موتي وهو لا يحبهم، ولن يعرفه أخواله البتانيون بشيء، فلعله أن يتعلم ويتوظف، وإن كنت آتي به للمحل لتعلم الصنعة فذلك لأنه يؤنسني ويتعلم ما كان إن لم ينفع فهو لن يضر، وسيأتي يوم إن شاء الله أراه فيه موظفا في دار الضريبة أو في البوسطة أو في أحد الأبناك، والحمد لله هاهو تلميذ في ثانوية مولاي إدريس التي تخرج منها الوزراء والحكام، والله يعينه حتى أراه كما أحب، وأزوجه وأرى أولاده وبناته إن أطال الله العمر.

كان سيد الحبيب يقول هذا الكلام جهارا وعلى مسامعنا جميعا ثم يشير بيده إلى المكان الذي يخفي فيه وديعة حميد، فتغضب لالة الطام وتقول له:

ـ ويلي يا سيد الحبيب. يفدك من البهلان.

وبعد مدة من الصمت تقول:

ـ وهاد الولد فين هو الورث دياله؟ ياك الدار طاحت، وفاين هي حانوت الحرير فالقيسارية ؟ ياك مئة مرة قلت لك سر تكلم مع أعمامه.

يتبرم من الكلام و يقول:

ـ خلاص آ لالة الطام. صافي.

و تلح عليه:

ـ غدا سر عند أعمامه وشف معهم الورث وحق عبد الحي فحانوت القيسارية.

يسايرها و يقول:

ـــ إن شاء الله.

و تقول:

ـــ ربي يجعلك طويل العمر. ولكن أنا اشكون غدي يكون بيا بلا بيك ؟

فيرد عليها:

ـــ أنت في الدار ما غدي يخرجك منها حد، ورزقك يجيبه لك الله من الحانوت.

ولم ندر لماذا كانت وساوس الموت تتسلط على سيد الحبيب في ليلة الخميس بعد أن نكون قد عدنا من الحمام وقد حضرت لالة الطام ما كان قد جاء به من أكبـــاد الخراف مشرملة ومقلية أو كقطع للشّيّ وقد زندت النار في الموقد ونحن نحتسي الحريرة من الزلائف. ربما لأنه كان آخر يوم للعمل في أسبوع حافل بالكد ومراقبة الصناع واستقبال الزبناء لأخذ المقاسات أو لتسلُّم بذلاتهم، فكان سيد الحبيب بعد تلك التحميمة يتفرغ للتفكير فيما بعد دنياه، وقبل أن يستقبل يوم جمعة يستيقظ فيه باكرا ويصلي الصبح ويقرأ قليلا ثم يفطر بالخليع الذي فقس فيه البيض أو بالسفنج المطفي في العسل وأتاي ليرتدي جلبابه الأبيض ويضع الطربوش الأحمر على رأسه وهو يتهيأ لصلاة الجمعة مع المصلين في جامع القرويين، وإذا ما عاد من الصلاة يجد صحنا كبيرا من الكسكس مليئا بالخضر فوقه فروج بلدي تكون لالة الطام بخبرتها الفاسية في الطبخ قد حمَّرته بعد إنضاج، وإذا ما كان الكسكس مدفونا فهي تغطي بالسميد ما تحته من ملوج الغنم واللوز والكركاع ممزوجة ببصل معسل، فيأكل على مهل و يترك لنا أفضل ما في الصحن.

هي عفة نفسه ربما، ونقاوة سريرته، فقد كان يفكر في الموت كما يفكر في الحياة.

وحتى القطط التي كان يضايقه وجودها في البيت تحمل ذلك لأنه كان مصدر سعادة للالة الطام. قطط كانت تملأ الدار وتعيش بين الغرف والسطح والأدراج السطوان، تتناسل وتتوالد فيكثر عددها، ولالة الطام كانت تطعمها وتسميها بأسماء وتجلسها على حجرها ولا تقدم لنا الطعام إلا بعد أن تأكل القطط حتى لا تملأ علينا ما حول المائدة بالتزاحم والمواء.

وما كان حميد يذهب معه إلى الصلاة، وفي مرات قليلة أخذني معه لصلاة الجمعة ولما لاحظ تبرمي من ذلك لم يجبرني على مرافقته. كان يصلي الصلوات الخمس مقسطة بين الصباح والليل، وترد على لسانه بعض الآيات القرآنية وهو يستشهد بها على نازلة مع أصحابه في المحل، يحظى بتوقير الصناع والسماع لكلامه فكان يضاحكهم أحيانا لكي لا يشتغلوا في صمت فتنقبض نفوسهم.

لم أر لالة الطام تصلي مرة واحدة، فقد كانت تخرج وقتما تشاء بكامل زينتها وهو لم يتدخل في شؤونها في يوم من الأيام، لكني كنت أخجل من ممازحاتها وغمزاتها وهي ترافقني معها إلى من يخيط لها جلابيبها وقفاطينـــها ومنصورياتها وهي تقترب منه وهو يمد عنقه نحو خدها كأنه سوف يقبلها، وكان يصيبني الحياء والارتباك فأخفض طرفي، وكذلك كان حينما كانت تمر على سوق الذهب فتجرب وضع عدة خواتم في إصبعها ولما تختار الخاتم الذي تريد تضاحك البائع لبعض الوقت وتتغنج له وتعطيه نعت زوجها وصفاته ويقول لها إن لديه جنانا فيه من التفاح والإجاص وهو مكانه للخلوة فتسأله عن مكان الجنان وساعة يكون فيه فتأخذ الخاتم ولا تدفع الثمن وتبدو في الطريق فرحة بما في أصابعها وقد زادت خاتما على تلك الخواتم.

وكانت في جلساتها مع بعض النساء تلمح إلى بعض الرجال، وأنا غرفة وأخرى أسمع ما يدور بينهن عن السحر والثقاف وعمل التطريفة إذا كانت

المرأة يصيب فرجها البلل، ويمتد الحديث إلى ذكر أسماء بعض الرجال وأسمعها تمتدح خصال بعضهم وتصف الطولة والتجريدة والعينين والحاجب واللباس فأشعر بالغم ويصيبني الشرود، أتذكر يوم عدت إلى الدار فبقيت أطرق الباب وهي لا تفتح لي وكنت مبتلا بالمط، وبعد حين فتحت لي الباب ولكن رجلا استبقني للخروج وهو يرتدي جلبابا من جلابيبها ويحمل في يده جلبابه الصوفي، التقت نظراتنا وأنا أتطلع إليه فانسل ماضيا مع ظلام الدرب، وبقيت واقفا فقالت لي:

ـ ادخل.

ودخلت متطلعا في وسط الدار. فقالــت:

ـ هذا واحد من ناسي، بلله المطر، وأنت رأيت. أعطيته جلبابي ليلبسه.

رأتني ساكتا ومذهولا فقالت:

ـ إياك أن تظن شيئا، فهو كأخي من الرضاع.

لم أبرح مكاني وبقيت أتحاشى النظر إليها و هي تركز نظراتها على ملامحي التي تغيرت، و قالت:

ـ شف آ عبد الحي. إياك أن تقول شيئا لسيد الحبيب أو لحميد. إياك. سأقطع لسانك.

وحبذا لو قطعت لساني وأراحتني من عذاب لم يفارقني لسنوات. وماذا كنت سأقول؟ ولم لا يكون الرجل من أقاربها كما قالت ؟ ولكنه لم يزرنا من قبل، ولا شك أن سيد الحبيب لا يعرفه.

في تلك الليلة لم أتعش، وكنت مكتئبا شاردا وسيد الحبيب يتساءل عما بي وهي تخزر نحوي كلما التقت نظراتنا، وفي الغد جاء زرزاي يطرق الباب ولم يكن في الدار سوانا أنا وهي فلما فتحت الباب قدم لي الجلباب وسلتين ظهر فيما بعد أن واحدا منهما مليء بالتوت والآخر بالبرقوق، فناديتها وأخذت

تلك الأشياء من زرزاي وهي فرحة، وفي الغذاء أعدت صحنا من التوت واليرقوق وقالت لسيد الحبيب:

ــ واحدة صاحبتي لزوجها جنان و قد أذاقتنا من الغلة .

فقال لها سيد الحبيب:

ــ اشكون هي؟

قالت:

ــ لالة شميسة، امراة سيد الغالي. رجلها فالمحكمة الابتدائية.ما تعرفهاش.

كان حميد يزم شفتيه ويخفض طرفه ويقبل على الطعام وكأنه يفترس فريسة، وسيد الحبيب يقول له:

ــ كل بالشوية.

وهي تقول له:

ــ خليه ياكل. بصحته وبراحته. الخير موجود الحمد لله.

وسيد الحبيب يرد عليها:

ــ ياكل، وبصحته وبراحته، ولكن بالشوية.

وحميد يبدو وكأنه لا يسمع ذلك الكلام، يبلع من غير مضغ، فلما وضعت صحن التوت والبرقوق تذوق منه سيد الحبيب وأطرى على حلاوة الفاكهة، عندما رآني لا آكل منها قلت له:

ــ لا يعجبني التوت والبرقوق.

فقالت لي وهي تضع توتة في فمي و تدفعها بعنف:

ــ كلها، والله حتى تاكل.

ومضغت تلك التوتة في فمي على مضض وقد طفرت الدموع في عيني فنهضت إلى بيت النظافة فبصقت ما في فمي ومضمضت بالماء. ولما عدت إلى المائدة قالت لي:

ـ إذا كنت لا تحب التوت فخذ هذه البرقوقة.

ولما توانيت في أخذها من يدها غضبت وقالت:

ـ ويلي. تقول فيها السم.

ولكن سيد الحبيب وحميد أقبلا على الفاكهة، وظلت في كل وجبة تضع على المائدة نفس الطبق، وهما يأكلان منه ويمتدحان حلاوة الفاكهة وهي تضحك تشكر صداقتها للالة شميسة.

في بعض الليالي كان حميد يعود متأخرا ويقول تعشى في الخارج، ولما كان ينام معي في نفس الغرفة فقد كنت أشم رائحة عبق النافع في الغرفة وأعرف أنه قــد شرب شرابا مسكرا، فأنام وأتفطن إلى أنه يقوم للمرحاض فأسمع أصوات تقيئه، وفي الغد يصبح ذابل الوجه منتكس النظرات، ومن سماعي للأحاديث التي كانت تجري بينه وبين الصناع في المحل، حالما يكون المعلم غائبا، فقد عرفت أنه يصعد إلى الملاح ويشرب الماحية ويمر على مواخير فاس الجديد وحي مولاي عبد الله ويأخذ الصف مع العسكر للصعود في ظلام الأدراج إلى ملاقاة امرأة لا يرى شيئا من ملامحها ولكنه يحتوي جسدها بعد أن يكون قد دفع ألف فرنك ثم يرتدي ملابسه وينزل الأدراج للاقتراب من حانة يشرب فيها ذلك الشراب الباعث على النسيان.

وما كان بيني وبينه كلام حالما نخلد إلى غرفة النوم لكنه كان لا يتحرج مني ساعة يتداول مثل ذلك الكلام مع الصناع في المحل، بل كان يصغي إلى تمثيليات بوشعيب البيضاوي وأمي الهرنونية من الراديو وفي الغد يقلد تلك الأصوات أمام الصناع إذا ما كان المعلم قد غاب عن المحل.

ولما كان الحديث في المحل يدور حول استقلال المغرب وجيش التحرير والمقاومة الوطنية ونشاط الفدائيين فقد كان لا يتكلم في محضر أولائك الزبناء من أصحاب المعلم، ولكنه بعد انسحابهم يقول هل من معول على المغرب بغير فرنسا ؟ لقد جاءتنا بالكهرباء والطرق والسيارات فما كنا ننتقل من إلى أخرى إلا عبر الدواب، والنزالات ماتزال موجودة يستريح فيها المسافرون من قضاء عدة أيام وليال بين فاس ومكناس، فما بالك بالوصول إلى مراكش أو إلى قصر السوق وورززات؟ وإذا ما ذهب النصارى فما الذي يمكن أن يقدمه لنا الاستقلال.

ويتصدى له واحد من الصناع فيقول إننا بلد حر ونحب الحرية، وفرنسا لها بلدها ونحن لنا بلدنا المغرب، والجنرال كيوم لا يمكن أن يحكم المغرب ولنا ملك شهم أبي، وارث للملك أبا عن جد، وهو صاحب الصولة والصولجان، وللشعب كلمة في حب الملك وحب الوطن، فلتخرج فرنسا من أرضنا كما خرجت من تونس وستخرج من الجزائر، وإلا فهي حرب دائرة، ويطلع صنايعي آخر الجماعة على بعض منشورات جيش التحرير وفي خاتمتها ختم بالطابع الأحمر، تردد أن لا وجود لفرنسا في أرض المغرب الحرة المستقلة، بأرواح الشهداء ونشاط المقاومين وثورة الملك والشعب.

كانت لالة الطام تعرف كل شيء عما يجري في المحل، وهي تخرج كما تحب وتذهب إلى القيسارية وسوق الذهب ولسانها لا يكف عن الكلام وعيناها غمازتان وهي في كامل زينتها مكشوفة الوجه. ولا يعرف أحد أين تعلمت النطق ببعض الكلمات الفرنسية وهي تبتسم مداراة للارتباك وتتدرب على استعمالها أمامنا من غير أن يكون للمناسبة ما يستدعي مثل ذلك الحديث، وبقدر ما كان حميد يبتهج لها فقد كنت أنا أخفض عيني إلى الأرض ولا أتجاوب مع نزواتها تلك.

ولما أخذت تحدثنا عن استقلال المغرب ما كان يصغي إليها أحد، لا أنا ولا حميد، لكننا لم نكن نعرف ما يدور برأسها، ومع مجيء الاستقلال بدأت تعلن أنها تريد أن تصبح موظفة، وكذلك كان، فقد توظفت في العمالة، وفي قسم السلاح والجوازات بالتحديد، ولا أحد يعرف ما هو مستواها من الشهادات والخبرة في التسيير الإداري، ولكنها تقول إن الإدارة تثق بها وهذا هو الرصيد الذي يخول لها أن تركب السيارات الفارهة وأن تحضر بعض العشاءات الرسمية وأن تساهم في تنظيم بعض الاجتماعات، وكانت ترتدي ثيابها الأوربية وتمشط شعرها أو تقصها في محلات الحلاقة الخاصة بالنساء التي كانت قد ظهرت لأول مرة، وتتعطر وتخرج.

لكنها مرة أخذت تتحدث عن المرحوم الذي كان وطنيا ومات في سبيل الوطن.

في البداية أخذت تتشكك في موته ثم صارت تؤكد أن أعوان الاستعمار قد وضعوا السم في زجاجة الكولا كولا، ثم ظهر لها أن تشكك في حكاية زجاجة الكوكاكولا أصلا، وتقول لقد عادوا به ميتا وقد خرج صحيحا وسليما فلاشك أنهم قد قتلوه. كان لا يقبل وجود الاستعمار ويستقبل الوطنيين في محل الخياطة وكانوا يشاورونه في تنظيم المظاهرات أو إعلان الإضراب، وكان يخفي الأسلحة في محل الخياطة وهي أسلحة الفدائيين، ولهذا قتلوه.

أخبرتنا بأنها تردد هذا الكلام في العمالة، أمام أناس كبار، كما أخذت تشهدني على أنني قد رأيت الأسلحة في محل الخياطة فلا أدري ما أقول وأنا لم أر أية أسلحة، فلا أعرف هل أكذبها أم أجاريها فيما تريد.

أصبح هذا هو حديث الصباح والمساء، فكنا نترك لها أن نثرثر بما يحلو لها ولم نعترض على كلامها الذي بدت مقتنعة به وهي تحاول أن تقنع به

رؤساءها وزملاءها في العمل في العمالة، وقد كانت تطلعنا على تلك الرسائل التي كان يوزعها جيش التحرير وهي مختومة بالختم الأحمر وتسألنا:

ــ إذا لم يكن المرحوم مع الفدائيين وجيش التحرير فمن أين جاءته هذه الرسائل؟

ثم حينما لا تجد الجواب من أحدنا تقول:

ــ ولماذا احتفظ بها مع أوراقه السرية ؟

يأخذ منها حميد تلك الأوراق ويطلع عليها ولا يدلي برأي، فتثور ثائرتها وتقول:

ــ أنت هذا حبيبك، وأنت هذا هو اللي رباك. ما حبيتيوهشي يكون وطني؟

وبعد صمت تقول وهي متحسرة:

ــ واش حسدتيوني على بطاقة المقاومة؟ يمكن ناخذ بها شي لاكَريمة.

أدخلت الهاتف إلى البيت، فأصبح لا يتوقف عن الرنين وهي تتأفف وتستقبل المكالمات بأدب جم ومراوغة في تلبية أي طلب. ثم تتأفف أمامنا من كثرة المكالمات وكثرة ما يطلبه الناس منها من.طلبات هي حاجاتهم التي يريدون أن تقضى لهم في العمالة.

لكن تلك الأشياء التي كنت ألاحظها في حياة المرحوم من مضاحكاتها لحميد وغمزها له واقترابها من ناظريه بعينيها وإمساكها لذراعه قد تجاوزت كل ذلك الحد بع أن مات المرحوم وصرنا نحن الثلاثة نقيم في البيت، فأخذت ألاحظ أن حميد كان يعد الدقائق والثواني ليتأكد من دخولي في النعاس، وهو يسألني هل نمت فما كنت أجيبه، بل كنت أصطنع انتظاما في تنفسي بما يشبه الشخير حتى أوهمه أنني قد نمت فأحِس بانسلاله من الفراش ومشيه على رؤوس أصابعه إلى حيث أسمع صوتا مكتوما لانفتاح غرفة نوم لالة،الطام،

متحسسا بمسامعي أصوات الهمس أصواتا أخرى شبقية كانت تهيج جسدي وأخيلتي فأبقى على ذلك الهيجان إلى حين أن أنام.

في الصباح أستيقظ وأجده في فراشه ولما ينهضْ أرى مظاهر السهر على وجهه كما كنت وبغير مرآة أرى مظاهر السهاد على وجهي.

ولم أدر هل أنا في أوهام أم أن حميد يغدر بخاله في امرأته حيا وميتــا، والمرأة هي بمثابة أم لي، فهل تصل النزوات بالإنسان إلى هذا الحد؟

كرهتهما وكرهت بقائي معهما في البيت ولكن لم يكن لي مكان أذهب إليه، وحتى في أوقات الطعام كانا يتضاحكان وهي تفضله بأفضل قطع اللحم بل وتطعمه بيدها في فمه وهو ينظر إلى نظراتي لذلك غير مبال بالمشاعر التي كنت أشعر بها وأنا أتخيل سيد الحبيب يبعث حيا ويرى ما أراه.

ما مرت شهور على موت سيد الحبيب حتى أعلنا زواجهما. وما تم الزواج باحتفال، ولكن في ليلة ذلك اليوم الذي كتبا فيه عقد الزواج اصطنعت زينتها وصفت مائدة من طعام وفير لم أجد رغبة للأكل منه، وكنت أحبس دموعي، وسرعان ما تواريت في غرفة النوم لأبكي بكاء أول وآخر العمر، وأنا أسمع ضحكاتهما.

لم يأت حميد للنوم معي في الغرفة فقد نام فراش خاله سيد الحبيب، ومع لالة الطام.

بعد مضي أيام أخذت أتأرق في الليالي، وفي النهارات أنظر إليهما خزرا وهما يتضاحكان وهي تطعمه بيدها في فمه.

وما مرت شهور حتى تغيرت العلاقة بينهما فصارت هي تتكلم وهو يسمع على مضض، وما عادت تطعمه بيدها في فمه، ولاحظت أن المودة قد تحولت إلى جفاء وأنه قد أخذ يبدو عديم الرضا بزواجه من لالة الطام.

كانت قد نسيت القطط، ومعظمها هاجر للعيش في سطوح المنازل المجاورة وفي الطرقات، ثم تخلت عنها جميعا وأبعدتها عن البيت.

ومرة سمعتها تقول له إن كان على الإنجاب فقد ظننت من حياتي مع خالك أنه عاقر، لكني تأكدت من العيش معك أنه ليس هو من كان عاقرا وإنما أنا، فلا تعد إلى موضوع الإنجاب واشغل نفسك بحانوت الخياطة. لا تتدخل بعد الآن في خروجي في أيام السبت والأحد أو تأخري في العودة إلى الدار في الليل. مرات قلت لك إن شغلي يفرض علي ذلك. وإذا كنت قد عودتك على الأطعمة في أيام سيد الحبيب فأنا اليوم موظفة ولك أن تأتي بخادمة تطبخ الطعام. إن لم يعجبك الحال فالباب أوسع من عرض أكتافك.

بدا غاضبا ولكن تحديها كان أكبر من غضبه، فصفق الباب وخرج.

ومرة قالت له عبد الحي أمانة في عنقي تركها المرحوم وقد فشل في الدراسة في ثانوية مولاي إدريس وتعلم شيئا من الخياطة فمصيره أن يكون خياطا مثلك، ولكن ليس في نفس المحل، فقد أوصى له المرحوم بمال معلوم يمكن أن نفتح له به محلا في مكان بعيد حتى لا ينافسك ولكن عليك أن تجلب له ماكينات الخياطة والصناع والزبائن حتى يبدأ.

وفي مرة أخرى قالت له سيكون من الأفضل أن أبيع هذه الدار القديمة وأشتري شقة في البطحاء، لأكون قريبة من مكان شغلي في العمالة، فهذه الدار هي إرثي من المرحوم وهو لم يخلف وارثا غيري. والمال الذي في الخزانة هو مالك وعرق أكتافك من أيام المرحوم، ومداخيل محل الخياطة أنت تتصرف فيها وحدك، فلا تنفق على الدار سوى ما لا يشبع النمل، شنتوفة داللحم وشي خضرة ما كاينة وشي ديسير ما كاين. المرحوم كانا نفاقا وكنت أنا جالسة في الدار أتفنن في الطبخ وهاك يا محمر وهاك يا مجمر، واليوم صرنا نأكل ولا نعرف يوم العيد من يوم القديد.

بدا غاضبا وقال لها:

ـ ندمت على هذا الزواج.

فقالت له:

ـ اسمع يا حميد، أنا لالة الطام. سر أو ابــق ولكن لن تذهب أو تبقى إلا بما يعجبني، فأنا المرأة التي تحكم فاس، أنا موظفة في العمالة، وأقل بوليسي يقدر يحط لك شي طرف ديال الحشيش ويصيفطك للزرداف تمشي مـــع الواد. ورد بالك.

بقي صامتا أمام تلك التحذيرات ولم يرد علي كلامها بالكلام، فحسبته هو الخاسر إن أقام مناحة وتحداها بالكلام، وما حسبت إلا أنني ذاهب من تلك الدار لا أدري إلى أين، وهل ستوفي لالة الطام بوعدها فتفتح لي حانوت خياطة بالمال الذي تركه لي سيد الحبيب؟ ما دفعني إلى هذا السؤال هو جفاء حميد معي في الأيام الأخيرة وتجاهله لأن يتقابل وجهي مع وجهه فبالأحرى أن يبادلني السلام أو يرد على كلامي.

ولكن، لو لم يقع حادث شربة الكوكاكولا وسيد الحبيب عرقان وقد قطع تلك المسافات من باب بوجلود إلى دار الدبيبغ لما كان قد وقع كل ذلك.

حادث موت سيد الحبيب بتوقفه عند البقال وهو عرقان ليشرب زجاجة كوكا كولا مثلجة غيَّر من حياتي، كما كان حادث انهيار منزل الوالدين قد غير من حياتي وساقني إلى سيد الحبيب ولالة الطام.

حسبتها قد ماتت، ولكن من تكون لها تلك الأرواح السبعة لا تموت.

ظهر عليها الاصفرار والنحول وكانت الحمى تأكل منها من حين لآخر وما عادت ركبتاها تقويان على حمل الجسد.

ارتخى خفناها وسقمت الطعام وظلت تشرب الماء بصعوبة، ولم يكن حميد يظهر الإشفاق عليها أو يتودد لها بكلمات وكان يُعِدُّ لنا الطعام أنا وإياه

ويعرض عليها شيئا منه فإن أعرضت عنه يتركها من غير إلحاح على أن تتناول من الطعام ما يقوي جسدها ويجعلها تقاوم المرض، فحسبته يتمنى موتها، ولما جاء من العمالة رجال ونساء لعيادتها فطلبوا من حميد نقلها إلى المستشفى بدا غير مبال، وكان قد غادر فراش الزوجية وعاد للنوم معي في الغرفة، فلاحظت أنه كان يعود في بعض الليالي متأخرا فكنت أشم رائحة أنفاسه وهو يغط في النوم وقد امتلأ فضاء الغرفة بتلك الرائحة نفسها، رائحة الناقع.

نقلوها إلى مستشفى كوكار الذي أصبح فيما بعد يسمى مستشفى ابن الخطيب، وقالوا لنا مصابة بالسل، وازدادت مخاوفي من أن تموت، فإن ماتت فلا بقاء لي مع حميد، وسأتشرد.

أخذنا نزورها أنا وحميد وهو لا يبادلني أي كلام في الطريق، فلما ندخل عليها أراه يضع ما في يده من فواكه ثم ينظر إليها ويشيح عنها بوجهه متفحصا بنظراته ما كان يملأ المائدة التي بجوارها من فواكه، وذات زيارة وجدنا على تلك المائدة ورودا فمالت برأسها تنظر نحونا وأشارت بسبابتها إلى البعيد وقالت:

ـ العامل أرسل إلي هذا الورد.

نظر حميد نحو لالة الطام وقال لها:

ـ لا باس عليك.

ونظر إلي يستحثني على الذهاب. خرجنا من المستشفى ونزلنا تلك الطريق الضيقة المتربة، المحاطة بالقبور من الجانبين، وحميد يحث الخطى وأنا أنظر إلى القبور تتشابك وقد تهدمت شواهدها ونما على حوافها الصبار.

استولت علي بعض الوساوس فأخذت أتصنت إلى جسدي مخافة أن أستشعر شيئا من الحمى أو ارتخاء الركبتين، كما أخذت أبصق من بصاقي

وأرقب هل فيه لوثة دم، ولم أسترح من كل تلك الهواجس حتى وقد ذهبنا أنا وحميد إلى مستشفى كوكار فعرينا صدرينا ووقفنا أمام حديدة باردة وقف من خلفها الممرض الذي صورتين أخرجهما من آلة التصوير وعرضهما على الطبيب الذي قرر أننا لسنا مصابين بشيء في الصدر. رغم ذلك لم أسترح من هواجسي، وبقيت موسوسا بكون الإصابة محتملة وفي أي وقت.

كنت أقضي النهار في خياطة الملابس في المحل، وغالبا ما كان حميد يغيب معظم الوقت فتأتي بعض النساء للسؤال عنه فيرد عليهن بعض الصناع بأنه قد ذهب لقضاء بعض الأغراض، وبعد ذهابهن تكثر الغمزات والضحكات بين الصناع وهم لا يحبون أن يصرحوا بشيء أمامي مخافة أن أبلغه بما يقولون. نسوة بعضهن بدينات وبعضهن نحيلات، متفاوتات الأعمار والجمال والتأنق وما يشير إليه مظهرهن من عز أو ضعة، يبدو عليهن الارتباك حال اكتشاف أنه غير موجود في المحل. وإذا ما كان موجودا وجاءت إحداهن فهو يغادر المحل ويقف معها عند ركن أو ناصية لوقت طويل، فكان من الصناع من يطل من باب المحل ليراقب ما يحدث بينهما ثم كان يعود ليقول لقد رآه يعطيها نقودا أو رآهما يتشاجران أو رأى الدمع ينهمر من عيني تلك المرأة، وإذا ما دار الحديث بينهم فأحدهم يقول:

ـ ذلك شأنه.

وآخر يقول:

ـ امرأته مريضة بالسل فماذا عليه أن يفعل ؟

وآخر يقول:

ـ ماذا لو أنفق رأس المال على النساء وعرضنا للبطالة ؟

وكنت ألزم الصمت ولا أشاركهم في الكلام ولكن أحدهم يبادرني بالسؤال:

ـ وأنت أليس لك رأي؟

فيرد عليه آخر:

ـ هو رأيه مع سيد الحبيب الله يرحمه.

ويسألني صاحب ذلك السؤال الأول:

ـ سمعنا أن سيد الحبيب قد أوصى لك بمال مما ترك.

فأقول:

ـ ربما، ولكن ماذا يهمك أنت من ذلك ؟

ويصخب الصناع ويقولون:

ـ تفتح محلا ونعمل معك فيه. هذا المحل مقبل على الإفلاس.

ولا أرد بشيء، فقد كان صغر سني لا يؤهلني لأن أصبح معلما في محل كما أنني تعلمت الخياطة ولم أتعلم التفصيل، وتفصيل الثياب هو المهمة التي يتفوق بها المعلم على الصناع، وقد كنت أرى المرحوم يبسط الأثواب على منضدة التفصيل ويحضر أنواع المسطرات ويحسب بعض الحسابات بالسنتيمتر وهو يخط بالطباشير على الثوب خطوطا للطول والعرض تتقاطع معها خطوط مائلة وأنصاف دوائر وزوايا حادة أو منفرجة وكان يصل بين تلك الخطوط بخطوط أخرى، وأحيانا كان يعيد الحساب وينفض عن الثوب بعض ما علق به من خطوط الطباشير ثم يعيد رسم الخطوط في أماكن قريبة السابقة أو تكاد تحاذيها، وهو مستغرق في عمله لا يحب أن يشغله عنه أحد بشيء، فإذا ما دخل زبون في تلك اللحظة فهو يترك خطوط الطباشير على الثوب وينصرف للزبون إلى أن يذهب فيعود إلى معاودة حساب المقاييس والنظر المستغرق بعينيه العمشاوين فيما كان قد فعل، وفي اللحظة المناسبة يمسك بالمقص ويقص الثوب، هو الذي كان يردد أبدا: ميات تخميمة وتخميمة ولا ضربة بالمقص. وكان إذا ظهر عليه ابتهاج يقول

هذا المثل جاء من حالنا نحن الخياطين، ولكنه صار يعني التفكير قبل الإقدام على الفعل في كل أمور الحياة من زواج وطلاق وبيع وشراء وسفر وكل ما يتعلق بأمور الحياة، وكنا نظنه يتفلسف، كما كنت أسأل نفسي هل خمم سيد الحبيب ولو نصف تخميمة عندما تزوج لالة الطام، ولكنه كان يبدو سعيدا بالحياة معها، فهما لم يتشاجرا في يوم من الأيام، ولذلك كنت أعتقد أنه بالفعل قد خمم مائة تخميمة وتخميمة قبل إقدامه على ذلك الزواج، دون أن يدري ما كانت تفعل في غيابه، ولو كان قد درى لما أكل من ذلك التوت والبرقوق وامتدح نضجهما وحلاوتهما. لكن هل خمم ربع تخميمة قبل أن يأتي على زجاجة الكوكاكولا وهو عرقان وعطشان وقد نزل عن الدراجة مستحثا البائع على أن تكون باردة، باردة جدا، فقدمها له مثلجة، فأفرغها في جوفه دفعة واحدة؟

ثم إن المعلم يتفوق على الصناع بأنه هو الذي يُجْري القياسات على الزبناء، في المقاس الأول وهو يصمم تشكيل الثوب المفصل على جسد الزبون بإبر كان يشكها في الثوب وهو يدرس منعطفات جسد الزبون أو ميلان أحد كتفيه على الكتف الآخر أو ما يجب أن يحذف أو يضاف للرقبة من ضيق أو اتساع فرقاب الناس السمينة لا تتساوى مع بعض أماكن الضمور كما أن طول البذلة على نسبيته هو من اختيار الزبون، وكذلك طول الأكمام، وكان سيد الحبيب يشبك الإبر في أماكن معينة ويخط بالطباشير في أماكن أخرى في ذلك الأخذ الأول للمقاسات. في المقاس الثاني يكون شيء من البذلة قد أنجز فصار الثوب مبطنا وقد ظهرت عليه الجيوب وبعض من ياقة العنق، وبعد ذلك القياس يعكف على رسم تخطيطات بالطباشير لأماكن الحذف أو الزيادة. وفي أخذ المقاس الثالث تظهر الأكمام على البذلة مشبوكة بالخيوط بغرز قابلة للفتق

بسهولة، وغالبا ما كان المعلم يفتق الغرز ويعيد خياطتها والبذلة على ظهر الزبون.

كان سيد الحبيب يمارس عمله ذات بشيء من الاعتداد بالنفس الذي يضاهيه اعتداد الزبون بنفسه وهو واقف أمام المعلم وأمام المرآة يتطلع إلى نفسه وإلى بذلته الجديدة وقد اقتربت من التمام والكمال.

وكنت أنا أسترق النظر إلى كل ذلك، فلم أدر وقتها أن الإنسان يتعلم الأشياء من النظر كما يكون بدء التعلم وقبل أن تظهر لديه استعدادات أخرى لممارسة بعض المهارات. وما دريت أنني سوف أتقمص في يوم من الأيام هذه الأدوار التي يلعبها المعلم مع الصناع والزبناء ومع الثوب وهو يقوم بتفصيله وقياسه إلى أجساد الزبناء، فقد كان سيد الحبيب يريدني أن أكون موظفا، ولكني رأيت حميد بعد موت المرحوم وهو يقوم بنفس ما كان يقوم به المعلم، ووجدت نفسي صانعا في محل الخياطة والمعلم هو حميد.

وكانت أحاديث الصناع وتعليقاتهم تجرحني وأنا أشعر أن سمعة بيت سيد الحبيب قد أصبحت سيئة فتأخذني المواجع ولا أفكر في مصيري وأنا أفكر في خجلي من الصناع، وكأني أنا من تسبب في هذه الفضائح، ولذلك بدأت أدخل بيوت الله وحرصت على الصلوات بل كنت أصلى متحررا من كل أوساخ هذا العالم باحثا عن نقاوة ممكنة في عالم مطلق تجردت له بكل جوارحي أدخل سجوفه وأقترب من وجه الخالق سبحانه وتعالى، وما كنت أصلى صلاة الواجب بل صلاة من يريد لحظة طهرانية لها أخذُها البعيد نحو ما لا نهايات المكان والزمان، فما كنت أعرف في أي مسجد أنا أصلى ولا في أي زمان أو مكان، بل كنت أجعل من الصلاة ذهابا روحانيا بعيدا أشعر فيه بنقاء الجسد ونقاء ما حول الجسد، ولكن الجسد كان يحب أن يقترب من دنسه بسبب الاحتلام أو مضاجعة نساء في الخيال كما كان لا يشعر بنقاوته

وقد تطهر بالطهور الأصغر أو الأكبر، وفي ذلك التخفف من الجسد بطهارته كان يحدث لي أن أعيش في الصلاة لحظات من الغياب والحضور تمتد بي إلى نسيان الذات وجعلها حركة اندفاع نحو رؤية الضوء، وحيث يغمر الضوء المكان فيصبح لا مكان.

بدأت أقترب من هذه التمرينات العجيبة في ترويض الحواس على أن تفتقد حِسِّيَّتَها لكي يصبح لها إحساس أعظم بجهة لا توجد في الجهات الست، وكان وجه الله قريبا وبعيدا وأنا من يقطع مسافات ذلك القرب والبعد بإجهاد النفس على تجلية أنوار ساطعة لا أدري هل كنت أراها في أعماق نفسي أم في أماكن صلاتي، إلى أن جـــاء يوم العلق.

وما اقتربت من حرام، ولكن جسدي كان في اختلاجات الأحلام يأتي إلى بقبل محمومة من شفاه العذارى وبعطاءات قد تصل إلى الإيلاج أو قد لا تصل، وبين هذا وذاك كنت أفيق مذعورا وقد انتقض وضوئي فأذهب إلى الحمام في الصباح وأنا أسترجع ما رأيت في المنام بين تلذذ وشعور بالإثم، أجدد وضوئي الأكبر، لكي أمارس ذلك الذهاب الروحي وتلك المجاهدات للجسد.

كنت أطهر العالمَ من دنسه بانتشاء بالصور. وكنت أسحب الملاءات إلى ما وراء الظل كي أتدثر ببرد قاس، أحسب الريح تأخذ تلك الملاءات نحو اتجاهات الريح وأنا ألثم وجه السماء. وكنت أطرف لحظة كي تبين لي بعض التواريخ المنسية من سيرة آدم. وقد أمسكت الشمس بيميني والقمر بيساري وما فرحت بابتهاج الوقت. فما مر يوم والكائن غير متردد بين دنس هذا العالم ونقاوته. لكني كنت أراود المستحيل.

خشيت أن تموت ولكنها لم تمت، بل شفيت من داء السل وعادت إلى الدار لتقضي فترة نقاهة تدفق علينا خلالها كثير من الزوار من الرجال

والنساء، ولقد عجبت كيف كان من النساء اللواتي جئن لزيارتها، من كن هن أنفسهن، من جئن إلى محل الخياطة باحثات عن حميد.

مرة جلست أمامنا وهي شاردة وقد دخل في عينيها الحول وأخذت تبتسم للفراغ. تجاهلها حميد ولكني خشيت عليها من الخبل أو ظننتها وقد صارت ممسوسة، فاقتربت منها فأبعدتني عنها بحركة عنيفة من يدها وظلت تنظر إلى الفراغ وأنا لا أعرف ما علي أن أفعل. صرختْ فيّ فجأة وقالت:

ـ أنت وحميد يجب أن تغادرا هذه الدار.

سمع حميد ما قالت فصار مهتاجا، وشتمها فجاءت إليه تريد أن تخنقه وقد غرزت أظافرها في عنقه، ودفعها عنه بيده وتهاوت على الأرض باكية وهي تنادي سيد الحبيب كي يهب من قبره ويأتي ليرى ما يفعل بها حميد. ظلت تصرخ وتولول، فدعاني حميد إلى مغادرة الدار معه. ولما كان ذلك قد حدث في إحدى غرف الفوقي وهبطنا الأدراج فقد أطلت علينا من الدربوز وقالت:

ـ لن تدخلا هذه الدار.

ذهبت إلى المحل ولا أدري أين ذهب حميد، وفي الليل عدت إلى الدار فما أرادت أن تفتح لي الباب حتى بعد طرق طويل.

لم أدر إلى أين سوف أذهب، وطفرت الدموع من عيني وأنا واقف عند الباب. بعد حين جاء حميد وعاود الطرق على الباب فلم تفتح لنا. كان مخمورا وأخذ يصيح:

ـ حلي الباب.

وسمعنا صوتها من الداخل:

ـ طلقني، وإلا فسترى ما سأفعل.

وبدأ تبادل الشتائم، وقال حميد ما كان يخفيه في صدره من كلام وجاء الجيران وما أراد حميد أن نغادر باب الدار وهو يردد على مسامعهم كلماته الجارحة وهم يهدئونه ويدعوننا للمبيت عندهم وفي الصباح تكون قد هدأت الخواطر، لكنه سحبني من يدي وعدنا إلى المحل فنمنا على الكراسي من غير عشاء.

وما أخذني النوم في تلك الليلة إلا مع أذان الفجر فأغفيت إغفاء خفيفا وعندما التفتُّ جهة الكرسي الذي نام عليه حميد لم أجده، ولما طلع النهار عاد وفي يده إسفنجات ساخنة قربها مني وقال لي:

ــ كل، فأنت قد بت بغير عشاء.

ولما رآني لا آكل، قال:

ــ أنت ولد خالي، وأنا لن أفرط فيك، فلا تحمل هما لما حدث.

لم أرد عليه، لكنه لما رأى الدموع تطفر من عيني، عاد يقول:

ــ ربما لن تعطيك المال الذي تركه لك سيد الحبيب، لكني لن أتخلى عنك، وسأرسلك إلى فرنسا لتحصل على دبلوم في الخياطة، وأفتح لك محلا، وهي محنة وستمر.

كنت أود أن أسأله هل سنظل نبيت في الدكان، ووددت أن أسأله هل سيطلقها أم أنه سوف يسعى للتصالح معها، لكني حفظت لساني خوفا من أن يظن أنني أتشفى بما حدث، فقد كنت أعرف أنه يدرك عدم رضاي على زواجه منها، بل وألمي وهما يفرحان بزواجهما، وما كنت أحسبه يفهم ذلك على وجهه وحيث لم أطق أن أراه يحل محل سيد الحبيب في فراشه، ولذلك صنت لساني عن أي كلام.

في الصباح جاء الصناع وقد تركزت نظراتهم على وجهينا المصفرين بعد قضاء الليلة بغير نوم، وتطلعوا إلى ما في عنق حميد من خدوش دامية،

وأخذوا يتبادلون نظرات الفضول، ثم فاجأتنا لالة الطام وهي تدخل المحل وقد وضعت جماع يديها على وركيها وبدأت الشتائم البذيئة تنصب من طرف لسانها وقد غابت عيناها ولعلها ما كانت تدري ما تقول، فحاول حميد أن يسحبها إلى خارج المحل ولكنها عادت تغرز أظافرها في عنقه وهو مستسلم أمام نظرات الصناع. ثم قالت:

ـ ستطلقني في هذا الصباح. رجلي ورجلك إلى العدول، أو إلى دار القاضي.

والتفتت نحوي وقالت:

ـ وهذا الولد فلوسه عندي، ياخذها ويدرق عليّ وجهه. نعطيها له قدام العـدول أو قدام القاضي.

كان هناك من أصحاب الحوانيت المجاورة وبعض المارة من تجمعوا عند باب المحل يقتحمونه بنظرات الفضول، وحاولت أن خرج من المحل، لكنها أمسكتني من ذراعي وقالت لي:

ـ تتفرج.

فعادت الدموع تطفر من عيني، وتقابلت نظراتنا فرأيت وحشا آدميا يطل من وراء نظراتها وأصابني الرعب.

تدخل الصناع لتهدئتها وقال لها أحدهم:

ـ ومالك آ امراة المعلم مع عبد الحي؟

قالت:

ـ ما هو ولدي ما هو من كبدي. أنا ربيته حتى كبر ها الفلوس اللي خلّا له المرحوم ويمشي فحاله.

وقال آخر:

ـ عمل لك شي حاجة ؟ ياك سكوتي وداخل سوق راسه.

قالت:

ـ وآش عنده ما يعمل؟ عمره ما حبني ما قبلني. دابا أنا فهاد الويل ماشي فيه.

وظلت تصر على الطلاق، فغادر حميد معها المحل وغاب عنا ولم يعد. بقيت أنام فيها على ذلك الكرسي نفسه والصناع يأتونني بالطعام فلا أجد له شهية، وأخذوا يتباطأون في العمل ولما يأتي الزبناء لا يجدون من يستقبلهم، وخلت أن حميد لن يعود إلى المحل، فقد مضت ثلاثة أيام على غيابه، وفي اليوم الرابع عاد محطم الجسد غائر العينين منكمش الثياب، ولما دخل المحل تحاشى نظرات الصناع ودعاني للخروج معه إلى خارج المحل فسرنا في الطريق إلى أن دعاني للجلوس في إحدى المقاهي ولما جلسنا أخذ يتحاشى نظراتي وقال:

ـ فلوسك ها هي معايا.

ولم أرد عليه فقال:

ـ أنت لم تبلغ سن البلوغ، وأنا توكلت عليك وأخذت منها الفلوس أمام القاضي.

جاء النادل وطلب لنا خبزا محشوا بالزبد والعسل وكأسين من الشاي. كانت شفتاه راجفتان وقد ذبلت عيناه وظهرت الزرقة على الأحداق. رشف من الشاي وأخذ يأكل من الخبز، وألح علي في أن آكل وأشرب الشاي فالدنيا لن تقوم لها قيامة اليوم أو غدا وما حدث كان مقدرا كما قال. بدت لي أطراف أصابعه ترتعش، وظل يتحاشى أن تلتقي نظراتنا فأرى ما يظهر على عينيه من تعب. وبعد أن شرب نصف كأس الشاي قال:

ـ طلقتها.

طفرت الدموع من عيني. وعاد يقول لي:

ــ أنت يا عبد الحي تعرف أن الحياة فيها كل شيء. الإنسان كما يتزوج يطلق، وكما يولد فهو يموت.

سكت لحظة وقال وهو يحدق في عيني:

ــ ولكن هل أنت حزين عليَّ أم عليها ؟

لم أرد عليه ولكني تذكرت أ ن الدموع التي تنهمر من عيني الآن هي نفس الدموع التي كانت قد انهمرت في يوم زواجهما، فماذا يريد حميد بهذا السؤال؟

قال:

ــ مليون د الفرنك كامل ما ناقصه حتى فرنك هو فلوسك.

ووضع يده في جيبه وأخرج لفافة أطلعني عليها ثم فتحها وسحب من بين الأوراق ورقة ألفي ريال وقال لي:

ــ خذ هذه، وسأضع لائحة توقع لي فيها على كل مبلغ أخذته. لكني لن أسمح لك بأن تسرف في الإنفاق على نفسك، لأن سيد الحبيب الله يرحمه أراد لك بهذه الفلوس أن تفتح محلا.

ولم أمد يدي لأخذ الورقة المالية فوضعها في جيبي وقال:

ــ هل ستظل تنام في المحل ؟ وماذا لو غبت أنا واحتجت أنت إلى الطعام؟

نهضنا من المقهى وفارقني في منتصف الطريق، فعدت إلى المحل. وبمجرد دخولي أحاط بي الصناع وأخذوا يسألونني:

ــ طلقها؟

وبعد إلحاحهم قلت:

ــ هكذا قال.

قال حسن:

ـــ وإذن فهي ستتزوج وهو سيتزوج، وستبقى أنت لا حنين لا رحيم.

وقال مولاي المهدي:

ـــ وفلوسك بقت عندها؟

قلت:

ـــ أخذها حميد.

وأخذوا يتجادلون حول ما يمكن أن يفعله حميد بالفلوس، هل سيحتفظ بها لي أم أنه سيبددها في لياليه وسهراته مع النساء، ولربما سيتزوج ولن تقبل زوجته أن أقيم معهما في الدار، وطال جدالهم وقد توقفوا عن العمل وأخذوا يتخيلون كل ما سيحدث وكأنه يحدث أمامنا الآن، كل بطريقته، وكان مولاي المهدي هو الوحيد من بين الصناع الأربعة الذي ظل يصر على أن حميد وإن كان يفعل بنفسه ما يفعل فهو لن يتنكر للمال الذي تركه لي سيد الحبيب، ثم اتجهوا نحوي وحاصروني بالأسئلة، فاضطررت إلى أن أخبرهم بورقة الألفي ريال التي أعطاني إياها حميد، فلم يصدقوا ذلك إلا بعد أن أخرجتها من جيبي وأظهرتها لهم، وساعتها تدخل مولاي المهدي وقال لي:

ـــ لن تظل تنام على كرسي في هذا المحل. سوف تسكن معنا في الدار.

كنت أعرف أنه يسكن في دار توجد في قاع درب مظلمة وأنه يقيم في غرفة واحدة هو وزوجته وأمه وثلاثة من أبنائه، ولما رأى الفضول في عيون الصناع قال:

ـــ معنا في الدار غرفة فارغة في السفلي. يكتريها ويجد مكانا يقيم فيه.

تداولوا الموضوع وطلبوا موافقتي. لم يكن لدي خيار، وقال لي مولاي المهدي:

ـــ تعال معي.

ترافقنا إلى تلك الدرب المظلمة وكان باب الدار مفتوحا فدخلنا ووقفنا في وسط الدار ونادي على الهاشمية حتى هبطت من الأدراج فشرح لها المراد. تفحصتني بنظراتها ثم فتحت لنا الغرفة وقالت:

ـ أربعمائة ريال.

رأتني أتطلع إلى السقف العالي والحيطان التي علتها البرودة فقالت:

ـ خالص ثمن الضو .

قال لي مولاي المهدي:

ـ أعطها ثمن شهر مسبق.

فاعترضت وقالت:

ـ شهرين.

ومـــع إصرارها فقد قدمت لها ورقة الألفي ريال فأخذتها وأخرجت من تكة سروالها العريض لفافة فتحتها ووضعت فيها الورقة ثم أخرجت منها أوراقا أخرى قدمتها لي وقالت لمولاي المهدي:

ـ يلا ما خلصش الكرا يخرج للزنقة.

فرد عليها:

ـ غدي يخلص. أنا ضامنه.

وأشارت بيدها وقالت:

ـ المرحاض تمة، وإذا كانت به نساء يخرج للمرحاض المجاور للجامع.

ولما عدنا إلى المحل ذهب معي حسن إلى الجوطية فاشترى لي فراشا باليا ومخدة وبطانيتين، ووجدت أن المال الذي معي لا يكفي، ولكن حسن ظل يتوقف ويجول بعينيه كأنما يبحث عن بعض الأشياء. قال لي:

ـ أنت ما تزال في حاجة إلى أدوات للطبخ وموقد.

قلت:

ــ المال لا يكفي.

قال:

ــ سأقرضك.

وما خرجنا من الجوطية إلا ومعنا تلك الأشياء وأشياء أخرى غيرها، فاتجهنا نحو الدار وفرشنا الفراش ووضعنا في جانب من الغرفة أواني الطبخ، وكان سكان الغرفة المقابلة يتطلعون إلينا بفضول وهم يخفون وجوههم من خلف الخامية المسدلة على الباب كلما رأونا نراهم.

في الليل عدت وفتحت باب الغرفة بالمفتاح ومعي خبز وبيض ونعناع وسكر. أشعلت موقد الغاز وغليت الماء للشاي ثم وضعت الزيت في المقلاة وقليت البيض. تعشيت وآويت إلى الفراش، ثم أطفأت الضوء.

استبدت بي الذكريات فعدت إلى الأيام الخوالي فرأيت سيد الحبيب يتجول بي في شوارع دار الدبيبغ ويشتري لي لوحا من الشوكولاط وعلبة من الحلوى المحشوة باللوز ويجالسني في مقهى لارونيسانس وهو يحتسي من فنجان قهوته وأنا أشرب من كوب العصير، ثم نركب الأوتوبيس إلى باب بوجلود وننحدر من هناك مشيا حتى نصل إلى الدار فنجد لالة الطام قد وضعت الفحم في المجمر وهيأت قضبان الكفتة أوالكباب للشي. ورأيته يوم عادوا به محمولا على الأكتاف، ورأيت أمي وأبي يموتان تحت الردم بعد أن تهاوت السقوف فوق رأسيهما. ولم أنم في تلك الليلة وقد أخذتني الأخاييل والذكريات.

ميمونة

ما كنت أدري ما هي الأوقات التي كنت أصادفها فيها في السطوان. لكنها كانت تظهر عند مدخل السفلي في الوقت الذي كنت أدخل فيه أو أخرج وكأنها تترصدني أو تنتظر مني ذلك الدخول أو ذلك الخروج. في المرة الأولى التي التقيتها فيها لم أسلم عليها ولكنها سلمت وأخذت تتفحصني بنظراتها وتبتسم، وبعدها بدأنا نتبادل السلام. كانت في الثلاثين من عمرها تقريبا، على وجهها ضمور كما كان صدرها ضامرا. وقد سمعتهم ينادونها ميمونة وكنت ما سمعت باسم امرأة تدعى بهذا الاسم.

بدا على حميد السرور بما فعلت، ورافقني ليرى الغرفة التي أصبحت أقيم فيها لكنه وقف لحظة وألقى نظرة عليها من الباب ثم طلب مني أن نغادر في الحال. وخلال خروجنا ظلت ميمونة ترقبنا حتى خرجنا من الدار. وبعد عودتي بادرتني بالسؤال:

ـ اشكون هداك؟

لم أرد عليها فزمت شفتيها ودخلت غرفتي مطرق الرأس. كنت أعرف من الملاحظة ومما يأتيني من غرفتهم من أصوات وأحاديث يتبادلونها نها متزوجة وزوجها يعمل كهربائيا اسمه الهادي، وأنها قد أنجبت بنتا ما تزال رضيعة، لكنها هي وزوجها يتساكنان مع أمه وأبيه وأخيه في نفس الغرفة. يخرج زوجها وحموها في الصباح ولا يعودان إلا مع هبوط الظلام. سمعتهم ينادون حماها مولاي عبد الله، وأما حماتها فكانت تنحني على الطبيخ وقد رفعت الخامية وقوستها إلى جانب حتى يدخل الضوء فترى ما كانت تفعل.

وأنا لم أرد عليها مخافة أن يراني أحد أو يباغتنا الهادي في تلك اللحظة فيظن بنا الظنون. ثم ماذا كنت سأقول لها عن حميد؟ أخي ؟ابن خالي؟ وما هو بقريب لي فماذا كنت سأقول؟ معلم المحل الذي أعمل فيه؟ لم يسبق لي أن ناديته المعلم فمن هو كنت سأقول لها لو أني قد أجبت؟

في نهاية ذلك الأسبوع دعاني حميد لأقترب منه على مرأى ومسمع من الصناع ومد لي ورقة ألف ريال وقال:

ـ خذ. هذه أجرتك الأسبوعية. لا أحب أن آكل عرق أكتافك. وإذا عرفت كيف تتدبر أمورك فستوفر منها ما تزيده على المليون.

أخذت الورقة وأردت أن أعود إلى مكاني في العمل، لكنه طلب مني أن أبقى بجواره، ففتح الدرج وأخرج منه ورقة أطلعني عليها وطلب مني أن أوقع على تسلمي لألفي ريال، فوقعت.

كانت تلك هي ليلة الخميس، والغد هو يوم الجمعة عطلتنا الأسبوعية، فاشتريت ملابس داخلية وفوطة وأدوات النظافة ودخلت الحمام. كان الزحام شديدا والمستحمون يأخذون الدور لملء سطولهم من الماء الساخن. ملأت سطلين وغسلت شعري وأخذت أفرك جسدي بالكيس الخشن، والبخار يملأ فضاء الحمام ويُغَمِّمُ رؤية الأجساد العارية.

فجأة رأيته وسط زحام المستحمين. نظرت إليه وقلت هو. أصابني الرعب فحاولت أن أدقق الرؤية من وراء ذلك البخار الحاجب. نهضت من مكاني من غير أن أشعر وتحركت نحوه حيث كان يدخل من الوسطاني إلى الداخلاني، وفي الدخلاني ازدادت كثافة ذلك البخار فأخذت أجهد رؤيتي حتـــى أراه وأتأكد من أنه هو. وهل يمكن أن يكون هو بالذات، هنا في الحمام ؟

ألم يكن قد مات ورأيته بعيني وهم يعودون به محمولا على الأكتاف ؟ تفحصت الوجوه فكانت وجوه كثيرة تشبه وجهه إلى حد بعيد حتى إنني كنت سأتخلى عن أدوات النظافة وأخرج إلى خارج الحمام عاريا، لكني قلت إني أتوهم، فأرغيت الصابون في الكيس وأخذت أدلك به وجهي وعنقي مغمضا عيني حتى لا يدخلهما الصابون، وفي ذلك الإغماض سمعت صوته وهو يطلب من أحد المستحمين أن يملأ له سطلا بالماء الساخن، فغسلت الصابون عن وجهي وعيني ونهضت مهرولا إلى الدخلاني لكني لم أجد سوى تلك الوجوه التي تشبهه وكأن كل من يوجدون في الحمام قد صاروا هو. تَلَبَّسَنِي الرعب. أكل المستحمين صاروا هو ؟ كيف حدث ذلك ؟

خرجت من الحمام ومررت على الجزار فاشتريت شريحة لحم للقلي وقطعا بعظمها واشتريت خضرا وزيتا وبعض التوابل. في الغرفة قليت اللحم وتعشيت منه وكان ثمة هرج في غرفة الجيران المقابلة لغرفتي وأصوات قادمة من الراديو من الغرف الفوقانية. فكرت في شراء راديو يؤنسني بالليل ومنه أسمع لأخبار، فأصبح هذا واحدا من بين مشاريعي في المستقبل، والتي تحتاج إلى توفير من أجرتي الأسبوعية.

وفي ليلتي تلك استرجعت ما رأيته في الحمام، وعدت أخايل الرجال الذيـــن رأيتهم يستحمون وهم عراة كما لو كانوا قد خلعوا عنهم أكفانهم وجاءوا من المقبرة ليفرحوا بالماء الساخن في هذه الليلة الشديدة البرد، ومع تمددي في الفراش فقد خلت جسدي ميتا وقد تخشب فحاولت أن أحركه وهو لا يتحرك. ثقلت يداي ورجلاي وكدت أصرخ مما أصابني من رعب، لكني تمالكت على نفسي ونهضت لأشرب شربة ماء.

في الصباح مررت على المرحاض الملاصقة للجامع ومعي صابونة وفرشاة ومعجون الأسنان، والفوطة في يدي. تنظفت ثم اشتريت من

الإسفنجي إسفنجتين عدت بهما إلى الدار فأعددت إبريق الشاي وأفطرت. بدأت تحضير الغذاء من قطع اللحم التي تشممتها مخافة أن تكون قد تعفنت فوجدتها لم تتعفن في برد الليلة وبرودة الغرفة. حاولت أن أنفذ ما حسبته خطوات للطبخ احتفظتْ بها ذاكرتي مما كنت أرى لالة الطام تقدمه أو تؤخره في تحضير الطعام، ومقادير الثوم والبصل والتوابل. وكانت وكأنها تقف عند رأسي ترشدني إلى ما علي أن أفعل، وأنا أتضجر من شبحها الحاضر أمامي وأقول لنفسي كيفما كان الطبيخ فسآكله وسأتعلم من عيوبه للمرة القادمة.

ارتفع عبق غليان الطنجرة ورأيت ميمونة تخرج من الغرفة وتدخل، ذاهبة نحو السطوان وعائدة منه وهي تنظر نحو غرفتي وقد صارت كالممسوسة، ولما التقت نظراتنا أشارت إلى بأن آتي إليها للسطوان، لكني تواريت في غور الغرفة الذي لا يظهر من الباب وجعلتها لا تراني وهي ذاهبة آيبة أسمع خطواتها وإن أطللت أراها تنظر ناحية غرفتي وتتوقف في وسط الدار لكي تشم رائحة الطبيخ. ولا أدري أكانت لا تتوقع أن يكون من سكان الدور العلوي من يراقبون حركاتها فيتشككون بها وبي، أم أنها كانت لامبالية وقد خرج كل من معها في الغرفة، وحتى حماتها خرجت وأخذت معها رضيعتها فخلا لها الجو لتمارس معي هذه الحماقات.

بعد حين سمعت باب السفلي يغلق بالمزلاج ودخلت غرفتي فوجدتها واقفة أمامي وأنا ممدد على الفراش. ابتسمتْ وفكت شعرها ورمته إلى الخلف ثم أمسكت بثدييها وهي تنظر إليَّ بعينين متوهجتين ولما لم أتحرك من مكاني على الفراش فقد ألقت بجسدها على جسدي وأخذت تقبلني في فمي وعلى خدي وأنا مكتوف الأيدي أحاول أن أبتعد عنها وهي تطوقني بيديها تدخل جسدها ي جسدي وتشهق. كانت رائحة الحموضة تفوح من ثيابها وصدرها، ولما

حاولت أن تعريني من ثيابي تخلصت منها ونهضت واقفا وسط الغرفة، فتغيرت نظراتها وخرجت لتفتح باب السفلي وتعود إلى غرفتها.

سمعت بعد حين صوت بكائها. ظلت تئن كطير جريح، وفي ذلك الوقت دخلت حماتها وسمعتها تقول لها:

ــ مالك يا ميمونة؟

خشيت أن تكذب علي فتقول إنني قد اغتصبتها أو اعتديت عليها. وزاد أنينــها وحماتها تسألها:

ــ قولي مالك؟

فقالت:

ــ تفكرت أحبابي.

قالت لها حماتها:

ــ لا تبك هكذا. أهلك في البادية وفي أيام الربيع سنذهب لزيارتهم.

تركت الطبيخ على نار هادئة وخرجت لشراء الخبز، وفي الطريق وجدت أن ركبتي رخيتين وأن دوارا يأخذ برأسي. تذكرت أنني لم أنقض وضوئي الذي توضأته ليلة البارحة في الحمــام، ولكن رائحة حموضة ثوبها قد ظلت عالقة بثيابي. وأخذت أفكر فيما يمكن أن يحدث لي مع ميمونة من فضائح إن هي كررت ما أقدمت عليه معي في هذا الصباح، ورأيت أن أستعطفها على ألا تفعل ذلك مرة أخرى إن أنا التقيت بها في السطوان، أو أن أحدث مولاي المهدي بما حدث لي ليشير علي بما يمكن أن أفعل، لكني أجلت التفكير في كل ذلك إلى ما بعد صلاة الجمعة.

صليت الجمعة في المسجد وتغذيت ثم نمت قليلا وخرجت إلى جنان السبيل. امتلأت عيناي بالخضرة والظلال تخترقها أشعة شمس خاملة وأنا

أتجول بين الرياض والأشجار الباسقة. جلست على كرسي وعاودتني الأفكار.

كنت قد رأيت في ليلتي حلما جاءتني فيه صبية بيضاء أثيثة الشعر، ضاحكتني وقالت لي أنا شفيقة ابنة عمك عبد الحق، وأمسكتني من يدي وأخذت تسير بي بين الدروب وهي تسرع الخطى، حتى وصلنا إلى باب خشبي مهترىء دفعته فظهرت لي الجنان والأغراس وأخذتني إلى تحت شجرة فقطفت منها ما ملأ حفنة يدها من تين ناضج كبير الثمرات وأخذت تنزع القشر عن التينة وتطعمني إياها وهي تبتسم، وأنا آكل من ذلك التين مبهورا بحسنها واقترابها مني وشعرها الأثيث يحف حول خدي وعنقي ورائحتها الأنثوية توقظ المكامن في عروقي، ولما حاولت أن أقبلها أشارت لي بيدها نحو أطراف الجنان فرأيت قبورا متراصة وقالت لي هذه هي مقبرة العائلة، وقبر أمك وأبيك هناك، فتعال نزور القبور. نهضت من مكان جلوسي تحت الشجرة وسرت معها وهي لا تكف عن إطعامي من ثمار التين حتى وصلنا إلى القبور وأنا أعجب كيف تكون القبور وسط هذه الجنان. قرأت ما كتب على الشواهد ولكني لم أجد اسم أبي الحاج عبد الرفيع السراج ولا اسم أمي لالة شرفة البنانية، ولما سألتها عن قبريهما ضحكت وقالت لي هذه القبور كلها لهما ولموتى العائلة، أحد أجدادنا هو الذي جعل من طرف هذه الجنان مقبرة عائلية، وإذا لم تصدقني فاسأل الرباع وهو سيؤكد لك ذلك. وجدت الرباع يقف أمامنا وفي يده المعفرة بالتراب فأس أو قادوم كان يفتح بها ترع الماء لسقي الأحواض، لكنه قال لي أنا حارس هذه المقبرة، وما كان عليك أن تغيب عن زيارة قبور أهلك كل هذا الوقت. أراهم في الليل يتجولون وسط هذه الجنان وأسمعهم يسألون عن الأحباب، أسمع أمك تذكر اسمك، فأنت عبد الحي، وهي تظنك ما تزال رضيعا ولذلك تظل تناغيك. قالت له شفيقة لا

توجع قلبه فقد كان مسافرا في أرض بعيدة وأنا أتيت به بعد أن نسي طريق العودة. أحضر لنا الشاي بنعناع هذه الأحواض يا عمي العباس.

وذهب نحو العشة التي يسكنها فأخذتني من يدي إلى شجرة إجاص قطفت منها وقربت إجاصة من فمي فعضضت منها وعضت هي منها من نفس المكان، وظلت تنظر إلي وتبتسم، فحاولت أن أقبلها لكني شممت من ثيابها رائحة الحموضة، ووجدتها قد صارت هي ميمونة، وما عدت أرى الجنان ولا قبور أهلي، ولما حاولت أن أبتعد ظلت ميمونة تلاحقني وهي تقول تعال يا حبيبي، وكلما كنت أبتعد عنها إلا وأستدير خلفي فأراها آتية ورائي والمسافة هي نفسها حتى وقد أخذت أعدو في اتجاه الفراغ، ولما تعثرت في شيء وسقطت على الأرض أدركتني ميمونة وارتمت بجسدها على جسدي وأخذت تحاول أن تنزع عني ثيابي، لكني أفقت وأخذت أتأكد من أن أي شيء لم ينقض وضوئي فأنا ذاهب في الغد إلى صلاة الجمعة.

استرجعت ذلك الحلم وتفكرت في حميد وما يمكن قد ذهب إليه من أحوال، وفي لالة الطام والعداء الذي أظهرته لي من غير سبب، ثم نهضت من ذلك الكرسي وأخذت أجول وسط الخضرة سائرا في المماشي لمحفوفة بالماء.

مر أسبوع أو أكثر وأنا أسمع من حين لآخر أنين ميمونة التي لم تكن تغادر الغرفة طوال تلك الأيام. كانت تئن في بعض الليالي وقد عم الظلام كل البيت فأرى غرفتها تُضاء وأسمع وشوشات وهمسات ثم يرتفع صوت زوجها الهادي يصرخ ويطلب منها أن تكف عن هذا الأنين، وأحيانا أسمع نافذة تُفتح من الدور العلوي وأرى ضوء يضيء إحدى الغرف وتصل إلى مسامعي همسات الجيران.

لم أدر ما كان قد أصابها وخشيت أن تأتي عليها لحظة تخبرهم فيها بما فعلت معي أو تغير من ذلك فتردد كلاما آخر تتهمني فيه بالاعتداء عليها أو

يأخذها الجنون فتقول إنها قد أحبتني حتى وهي متزوجة ولها بنت رضيعة، وظلت تأخذني الظنون حتى تمنيت لو أنها عادت إلى ذلك الخروج والدخـــول والذهاب نحو السطوان والعودة منه إلى الغرفة، فتوالت الأيام وهي لا تخرج ومولاي المهدي إذا ما ترافقت معه في الطريق من المحل إلى البيت يسألني عن أحوالي في السكن فأرد عليه بأن كل شيء عادي فكان يمازحني إذا ما رأى في يدي خضرا فيطلب مني أن أدعوه للعشاء معي، فأدعوه مجاملا ولا يقبل الدعوة، فهو لم يدعني للعشاء معه مرة واحدة وأنا بكل ما أدركت من حركات و أصوات الجيران في الدور العلوي لم أتبين موقع الغرفة التي يسكنها ولم أميز زوجته وأولاده عن باقي الجيران، فالبيت يعج بالأصوات والحركات المتشابهة، كما تمتزج فيه روائح الطبيخ قبيل وقت الغذاء والعشاء حتى لا تبقى لطعام من الأطعمة رائحته الخاصة أو جهته التي تفوح منها الرائحة.

وكدت أنسى ميمونة فما كنت أرى سوى حماتها تنحني على الطبيخ وقد رفعت الخامية وأخذت تطبخ قريبا من باب الغرفة حتى يتبن لها ما تفعل. وكانت ميمونة قد كفت عن الأنين، وظننتها ربما قد سافرت إلى البادية لرؤية أهلها، فما عدت أسمع صوتها وسط تلك الأحاديث التي كانت تصل إلي، ومولاي عبد الله حموها يردد حكايات سوق الماشية حيث لم تكن له ماشية يبيعها وإنما كان يسترزق الله هناك مع البائعين والمشترين، يتناول غذاءه في السوق وبعد انقضاء وقت عمارة السوق يذهب إلى أشغال أخرى يسترزق منها الله. كان مولاي عبد الله طويلا عريضا قوي البدن، ملفوفا في جلبابه الصوفي وعلى رأسه طاقية خضراء، وأما ولده الهادي فكان قصيرا أدركه الصلع وعيناه مقرحتان، وما كان من شبه بين الأب وابنه، وإن كان كل واحد منهما يعود إلى الدار مطأطأ الرأس كسير النظرات.

في ليلة من الليالي سمعت صراخ حماة ميمونة وقد أضاءت غرفتهم وكانت تقول:

ـــ ما تحشمش آ الشارف. ياك. لو كان الهادي هنا هاد الليلة كان يذبحك ويذبح هاد الكلبة، وخا أنت باه؟ باه وما وقرتش الحرمة دياله. ياك!

ظلت تصرخ وتشتم وكان الجيران في الفوقي قد أضاءوا غرفهم وفتحوا النوافذ وأخذوا يتبادلون بعض الأحاديث عما يمكن قد حدث في غرفة ميمونة، وما الذي فعله مولاي عبد الله حتى أهاج صراخ امرأته في هذا الهزيع من الليل. سمعت أحدهم يقول الأولاد نيام ولا ينبغي أن يسمعوا شيئا عن الفضيحة. وبعد حين سمعت باب السفلي يفتح وعرفت من الخطى أن مولاي عبد الله يغادر الدار.

ربما أكون قد نمت بعد ما حدث في ذلك الهزيع من الليل فرأيت جمعا من الرجال والأطفال يتجمعون حول ميمونة في ساحة صغيرة هي ملتقى لبعض الدروب، وهي ممزقة الثياب شبه عارية، وهم يرجمونها بالحجارة، ويدفعونها كلما استجارت بواحد منهم، فظلت تحمي وجهها ورأسها بيديها والحجارة تصيب صدرها وعنقها ووركيها. حجارة تسارع الأيدي في الرشق بها وعيون الرجال والأطفـــال تركز النظرات على جسدها العاري الممزق الثياب. حجارة لم أدر من أين كانوا يأتون بها ولكني أراها تأتي إلى أيديهم فيرشقون بها حجرة بعد أخرى والعرق على جباههم يتصبب. سقطت على الأرض والتف جسدها حول بعضه والدم يسيل على وجهها. الحجارة تغطي بعض جسدها. الرشق يزداد تسارعا. النظرات حاقدة والشفاه تقذف بالشتائم. الحجارة تتراكم فوق جسدها وحواليه. يداها مستسلمتان. ما تبقى للظهور من جسدها لا يتحرك. الرشق بالحجارة لا يتوقف. ركام الحجارة تغطي كل الجسد. ولعلي كنت أتفرج من الخلف أو أرى ذلك المشهد من ثقب في جدار،

و قد رأيتهم يتركونها تحت ركام الحارة لأيام التي يعودون لسحب الحجارة و يخرجونها كحبل مفتول من القنب ليذهبوا بها إلى المقبرة.

في نهار الغد جئت للغذاء في الغرفة فوجدتهم يخرجون متاعهم، وميمونة واقفة في وسط الدار كسيرة الطرف، فلم تتقابل نظراتي مع نظراتها حتى وقد مررت قريبا منها. كانت الهاشمية تضع جماع يديها على ركبيها وتبدو متحفزة للكلام، لكنها أمسكت لسانها إلى حين أن غادروا الدار، فبصقت وراءهم وأتبعتهم بالشتائم.

الريحانية

كنت قد اشتريت جهاز الراديو وأخذت في ليالي الصمت والوحدة أجول بين المحطات الإذاعية ملتقطا الأخبار والأغاني والمسلسلات والبرامج الترفيهية. وقد ظل حميد يدفع لي مساء كل خميس ورقة ألف ريال مقابل عملي في المحل أنفق نصفها على الطعام والحلاقة والحمام وأحتفظ بالنصف الآخر للكراء والتوفير، وكان الرشيد يقرض مني ولكنه كان يرد الدين في نهاية الأسبوع عندما يتسلم أجرته.

وما مضت أيام حتى جاءت لتسكن الغرفة ومعها بنتاها الصغيرتان. ساعدها أحد الحمالين على تكويم الفـــرش والأثاث في وسط الدار فأجرت الماء والصابون في الغرفة ونظفت الجدران، ثم بدت منشغلة بترتيب الغرفة هي وابنتيها. كانت تنحني وتستدير نحو غرفتي ثم ترفع نظرها إلى الأعلى ناظرة إلى نوافذ الجيران في الدور العلوي، ومع انحنائها كانت تبدو مكتنزة عارية الساقين وكان بعض ذلك الانحناء يكشف عن جزء من فخذيها البيضاوين المشربين بحمرة خفيفة. وكنت أرقب حركاتها هي وابنتيها من غير أن يشعرن بي. كانت عصبية تتحرك بحركات متشنجة وتشتم البنتين وتلقي ببعض الأشياء كيفما اتفق وهي وتندب حظها الذي جعل الرجل يطلقها وهو في السجن.

نزلت الهاشمية وسمعتها تناديها الريحانية وأخذتا تتحادثان. تمنت لها مقاما طيبا في الدار، وأن يجعلها الله عتبة مباركة مسعودة عليها وعلى البنتين، وقالت لها وهي تشير إلى غرفتي:

ـ الولد قدامك باقي صغير وسكوتي لا نشعر به متى يدخل أو يخرج. كأنه غير موجود، عينه طايحة للأرض لا يرفع نظره أمام الجارات.

وعانقتها الريحانية وبدت على وشك البكاء وقالت:

ـ وقت العشاء وصل وأنا لم أجد وقتا لتحضير الغذاء، صحتي طاحت وعظامي تهدوا.

قالت الهاشمية:

ـ دابا ترتاحي. الرحيل ماشي ساهل.

وردت عليها:

ـ نرتاح ؟ أنا عمري ما نرتاح.

ـ إيوا علاش؟

ـ الهم اللي شفت عمروا ما غدي يخليني نرتاح.

وأجهشت بالبكاء،.وتورد خداها وغابت قليلا ثم أخذت تضحك وقالت:

ـ هم الدنيا يبقى فيها. كلنا للقبور. إيوا ها أنا تنضحك.

قالت لها لالة الهاشمية:

ـ الله يخليك ديما ضاحكة آ الريحانية.

في تلك الليلة أحرقت البخور في لغرفة ووصلتني الرائحة خانقة حتى وقد أغلقت علي الباب.

بعد يومين سألني مولاي المهدي عن الجارة الجديدة فلم أدر ما أقول. وتغامز الصناع حينما عرفوا منه أنها مطلقة وقال حسن:

ـ دجاجة بكامونها.

وقال الصنهاجي:

ـ غير خص اللي يعرف ياكلها.

غمز له حسن ونظر نحوي وقال:

ــ ما يقدرش.

وقال الصنهاجي:

ــ ما يعرفش منين يبدا.

قال الرشيد:

ــ نعلموه منين يبدا.

وظل مولاي المهدي ساكتا لا يشارك في الحديث، فظننته يحترم سمعة جارته أو أنه يخشى من وقوع فضيحة يتورط معي فيها بحكم أنه هو الذي أتى بي للسكن في تلك الدار.

قال لي الصنهاجي:

ــ وصفها لنا آ عبد الحي.

احمر خداي خجلا وأخذ يلح علي:

ــ قل، سمرا أو بيضا، طويلة أو قصيرة، غليظة أو رقيقة؟

وقال حسن وهو يضحك:

ــ وخدودها ؟ وعينيها ؟

وقال الرشيد:

ــ والصدر ؟

طلب منهم مولاي المهدي أن يكفوا عن هذا المزاح، وسألني:

ــ وأين هو محل الخياطة الذي وعدك به حميد؟

في تلك اللحظة دخل حميد المحل فلزموا الصمت. ولعله قد أدرك من تغير ملامحهم أنه كان معنيا بحديثهم، لكنه تجاهل ذلك وانصرف إلى الشغل.

كانت تظل طوال أوقات وجودي في البيت تخاصم ابنتيها وتبكي بحرقة ثم يغالبها الضحك فتضحك ثم تعود إلى البكاء. وسمعتها تقول للهاشمية الجن الريحاني الذي يسكنها هو الذي يفعل بها هكذا، فهي لا تدري لماذا تضحك أو

تبكي ولا تنتبه إلى حالها إلا بعد مضي وقت. وقالت لها الهاشمية باسم الله عليك، الريحان نبات من الجنة، والجنة وإن يكن فيها بكاء فالبكاء على الذين نحبهم ولا نجدهم معنا، وأنت الريحان مخبوء تحت قلبك، إن لم يكن تحت وسادتك، فلا تعودي للكلام عن الجن الريحاني والعياذ بالله.

لكن الريحانية لم تقتنع بذلك الكلام، وقالت لها يا لالة الهاشمية أنا أرى أشياء غريبة، وأحيانا أنهض في الليل وأجد سروالي مبللا بماء الرجال حاشاك ولا رجل معي في الغرفة وأعرف أنه هو، هو الذي فعل ذلك معي، أقول له آ الريحاني ها عار الله سر فحالك وأراه يضحك وهو يأكل من لحم ماعز نيء والدم على شفتيه. وأنا لم أعد أخاف. الخوف من الله سبحانه وتعالى. زرت السادات وعلقت الأحجبة ولم يرد أن يذهب عني، وأحيانا أسمعه يتكلم في بطني ويقول لي أنا من أناديه.

وتجهش بالبكاء، وتتغير ملامح وجهها فتبدو مثقلة بالأسى لكنها سرعان ما ينقلب بكاؤها إلى ضحك وهي تمسح دموعها وكأن تلك الدموع هي دموع الضحك. كانت تتصرف في باحة الدار وكأنها جزء من غرفتها، فهناك تطهو الطعام وتغسل الغسيل وهي ترفع رأسها من حين لآخر لترى إن كان أحد يطل من نوافذ الدور العلوي ويراقب ما تفعل. وظلت عندما تنحني على الغسيل ترفع جزءا من ثوبها فيظهر ساقاها العاريتان وأحيانا يظهر جزء من فخذيها فلا تبالي بمروري بجوارها وهي على تلك الحال. ومرة طلبت مني أن أعطيها ملابسي لتغسلها مع الغسيل وقالت الصابون موجود فلما رأتني لا أقدم لها الملابس دخلت غرفتي وأخذت تبحث عنها حتى أخذتها و رمت بها في حوض الغسيل، وفي الليل جاءتني بها نظيفة وقالت لي أراك تطبخ الطعام ولكن أنت لن تعرف كيف تغسل ثيابك، وطلبت مني أن أزيد في وقت

المسلسل الإذاعي من صوت الراديو حتى تسمع معي. ولما جاء شهر رمضان قالت لي أنت وحدك وليس لك من يهيئ الحريرة فانتظرها مني كل يوم.

في موعد الإفطار جاءت تطرق باب غرفتي وهي تحمل صينية عليها جبانية الحريرة وصحنا به تمر وحلوى شباكية، ولما تقابلت نظراتنا ابتسمت واتسعت عيناها وتباطأت في تسليمي الصينية وعيناها لا تفارقان عيني، ومع ضرب المدفع في برج النور سميت الله وأخذت تمرة وشربت كأسا من الحليب ثم وضعت الملعقة في زلافة الحريرة وهممت باحتسائها، لكن لونها ظهر لي أصفر فلما احتسيت منها كان طعمها حامضا ربما بفعل الخميرة، وأحسست أن لون لساني قد أصبح أصفر، فليست في الحريرة طماطم تعطيها المذاق واللون، ومججت ما في فمي وتسللت إلى بيت النظافة فدلقت ما في الجبانية ونظفتها وعدت إلى الغرفة.

في الغد تناولت فطوري في أحد المطاعم، ولما عدت جاءت تطرق الباب وتلومني على عدم الإتيان للفطور من حريرتها، فادعيت أنني قد أفطرت عند أحد أقربائي وأنه قد ألح علي للإفطار معه طيلة شهر رمضان، وظلت تنظر إلي وقد توهجت عيناها وتورد منها الخدان فارتعدت ركبتاي وقالت لي اترك باب الغرفة مفتوحا فسآتي لأسمع معك المسلسل بعد تنام البنتان، وقرصت خدي فاحمرت وجنتاي، وتراجعت نحو غرفتها. أغلقت الباب وقلت سوف أتظاهر بالنوم عند ميقات إذاعة المسلسل، وسأطفئ النور ولن أشغل الراديو، وكذلك فعلت، لكن بعض التردد قد راودني ففتحت الباب من غير أن أضيء الغرفة، ثم عدت فأغلقته، وبقيت أدخل الفراش وأخرج منه لأقف في وسط الغرفة في الظلام وركبتاي ترتعدان وتخوران وأطرافي ترتعش، فأعود لأفتح الباب، وبعد وقت أغلقه، وما مضى علي حين وأنا على تلك الحال حتى سمعت طرقها الخفيف على الباب، فصممت على التظاهر بالنوم، وألحت

طرقاتها وأنا أهيئ كلمات اعتذار أقدمها لها في الغد، لكنها عادت إلى غرفتها وبقيت في الظلام من غير أن أنام.

بعد حين سمعت بكاءها الذي أعقبته الضحكات، ثم شممت رائحة البخور وهي تفد علي من تحت باب الغرفة. وفي غد ذلك اليوم لم أعد للإفطار في الغرفة ولم أرها فخفضت من صوت الراديو بقدر ما أسمع منه المسلسل وأذني قريبة منه، ومرت أيام من غير أن أراها.

تكاثر علينا الشغل في الأيام التي سبقت العيد فأخذنا نسهر عليه في المحل إلى أن يقترب موعد السحور. ولم يسألني حميد كيف أتدبر أموري في أوقات الإفطار، كما لم أعرف كيف كان يتدبر أمره ولا أين كان يقيم، فهو لم يخبرني بشيء، وما عاد يبادئني بالكلام إلا في أمور الشغل، لكنه ظل يصرف لي أجرة الأسبوع كما كان يصرفها لباقي الصناع، وكان معلوما أنه سوف يضاعف الأجرة في الأسبوع الأخير من رمضان، بعد أن أخذنا نعمل بالليل ساعات طويلة زيادة عن ساعات العمل بالنهار، وعلى عادة ما كان سيد الحبيب يفعله مع الصناع ومعه هو نفسه، أسبوعا أو أسبوعين قبل العيد الصغير والعيد الكبير.

في ذلك السهر على الشغل كنت أعود إلى الغرفة مكدودا وعيناي يأخذهما النعاس، فلم أعد أفكر في الريحانية، ولا واتتني الفرصة لأقدم لها كلمات الاعتذار عن إغلاق بابي في وجهها بما كان قد أخذني من نوم.

في صباح يوم العيد بدت وقد اصطنعت الكحل في عينيها والعكر على خديها وشفتيها وارتدت قميصا أصفر يكاد يكون شفافا يظهر تقاطيع جسدها ووضعت في قدميها شربيلا مطرزا وأخذت تخطر بين الغرفة وباحة الدار والسطوان، كما بدت البنتان وقد مشطتا شعريهما تمشيطا غريبا يجمع الشعر كله ويرسله إلى الخلف على شكل ذيل حصان.

كنت أعد طبيخ يوم العيد من ديك وفير اللحم اشتريته فذبحه مولاي المهدي وقامت زوجته بنزع الريش وإخراج الأحشاء وقطعته قطعا فنادى علي من باب السفلي وسلمه إلي، وقلت سوف يكفيني للغذاء والعشاء ليوم العيد وثاني يوم العيد، فأخذت أنضجه مع البصل والثوم والتوابل وقد أحضرت شيئا من اللوز والبيض حتى أقلي اللوز وأسلق البيض وأضعهما فوق الديك بعد تحميره في المقلاة، على عادة ما كانت تفعله لالة الطام وأنا أرقبها وهي تهيئ هذه الأكلة لليلة العيد مصحوبة بقضبان الكباب والسلاطات، وأما في الغذاء فكانت تُعَسِّلُ القرع وتضعه فوق الدجاج المحمر، ديكان أو ثلاثة في الغالب، وربما زوجان من (بيِبي)، وكان سيد الحبيب الله يرحمه يفرح بالطعام ويقدم لي أفضل القطع، فكان أكلي قليلا وأما حميد فكان يبدو نَهِمًا يسابق اللقم التي لم يبلعها بعدُ بلقم أخرى يكون قد وضعها بين أصابعه وهي في طريقها إلى فمه.

ولما عبقت رائحة الطبيخ ظلت الريحانية تذهب تجيء بين الباحة والسطوان، ثم اقتربت من باب غرفتي وقالت:

ــ العيد مبارك مسعود آ السي عبد الحيْ.

فقلت لها:

ــ عيدكم سعيد.

ظلت واقفة تتطلع إلى الطنجرة وقالت:

ــ طيابك لذيذ باين عليه.

فلم أدر ما أقول، واصطادت نظراتها نظراتي فتوهجت عيناها ودخلت إلى وسط الغرفة فجالت نظراتها في مكان نومي وثيابي المعلقة على مسامير مدقوقة في الحيطان. أخذت ترتب الفراش والملابس المبعثرة وأنا واقف أنظر

إليها دون أن أجد ما أقول، ثم جاءت بسطل ممتلئ حتى النصف بالماء وخرقة للتجفيف فكنست الأرض وبللتها بالماء ثم جففتها.

قالت لي هذا يوم العيد والنظافة مزيانة، ثم اقتربت مني وتأوهت وزاد توهج عينيها لكن سرعان ما انطفأ ذلك التوهج وبدت كسيرة النظرات فخفت من أن يباغتها البكاء وينتبه الجيران أو بنتاها إلى وجودها معي في الغرفة، إلا أنها لم تبك ولم تضحك، واقتربت من الطنجرة فرفعت غطاءها وشمت الرائحة ثم عادت إلى نظراتها الكسيرة التي بدا عليها الأسى وقد تمنع الدمع عن العينين. لاحظت حالها وبقيت واقفا بجوارها لا أدري ما أقول، فنطت إلى غرفتها وأحضرت باقة نعناع وقالت لي:

ـــ لم أعجن الحلوى ليوم العيد، ولكن هاهو النعناع، عندك السكر والشاي ؟ نشرب كاس أتاي.

لم أرد عليها وأخذت الطنجرة لأضعها على الأرض ثم وضعت على نار ماكينة الغاز الغلاي ليغلي الماء وقلت لها:

ـــ سأخرج، وأنا عائد قبل أن يغلي الماء.

قالت:

ـــ أين السكر والشاي؟ والإبريق؟ أنا سأهيئ الشاي.

ولم أرد عليها إلا بإشارة من يدي فخرجت لأقرب حانوت واشتريت بعض الحلويات وعدت بها سريع الخطى.

كنت لا أدري ما أفعل فقد أحسست بالضياع وهذا أول عيد أقضيه وحيدا ومن غير عائلة، حتى وقد قضيت أعيادا مضت مع حميد ولالة الطام وهما زوجين، لكن عائلتي الحميمة كانت كلها تجمع وتجتمع في سيد الحبيب الله يرحمه، وبعد ذهابه نحو الموت تفرقتُ أنا كما تفرق كل شيء.

ثم إن هذا هو يوم العيد، وأنا لم أُصلِّ مع الناس في المصلى وإن كنت على طهارة. كانت فتاة المنام هي ابنة صغيرة من بنات الحي رأيت نفسي آكل معها من صحن الكسكس وهي تطعمني بالملعقة في فمي وأنا أطعمها حتى لعقت أصابعها ونحن نتناظر وقبلت فمها وحضنتها في حضني ومزقت ثوبها فبكت وجسدها يتقدم نحو جسدي بالمباذل وهي تقول لي ماذا سوف ألبس بعد أن مزقت ثوبي، وأنا منشغل بمفاتن الجسد عن الثوب حتى اقتربت منها فقالت أنا ... إذا كنت تريد أن تعرف فقد ... ويمكنك أن تكتشف الحقيقة بنفسك، ولكن ... وأخذت تبكي وهي تخفض نظرها نحو الأرض، ثم عانقتني فأدخلت جسدها في جسدي. تدفق ذلك الماء فجعلني أختنق مزيدا من تدفقه بيدي وأن أنهض وأقول لقد انتقض وضوئي. وبقيتْ بعضُ الصور من ذلك الاحتلام ترافقني لأيام من غير أن أتعرف على تلك الصبية من بين بنات الحي، وعجبت كيف تكون غير عزباء وهي في مثل تلك السن، وهل كان ذلك اغتصابا أم إباحة منها لجسدها، ثم عدت أقول لنفسي هذه الصبية لم توجد إلا في حلم فلماذا أنا أطرح على نفسي هذه الأسئلة ؟

لم أدر ما كانت ستكون عليه صورة امرأتي، هل ستكون شبيهة بتلك الصبية أم بإحدى النساء اللواتي يأتين للمحل للسؤال عن حميد، أم ستكون كلالة الطام، أموت فتأتي إلى فراشي بمن ربيته وكان كولد لي، أم هي ميمونة التي لا محارم لها، ثم قلت إنني لن أتزوج، فقد قالوا لنا:

إذا كنت في أرض لا حياة بها

فاجلد عميرة لا إثم ولا حرج

وتعودت على جلد عميرة والذهاب للحمام للوضوء بعد ذلك، وأحيانا كنت أختصر الوقت فلا أجلد عميرة إلا في الحمام، ومع ذلك كان الاحتلام

يباغتني فيأتيني بصبايا ونساء لم أرهن في حياتي، إلى أن جاء يوم العلق، وهو يوم لا أنساه في حياتي.

حدث لي نفس ما حدث مع فتاة المنام ولكن مع واحدة أخرى لم يسبق لي أن رأيتها، وما كان لي وقت للذهاب في الصباح إلى الحمام. كان الجو باردا في تلك الليلة الشتائية من ليالي فاس، فعزمت على الوضوء بالماء البارد. توقعت أن يصيبني الزكام وقلت سأحتمله، فنهضت من الفراش وأضأت الغرفة وأخذت ملابس نظيفة وفوطة وذهبت إلى بيت النظافة المتروك في الدار للنساء وحدهن، فالرجال يذهبون إلى المرحاض المجاور للجامع وهناك يقضون حاجاتهم ويغسلون وجوههم وأيديهم. قلت لن تأتي امرأة إلى بيت النظافة في ظلام هذا الليل، وحتى و إن حدث فسأغلق عليّ الباب من الداخل، وكذلك فعلت، فاغتسلت بسرعة من غير شامبوان ولا صابون . كان الماء عكرا قريبا من الحمرة في المعدة التي امتلأت حتى الحواف، ولكنه من ماء وادي الجواهر ولذلك فهو طاهر، وتمضمضت واستنشقت ونشفت شعري وجسدي بالفوطة وبادرت إلى ارتداء ثيابي وأنا أرتعش من البرد، ثم تسللت عائدا إلى الفراش لأتدفأ بالبطانية وأنام لساعتين أو ثلاث قبل أن يطلع النهار. ما مر وقت وأنا في الفراش حتى شعرت بإبر تخز حلقي فأخذت أخرج الهواء من حلقي والوخز يزداد. أضأت الغرفة وبصقت في كفي يدي فرأيت خيوطا من دم، وعدت أخرج الهواء وأبصق حتى رأيتها تخرج ومخالبها تتحرك، عرفت أنها علقة، وزاد الألم والوخز في حلقي فلم أنم، وبدأت تعتريني قشعريرة الحمى. قضيت الصباح كله في الفراش ونار الألم في حلقي والحمى ترعش جسدي، ولم أذهب إلى المحل، إلى أن جاء حميد يطرق الباب ففتحت له وأنا أتهالك، وأتاني من الصيدلية بحبات أسبرين. لم أخبره بالعلقة وباغتسالي بالماء البارد. طلب مني أن أبقى في الفراش، وفي الليل أتى مولاي

المهدي لعيادتي فلما رأى خيوط الدم تخرج من حلقي قال لي أنت مسلول، ثم صعد إلى غرفته وقال سيعود. غاب وقتا طويلا قضيته بين غفوة وارتخاء والوخزات تؤلم حلقي. عرفت أنني لست مسلولا فقد رأيت العلقة بعيني ولاشك أنها قد وصلت إلى حلقي مع تلك المضمضة بماء المعدة العكر. جاءني مولاي المهدي بجبانية مليئة بالشربة وطلب مني أن أشربها حتى أقاوم المرض، ونهض بنفسه فملأ لي زلافة وجاءني بملعقة لكني لم أقدر على البلع، فقد كان بلع الريق وحده يؤلمني ويزيد من ذلك الوخز في حلقي. في الليل مججت شيئا من الدم وبعده مججت اثنتين واحدة بعد الأخرى، لكني نمت بعد ذلك وأصبحت معافى، وهذا هو اليوم الذي أسميه يوم العلق.

في يوم العيد ومع كأس الشاي والحلوى التي اشتريتها أخبرتني الريحانية و الدموع تنفجر من عينيها بأنها لا تجد شيئا تطبخه للبنتين، وكانت عينها على الديك الذي ينضج في الطنجرة ، فقلت لها:

ــ خذي من ذلك الطعام.

قالت:

ــ نتغذي جميعا.

أخذت الطنجرة إلى غرفتها وصفت المائدة وجاءت تدعوني للغذاء، وما كنت أحب أن أذهب للغذاء في غرفتها ولكنها تصرفت على تلك الحال وأنا ما كان بإمكاني أن أعترض. أكلت على مضض وهي تقدم للبنتين أفضل القطع وتطري على لذة الطبيخ، ثم سألتني عن أهلي فتوقفت اللقمة في فمي ولم أدر ما أقول، وبدأت تحكي عن أب البنتين الذي لم يقض سوى عامين من عشر سنوات حكم عليه بها ليقضيها في السجن. غامت الأشياء أمامي وتباطأت يدي في الطعام. خرجت في المساء للتجول ولما عدت أغلقت علي الغرفة وفتحت المذياع، وبعد حين سمعت طرقا خفيفا ولما فتحت الباب دخلت ووضعت

الطنجرة وظلت واقفة تنظر إلي. توهجت عيناها فخفضت نظري ثم ضحكت وقالت:

ـــ أنا فهمت، ولكن إن شاء الله سأزوجك واحدة من البنتين.

بعد مدة أخذت أسمع باب السفلي يفتح كل مرة بعد أن ينام الجيران وأسمعه يغلق بعد حين، وظننتها تخرج إلى بيت النظافة، لكن وقت خروجها كان يطول، وما انكشف لي السر إلا بعد وقت طويل، وعندما أعلنت زواجها من خباز في الفرن كان يسكن غرفة على السطح، فجاء للسكن معها و مع البنتين في الغرفة، ومنذ ذلك الزواج ما عادت تكلمني وظل الخباز ينظر إلي نظرة محاذرة فلا يحييني إذا ما التقينا في السطوان.

بهية

ركبت الحافلة من البطحاء إلى دار الدبيبغ راغبا في التجول في مساء الجمعة، و كان بجواري مقعد فارغ، و قبل أن تنطلق الحافلة رأيتها تصعد الأدراج و تبحث بنظراتها عن مكان للجلوس، فلما همت بالجلوس بجواري أخذت تتفحصني وتوسع من عينيها وتبتسم، ومدت لي يدها للمصافحة فصافحتها وجلست. نظرت إلي قالت:

ـ أنا ابنة عمك.

سألتها:

ـ أي واحد من أعمامي ؟

سكتت قليلا و قالت:

ـ عمومة بعيدة ويكفي أن تعرف أن اسمي بهية، بهية السراج.

اتسعت عيناها المليحتان بنظرة أخاذة وقالت:

ـ ما كنت أظن أن ألتقي بك في هذه المصادفة.

وأخذت تحدثني عن حياتها والكلمات تتدفق من بين شفتيها الراجفتين وأطراف أصابعها ترتعش.

قالت أنا تزوجت وتطلقت مرتين وحظي كان عاثرا في هذه الحياة، لو رأيت بهية ابنة عمك كيف تعذبت في حياتها بالرجال؟ سأحكي لك. أنت ابن عمي يا عبد الحي.

وسعت عينيها البهيتين وهي تنظر إلي وبللت شفتيها بطرف لسانها وبدت كأنها تستعيد هدوءها. كان الركاب ينظرون إلينا وقد بدت تكبرني بنحو عشر سنوات، شعرها الأسود الغزير يتدفق على كتفيها وجلبابها السماوي

يضيق باكتناز الجسد وفيض صدرها وامتلاء كتفيها. اقتربت مني حتى تلامس جسدانا وأخرجت بطاقتها الوطنية من حقيبة اليد وأطلعتني على اسمها وتنهدت. قالت أنا ذاهبة لشراء مواد الخياطة من يهودي يجلبها من فرنسا. لا أحد يعولني، وأنا أعول أخي جواد، ستزورنا وتراه، يصغرني بعامين، لكنه معاق، وقد حاولت أن أرسله لدار للمعاقين فلم أجد من يساعدني على ذلك. إذا لم أطعمه فهو لا يأكل. الجيران يعتدون عليه إذا خرج إلى الدرب، وهو يقضي الليل كله في الصراخ وأنا أحاول أن أهدئه لينام، ولما ينام يجفوني النوم. انظر إلى أحداق عيني الزرقاء، والرعاش في أطراف أصابعي. صرت حديدة صدئة بعد أن كنت وردة متفتحة. لو رأيت بهية كيف كانت. الحافلة وصلت. تعال تنزل.

نزلنا فأمسكتني من ذراعي وقطعنا الطريق وسط ازدحام السيارات ومشينا وهي تمسك بذراعي تحتمي بي أو تقودني إلى حيث لا أعلم، ونظراتها تمتلئ بمرآي، وجسدها يكاد يلتصق بجسدي، حتى وصلنا إلى محل اليهودي فانتظرتها حتى اشترت من مواد الخياطة ما تريد. كانت تمازح اليهودي وهو يضحك، ويقرب وجهه من وجهها، حتى إن صلعته الكبيرة قد لامست خدها وهو يفتعل حركة انحناء، ثم رفع رأسه وبدا كأنه سوف يلثم خدها لكنها تباعدت ونظرت إلي فتراجع اليهودي وسمعته يقول لها أؤجل إلى حين أن تأتي مرة أخرى، على أن تأتي وحدك.

سرنا في الشوارع وهي تمسك بيد مشترياتها وتمسك بذراعي باليد الأخرى تلتصق بي من حين لآخر وتقرب وجهها من وجهي وكتفانا يتلامسان. أخذتني إلى الحديقة و جلسنا على كرسي حجري بارد. كانت شمس المساء تتسلل من بين أغصان الشجر، والسواقي يجري فيها الماء، و بعض المتنزهين يعبرون أمامنا من حين لآخر. ظلت صامتة ثم تنهدت وقالت:

ـــ اليوم أنا فرحانة.

فنظرت إليها بدهشة وقالت:

ـــ فرحانة بولد عمي، السي عبد الحي.

وبقيت صامتا فقالت:

ـــ وأنت، ألم تفرح بلقاء بهية ابنة عمك ؟

قلت:

ـــ ولماذا لا أفرح ؟ لكني لم ألقاك من قبل.

قالت:

ـــ هم الزمان يا ولد عمي. فرق الموت بينا، موت أبي وأمي. ولكن الحي يلتقي مع الحي مهما كان.

تبسمت ونظرت إلي بملء نظراتها بعينين واسعتين حوراوين رموشهما وطفاء كحيلة، وخفق صدرها، وتحركت خصلات شعرها على الخدين والكتفين، ثم تنهدت، وقالت أنا أعرف محل الخياطة ولكني لم أكن أتجرأ على زيارتك، كنت أرقبك من بعيد وأنت صغ، أعرف سيد الحبيب الله يرحمه ولالة الطام، مرات كنت أتذكرك في وحدتي، وأحب أن أراك قريبا مني. كنت أنتظر أن تصبح رجلا لتفهمني حتى ونداء الدم للدم كان في بعض الأوقات يجعلني أفكر في أن آتي إليك باكية من ثقل الهموم لأريح رأسي على صدرك ولكني كنت أخشى ألا تفهم، أو ألا ياتيك نداء الدم في ذلك الوقت الذي أتاني فيه. لعلك تفهمني. سوف تتعرف على جواد ومحنتي معه، لكن تصور أن بهية تزوجت وهي في الثامنة عشرة من ديواني يعمل في المطار، يكبرها بعشرين عاما، له زواج سابق وولد مع امرأة أخرى. في الأول بدا كريما ولطيفا معي ومع العائلة، قال عيبه أنه يشرب، هو حتى مع الشرب لا يؤذي أحدا و يفوه بكلمات خارج الصواب، وقال زوجته الأولى كانت ثقيلة الدم، هو

رجل ضحوك ويحب المزاح والفرح و هي تستثقل خفة دمه فقلنا لابأس، وقال يحب أن يبدأ حياته من جديد، وأن يحب بملء قلبه امرأته وأن يعطيها كل حياته، لكنه ومع الأيام الأولى من الزواج تكشف كرجل لعوب، له معزبة يستقبل فيها النساء والصحاب و يحيي سهرات يومية فلا يعود إلى الدار إلا مع الفجر ويحب أن يضاجعني، فأمتنع، وشريعة الله معي، فالرجل الذي يعود إلى فراشه إلى تلك الحال لا يبقى له حق في الحلال بعد أن قضى وطره في الحرام. هل تعرف يا عبد الحي ماذا بدأ يفعل؟ أخذت أنهض في الصباح من نوم ثقيل و برأسي دواخ ولكنني أخرج من غيبوبة فأحاول أن أرفع يدي ولا أستطيع، وأحاول أن أفتح عيني فلا كان ثقيلا وأن رأسي و حركة جسدي ما زالا ثقيلين، ولما أنهض من الفراش بعد مقاومة للسقوط وأنا أخطو نحو الحمام، أجد نفسي مبللة بماء الرجال. بعد مدة أدركت أنه كان يضع لي حبات المنوم في الطعام أو الشراب قبل خروجه وعندما يعود مع الفجر يفترسني. آثار العض كنت أجدها على شفتي وصدري كما كنت أجد ذلك الماء يبللني ويبلل الفراش والأغطية. وكنت قد صممت على أن أغرز سكينا في قلبه، إلا أنه كان يأتي بأطعمة وفيرة وملابس وهدايا ويضع في كل يوم خاتما ذهبيا مرصعا بالماس في إصبعي ليسترضيني منكرا على نفسه ما كان قد فعله وهو غير واع ثم يلعن الشيطان الرجيم، وبعد تلك المصالحة يحدث لي في الغد ما كان قد حدث البارحة، وخشيت أن أحبل منه ما دام مصير هذه العلاقة هو الطلاق. مات والدي، وكانت أمي قد ماتت قبله، وبقي جواد لا حنين لا رحيم، فجئت به للعيش معي، فلم يتحمله، وهدد بأن يأتي بولده من المرأة الأخرى للعيش معنا في الدار. أقول لك حملت منه وأجهضت بغير علمه وأنا في الشهر الثالث، ثم اتفقنا على الطلاق، أخذ كل ما كان قد اشتراه لي من ذهب وأثاث الدار ومبلغا من المال جمعته من إرث الوالد والوالدة الله يرحمهما،

وغَيَّرْتُ عقد الكراء باسمي، ثم بالماء والشطابة لقاع البحر. أنا بكيت شهور، تعلمت نكمي الدخان. ها جواد حتى هو حب يتعلم يكمي الدخان. ما قاد بالفيل زادوه الفيلة.

تنهدت، و قالت نسيت نفرح بك آ ولد عمي. الهم نساني. لعلي قد أثقلت عليك بهمومي. صدري مفتوح وأنت قريب. الدم يبوح لدمه. اصبر علي وتحملني. خليني نفرغ ما فقلبي.

اقتربت مني وتوهجت عيناها و أمسكت يدي بيدها فبدا عليها ما يعتمل في جسدها من حمى وأجفلت و لكني بالرغم عني كنت قد بدأت أدخل في غياب محموم حجب عني الأشجار وسواقي الماء الجارية والمتنزهين فكدت أستسلم إلى حضنها ولكن جفولي عاد إلي فتراجعت ورأيت ذلك التوهج في عينيها يكاد ينطفئ.

قالت:

ـ مالك ؟

قلت:

ـ أفكر في أن اليوم هو الجمعة.

وأحسست بغباء الكلمات فقالت:

ـ سنلتقي كل جمعة، وهو اليوم الذي تستريح فيه من العمل. اليوم ستتعشى معي في الدار، لترى ابن عمك جواد.

لم أرد. و أمسكت على يدي بيدها بقوة ثم تاهت نظراتها وتحننت ورقت نظراتها وأرسلت من يدها دفئا إلى يدي فعاودني ذلك الدوار وكدت أرخي رأسي على كتفها. ابتسمت وقالت:

ـ عبد الحي. ها هو الدم يلتقي بدمه.

وهتفت بصوت مضطرب.

ــ بهية.

فقالت:

ــ نعم. قل. أفرغ ما في قلبك.

قلت بغباء:

ــ مات سيد الحبيب.

قالت:

ــ أعرف. الدوام لله. و قبل موته مات والداك في حادثة انهيار المنزل. الله يرحمهم جميعا. لكن تحب قول شيء آخر.

قلت:

ــ الكلام كثير والسكوت أحسن.

قالت:

ــ مع بهية لا ينبغي أن يبقى شيء في الخفاء. أنت تعذبت مثلي، والراحة في الكلام.

أخذتني من يدي فنهضنا وكنت خجولا من ذلك اللحم الذي انتفخ في وسطي محاذرا أن يراه المارة من المتنزهين. وشيئا فشيئا بدأت أستريح إلى ذلك التقلص بالرغم من ألم حاد بقيت أشعر به ونحن نسير في الشارع، وقلن لنفسي سوف أجلد عميرة بعد أن أعود إلى الاختلاء بنفسي، ثم قلت لماذا أجلد عميرة وأنا لست في أرض خلاء، فها هي بهية امرأة تمسك بذراعي وتسير بي حيث تشاء. ثم قلت لنفسي هي ابنة عمي وليست امرأتي ولعلها تمارس نوعا من الأخوة بما تراه في كأخ لها و لم تجده في جواد الذي لا يمكن أن يستمع إليها، وحسبت أن كل ما تبقى لي هو جلد عميرة، لكن دفء جسدها، وامتلاءه، واقترابه من جسدي، وحكايات ذلك الاغتصاب بعد تنويم بفحولة

متوحشة، كلها أغرتني بأن أطلق المارد من القمقم، ووجدت نفسي أفكر في خيارين، إطلاق المارد من القمقم أو البقاء عليه حبيسا حتى وهو يتمرد على البقاء في ذلك الحبس.

أحسست رخص جسدها بالقرب من جسدي، وطراوته، فشممت رائحة أنثوية أعمت عيني عما يجول حولي من حركة الشارع، مع هبوط المساء و كثرة المتجولين. لم أدر إلى أين كنت أسير، ولعلي قد فكرت في غابة أو صحراء أو شاطئ بحري مهجور، نبقى فيه وحيدين أنا وبهيجة، ونبدأ حياة حواء وآدم من جديد، نتعلم إشعال النار ونصطاد ونحيا عراة ونواجه الحر والقر، ونملك بهجة الربيع والخريف، حيث لا يكون لها جسد رجولي آخر غير جسدي، ولا يكون لي جسد أنثوي آخر غير جسدها، نضيع مني وأبحث عنها في العراء، أنيمها بين حناياي وأتدفأ بنار جسدها ونسير في البراري باحثين عن ظل لجسدينا وعن مسافات أخرى غير المسافات.

قالت لي:

ــ هل نفكر في الموت ؟ الذين ماتوا الله يرحمهم.

قلت:

ــ الله يرحمهم.

وقالت:

ــ أنا جائعة. تعال.

وأخذتني إلى مطعم على بابه زحام والناس بين آكل في الداخل وجد له مكانا و بين آكل على قارعة الطريق. دفعتني وسط الزحام وقالت لي:

ــ قل له أن يهيأ لنا ثلاثة من السوسيس مع الهريسة. الثالث لجواد.

تزاحمت مع الخلق وهم يتدافعون وطلبت المطلوب فعدت لأقف بجوارها منتظرا إعداد السندويتشات. قالت:

ـــ سنتعشى في الدار. مرحبا بولد عمي في داري. داري هي دارك.

ولم أرد. عادت توسع لي عينيها وتنظر إلي وهي تبتسم. تنهدت، وأدخلت جسدها في جسدي فشعرت باضطراب وخفقان في قلبي وبدأت ركبتاي ترتخيان فأحسست وكأني في حاجة إلى الاستناد إلى جسدها للاستمرار في الوقوف. ضحكت وتباعدت وقالت لي:

ـــ شف السندويتشات.

عدت أدخل وسط الزحام وأخذت السندويتشات من البائع وهو يطلب الثمن فرأيتها تتزاحم وتمد لي ورقة نقدية لكني نقدته وأخذتها فالتهمت أحدها بسرعة وهي لا تنظر إلي وأنا لا آكل، فلما فرغت من أكله ضحكت وقالت لي:

ـــ شبعان ؟ ماذا تغذيت ؟

قلت:

ـــ اتركيهما لجواد.

مشينا في الشوارع وركبنا الحافلة وسط زحام شديد التصق فيه جسدانا وكدنا نختنق من فرط الحرارة والزحام. تنفسنا الصعداء ونحن ننزل في البطحاء. دخلنا مع درب سالاج القريب من الإظلام مع هبوط المساء، وكان الدرب خاليا من المارة فتلكأت في خطاها وبدت كأنها تريد أن تتوقف وهي تمسك بذراعي. نظرت إلي وتنهدت فأحسست بأنفاسها الحارة تلهب عنقي. خشيت أن يظهر أحد من انعطاف الدرب فيرانا كعشيقين يختلسان ما يمكن أن يختلس في لحظة ابرة كتلك، وخشيت على نفسي من ليلة سيجفوني فيها المنام وأنا أحلم ببهية و بجسدها ونظراتها إلي، ثم عجبت لحالي كيف أتوق إلى أن أراها في الخيال وهي الآن أمامي، تسير بجواري ويدها تمسك بذراعي وأنفاسها قريبة من عنقي. وأردت أن أتحين الفرصة لتوديعها حتى أذهب إلى

حالي، لكنها أخذتني ونحن ننزل بين الدروب حتى وصلنا إلى عقبة الفيران فدخلنا دربا مظلمة ووضعت يدها في الحقيبة وأخرجت المفتاح وقالت:

ــ سيفرح جواد.

فتحت الباب المرتفعة بدرجتين بعد أن صعدتهما وتبينت في ذلك الظلام بابا أخرى مجاورة أكبر اتساعا فعلمت أنها تسكن في مصرية لملاصقة لتلك الدار. أضاءت الأدراج وأفسحت لي لكي أصعد، وأخذت تنادي جواد وهو لا يرد. قالت لعله نائم ونظرت إلي وابتسمت. وقفنا وسط صالة أثاثها قديم فعادت تنظر إلي وقالت:

ــ بيت ابنة عمك. مرحبا.

وضعت حقيبة يدها و نزعت الحذاء من قدمها وهمت بنزع الجلباب، وفي تلك اللحظة وقف أمامنا جواد، فقالت له:

ــ ابن عمنا عبد الحي.

ظهرت قواطع أسنانه الكبيرة وهو ينظر إلي. أردت أن أصافحه و لكن نظرته إلي تغيرت فأخذ يخزر نحوي وقال:

ــ ميراص. فيه البرص فوجهه وعنقه.

دعته بهية إلى غرفة أخرى فسمعته يصرخ ويقول:

ــ ميراص.

وهي تحاول تهدئته. جلست بجوار ماكينة خياطة فالأثواب كانت تنتشر على الفرش، وتطلعت إلى الغرفة الأخرى فرأيتها تقبل يده وتترحم على والديهما وهو يبدو كالغاضب من زيارتي، ثم أعطته نقودا و طلبت منه أن يخرج لشراء الخبز.

خرج جواد وعادت للوقوف أمامي وهي تتنهد. قالت لي لا تأخذ على كلامه فهو ابن عمك، وعقله ناقص، ورأيتها تنظر إلى وجهي وعنقي فأحسست بالخرج.

أزاحت الأثواب عن الفرش وأخذتني من يدي لتجلسني في مكان محاط بالوسائد. تنهدت قالت وهذا هو جواد، يصرخ في الليل وينهض لمضاجعتي ناسيا أنني أخته. وماذا سوف أفعل. قلت لك أردت أن أرسله للإقامة في مؤسسة للمعاقين ولم أجد من يساعدني على ذلك. إذا أغلقت علي باب غرفة نومي بالمزلاج فهو يحتاج ويضرب الباب لتكسيره، وإذا تركت الباب مفتوحا فأنا أكون في عز نومي ولا أشعر إلا وهو يركبني ويحاول أن ينزل سروالي. وأنا أغسل جسده وألبسه ثيابه وأطعمه، وصوته لا يكف عن الصراخ. يا إلهي، أنا تعبت.

نزعت الجلباب أمامي ورمت به فوق كوم الأثواب، وشممت رائحتها الأنثوية. ظهر امتلاء جسدها. نظرت إلى شفتيها المكتنزتين وعنقها الشحيم، ولما تحركت في وقوفها أمامي بدا جسدها ممتلئا فضحكت وقالت لي سنتعشى وتبيت هنا في دار ابنة عمك، هذا يوم سعيد. هل نسيت لالة الطام؟ أنا أعرفها جيدا ولا أحب أن أخبرك بما صارت عليه، ولكن أخبرني عن حميد و ما هو فيه الآن. ولم أرد، فقالت لي تعال معي إلى المطبخ وأخرجت دجاجة من الثلاجة فقطعتها أرباعا ووضعت القطع في الطنجرة وأخذت تقطع فوقها الثوم والبصل ثم وضعت التوابل. قالت أنا تعبت يا عبد الحي. الرجل الثاني كان موظفا في دار الضريبة، ظننته في البداية ولدا صغيرا يمكن أن أديره على رؤوس أصابعي، ولكنه طلع أقوى مني، بشراسته قشر مني الجلد والعظم، ولم يطق أن يتزوج امرأة مطلقة وأخوها معاق يقيم معه في الدار، حتى و قد عرف كل شيء قبل الزواج. تصور، فقد كنت أصرف عليه وهو يحتفظ

براتبه الشهري في البنك، حتى ملابسي الداخلية كان يلبسها، ومصروف القهوة والسجائر أعطيه له يوميا من عرق جبيني على هذه الماكينة. يقول يجمع المال لشراء شقة نستقر فيها، ولما اشترى الشقة وفرشناها ذهب للعيش فيها وحده ثم تزوج تلميذة في ثانوية أم البنين، وأرسل لي ورقة الطلاق.

عاد جواد بالخبز فأعطته السندويتشين وقالت له

ــ ابن عمك عبد الحي اشتراهما لك.

فأسرع في إزاحة الورق عن أحدهما وملأ فمه بقضمة كبيرة منه. وقال:

ــ ياك السوسيس ما فيهش البرص؟

ثم نظر إلى الطنجرة التي كان يتقلى فيها الدجاج وقال

ــ أريد أكل الدجاج.

فقالت له:

ــ ستأكله بعد أن ينضج، ولكن اذهب إلى غرفتك وكل ما في يدك واتركني أتحدث مع ابن عمنا عبد الحي.

انصاع وذهب إلى غرفته، فأمسكتني من ذراعي وأعادتني إلى غرفة الجلوس ثم أجلستني على الفراش وجلست بقربي وقد أمسكت يدها بيدي برقة أنثوية وأخذت تتوله في عيني بنظرات انكسرت لها رموشها الوطفاء. ثم قالت لي أنا لم أحب رجلا في حياتي، تزوجت رجلين لم أحب أحدا منهما وضاع العمر وصرت حديدة صدئة. هل يمكن ؟

تنهدت وأدخلت رأسها بين عنقي وصدري في ارتخاء أخذني إلى مناطق السحر والغياب والنسيان، حيث نسيت أين أنا ومع من، وظننتني خارج المجرات والكواكب وخارج فاس وخارج جسدي، فأرخيت رأسي على صدرها وكادت شفتانا تلتقيان في قبلة محمومة ولكن تباعدا قد حدث، فلا هي

نفرت ولا أنا تباعدت، ولكن تباعدا كأنه التأجيل قد حدث، وبدت بهية وكأنها تشعر بدوار هو الذي كنت أشعر به فتمالكت نفسها وقالت:

ـ أنا فرحانة في هذه الليلة باقتراب الدم من دمه.

وضغطت على يدي بيدها، لكني شردت وذهبت بها إلى الصحراء أو الجبل أو الخلجان البحرية وهناك أسكنتها في حناياي ثم بنيت لها عشا مما جمعته من الوجادات وتعلمت إشعال النار والصيد واللغة الأولى التي صرت أكلمها بها وهي وحدها تفهمني. دخلت في ليلها ونهارها ولم أخرج ، ثم قلت سوف أؤجل ذلك الدخول والخروج إلى حين أن أكون وحدي ميسرا كل ما يأخذني معها إلى الصحراء أو الجبل أو أماكن ارتماء الموج على الشاطئ البحري.

قالت لي:

ـ مالك حزين و شارد يا ابن عمي؟

فقلت لها:

ـ أفكر في الأندلس، وأرى تاريخ أسرتنا قبل حروب الصليب وفرار أهلنا ليستقروا في فاس.

فضحكت و قالت:

ـ هي شجرة زقوم واحدة لابد أن يأكل منها كل البشر، تبقى مرارتها في الأفواه.

وتنهدت و قالت:

ـ آه على حرقة الرجال. رجل واحد يبقى ناصعا وجميلا هو أنت يا ابن عمي.

وأصابني الخجل، وزاد من احمرار وجنتي اقترابها مني وإحساسي لأنفاسها تلفح عنقي. ولعلي قد ارتخيت و غبت عن العالم.

في ذلك الغياب أصبحت في فراغ لا يحده فراغ، أرض منسية ولا أحد، وذهاب في مسالك لا تحدها خرائط أو جغرافيات للأماكن، زوجدت نفسي أنكفئ على جسدي وأستف التراب حيث لا ماء ولا شجر ولا ريح أو نبات، ثم جاءتني بهية وبظهورها أمامي جاءت فاس وعدت إلى ما كنت فيه، وجواد يعول عويلا مسموعا بصوت رجولي وبهية تعانقني وتبكي حظها العاثر.

لم آكل من ذلك الدجاج ولا أدري كيف تسللت في تلك الليلة من بيت بهية خارجا نحو دروب فاس في الهزيه الأخير من الليل، لأضاجع نفسي في غرفة نومي التي لم أصل إليها إلا بعد شق الأنفس، لكني استيقظت في وقت متأخر بعد أن نظرت إلى الساعة فعلمت أن الصناع يقفون أمام باب محل الخياطة والمعلم لم يأت ليفتح باب المحل.

لم يكن ممكنا أن أصمد أمام بهية، فقد أخذتها معي إلى الوهاد والجبال والروابي وتساكنت معها وتعرينا في عري الصحراء.

بعد يومين جاءت إلى محل الخياطة و دعتني بإشارة من يدها للخروج من المحل للكلام معها حتى خرجت تحت أنظار الصناع وأنا أحدس وشوشاتهم وتكهناتهم وربما رجمهم بالغيب.

قالت لي يا عبد الحي أنا أنتظرك في الحديقة، في دار الدبيبغ، يوم الجمعة القادم، لأقول لك أشياء لم أقلها بعد، وإذا كان نداء الدم يناديك، فتعال إلى دار ابنة عمك بهية، في أي وقـــت، ولا تأخذ على جواد، فهو ابن عمك، و لكن بهية تحتاج إليك، كأخ، ورفيق، وأنيس، فإذا كانت القلوب قد صارت من حجر، وإذا عميت العيون، فأنت أخي، ورفيقي، ومؤنسي، والآن عد إلى شغلك، وتعال إلى الدار متى تشاء أو دعنا نلتقي في يوم الجمعة القادم في الحديقة.

عدت إلى المحل وقد نسيت مقاييس تفصيل ذلك الثوب بعد أن أربكتني نظرات الصناع. في تلك الليلة، في شقتي بحومة الدوح، فكرت في أن أرسم جسد بهية عاريا كما تخيلته، ولما علمت أن ذلك أمر معجز فقد استسلمت لاستعادة كل ترهات ذلك الكلام، فبدت لي الأمور عادية وعاتبت نفسي على تضخيم الأشياء وإعطائها بعض المعاني التي لا تستحقها، وأصابني الندم.

مارية

جاءت في ذلك الصباح لمحل الخياطة مترنحة الخطى ودخلت فانحنت علي وقالت هل تخيط ملابس للنساء ؟ فاحترت أمام اتساع نظرات عينيها وقلت لها نخيط ملابس للرجال ولكن يمكن أن نخيط ملابس للنساء، ففتحت غشاء الورق وأخرجت منه الثوب ووضعته على طاولة التفصيل. نظرتُ إلى الثوب وتفحصته بأناملي. كان صوفيا مخططا كحلي اللون. وكانت ترتدي سروالا مشدودا على جسدها وقميصا أصفر بلا كمين. فتحت دفتر المقاسات وقالت:

ـ مارية. اسمي مارية.

كتبت الاسم وقطعت بالمقص قطعة صغيرة من الثوب ألصقتها بجوار الاسم. وكانت المرة الأولى التي يدخل فيها اسم امرأة ذلك الدفتر، فكل الأسماء رجالية تحتها توجد المقاييس والمواعيد. أخذت السنتيمتر واقتربت منها. قالت:

ـ أريد بذلة شتائية. السروال كهذا الذي علي.

ترنحت في وقوفها غير مبالية بنظرات الصناع. وكان عطرها الفواح قد انتشر في المحل، ورأيت في العيون تناوما وخدرا توقعت أنه يسري في الأطراف. اقتربت منها فافتعلت وقفة عسكرية وهي ترفع رأسها نحو الأعلى فأخذتُ مقاس الكتفين وأنا أحاذر ألا أمس نار جسدها بأناملي، ثم أخذت مقاس طول البذلة وطول الكمين، وأحطت السنتيمتر بصدرها في المكان الذي يبرز فيه النهدان.

كنت أسجل تلك المقاييس وأنا أشعر بارتخاء في ركبتي وأنتظر اللحظة التي أفرغ فيها من أخذ المقاسات فتغادر المحل قبل أن أتهاوى مغشى علي. بقي عليّ أن آخذ مقاسات السروال، فأحسست بالحرج، إذ كان علي أن أضع رأس السنتيمتر في مكان حساس فنظرت إليها وقلت لها يمكن أن تأتي في وقت آخر بأحد السراويل التي ترتاحين لتفصيلها حتى آخذ عليه المقاسات، فابتسمت، وبحركة من يدها رفعت ذراعها العاري فبدا الزغب الأسود عند إبطها وفاحت الرائحة الأنثوية ممزوجة بعطر يحلل النفس. سألتني عن الأجرة، وسألتها عن أنواع التبطين والأصداف التي تريد حتى أقدر الثمن، فضحكت وقالت أريد بذلة محترمة وافعل ما يبدو لك وأنا سأدفع لك الأجرة التي تريد. قالت ستأتي بأحد سراويلها وسألتني هل عندنا تلفون في المحل فأعطيتها الرقم، ولما خرجت كان علي أن أستعيد للعمل هيبته مانعا بنظرات صارمة كل تعليق أو غمز بين الصناع، كما كان يفعل سيد الحبيب وحميد في مثل هذه المواقف، فالمعلم إذا فقد هيبته فسدت العلاقة مع الصناع. لكني في تلك اللحظة أحسست بالدوار وبالرغبة في القيء الذي فاجأني فما أدركت أن أخرج إلى مرحاض عمومي قريب وتدفق ذلك السائل الأبيض الذي لم أعرف كيف جاء إلى معدتي. نز من جبيني عرق بارد، ودمعت عيناي، فنهض الصناع وأحاطوا بي وأخذوا ينظرون إلى ذلك القيء ففهمت من مكر نظراتهم أنهم يريدون أن يكتشفوا فيه سبب القيء، وما كان هناك شيء يكتشف، سوى رغبة بيضاء وزلال لا لون له، ولعل فضولهم كان يتجه نحو ما تغذيت منه في البيت، أو أن أحدهم كان ينتظر أن يرى بقية من خمر.حدست ذلك فتماسكت وأراد أحدهم أن ينظف الأرض فمنعته وقمت بتنظيفها بنفسي مستعملا المطهر الذي تستعمله المنظفة التي تنظف المحل كل صباح.

كان مولاي المهدي ينظر إلى كل ما يحدث بهدوء وحالما تلتقي نظراته مع نظراتي يمدني بتشجيع منه على مواجهة الموقف، فهو يعرفني منذ أن كان صانعا لدى سيد الحبيب وأنا صغير، ثم صار صانعا مع حميد في نفس المحل، وحالما فتحت هذا المحل، جاء للعمل معي، بقرار من حميد، الذي طلب مني أن أزيد في أجرته لأنه هو من سيساعدني على الإتيان بالصناع والزبائن ومن سيوجه عملي في البداية كمعلم، حتى وهو صانع، ولقد كان جاري في تلك الدار التي عشت فيها ما عشت كما علمتم، وهو متزوج وله أولاد ويكبرني بأكثر من عشرين عاما، ولذلك فقد كان يحميني في تلك اللحظة بسطوة نظراته من ميوعة الصناع الذين كان هو الذي أتى بهم للعمل معي في المحل، وبعد حين عادت الأمور عادية كما كانت.

في الغد جاءت ماريا بأحد سراويلها الذي كان علي أن آخذ منه المقاسات، وحالما أخرجت الدفتر تركت السروال وقالت أنا متعجلة وسأعود لأخذه فيما بعد. قالت أنا أسكن في دار قريبة من هنا، وأمر في كل وقت من طريق المحل، ثم غادرت، فأخذت المقاييس وأنا أنشر السروال المدادي اللون، من قطيفة دقيقة الخطوط، على الطاولة، وأضع رأس السنتيمتر في ذلك المكان الحساس لأخذ المقاس فيما بينه وبين القدم، طولا، وفيما بينه وبين الحوض، عرضا، والأخاييل تأخذني إلى حرائق الجسد وحدائقه وانعطافاته وأبهائه. ثم لففت السروال في ورق حتى تأتي صاحبته لأخذه ولكن فكرة ألحت علي وهي أن آخذ السروال معي إلى شقتي، ليبيت معي في فراغ ووحشة الفراش شيء من مارية.

مارية قالت اسمها. شعرها كان مصفوفا غجريا وعيناها حجليتان وبياض بشرتها لا يخدعه إلا ذلك الزغب على الذراعين، وجهها على طول

وحنكاها نحيلان وجسدها نافر نزق بادي الترنح حتى وهي واقفة، وعينتها ساحرتان.

لم تأت في ذلك المساء لاستعادة السروال فأخذته معي إلى الشقة وبت ساهرا أراه و أعانقه وأشم منه رائحة الأنثى. كان تعذيبا للنفس ندمت عليه، وظننت أن مولاي المهدي كان ينظر بعين لا مرئية إلى ما كنت أفعل، وإلى وساوسي وأوهامي، وحسبته يظهر أمامي في وحدتي ويقول لي آن الأوان لكي تتزوج يا عبد الحي، ثم أصغيت إلى صوته وهو يحدثني عن زواج حميد الثاني بعد زواجه من لالة الطام، وزواجه الثالث، وذهابه عن فاس برأسمال صغير ليفتح محلا للخياطة في الخميسات. وعجبت لمولاي المهدي كيف يأتي إلي في هذه الخلوة ناصحا وأنه ضميري، والسروال تجول في كل غرف الشقة التي أسكنها، وانتهى معي إلى فراشي، لكني في الغد أعدته إلى محل الخياطة محاذرا أن يرى أحد الصناع وجوده في يدي وأنا أدخل المحل، فقد كان المفتاح بيد مولاي المهدي، وأنا لدي مفتاحي ولكني في العادة أصل إلى المحل متأخرا عن الصناع بنصف ساعة تقريبا، ولكني في ذلك الصباح أتيت قبل وصولهم وفتحت المحل بمفتاحي وأعدت السروال إلى مكانه.

بعد يومين كلمتني مارية بالهاتف وكان صوتها منتشيا بضحكات وبغنة وتدلل وهي تقول إنها قد نزعت ضرسا من داخل فمها، وأخذت تمطط العبارة وهي تقول:

ـــ من الداخل. من الداخل.

قلت لها:

ـــ لا باس عليك، بالشفاء إن شاء الله.

فأخذت تقول غير مبالية بكلامي، وصارت تردد:

ـــ من الداخل، من الداخل.

لكنها أخذت تضحك وقالت:

ــ أنا وحيدة معي ابني ومستلقية على الفراش.

فتخيلت استلقاءها على الفراش، وحاصرتني نظرات الصناع الذين توقفوا عن العمل وأخذوا يتتبعون كلامي في الهاتف ولاشك أنهم قد عرفوا أن محدثتي امرأة. قالت:

ــ كلمني بالليل لتطمئن علي.

وأملت علي رقم الهاتف، ثم قطعت الخط.

ترددت كثيرا في تلك الليلة ولم أتصل بها بالهاتف، وكان ذلك التردد نفسه هو الذي حدث لي في أوقات سالفة مع نساء أخريات.

ما الذي تريده مارية مني ؟ أتريد أن تسفح دمي؟

لعلها كانت تبحث عن رجل تتسلى به لبعض الوقت، فهي امرأة يبدو عليها الثراء، وقالت هي وحيدة ومعها ابنها، فلعلها مطلقة أو أن زوجها مسافر أو أنها هي التي تسافر في المدن، مع الرجال، تغيرهم كما تغير ملابسها الداخلية، ثم تتساهم بعد حمام منعش وتدليك للجسد وتعطر ينهض همم الرجال.

في هذه المرحلة ما كنت مشغولا بجسدي وحده بل كنت أتابع الأخبار والأحداث. وكنت ألتقي بأصدقاء طلبة تعرفت عليهم فأحببت مجالستهم والإصغاء إلى أفكارهم التي بدأت أتبنى بعضها، كما سعيت إلى قراءة ما يقرءون من كتب.

كانت البلاد تعرف منعطفا سياسيا خطيرا بين سطوة المؤسسة الملكية واعتمادها على الجيش وقمع الحريات وبين اختيار آخر لنخبة من رجال السياسة والمثقفين ينظر إلى الوسائل الممكنة للتحرر من إرث الملكية وتقاليدها ونظرة الشعب إليها من أجل الوصول إلى نظام سياسي جديد، ومع أن الناس

كلهم كانوا يكرهون العسكر والانقلابات الدموية ونتائجها فقد كان هناك تطلع لمشروع ثوري اشتراكي يبنيه اليسار، وكانت فلسطين بعدا عربيا، وكانت القومية والوحدوية والبعثية موجودة ولكنها تطرح على من يتأمل مشروعها أسئلة الديمقراطية في ممارسة أنظمة تعتمد على الحزب الواحد، وكان العالم يعج بالمذابح والانقلابات والسجون.

الخياط عبد الحي كان يتعلم من المرحلة متطلعا إلى ما كان يعتبره دروسا يتلقاها من أناس يعرفهم، يوجدون في قلب الممارسة السرية، وقد وثقوا به فأصغى إلى كلماتهم الخارقة، وما كان له أو لهم من طموح سوى الحلم بدولة حديثة تنسى تاريخ المخزن وتبني علاقة جديدة للمواطنة مع دولة الحق والقانون، ومع الديمقراطية، وتنمية الحس السياسي لدى المواطن.

قد يكون الصناع لم ينتبهوا إلى تلك الزيارات والمواعيد التي كنت أدخل فيها مع شباب أضاعوا شبابهم في مسافة بين الجرأة على الكلام وبين الخوف من نظام ملكي بدأ يتجه نحو قتل معارضيه، ونحو تثبيت ذاته بكل أدوات النظام المخزني.

من هي ماريا في كل حياتي السرية التي لا يعرفها الصناع كما أظن، وهل هي رسالة من أحد، أم هي مخبرة تعمل لصالح النظام، أو مع نظام خارجي آخر يرصد تحولات الوعي في المغرب ليعرف كيف يواجهها وكيف يواجه المستقبل ؟

لم أصدق حكاية امرأة تأتي إلى محل خياطة للرجال لتخيط بذلة نسائية لها حتى وما كان في هذا الزمان محلات لتفصيل وخياطة النساء، فالنساء كان أغلبهن يرتدين الجلابيب وتحتها ملابس من صنع الخياطة التقليدية، أو يشترين من الجاهز سراويل غلامية لا يرتدينها إلا من أجل التصوير في لقطات عابرة

في الزمن، أو ما كانت تشتريه نساء النخب من فرنسا من ملابس عصرية من أجل خلق مغايرة مع الجلباب النسائي الذي كان هو لباس النساء في الشارع.

الناس الذين أعرفهم، من اليسار، لا يمكن أن أبوح بأسمائهم حتى ولو كان الجنرال قد اعتقلني ومارس علي تلك الأنواع من التعذيب التي تعرفونها جميعا، فهم أصحابي، وإذا كانت ماريا مشتهاة إلى ذلك الحد الذي جعلني أقيأ قيئا أبيض، أو أنيم سروالها معي في الفـراش، فهذه أوهام لا علاقة لها بالحقائق التي تبحث عن تجسيداتها في متغيرات الواقع، فماذا تريد مارية من مني، خياطة البذلة أم تفصيل العمر على مقاسات لم أخطط لها ؟

قلت لنفسي سوف أجعل من مارية وقتا للعب، وحيث سأتراخى وأؤجل إلى غاية أن تستنفذ طاقتها ويظهر لي بالبرهان ما تريد.

ولكن وقت ذلك لم يطل، فما طال انتظارها ولا طال انتظاري.

فجأة وجدت نفسي في ليلة ماطرة وبعد أن أغلقت المحل أسير بين دروب ملتفة مظلمة محاطة بالأسوار وأبواب البيوت، مطأطأ الرأس مسرع الخطى، حتى طرقت الباب ثلاث طرقات كما طلبت مني، بالمطرقة التي على الباب، متلاحقة سريعة متوترة، وأنا أمسك بالمطرقة وحديدها البارد يزيد من ارتعاش جسدي ومن قلق ما أنا مقبل عليه، فتوانت قليلا ولعلها كانت قد سمعت الطرقات، حتى يدق قلبي، ولكن قلبي ما دق إلا من إقبال على مغامرة أعددت لتفاصيل وقوعها بعض السيناريوهات واحتسبت لغير ما توقعته سيناريوهات أخرى، مسلحا بنقاء سريرتي، وبحبي للناس، ومسلحا بأن رغبة الجسد لا يمكن أن تخذلني. هكذا قلت لنفسي وأنا أستعد للقاء مارية، في بيتها في تلك الليلة.

قبل أن تفتح الباب ظننت أنهم القتلة الذين يوظفهم النظام سوف يقشرون أظافري ويزرعون أصابع الكهرباء في وسطي، ولكنها فتحت الباب، وأبان

الضوء الخفيف أدراجا صاعدة ضيقة فأفسحت لي وأغلقت الباب و صعدت فصعدت من خلفها صعودا نحو لا منتهى وأنا أقاوم اضطراب ركبتي و وجيب قلبي حتى وصلت إلى وسط الدار فرأيت الأغراس وأصبحت مطمئنا إلى عدم وجود أحد، فأشارت لي بالاقتراب وأجلستني فجلست وقالت وهي تتفحصني بنظراتها:

ـ مرحبا بك آ السي عبد الحي.

ارتبكت وهي تنظر إلى عنقي و قد طفحت عليه بقع البرص، لكن أمرا آخر كان قد شغلــني وهو معرفتها لاسمي، وانشغلت بسبب الزيارة التي دعتني إليها بإلحاح خلال مكالمتها، فلم أدر ما أقول. عادت ترحب بي وقالت:

ـ ماذا تحب أن تشرب ؟

قلت:

ـ لا تتعبي نفسك.

لكنها نهضت فأتت بزجاجتي بيرة وكوبين ثم عادت إلى المطبخ لتحضر صحونا صغيرة بها كوكاو وجزر وجبن، وأفرغت ما في الزجاجتين في الكوبين. بعد أن شربتْ ثلاث أو أربع زجاجات احمرت وجنتاها وبدأ لسانها يثقل وهي تحدثني عن تلك الليلة التي غيرت حياتها. قالت كانت قد سافرت لأيام في دورة تدريبية للعزف على الكمان، وتركت مولاي أحمد في الدار. قالت كان رفيقا يشرب خمرته من الصباح إلى الليل ويحب الغناء والسفر ومباهج الحياة، يعيش بمال وفير هو إرثه من العائلة، سافرت معه إلى كل بلدان أوربا كما سافرا إلى بيروت والقاهرة، وقالت أحببته حبا جنونيا حتى وهو غير متعلم تقريبا وأنا مهندسة معمارية تخرجت من أكاديمية الهندسة بباريس، وأقنعني بلا جدوى أن أعمل راغبا فيَ أن نقضي عمرنا معا في الأسفار والمتع وسماع الموسيقى. كان مُوسْوَسًا بنظافة جسده يغسل مرتين أو

ثلاثا في اليوم ويغير الثياب ويتعطر ولا يحب أن يغادر هذه الدار إلا إذا كان معي، الخدام يأتي بالأشياء التي نحتاج إليها من السوق وهو لا يحاسبه على ما يدفع، والخدامة يعاملها كأخته ويكتفي بأن يقدم لها التوجيهات حول ما يشتهي من طعام، كان حبيبي وزوجي وأخي، يسهر عليَّ وأنا نائمة ويتوله في بالليل والنهار، ويقول لي باكيا كطفل أنا يا مارية أحتاج إلى أضعاف عمري لكي أحيا معك وأحبك وأستأنس بك في وحشة هذا العالم، وكنت أظن أنه يضخم من الأشياء بسبب السكر، ولكنه كان لا يفعل شيئا غير الشرب وسماع الموسيقى، قليل الكلام كثير التوله فيَّ والدموع تطفر من عينيه، وأنا أقول له حبيبي ها أنا معك، وهو يقدم لي كأسا ويخرج ليغيب قليلا ثم يعود ببطاقتي طائرة إلى باريس أو مدريد أو القاهرة، وكان رغم ذلك الحب لا يتدخل في علاقاتي مع الناس، ولا يبدي غيرة تفسد ما بيننا، وإذا أحس أنني أحترم أحد الرجال فهو يسعى إلى استضافته ويصغي إلى ما يدور بيننا من أحاديث حول الثقافة والسياسة والأدب، ويتصرف بنبل كبير مع أصدقائي، وحالما كنت أسأله لماذا لا تغار علي مع كل هذا الحب كان يقول لي أنا أمتلكك أكثر من غيري وأنا أراك في اليقظة والمنام، فلماذا أغار من رجل يضاحكك أو يناقشك في بعض الأمور التي لا تهمني، ولماذا أعكر صفو حبي لك بترهات لا وقت لي لها؟ يضحك ويذهب إلى غرفة النوم لكي يصب على وجهه وراحتيه وثيابه من قارورة العطر، ويعود لمجالستي وتقبيل يدي والتوله في عيني، فأمْرِ الخادمة بإعادة تصفيف الأطعمة على المائدة، ويشعل لي سيجارة ويقرب الكأس من شفتي وهو واله ونظراته غائبة، ذاهب لا أدري إلى أين. لم أكن أتخيل أنه ذاهب نحو الموت، وأنه سوف يموت على الأدراج، وما تخيلت أن أعيش بدونه لحظة واحدة من حياتي. كان يحبني امرأة قريبة منه في كل الأوقات، ولما كنت اخرج أو أسافر لوحدي أو أتلقى مكالمات هاتفية من بعض

الأصدقاء فقد كان يسعد بذلك وهو ظاهر البكاء ويقول لي لا أحب أن أكون سجانا لمن أحب، أحب طائري خارج الأقفاص يطير حيثما شاء ويعود إلي برغبة واختيار، ثم تذرف عيناه دموعا يقول هي دموع المحبة، يعتذر عنها ويقول إنها قد تفجرت بغير إرادته، وليحسم اللحظة يطلب مني أن أعرف له على الكمان.

هذا هو مولاي أحمد، أنجبت منه ولدنا سعيد، عمره الآن أربع سنوات وهو نائم في غرفته. وأشارت إلى الغرفة وقالت تركه لي كأجمل هدية منه، وراح نحو الموت. وآه يا عبد الحي لو رأيتني في لباس الوقار الأبيض والولد يراني على تلك الحال ولا يدري أين غاب والده ولا لماذا أنا أرتدي البياض.

شربت زجاجات أخرى من البيرة وكانت تدخن بحرقة حتى امتلأت الغرفة بسحب الدخـــان، وكنت أفكر في سروالها الذي أنمته في فراشي وها هي بلحمها ودمها تجلس بجواري، ولكن الحكاية التي تحكيها عن مولاي أحمد قد جعلتني أندم عما فعلته بالسروال وبنفسي وما كنت قد ذهبت إليه من أوهام وخيالات مع ذلك السروال. قلت لها أحب أن أذهب، فارتبكت وقالت أنا لم أكمل كلامي، ولكن غدا سأزورك في شقتك فأنا أعرفها، انتظرني في التاسعة ليلا، ستذهب بعد عشر دقائق، وأحضرت الكمان فعزفت عليه مقطوعة أصغيت إليها بابتهاج وأنا أنظر إلى انحناء رأسها وغياب عينيها مع اللحن ونظراتها إلي.

خرجت ذاهلا بما سمعت، ولا أدري أي طريق أخذني إلى شقتي، فقد استبدت بي الأخاييل، وحسبتها امرأة تأتي من حلم.

قضيت تلك الليلة مع أطياف نساء كنت أقصي منها طيفا وأُحضر آخر. وقضيت يوم الغد في العمل في المحل، ساهما ومنتظرا ما لا أنتظره.

لمت نفسي على ما كان قد أصابني من كابوس سياسي، وما كان يسميه رفاقي بفوبيا التعذيب، وهي حالة نفسية مصدرها الخوف من الجلادين، واسترخاصهم للضحايا والعبث بأجسادهم كما يعبث المتوحشون بالأنبياء وهم لا يدرون رسالتهم.

وفي الغد رن الجرس في الساعة التاسعة تماما، ففتحت الباب ووجدتها مع ولدها الصغير وقالت لي هذا هو سعيد. قبلته وأخذته من يدها وهو ينفر مني، وحاولت أن أحمله بين يدي فزاد نفوره وقالت لي سوف يألفك بعد وقت قصير. جلسنا في الصالون ولم أكن قد انتبهت إلى علبة في يدها إلا بعد أن وضعتها على الأرض وأشارت إليها بنظراتها فأخذتها ووجدت فيها زجاجات بيرة وصفائح من ورق فضي بها ما يمكن أن يتلذذ به من قطع دجاج وأسماك مصبرة وشرائح خبز، فخجلت من ذلك وعدت إليها وقلت:

ـــ مدام، حرام عليك. هل بيتي هو بيت الجياع؟

فضحكت وقالت:

ـــ لا تقل مدام. أنا مارية. والولد لم يتعش بعد. أعرف أن البيرة لا يمكن أن توجد في بيتك. ثم إنني أنا التي دعوت نفسي إلى بيتك، فكفاك لطفا أنك قد قبلت.

أخجلني كلامها، ونهضتْ إلى المطبخ فرتبتْ كل الأشياء ولما تبعنا سعيد قالت له قَبِّلْ عمك عبد الحي، فقبلني على مضض، وأعدتْ له صحنا خاصا به، وجلسنا فأطعمت الولد ونام بعد لحظة على الفراش وهي تهدهده بيدها.

قالت لي يا عبد الحي أنا في الخامسة والثلاثين من عمري، وماذا علي أن أفعل بنفسي بعد أن مات مولاي أحمد. أصدقائي كثيرون وأنا أعتبرك واحدا من بينهم، إذا قبلت صداقتي، ولكن ذلك الحب الذي وهبني إياه مولاي

أحمد لا يعوض، ولا يمكن لرجل أن يتوله في كل ذلك التوله. كان يقول لي أنت باب من أبواب فاس، وأنت شرفة فاسية مها أطل على العالم ، ثم يقول لي أنت حواء وأنا آدم. ولا أخفيك أنني كنت أتضجر من حماقاته وسخافاته، ومن قساوة هذا البوح علي، فأنا أعرف أنني جميلة و لكن جمالي ما كان يمكن أن يسحر رجلا إلى هذا الحد. أ إلى هذا السبب مات؟ ربما. ما عاد بإمكاني الآن أن أعود إلى مشاريعي في الهندسة المعمارية، فلقد فقدت صلتي بكل المشاريع، والناس في الحي ينظرون إلي كأرملة، بعد أن كانوا يهابونني كامرأة لمولاي أحمد، وكواحدة من أوائل الخريجات في تخصص الهندسة المعمارية من أكاديمية باريس، لعلهم ينظرون إلي الآن كعاهرة، أو يقولون كلاما لو بعث مولاي أحمد من قبــر ه وسمعهم يقولونه لقطع ألسنتهم. نام سعيد. أنا فرحانة بك آ عبد الحي.

كدت أن أسألها من أنا بالنسبة إليك حتى اخترت صداقتي، وكيف عرفتني، ولماذا كل هذا البوح، ولماذا جئت إلى محل الخياطة المعروف بخياطة ملابس للرجال طالبة أن نخيط لك لباسا نسائيا، وكيف عرفت اسمي، ومن أدراك أنني أحسن الاستماع بكل هذا الصبر لمحن الآخرين ؟

كيف أسأل، وهي أرادت أن تغادر شقتي والولد نائم، فحملته بين يدي وخرجنا حتى أوصلتهما إلى البيت وعند الباب تسلمته مني نائما وقالت لي تصبح على خير.

في الغد جاءني صوتها عبر الهاتف وقالت أنتظرك بعد أن تغلق المحل في الموعد في بيتي.

اعتبرتها لعبة مسلية رغمِ الجروح التي تنطوِي عليها ولكن مادام ليس للأمر علاقة بالبوليس فيمكن، حتى مع غياب أي وضوح في العلاقة. ولعلي قد ندمت على تلك الأوهام فقلت لنفسي الناس يعرفون بعضهم وإذا ما كانوا

صادقين فهم يحتاجون إلى البوح. ولا بأس، فمارية امرأة لمولاي أحمد الذي مات ولا أدري كيف مات وهي ليست امرأتي ولن تكون لأن تقاليد الحب قد ترسخت بطريقة خاصة في ذهنها من خلال محب لا وقت له إلا للحب. ولقد غبطته على ذلك، لكني عرفت أنني أسترزق من محل الخياطة، وليس لي وقت للتوله في عيني امرأة من بداية النهار وإلى آخر الليل. المرأة يمكن أن تكون فراشي وغطائي ومشروعي في الحياة ولكن بدون عمل أنا لا يمكن أن أكون.

استرجعت مفاتنها، وقلت لنفسي لا يمكن أن أباديء بمحاولة لدخول تلك المفاتن، حتى لا أكون متهورا فأفسد علاقة إنسانية تبقى لها المحبة والاحترام، و قلت ربما هي ستباديء إن كانت لها رغاب، ثم أحسست بأنني رجل مثالي واستعدت قول من قال:

فاز باللذة الجسور

وأخذت مع نفسي أناقش معنى الجسارة، فهل كانت لالة الطام جسورا على الفوز باللذات، وأية لذات ؟

اغتم خاطري فلم أدر ما أنا صانع بنفسي، وخشيت أن أفقد صداقة مارية بمبادرة ليست في محلها، ثم خشيت أن أضيع لذات لا حد لارتياد مفاتنها بهذا الحذر، فلم أدر ما أصنع.

أتيت إلى بيتها، وطرقت الباب بالمطرقة ثلاث طرقات، منتظرا، ثم فتحت الباب وأدخلتني ولما أغلقته توقفت عند المدخل ونظرت إلي وطفرت الدموع من عينيها. قالت:

ـــ هنا وجدته ميتا، عند الباب.

ولم تبرح مكانها ثم قالت:

ـ كان متعفنا فانحنيت عليه وأشعلت الضوء، فكان رأسه مرتجا من أثر السقوط على الأدراج، ولعله كان يهم بالنزول لفتح الباب لأحد فتدحرج على الأدراج وشج رأسه وبقي هناك ميتا.

أمسكت بذراعي وهي واقفة لا تتحرك، وعادت تقول بأسى عميق:

ـ كنت أنا أعزف على الكمان مستقبلة إعجاب الحاضرين كان هو هنا يتعفن. يا ويلي.

بدت كأنها سوف تتهاوى بين ذراعي، لكنها تباعدت وصعدت الأدراج فصعدت من خلفها وجلسنا فأعادت على مسامعي سيرة مولاي أحمد التي ظلت تعيدها علي لأعوام كلما التقيت بها ونحن بين زيارتي لبيتها وبين زيارتها لي في شقتي، والولد يكبر، هو الذي كان إذا نام في بيتي أحمله بين ذراعي حتى أوصلهما إلى باب بيتها، واليوم صار شابا طويل القامة أشقر الشعر يعرفني ولا يعرفني، فكلما التقيته يتجاهلني بنظراته، وأما مارية فقد منعت الألفة التي صارت بيننا كل احتمال آخر كان يمكن أن تذهب إليه علاقتنا، فلم أبادئها بشيء ولم تبادئني بشيء.



التقيت معها لأول مرة في بيت رفيق. بيضاء شفتاها مثمرتان وعيناها غمازتان. انحنيت على رفيقي وسألته عن علاقته بها فأنكر كل علاقة فقال هي جاءت ويمكنها أن تذهب، وإذا أحببت أن تصاحبها فأنا لا دخل لي. ثم قال أراك معجب بها، فلم أرد بشيء. بعد أن رشفت من كوب العصير رشفة لطيفة تأنقت لها شفتاها أخرجت من حقيبة يدها ديوان شعر ووقفت في وسط الغرفة وبدأت تنشد القصيدة. تفننت في ذلك الإنشاد وعيناها تغيمان ويدها ترسم حركات في الفراغ. لم أستوعب قليلا أو كثيرا من القصيدة ولكن طريقتها التعبيرية وصوتها المتنوع الطبقات المثخن بجراح قد جعلاني أدرك أن القصيدة عظيمة و أنها قد انغلقت علي، فلم أدرك منها إلا أنها ثورية على رومانسيتها. ركزت النظر على الديوان فكان مطبوعا بغلاف أنيق ولم أتبين من هو الشاعر، وخلتها هي صاحبة ذلك الديوان، فقد بدت حافظة لما تقرأ وما وجود الديوان في يدهـــا إلا إشارة تستعين بها من حين لآخر.

انتهت من قراءة القصيدة فغمرناها بالتصفيقات. كنا سبعة أو ثمانية، أنا الخياط وبائع متجول يناضل في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، والباقي طلبة في الجامعة، ينتمون إلى الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. تجمعنا أحاديث محمومة حول الوطن وحالما نصل إلى الأفق الذي تنتظره البلاد تحتد اللهجة ويكثر إحراق السجائر ونحن نجول في كوبا والشيلي والفيتنام وتجارب بعض الأحزاب التي وصلت إلى السلطة بثورات كان لابد أن تتحالف فيها مع العسكر، وكان منا من يرى أن قضية فلسطين هي ما يمكن أن يوحد الشعوب

العربية تحت حكم واحد وفي إطار دولة علمانية تحترم الأديان و الانتماءات العرقية وتحرر الحدود والاقتصاد من التبعية، فكنا نناقش تجارب القوميين و البعثيين والوحدويين والأصوليين، ونسأل عن خلاص ممكن. لكن ذلك النقاش ما كان يعفينا من ممازحات وسخرية وجرأة على اقتحام عوالم الذات، مما كان يذيب حدة الصراع وتشنج بعض المواقف وطيش بعض الغاضبين.

كنت أتعلم منهم، وأصغي إلى أسئلتهم وصخبهم وأتسلم منهم بعض الكتب لقراءتها حتى يتسع أفق تفكيري. وكانوا يكثرون من ترديد اسم ماركس ولينين وتروتسكي وماو وأليندي وأحيانا يستشهدون بأقوال لبعض هؤلاء لتعزيز ما يردون الوصول إليه في نهاية التحليل. قبلوني بينهم وأنا خياط، دعوتهم إلى بيتي عدة مرات فكانوا يحاذرون من أن يكون البوليس مترصدا مجيئهم بعد حادثة اعتقال زعيم من بينهم كان مناضلا في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب.

انتهت إكرام من إنشاد القصيدة وكان هناك من قبلها على خديها عدة قبلات، فتوهج خداها واقتربت مني وقالت:

ـــ أحب أن يقبلني صديقكم هذا.

فصخبوا وقالوا:

ـــ قبلها.

فاحمر وجهي من الخجل، ولما قربت خدها مني قبلته وعلت التصفيقات. ثم قالت:

ـــ أنا لا أعرفه وأنتم تعرفونه بطبيعة الحال.

ورد أحدهم:

ـــ تحبين أن يقبل خدك رجل لا تعرفينه؟

بدا عليها الغضب وقالت:

ـ لسنا في ماخور. الشرف احتفظ به لأمك.

كاد يبادر إلى صفع خدها وهو يشتمها بكلمات نابية فتدخل الرفاق لفض النزاع، وقال أحدهم:

ـ لا ينفعك غير هجائه بقصيدة.

فقالت:

ـ حتى الهجاء لا يستحقه.

وطالبوها بقراءة قصيدة أخرى من ذلك الديوان.

حال خروجنا من ذلك البيت، في تلك الليلة، كان البرد شديدا فاصطكت أسناننا وارتعدت مفاصلنا فتفرقنا في الحال. لكن إكرام تشبثت بي مثل قطة وأدخلت جسدها في جسدي وقالت أحب أن آكل شيئا قبل أن أعود إلى الحي الجامعي.

أدخلتها في حناياي، وخلال مسيـــرنا بخطوات مضطربة وهي تتمسك بي قالت:

ـ أنت خياط ؟

ثم ضحكت وقالت:

ـ والدي أيضا خياط. لكن أنت تخيط الملابس للأحياء، ووالدي يخيط الأكفان للموتى.

حسبتها تمزح، ولكنها أقسمت على ذلك. ثم قالت:

ـ الرفاق يثقون بك، ونحن نؤمن بثورة تقوم على أكتاف العمال والفلاحين والطلبة.

بقيت صامتا حتى أخذنا سندويتشن دفعت ثمنهما ولم تظهر عليها أية مبادرة للدفع، فأكلناهما على الطريق مشيا نحو طريق الحي الجامعي، في ذلك البرد القارس، وأحرقنا بعض السجائر وهي تدخن بحرقة وإخفاء جسدها في

جسدي يدفئني ويعيد إلي شيئا من الإحساس بإنسانيتى، فها هي شابة جميلة ترافقني وها أنا لا أشعر بالوحدة، بل إنني الآن أتمنى لو كان الطريق إلى الحي الجامعي يمتد بعيدا في طريق مغمور بالماء والشجر أو بالصحراء أو يسير نحو لا منتهاه.

في ذلك المسير أحسستها تنظر إلي ثم قبلتني على خدي ولما هممت بتقبيلها أبعدت وجهها عني وسرنا في صمت.

قلت لها:

ـ تعالي معي إلى شقتي.

فلم ترد. أوقفت سيارة طاكسي فلم تتردد في الصعود، وجلسنا إلى الخلف متباعدين احتراما للسائق ومن غير أن نتحدث في شيء، فسواق الطاكسيات أغلبهم من المخبرين، فلما نزلنا من الطاكسي عند باب العمارة قالت:

ـ ما زلت أشعر بالجوع. ما أكلته لم يشبعني. فهل نجد في طريقنا محلا لبيع السندويتشات ؟

فقلت:

ـ العشاء في البيت.

ابتهجت، ولما دخلنا الشقة وقفت عند الباب مترددة ولكنها دخلت.

قالت:

ـ أشم رائحة العزوبة.

فقلت:

ـ هل تكون للعزوبة رائحة؟

فضحكت وقالت:

ـ الناس الذين تعودوا على العيش في بعض الأماكن تصبح لها رائحتهم أو تصبح لهم رائحتها.

ذهبت إلى المطبخ ووضعت قدرا على النار ليسخن ما فيها من طعام، ثم أخذتها من ذراعها إلى صالة الجلوس وسألتها عن ديوان الشعر فأشارت إلى حقيبة يدها وقالت:

ـ قرأنا من الشعر في تلك الجلسة من الرفاق ما فيه الكفاية.

اتسعت عيناها فحاولت الاقتراب من جسدها لكي أضمها إلى جسدي ولكنها تباعدت وتنمرت وقالت:

ـ شف يا أخي أنا لا أحب هذا اللعب، اجلس في مكانك واحترم.

فتصاغرت أمام تنمرها وجلست كطفل على الفراش ناظرا إلى بهاء جسدها الذي كان قبل حين يدخل في جسدي متدفئا من البرد كما قالــت.

أخرجت مرآة صغيرة من حقيبة يدها ونظرت إليها ثم كسرت المرآة تحت كعب حذائها، وأخرجت مشطا مشطت به شعرها وهي تنظر إلي نظرات منفعلة وكسرت المشط بين يديها، ثم قالت لي:

ـ الطعام يحترق، أما تريدني أن أتعشى كما وعدتني؟

فذهبت إلى المطبخ و كان الطعام قد احترق بالفعل.

عدت إلى صالة الجلوس وجدتها مستلقية على الفراش تضع وجهها بين كفيها وهي تجهش بالبكاء. قلت لها:

ـ إكرام. مالك ؟

زاد بكاؤها وأخذت تشهق فوضعت يدي على كتفها ولكنها شتمتني بكلمات نابية وطلبت مني أن أبتعد. نهضتْ وتجولتْ في الشقة ثم وقفت عند باب غرفة النوم وقالت لي:

ـ أعطــني المفتاح.

قلت لها:

ــ هل أنت خائفة من شيء؟

قالت:

ــ أنت تشبه أبي. لا شك أنك تخيط أكفان الموتى.

ثم اقتربت مني ونظرت إلي وفي عينيها حقد لم أره في حياتي في عيني امرأة، وقالت:

ــ وبيتك يشبه بيت ذلك الذي اغتصبني. أعطيته جسدي طواعية ولكنه أكل صدري وافترعني بوحشية ثم أتاني من الخلف فأدماني.

قلت لها:

ــ حيوان.

فقالت:

ــ وأنت حيوان آخر كذلك الحيوان. الفرق بينك وبينه هو أن مصاب بالبرص.

تقبلت الطعنة صابرا وقلت:

ــ أنا لم أغتصب امرأة في حياتي.

قالت:

ــ ولذلك تريد الآن أ، تغتصبني.

قلت لها:

ــ اطمئني على جسدك.

ثم وضعت المفتاح في المزلاج من الداخل ومددت لها يدي به فنظرت وأخذت تمزق ثوبها وتنتف شعرها فخشيت أن تصرخ وتقع فضيحة مع الجيران.

كان صدرها عاريا ونهداها يرتعشان أمامي وهي تعض على شفتها السفلى وتبتسم لي بإغراء وتستدرجني لاغتصابها، فنظرت إليها بهدوء وأعدتها لتجلس في الصالة، وأتيت بقميص من قمصاني دفعتها إلى ارتدائه وأنا أفكر في أستدرجها لمغادرة البيت.

نهضت وغسلت وجهها ثم عادت للجلوس وهي تعتذر عما بدر منها، فطلبت منها أن تدخل الغرفة وتغلقها عليها وتستريح، لكنها ابتسمت، وقالت:

ــ إن كنت تريدني فتعال.

قلت لها:

ــ ليس الآن.

وأخذت تحكي قصة حياتها، قالت عرفتَ أن والدي خياط أكفان للموتى، مات عجوز فوق الثمانين، وأنا في العاشرة من عمري. وأمي الآن تجاوزت الثمانين، عجوز خرفة لا تنهض من مكانها وأنا في الواحدة والعشرين، وإخوتي أصغرهم له أبناء وأحفاد. هل يعقل أن تكون أمي وأن يكون ذلك العجوز أبي؟ مرة قال لي أحد إخوتي وهو غضبان من تصرفاتي إنهم كانوا قد وجدوني عند مدخل الدار في قماطات وأنا وليدة لم يمض يومان أو ثلاثة على ولادتي وأن والدتهم قد تبنتني. فحتى ذلك العجوز الذي يخيط أكفان الموتى لم أستحق أن يكون أبا لي.لماذا تخلت عني أمي ؟ ومن هو والدي؟ ضحكت وقالت أنا ابنة سفاح وتشنجت عضلات وجهها وبدا ذلك الحقد في عينيها حتى صارت وكأنها سوف تهجم علي.

قلت لها:

ــ وما ذنبك أنت، وماذا فعلت حتى تعذبي نفسك بهذه الأشياء؟

أشفقت عليها وتذكرت والدي اللذين توفيا في حادثة الردم، وحكيت لها حكاية البيت الذي تهدم فمات فيه والداي تحت الردم. ورأيتها تسلقي على الفراش وتضع رأسها على الوسادة، وفي رمشة عين كانت قد نامت.

نهضت من نومي للذهاب إلى محل الخياطة في الموعد، فحاولت إيقاظها ولم تستيقظ، وبقيت أحاول إيقاظها وهي لا تتململ في مكانها، وما كان بإمكاني أن أتركها في البيت، ولذلك شربت كثيرا من فناجين القهوة، وأنا أحاول إيقاظها بين ساعة وأخرى وهي لا تفتح عينيها ولا تتحرك، حتى حدود الظهر، فتسرعت في إخراجها من البيت، مرتدية قميصي، وعند باب العمارة أوقفت سيارة أجرة ثم دفعت للسائق حتى يوصلها إلى الحي الجامعي.

بعد أيام أخبرني الرفاق بأنها قد تحجبت، وصارت ترافق الأصوليين، وسألوني إن كنت قد تورطت معها في كلام فما أحببت أن أقدم تفصيلا عما وقع في تلك الليلة، ولكني قلت إنها تعاني من هزات نفسية بقي ثوبها الممزق في بيتي، لا أدري كيف أتخلص منه، ففكرت في أن أخرج إلى خارج المدينة وأرمي به هناك، ثم أردت إحراقه، وطالما كنت أمسكه بين يدي، فقد كنت أشمه وأقبله فأتراجع عن إحراقه أو الرمي به خارج المدينة.

أسماء

ليخبرني كل من عاشوا في المدن والجبال والسفوح عن امرأة متجملة بكل ذلك الجمال، وهي تتخفى عن الأعين، وقد حسبتها كذلك حينما أخفت نظراتها نحو الأرض. كان وجهها وضاء وقامتها مديدة وعيناها ترتفعان عن الأرض بتؤدة لتنظرا إلي بفضول يعتريه شيء من الخجل الذي ينم عنه انحناء النظرة وصعودها في اتجاه أن تراني، ولعلها كانت قادمة من وجدة وتنتظر تغيير القطار في محطة فاس لتذهب في اتجاه الدار البيضاء أو طنجة.

لكن ملامحها كانت قد تغيرت وهي تنظر إلى، فَتَوَرُّدُ وجهها ونظراتها وهي تطرق برأسها إلى الأرض إطراقة سرعان ما كان يعقبها رفع نظرتها في اتجاهي تستكشف نظري إليها ونفثي لدخان السيجارة ثم تتوقف تلك النظرة عند الحذاء لتعود إلى إطراقها وسهومها، فلم أدر أهي معرفة من معارفي القديمات أم هي وحيدة تبحث عن رجل بهذه الطريقة. وفي الحقيقة، فقد كنت وحيدا أبحث عن امرأة، ولكني لم أكن متسرعا في البحث وما ظننتها تأتي إلي بهذه السرعة.

ولما لم يدلني أحد أهي من سكان الجبال أو السفوح فلم أدر ما علي أن أفعل، وأخذت أبدد لحظة الانتظار بإحراق السجائر مراقبا ترددها في النظر إلي ومعاودة إخفاء نظرها في متاهات لم يكن يحتلها المكان، فنحن في باحة محطة القطار، ولقد تسمعت دقات قلبها كما تسمعت دقات قلبي وظننت أن كل ذلك مجرد طيش عابر راوغته بإحراق السجائر ومحاولة النسيان، لكن عيونا كانت تتلصص على ما كان بيننا من نظرات أخجلتني برقابتها التي جعلت الفتاة تذهب إلى ناحية من المحطة لترمقني من بعيد وكأنها تطلب مني

أن أغير مكان وقوفي لأقترب من مكان وقوفها ذاك، وظننت أني أحسب ذلك فلم أبرح مكان وقوفي إلى أن نادى علينا عامل المحطة للدخول إلى الرصيف فتسابق كل أولائك الفضوليين على إظهار أوراق سفرهم واجتياز الباب نحو الرصيف، ولكن مع تباطئي فقد تباطأت خطاها وهي تنظر إلي، ولما اقتربنا من بعضنا قلت لها:

ــ أنا لن أذهب مع القطار. أنتظر صديقا قادما مع القطار القادم.

ضحكت وقالت:

ــ صدفة عجيبة. أنا أيضا لن أذهب مع القطار. أنتظر صديقة قادمة مع القطار القادم.

فاجأتني جرأتها في اقتحام وجهي وكانت تنظر إلى البرص بنظراتها الثاقبة فارتبكت نظراتي، لكنها ابتسمت، فلم أدر ما أقول. قالت:

ــ اليوم هو الخميس 22 يوليوز *1997*. أليس كذلك؟

قلت لها:

ــ هو كذلك. ولكن لماذا أنت تتذكرين تاريخ هذا اليوم؟

قالت:

ــ والساعة السابعة إلا ربع مساء.

قلت وأنا أنظر إلى ساعتي بغباء:

ــ وهو موعد القطار القادم.

ابتسمت وقالت:

ــ وإذا لم يأت القطار أو تأخر؟

عدت إلى غبائي وقلت لها:

ــ إنهم لم يعلنوا عن أي تأخير.

قالت:

ـــ يبدو أنك لم تتعود على السفر في القطار.

ولا أدري كيف اقتربت منها فأشرت لها بيدي حتى رافقتها إلى الكافيتيريا وطلبت فنجانين من القهوة وأنا وهي في وقت التحضير ننظر معا إلى المعصرة حتى أخذتهما ووضعتهما على المائدة وجلسنا قبالة بعضنا فاخترقتني بنظراتها ووجدت في وجهها المستدير الهادئ الملامح ما يوحي ببـــراءة وحسن وبهاء، فأشعلت سيجارة، ثم رشفت من فنجان القهوة، ووضعت يدها في حقيبة يدها فأخرجت بطاقة السفر ثم وضعتها أمامي. قرأت في البطاقة تاريخ اليوم واتجاه القطار نحو الدار البيضاء، وحالما رأتني قد اطلعت على الورقة تناولتها ومزقتها ثم وضعت المزق على جانب الفنجان، وفي ذلك الوقت أخرجتُ من جيب السترة ورقة سفري فوضعتها أمامها فاطلعت عليها وانتظرت أن أمزقها ولكني لم أفعل وأعدتها إلى جيب السترة، فضحكت وقالت:

ـــ أنا زلت ترغب في أن تسافر بها؟

قلت:

ـــ القطار ذهب، ولكن تاريخ اليوم مكتوب عليها، وسأحتفظ به.

قالت:

ـــ بدأنا بالكذب على بعضنا.

فقلت:

ـــ لولا الكذب لما عاش إنسان.

فعادت تضحك، وقالت:

ـــ هل سنبقى هنا؟

نهضت من مكاني وخرجنا من محطة القطار. كان برد الليلة قارسا فحاولت أن أمسك بيدها لكنها أبعدتها بغير جفاء وأخذنا نسير في اتجاه منزلي

وهي منتشية تراقب أضواء السيارات ورائحة جسدها الأنثوي تسكن في خلاياي وتهيج مكامن الرغاب في العروق. ولم نسر إلا قليلا حتى قلت لها:

ـــ ما اسمك؟

فقالت:

ـــ أسماء.

وقلت لها:

ـــ أنا عبد الحي السراج.

تطلعت نحوي وبخبرتي في معرفة النساء لم أحسبها واحدة من الساقطات، ولما اقتربنا من المنزل تأخرت خطواتها قليلا فرأيت في ذلك التأخر توقعا لمن يكون من الجيران قد تصادف دخوله معنا في ذات الوقت باب العمارة، أو حرجا من دخول مكان هي غريبة عنه، فتلطفــت معها بنظرة وصعدنا الأدراج ففتحت باب الشقة وجعلتها تسبقني في الدخول وكأني أضمن دخولها أو أخاف من أن تتراجع. وقد بدا عليها التردد لكنها دخلت ووقفت مام البهو تنظر إلى اللوحات والأغراس الطافحة، فنزعت سترتي ووضعتها على أقرب مكان ثم هرعت إلى المطبخ وعدت حاملا كأسين وزجاجة كوكاكولا. نظرتُ إلى أسنانها الناصعة البياض ووجهها الصبوح وعينيها الشاردتي النظرات. كان وجهها قد تورد، وجبينها قد صار ناصع البياض يحفه شعر متموج أسود شديد الغزارة منسدل على العنق والكتفين، وبدت لي في الرابعة والعشرين أو ما دون ذلك، وحالما بقينا صامتين تراجعت نحو الوراء وقالت:

ـــ أنا ضيفتك في هذه الليلة. هل ترغب في أن تسمعني؟

قلت:

ـــ وماذا سوف أسمع؟

قالت:

ـ هل كان أخي يدخل هذه الدار؟

قلت:

ومن هو أخوك؟

قالت:

ـ أعرف أنك لم تعرفني. حسبتني صيدا لهذه الليلة، وأنا جئت معك أقتفي أثر أخي.

قلت:

ـ ومن هو أخوك؟

قالت:

ـ قبل أن أحدثك عنه، أرجو ألا تفكر في شيء معي؟

تظاهرت بالغناء وقلت:

ـ أنت جميلة.

قالت:

ـ حقا؟ المحنة التي أعيشها أنستني النظر إلى المرآة. هل أحدثك عن أخي؟

قلت:

ـ هل تعرفينني؟

ـ ما كنتَ في حاجة لأن تقول لي أنا عبد الحي السراج.

قلت بغير حرج:

ـ تعرفينني بعلامة البرص؟

قالت:

ـ البرص الذي على الجلد لا يعدي بعدواه، ولكن البرص الآخر الذي في ...

وسكتت لحظة ثم قالت :

ـ أنا مرهقة ومشتتة الذهن. أخي صديقك وأنت تعرفه. اعتقلوه ولم يظهر له أثر.

قلت متعجلا أن أعرف:

ـ ومن هو ؟

لم تعر سؤالي أي اهتمام وقالت:

ـ غاب عنا في خلال حملة الاعتقالات منذ 73 ولم نعثر عليه في سجن من السجون، وأنا أجري بين الجمعيـات الحقوقية وبين مكاتب المحامين.

نظرت إليها ألتمس شبها بينها وبين من كانوا رفاقي من المناضلين، فلم أصل إلى واحد من يشبهها. قلت لها:

ـ ألا تقولين اسمه؟

قالت:

ـ رغم جهود جمعيات حقوق الإنسان والمنظمات العالمية، لا نعرف هل هو في تزمامارت أم أنهم قد قتلوه تحت التعذيب وتنكروا لدمه.

قلت لها:

ـ ومن هو أخوك ؟

بدت نظراتها قاسية وقالت:

ـ أنت أيضا نسيته

قلت:

ـ ولكنهم كثيرون.

وسعت عينيها وهي تنظر إلي وقالت:

ـ الفرطاس هو أخي. حسن الفرطاس.

تكاثفت سحب الذكريات أمام عيني وأنا أستحضر وجوه الرفاق الذين اعتقلوا والذين ذهبوا نحو المنافي، وأسترجع صخب تلك النقاشات السياسية في هذا البيت وفي بيوت أخرى. وأطل من ذاكرتي وجه حسن. كان نحيلا يرسل لحية شعيراتها قليلة، نظراته ذاهلة وصمته لا يبين عن موقف، فكنا نعتبره بئرا عميقة يخفي في غورها أفكاره، وما كان من المقارعين بأفكارهم الجريئة حول نقد سياسة النظام، فما كان يثير الانتباه. ولا نذكر أنه قد حوكم في واحدة من تلك المحاكمات التي كان الرفاق يحرجون فيها القضاة بأسئلة عن نزاهة المحاكمة وبأخرى عن موقفهم من النظام والجهر في تلك المحاكمات بوقوفهم ضد نظام لا يملك غير التعذيب والسجون وبهما يحكم الشعب. ولكن أين هو الفرطاس الآن ؟ هل قتلوه تحت التعذيب وتبرأوا من دمه كما تقول أسماء؟

رأتني شاردا فقالت:

ـ بيتك نظيف.

وبقيت على شرودي أسترجع ملامح الوجوه وحدة النقاشات وشرب القهوة وإحراق السجائر بلا عدد.

هبت واقفة واقتربت من رف للكتب تتفحصها فأخرجت كتابا قلبت أوراقه بحركات عصبية و اقتربت مني وهي تطلعني على صفحاته الداخلية وقالت:

ـ انظر. هذا خطه. ها هي تعليقاته.

وفتحت الصفحة الأولى وأطلعتني عليها وقالت:

ـ انظر إلى اسمه مكتوب بخط يده. ستكون قد استعرت منه هذا الكتاب.

أخذت منها الكتاب وقرأت عنوانه: (الثالوث المحرم). لكنها انتزعته مني ووضعته على صدرها وطفرت الدموع من عينيها. وبعد أن تمالكت نفسها قالت:

ــ كان حسن الفرطاس يحدثني عنك، ويسميك الخياط.

كنا لم نشرب من كأسي الكوكاكولا، وأحسست بجفاف الريق في حلقي فأخذت كأسا وشربت منها، وقلت:

ــ وماذا كان يقول عني؟

قالت:

ــ كان يعتبرك من المؤلفة قلوبهم.

ثم قالت:

ــ ولماذا لم تتزوج لحد الآن؟

نظرت إلى عينيها وقلت لها وأنا أقف وأفتح ذراعي:

ــ أسماء. هل تتزوجينني؟

بدت عليها المفاجأة، وبعد صمت قالت:

ــ أنا لم أحصل على البكالوريا ولكني قرأت ماركس ولينين وتروتسكي وحتى وليام رايخ اطلعت على كتابه: (الثورة والثورة الجنسية)، الذي يؤكد فيه على أن لا ثورة بدون ثورة جنسية.

قلت:

ــ وما علاقة هذا باقتراحي؟

قالت وهي تضحك:

ــ هل أنت جاد فيما تقول ؟

أكدت لها أنني جاد فأخذت تضحك، وقالت:

ـ ما جئت إلى هنا باحثة عمن يطلب يدي. هل تشفق علي من العنوسة؟

أعددت العشاء وهي تقف بجواري في المطبخ، فتعشينا وسهرنا نتبادل الحديث، وهي من حين لآخر تتطلع إلى كتاب بوعلي ياسين: (الثالوث المحرم)، وتفتح أوراقها لتتأمل خط حسن وتقرأ تعليقاته وتحشياته على متن الكتاب.

قالت لي:

ـ هل لديك بيجامة ؟ سأنام.

أخذتها إلى غرفة نومي ووضعت البيجامة على حافة الفراش متحاشيا النظر إلى عينيها وانسحبت من الغرفة لأنام في الصالون.

جفاني النوم فأخذت أقلب كتبي وأفتح صفحاتها الداخلية، فوجدت من بينها كتبا أخرى كتب في صفحتها الأولى: حسن الفرطاس.

تركت الكتب فوق المائدة، ونمت، وفي الصباح فتحت عيني فنظرت إلى الكتب فلم أجدها فوق المائدة، ولم أجد أسماء.

في غرفة النوم، بجوار الأباجورة، وجدت ورقة كتبت عليها:

ابحث معي عن حسن ، و سأراك قريبا

أسماء

المشهد الثالث:

أشكال الروح

ارتجاج الكون

جلس وسنان على تلك الأرض العارية ونظر حواليه فرأى العراء. كان قد غادر نفسه وسكن إلى فراغ جميل، لا تحده الحدود ولا يعبره أحد، سماؤه لا لون لها وأرضه رحيبة لا ترى العين عند مداها أي شيء.

قال أنا أعبر هذا الفراغ و أنا أضاهيه باحثا مثله عن الامتلاء.

فراغ ممتلئ بالفراغ، وبزخم عوالم تبدأ ولا تنتهي وكأنها تشبه حياة في البدء.

لم تكن ثمة شجرة يستظل بها من حرارة الشمس. لا طير يعبر هذه السماء. أخرجَ من الصرة خبزا وزيتونا أكل قليلا منهما وجرع جرعة ماء من القِربة. تحسس لباسه الصوفي الخشن وحاول أن ينام مستندا إلى كوعه متوسدا كفه فما ارتخى له جفن ولا طرفت عيناه. نظر نحو الجهات وقال سواء أن أعود إلى فاس أو أضرب في الأرض فها هي فاس كلها فوق اليد وملء الخاطر وفي هذه القربة من الماء ما يكفي لشهور أو أعوام، وحالما تتلألأ أنوار فاس في هذه الليلة فستشع هنا وفي كل مكان كما شعت في الليالي التي مضت عليَّ وأنا أطرد بهذه العصا الكلاب الضالة وأتجنب مسالك الذئاب والضباع. بعد حين سوف تميل بي الرياح ميلانها الذي يُغرق الأرض بماء المطر، أو ستصبح هذه الأرض صحراء لا حدود لها وسأصير حبة من رمال تلك الصحراء، وربما يعبر المحاربون وعلى أجسادهم من طعن النصال ما خلف بها بعض الجراح، وساعتها سوف أختفي في الخرقة ولن يراني أحد، فأنا لست من جنود السلطان ولا من المحاربين من جنود السلطان، لست أحدا وأنا كل أحد.

ثمرة التين تناديني نداءها الجميل لكي أراها وأعد ما تحت قشرتها السوداء من حبيبات صغيرة فيأتي القتلة راغبين فيها ليفسدوا علي ما كنت بصدد عِدِّهِ وكأني أعد النجوم وشعيرات هذه اللحية المسدلة وما تفرق بين السطور من خبايا وأسرار وما تولد من مسافات بين النجوم. أعُدُّ الشجر والحجر والعشب وهو يتنامى وأعُدُّ المحاربين فأجد أن عددهم قد غطى على كل عدد. أعُدُّ وأُخطئ في العدد، ثم أعد حبيبات التينة فلا أُكمل العدَّ وآكل منها عشرا تنقص وأنا أنقص ذلك النقصان.

هل أنا وسنان؟

وسنان الآن يغدو في هذه القفار مرتديا كفنه وفاتحا كفيه للسماء، فكم هو طول هذه الأرض وعرضها، ومن علمني أن أمسك العصا بيدي قبل أن ألقي بها وأسير وقد علمت أن لا مُتَّكَأَ على شيء فالاتكاء عجز وضعف وأنا لا أحب الحيلة مع هذا الجسد الذي هو فانٍ ولا أحب أن أعلمه سوى أن يزيد من فنائه حتى يصل إلى أعلى درجات الفناء؟

ومن يرتدي كفنه ويخرج حيا للقفار هل يليق به أن يعتمد على شيء أو على أحد ؟

ومن يضنيه الحنين لما هو أبعد من فناء الجسد هل يخاف الذئاب والكلاب؟

وسنان!

اسم هو الذي أنساني ما تفرق وما اجتمع في حياتي، فإذا ما اغبرَّت هذه القفار ودمدمت السماء وسارت غيوم نحو البحر أو الصحراء أو الجبل فلا أسماء سوف تغدو لهذه الأماكن. الأسماء هي مواضع السر للناس والأشياء، والأسماء إشارات أو علامات، دلائل على مدلولات، وقد تكون الدلائل لا علاقة لها بالمدلولات إلا ما تعلق بالصفة والموصوف فهما وضع لتطابق

يراه الواصف، والواصف قد يصف نفسه في بعض الأحوال، كما قد يكون موصوفا، فإذا ما ارتجَّ الكونُ كله فما الصفة والموصوف، وما الأسماء التي لا دلالة لها إلا في المسميات، ما الوقت وما الربيع والخريف وما هدير البحر وما جند السلطان وما عبيد السلطان ومن هم القتلة وما عيون النساء المتناومات كعيون القطط في الظلام وما هو وجه الأرض وما التأرق والتوله والعصيان والرفض ومرارة النسيان ؟

ما كل ذلك وقد أصبح عصيا عن ؟

ما أنا وما هذه القفار ؟

ومن هو وسنان إذا لم يكن عابرا من العابرين أو غابرا من الغابرين؟

لعله ورد أو صهد، رجل خَشِنُ الصورة والكلام، لم يَرِقَّ إلا حينما ارتدى الخرقة وقال ما في الجبة إلا الفراغ، وهاكم فناء الجسد. لعله يصير بعد ذلك الفناء نملة أو نحلة أو كلبا من تلك الكلاب التي تُكثر من الهرير في برد ليالي الشتاء، أو جملا ضاق ظهره بما حمل، أو صورة للشيطان، ولم يتذكر وجهه وصورته إلا حينما ارتدى الخرقة ووجد فيها فراغ الجسد.

وسنان.

كان قد أعجبني الإسم فسميت به نفسي، بعد أن نسيت ما كان لي من أسماء الناس التي يُعرفون بها لكي لا يعرفني أحد من أولائك الذين تساكنتُ معهم في بيوت النمل التي كانت لها سطوح متشابكة هي سطوح منازل فاس، وأنا الآن أسكن في كل مكان بعد أن قدرت على الدخول في سجوف هـذا المحال. هو ممكن المحال، منزل بين المنازل، حياة بين حياتين، شهوة لاستعادة للرماد، حريق دائمُ الأخاييلِ وتكليمِ الصمتِ وامتداح الفراغ، فإذا تلألأت الأنوار وقال لي الداعي لقد اقتربت فأنا قريب من القريب، وإذا تساقط المطر ولم أجد كهفا آوي إليه فأنا مغمور بالماء وهو حي وقريب، وإذا عم

الظلام كل شيء فأنا أبدأ من الظلام، أستبشر به في الضوء والظلام وفي اليقظة والمنام، أقول هو الحي ثم أستقيم فأراه في الماء والشجر والحجر، وفي الطير والزاحف والحصاة.

وأي داع سوف يدعوني ومتى بعد كل هذا الانتظار؟

هل سيدعوني إن أنا كابدت وصبرت أم أن أناسا من السابقين أو اللاحقين قد ظلوا ينتظرون نداءه حتى ماتوا ظمآنين بعد طول انتظار لذلك النداء في صحراء كل ذلك النسيان ؟

ربيعي قادم بعد كل هذا الخريف، وإلا فلماذا أنا جالس هنا على حافة هذه الأرض وهي في دورانها وميلانها وكأني على طرف أنتظر غروب الشمس والشمس لا تغرب والذئاب لا تجرؤ على الخروج من المخابئ ؟

لماذا لا أعود إلى ينابيع الماء وأماكن الاخضرار حيث يطفو النبات على وجه الأرض أخضر ناعم الملمس طيب الرائحة ؟

أشجار الطرفاء والعرعار والسدر والعليق أمامي صفوفا تجبرها الريح على أن تخفض من هاماتها، فتنحني انحناءها الجميل، ثم ترفع هاماتها لتخفضها. أشجار عجيبة وغريبة، القصار منها ينحين قليلا ليقتربن بأغصانهن الشوكية من الأرض خافضات من تلك الأغصان بما عليها من أوراق، مثقلات بذلك الثقل الذي يملأ الفراغ وهو ينحني، والطوال يملن قليلا فيما يشبه الانحناء، متجهات بأغصانهن نحو جهة الريح، والريح تتجبر، والأشجار تميل وإذا لم تكن صلبة العود فأغصانها تتكسر، بينما تنتشي الريح وتقول كلاما وهي ذاهبة ربما لا يسمعه أحد. الأشجار على أنواعها تخذلها الريح وتختبر صلابتها وأحيانا تقتلعها من الجذور وترمي بها في طريق الموت، أو تلاعبها وهي تسمع الحفيف. في هذه الريح كنت أقف في العراء أرقب الأشجار وهي تواجه الريح. لكن الصبارات الثلاث القريبة من بعضها كأنها في ذلك الفراغ

تجتمع لحديث أنا أسمعه وهــي تتذكر مرة وتتأنث مرة أخرى، تضحك وتغني وتحكي حكايتها مع العطش، تزف البشائر وتنذر بالخسائر، تشيخ في هذا العراء وتستعيد عمرها الجميل، وحفيف تلك الصفوف الشجرية الأخرى يؤنسها في الغربة، ويمنحها الموسيقى فكيف لا تغني؟

لا وقت إلا للضحك. ضحك أفاجأ به وأنكره على نفسي فأنا أضاحك تلك الأشجار وتلك الصبارات. معها أضحك. وأراكم يا أصحاب ترونني أضاحك الشجر فلا تدرون أي اختلاط ومصاحبة صارا بيني وبين كائنات هذه البراري. قلت لكم ذلك الطائر الأسود الذي كان يزعق في الصباح والمساء صار يعرفني، كما تعرفني القبرات، وصفوف النمل، والذئاب والضباع. كل هذه الكائنات صارت لي معها مصاحبات، فهل تضيقون بي حتى وأنا هنا على بعد؟ هل تتكرونني وأنتم في القلب والذاكرة ؟ هل تصفونني بأوصاف أنا لا أستحقها أو هي لا تستحقني ؟ لكم ذلك ولي أن أضاحك بعض ما هو أمامي وبعض ما يرد على خاطري، ففي المضاحكة الفرح، وأنا فرحان.

في بعض الأحيان تمتد لي أياد لتصافحني فأجدها دبقة، تلمسها وكأني ألمس الفراغ، وأحيانا تصير لها لزوجتها، بما يجعلك تشعر وكأن زلقا يزلقها من يدي، فتكف عن اللمس والمصافحة، أيادي رجال أو نساء لا أدري، وتقترب مني بعض الفواكه الطازجة وحتى وإن لم تتذوقها أحاسيس الذوق والشم فهي زاخرة بما توقظ به الحواس، لذيذة الحلاوة. لا. ماعدا التوت والبرقوق. فواكه وخضر غنية بالحلاوة والملوحة والحموضة وطعم المرار اللذيذ، أزهار زكية الروائح تذكرني بفوح الشذى من شجرة نارنج وحيدة كانت تنهض في منزل من منازل فاس، أو هي أشياء من أثاث قديم تفوح منها رائحة الغمولة والبلى والعتاقة والرشو في أفرشة أو ثياب أو سقوف تسوّس خشبها، ولعلها روائح الأطعمة التي تحلب الريق وافدة من كوات صغيرة

لمطابخ فاسية تطل على الدروب المعتمة الصماء، أو هي روائح الجلود المدبوغة، أو روائح القطران، أو رائحة الموت.

الأذواق اللسانية

والشموم الأنفية

باعدت ما بيني وبين السماع والمسموع،

والرؤية والمرئي،

والملموس على خشونته أو نعومته،

فهي أحاسيس حسية

وكلما انتفى العالم إلا وحضر بكل بهائه ليعيدني إلى العالم.

جئت لأترك كل هذه الأشياء هناك، وأبقى هنا، لكن كل ما كان هناك يأتي إلي طالبا مني أن أؤنسه في غربته التي يحياها، أشجار لم يعد يراها أو يشم عبيرها أحد، فواكه مجتناة أصبحت تؤكل دون أن تُتَذَوَّق، طيور تغرد في الأصائل أو تنزل إلى باحة المسجد لتشرب من الخصة والمحراب من غير أن يتفطن لها أحد، لذَّاتٌ لا تؤدي إلى الذوق والوجدان، صباحات ومساءات و نهارات وليال ينسى الناس أن ينظروا فيها إلى سماء المدينة ودروبها حتى وهم يختلسون الوقت.

أشياء موجودة و كأنها غير موجودة.

كائنات وتفاصيل للمكان وأبهاء وخرائب كلها تساوت في النسيان وهي الآن تستيقظ بقبح الجمال وجمال القبح في وهج الذاكرة. وأنا تركت كل ذلك للناس، لكني الآن أعرف أن الناس قد تخلوا عن كل ذلك وتركوه لي، ولذلك فأنا أبدأ العالم، نشوان ريان سكران، حالما بأحلامي الجميلة والضياء يملأ عيني، ذاهبا في حديث مع حبة من تراب أو حصاة من رمل وهي تكشف لي عن سر التراب وسر ما رأت وما سمعت، ثم أمضى لأضاحك شجرة تعرفت

عليها بالأمس، أرادت أن تصير لي امرأة، وباحت لي بما في قلبها من حب، لكني كنت قد وهبت الحب كله لمن كان قبلـــها وما سيكون بعدها، فتحسرت، ولم تعلن كراهيتها بل تبسمت و قالت لي أنت العاشق، فلم أدر ما أقول، وكفت عن اللعب بشعرها وإرسال نظراتها المشعة. هي تمنحني الحب في وقت أنا منحت الحب لغيرها، ولو كانت قد منحتني هذا الحب في وقت سابق لاحتفيت بها في قلبي. خسارة. خسارة وأية خسارة، فترتيبات الزمان تسير بالمقلوب. حينما يكون قلبك فارغا لا يحبك أحد، وحينما يمتلئ قلبك بالحب تجد كل من وما حواليك ينافسونك في حب الحبيب أو ينافسونه في حبك، بينما تقتضي بساطة الموقف أن من أعطاك الحب يجب عليك أن تبادلـــه حبا بحب، إلا أنني لا أقوى على ذلك، فحبي لِمَا كان قبل أو بعد أن تتلبسني هذه الرؤى العابرة، و هذه المواقف التي ليست هي المواقف. كيف أحب شجرة لها عيون، والعيون كأنها بوارق، والبوارق أضواء خادعة، والأضواء الخادعة أصلها ليس له أصل. وسواء أكانت امـــرأة أو شجرة أو ماء يريد أن يدخل في الماء فهذه فصول صغيرة لدورات كبيرة، ومشاهد عابرة في تجليات أرجو لها أن تكون مقيمة، و ما هي سوى شجرة في غابة، والغابات لا حصر لها، فهل أنا عاشق لشجرة بعينها، أم أنا في حيرة أمام عشقي لغابة الأشجار؟

الأشجار أعراض لجواهر،

والوجود هو ما يجعلنا نفكر في الفرق بين الأعراض والجواهر،

علما بأن العرض هو الذي يؤدي إلى الجوهر،

و أن العرض مدرك حسي يحتاج إلى دليل،

أما الجوهر فمدرك وجداني وعقلي لا يحتاج إلى دليل.

هذا الكلام ليس كلامي الخاص، وإنما هو كلام التجربة ويبدو قابلا لأن يتغير مع تغير التجربة. هو كلام الكتب، وأناس عرفتهم عاشوا بين أوراق

الكتب ولكنهم أيضا عاشوا عنف اللحظات وقسوتها وحيرتها واستبدادها بالنفس وماتوا بين أوراق الكتب. الآن تذكرته، وهو الذي فتح لي الباب، ثم تركه مفتوحا ومضى.

هو أحرى مني بالكلام ولكنه لم يتكلم وهو الذي فتح لي الباب، دخل كتابا ونام أو مات فيه حتى توارى ولم تبق منه إلا ريشة كانت في جناح طائر لم أدر نوعه من بين فصائل الطيور.

هو الذي توارى و ترك لي كنز الكتب.

وكما سوف تعرفون فأنا لست متصوفا ولا مجنونا ولا شاعرا ولكني مثلهم، من أصحاب الرؤى. لست رجل سياسة. لست صاحب علم بالعيافة و القيافة، أو علم بالمسالك و الممالك، ولست جهبيذا عبقريا دارسا للطب والفلك وعلم النجوم والتوقيت والفرائض، فدراستي لم تصل بي إلى الجامعة، وسيد الحبيب الله يرحمه هو الذي أخذني للدراسة في ثانوية مولاي إدريس الواقعة خلف باب بوجلود كما تعرفون، قريبا من جنان السبيل، حيث الحديقة الأندلسية التي أنشأتها أمينة المرينية، ومن ساحة الحلاقي حيث كان الرواة يحكون العنترية والأزلية، ولهذا الموقع للثانوية كل المسؤولية في أن أكون ضائعا وأن أتعلم الشرود، فلم أفلح في الدراسة لأنني كنت أشرد خلال الحصص ناظرا من نافذة الفصل إلى سماء الله الواسعة، وإلى الأشجار والطيور والغيم والمطر وتدرج الألوان فكنت أتوزع بين أندلس المحال وبين ممكن الشرق عبر الحكايات والاخضرار، فلا أسمع شيئا ولكني أرى شبح المدرسين وهو يشوش علي تلك الرؤى، ولولا موقع الثانوية في ذلك المكان لكان طريقي قد اتجه نحو منحى آخر، فالمكان كان له حد حاسم في تاريخي الشخصي، كما كان لأجدادي الذين عاشوا في الأندلس مسار حاسم في هجرتهم إلى المغرب، وكما كان لمجيء سيد الحبيب من قصر السوق إلى فاس مصير لقائه مع لالة الطام.

الأماكن مصائد. هي فخاخ لصنع مصائر. والأماكن أسرار وحاجة ذكية إلى ملاعبة هذه الأسرار. ومن لا يعرف الملاعبة مع الأماكن لا يستحق أن يحيا فيها. وأنا احترت في دخول الأماكن إلى المكان الواحد لتحيا فيه بكل تفاصيلها الصغيرة وهو يتعدد ويشير ويحبل بما يتناسل عنه من أماكن. قد يكون للخيال دور في هذه الأشياء، ولتوارد الأفكار، وللذكريات والأخبار والعادات اليومية وخَرْقِ هذه العادات، وقد تكون ثمة أشياء أخرى غير مفسرة تعود إلى صدفة أو قصد اجتماع كل الأماكن في مكان واحد.

ثقفني محل الخياطة بثقافة السماع حول الوضع السياسي في المغرب والعالم العربي وإفريقيا وحفظت أسماء الزعماء والخونة من غير أن أقصد، وعرفت أناسا كثيرين كان لهم خيرهم وشرهم كما شاهدتم في المشهد الثاني من هذه القيامة الدنيوية، ثم لما أصبح لي محل خياطة في الطالعة الصغيرة وأصبحت أنا المعلم تابعت كلاما جديدا عن تطلعات جيل جديد و تثقفت بقراءة كتب كانت مكتبات الطالعة الصغيرة، القريبة من محل الخياطة، تزخر بها، وهي تأتي من مصر و لبنان حاملة لوعي جديد. وأصارحكم بأنني ما كنت أحب كتب التراث ولا أغرتني وهي تباع مجلدة بأبخس الأثمان رغم إغرائها بأن تزين المكتبة بتجليدها وحروفها الذهبية، فكان هذا هو سبب نفوري منها الأول، إضافة إلى ذلك التحريض على قراءة كتب معينة من قبل طلبة محمومين بالأفكار كانوا يزورون المحل وينظرون بإعجاب إلى إقبال خياط على المعرفة وتوفره في بيته على مكتبة يُخشى على صاحبها من دخول البوليس لمراقبتها، فهي تفضح الكثير من توجهاتــه واهتماماته، لولا أن دخلتها أسماء لتأخذ كتب أخيها حسن القرطاس. كنت أستعين بهذا الشباب الجديد على تجلية الأوهام و محاولة امتلاك بعض الحقائق، بحثا عن نصاعتها في الأفكار، وكنت أسمع عن الأحزاب والتنظيمات السرية ولا أحب أن أزج

بنفسي في أوضاع إما أن يكون لها الوضوح الذي يدرجها في قبول أو معارضة سياسة الوقت أو أن تكون لها مخاطرة غير محسوبة العواقب. كان حماسي كبيرا للتغيير و لم أكن في نظر نفسي سوى خياط يقرأ ويقترب من معرفة الواقع عبر الكتب ومعايشة الناس. لكن بعض الطلبة من معارفي اعتقلوا بتهم سياسية وجرني ذلك إلى التحقيق، وزاد ذلك من حماسي للتغيير، وهي دوائر لم تكن بالوضوح الذي يسمح لي بأن أضع نفسي داخل حزب أو تنظيم، فقد كنت أعزب وربما كنت مشروع أعزب إلى الأبد، قارئا ورافضا وصديقا للرافضين، أخفي أفكاري ولا أتظاهر بالتنكر لها لانتهاز ظروف أو لمجاملة في الحديث، وما كان لي شأن، فأنا لم أطمح لان أكون زعيما سياسيـــا وما أحببت بالسعي إلى دخول السجن أن أكسب مكسبا تحسدني عليه لالة الطام بعد بروز اسمي في الصحف الوطنية والأجنبية، وهو ما لم تحققه هي، وما خطر على بالي أن أحققه.

دخول الخيط في ثقب الإبرة علمني سرا من الأسرار، و في دخول الإبرة في الثوب رتق لفتق، تمجيد لترهات قد تعمي العين ولكنها تعيد للعين نظرا آخر فيما لا يراه النظر، فرتق الفتق كان مجرد حيلة لضم أجزاء الثوب إلى بعضها، لكن الحيلة الأكبر كانت هي المقاسات و التفصيل وجعل اللباس على مقاس من يلبسه، ولا أدري كيف تدخلت هنا فكرة نورانية أو شيطانية لتوصلني إلى جعل فكرة بسيطة هي جعل اللباس على مقاس من يلبسه، لأخترع منها عنوانا صغيرا لفصل كبير من فصول النظر في حاجة الأمة إلى سياسة تسترعي أحوالها، وإلى حاجتها إلى ساسة واقتصاديين عارفين بالظروف العالمية وصراعات القوي ولكنهم من داخل ذلك يخترعون للوطن نموذجا للسياسة و الاقتصاد يفتح للحريات العامة أبوابها ويتحاشى الصراعات الإقليمية ويوفر للناس العمل والصحة والتعليم. وبصراحة فقد أنكرت على

نفسي أن يكون هذا الاختراع العجيب لم يخطر على بال زعماء سياسيين كبار، وعلى الحكام، فلا يمكن أن يخطر إلا على بال خيـــــاط. والحقيقة أنها أيضا كانت مرحلة صراعات وطنية ودولية يحركها منظور واضح للصراع، وبدأت الانتفاضات، وما كان أحد يتفرج على قوة أو ضعف النظام أمام التغيرات التي تحدث والخياط عاد يطرح السؤال نفسه: أما كان يمكن جعل اللباس على قدر مقاس صاحبه ؟ ثم أستشعر أنها فكرة بليدة لأنها تقيس على ما لا يقاس عليه، تأخذ الأمور بنظائرها، بينما الأمور لها نظائر لا نظائر لها وقال عبد الحي الخياط هذه أسئلة محيرة، هل أنا فقيه في السياسة و القانون والاقتصاد حتى أتفقه على رجال الميدان ؟ أنا مجرد خياط، وما تعلمته من السياسة ليس هو المعرفة، والسياسة ليست هي المعرفة كلها فبين الإحساس بالناس وحاجاتهم و معايشتهم وبين القراءة وما توحي به من توسيع الأفكار وبين الممارسات والمواضعات مسافة المسافات.

جبل من ثلج. حقا هو جبل من ثلج.

جبل قد يذوب ليصنع جزرا سياسية وطوائف وقبائل للسياسة وقد يتصلّب و بني على ظهره ساكنة بمعيش جديد ووعي جديد.

هل هي طموحات أو أوهام؟

الخياط عبد الحي السراج شاهد وقد رأى أمام ناظريه أشياء لا يمكن أن يتحدث عنها في العزلة، لأن العزلة رديف لحضور أخر، وهناك ما يقال وهناك ما لا يقال، إما لخطورته وعدم تجلي تفاصيله والإمساك بالحقيقة منه، أو لأن الصمت عنه تواطؤ، أو ربما لأن قوله محرج و قد يفتح بعض الملفات الجديدة، وقد يكون قول ما لا يقال مفسدا لمتعة الانتظار.

في ساعة الضوء تتجلى تواريخ البلد، وهو قرية صغيرة في العالم، لا شأن لها إلا في تبعيات قبلية أخرى كما العالم صغير وهو مجرد قبائل متحاربة بشكل بدائي رغم تقدم ترسانات الحروب.

عجبا للتوقيت غير المناسب لهذا الكلام، وعجبا لريح تتحرك في اتجاه الأشجار لكي تجعلها تنحني.

لا بأس. فهو الذي توارى و ترك لي كنزه حتى أسهر عليه و أعايشه.

وما أقسى المعايشة يا أصحاب.

والحكاية غريبة بعض الشيء، حكايته وحكايتي معه، فقد جاء يوم غيَّر طريقي وأدخلني فيما أنا فيه. ولا أدري لو لم يأت ذلك اليوم ما كنت سأفعل بنفسي، ولكني وجدته في طريقي وكأنه كان هناك ينتظرني منذ سنوات.

كنت مولعا بالنزول إلى دروب فاس كلما ضاق بي الحال، أزور تلك الخرابة التي كانت في يوم من الأيام منزلا لعبد الرفيع السراج تاجر الحرير، وفيه ولدت، وبتلك الزيارات وما يهيئ لها من عبور في الظل كنت أسترجع تفاصيل عيش والدي عبد الرفيع ووالدتي شرفة، وأحيا مع روحيهما، أصنع في الخيال لهما حياة في تلك الدار التي أصبحت الآن خرابة، وأسمع أحاديثهما وضحكاتهما وسهرهما وأتخيل لهما الصورة والهيئة والصوت والعادات والطباع، ومن تآنسهما كنت أستأنس، والمنزل كنت أصف لنفسي غرفه وشرفه وأثاثه وتفاصيله، مستمتعا بما لم أعشه معهما أو عشته وأنا لا أدري، ولكن هذا ليس هو المهم، فقد التقيت في يوم من تلك الأيام، وفي تلك الدروب الموحشة مع رجل كان ملتحفا بسلهام أسود، ولحيته شقراء، وجها لوجه، هو ذاهب و أنا قادم، وكان يفتح جناحي السلهام ويبدو كأنه سيطير وقد وقف على رؤوس أصابعه، فلما التقت نظراتنا اقترب مني وقال:

ـ كم الساعة ؟

قلت له وأنا مرتعب مخافة أن يضعني تحت جناحي سلهامه ويختطفني.

ـ الساعة لله.

وحاصرني بنظرة فيها ابتسام، فرأيت وجهه النحيل ولحيته المخضبة بالحناء وقد صار شعرها أصهب مائلا إلى الشقرة. قال:

ـ كل الساعات لله، ولكن هل حان وقت صلاة المغرب ؟

كنت لا أصلي وقد نسيت الصلاة بعد قصة العلق الذي مججته من حلقي ممزوجا بالدماء وقد عرفتموها من قبل، فارتبكت وقلت له:

ـ اذهب إلى المسجد وإن كان وقت الصلاة فصل، وإن كان قد فاتك وقت الصلاة فتداركه.

تبسم و قال لي:

ـ نصيحتك جميلة، ولكن أنا لست ذاهبا للمسجد، أنا ذاهب إلى الكشف عن كنز.

قلت له:

ـ وما شأني أنا؟

قال:

ـ الكنوز يا ولدي أصبحت نادرة، وما أحوجنا إلى الكشف عنها.

ثم تدارك و قال:

ـ لا أعني كنوز المال، و لكنها كنوز المعرفة، فتعال معي.

قلت له أنا ذاهب إلى شأني والحقيقة أنني كنت ذاهبا إلى ما ليس لي فيه شأن وهو رؤية ذلك الخراب الذي هو خراب بيتنا القديم بعد أن انهد على والدي ووالدتي، فقد أدمنت على الوقوف عليه، تشدني إليه أرواح غريبة فأترك شغلي في محل الخياطة وأهبط حتى أصل لأقف على ذلك الخراب.

ظل واقفا أمامي ينظر إلى برجاء في عينيه. حدث ذلك في عقبة السبع في مساء خلا فيه الطريق من المارة فلم يعبره أحد، وغامرت بالذهاب مع الرجل التي قادني إلى مدخل خشبي لعرصة محفوف بسور شبه متهدم، فتحه بمفتاح كبير صدئ أخرجه من تحت سلهامه ولم يفتح له باب المدخل إلا بشق الأنفس وهو يلهث ويدير المفتاح الثقيل على يده في القفل الذي ظننته صدئا، لكن ما يشبه الباب انفتح، فابتهجت أساريره ونظر إلي وقال:

ــ الباب انفتح لنا.

ولم أبال، فقد كنت أفكر فيما سوف يحدث لي وراء الباب، ومشيت وراءه في طريق مُتْرَبٍ تَحُفُّهُ الجنان التي زرع فيها القرع والملفوف والنعناع. كان يسير أمامي، والليل على وشك الهبوط، وسلهامه الأسود يخبطه على كتفيه من حين لآخر محاولا تسويته اتقاء برد ربما كان يشعر به أو استعدادا لملاقاة أناس لا يرغب في أن يرونه وهيأته غير منظمة أحسن تنظيم. أخذتني قشعريرة ولم أدر لماذا طاوعت الرجل ودخلت مكانا قد يكون فيه قبري الذي لن يعرفه أحد. كان الأعداء الذين يلاحقونني مجرد أشباح، فأنا لم آكل مال أحد بالحرام ولم أغتصب امرأة ولم أسيء إلى صانع من الصناع الذين يعملون معي، ولكن الأعداء لابد أن يوجدوا حتى مع هذه الحال. التفت نحوي وقال لي:

ــ الكنز قريب.

فسرت وراءه في ممشى مُرَصَّفٍ بالزليج الباهت الألوان تحفه أغراس الغنباج وخدوج الخانزة وأوراق البهاء، وكأني أسير نحو حتفي، وقد ظننت أنه فخ وقعت فيه، فالبوليس قد أخذوا يستعملون أماكن بعيدة عن الشكوك للاعتقال والتعذيب، وبدأت أفكر في أن أولي راجعا ولكني أدركت أنني إن كنت مختطفا فسيكون الحراس على الباب.

أدى بنا ذلك الممشى إلى باب عتيقة من خشب مخرم دَفَّتَاهُ أصابهما الرُشُوُّ ولكل واحدة منهما خوخة فأخرج مفتاحا من تحت سلهامه ففتح الخوخة وقال لي:

ــ انتظر، حتى أشعل شمعة.

رفع خامية من طيلسان أحمر بيده ودخل الغرفة وبقيت وراء الباب. انتظرت لبعض الوقت ثم رفعت الخامية وأطللت على الداخل. كانت الغرفة مظلمة وهو ينحني على شمعة يحاول إشعالها بالوقيد ولكن عندما يحكه مع جانب العلبة يتفتت كبريته ولا يشتعل. وكان يهمهم بكلمات لم أسمعها فخرج إلي وقال:

ــ الوقيد بارد.

فأخرجت من جيبي مشعلة سجائر فلم يأخذها من يدي وقال:

ــ ادخل أنت وأشعل الشمعة.

فرفعت الخامية ودخلت الغرفة فأشعلت المشعلة واقتربت من الشمعة فأشعلتها وأضاءت على غرفة فسيحة تراكمت على أرضها الكتب الصفراء المهلهلة الحواشي وبعضها كان متفرق الأوراق. كتب أغلبها مخطوط ومنها المطبوع، لكنها اختلطت في ركامات تغطي الأرض. شممت رائحة الغمولة والبلى والعطانة. الغرفة خالية من أي أثاث، لا توجد بها سوى خابية ماء مغطاة بغطاء فوقه كأس. قال لي:

ــ ها هو الكنز.

قربت الشمعة في يدي من الكتب وأنا أنحني عليها فجفل وحرك سلهامه على كتفه ثم أمسكني من يدي وأرجعني بعيدا عن الكتب. قال:

ــ ضع الشمعة في مكانها حيث كانت.

قلت:

ـ لكني أحب أن أرى الكتب.

قال:

ـ أنت قَـرَّبْتَ منها النار. فماذا لو سقطت الشمعة من يدك واحترقت الكتب ؟

رأيت وجهه النحيل ولحيته الصهباء وضوء الشمعة يتراقص، وبدا متبسما كأنه يعتذر لي وقال:

ـ الكتاب يا ولدي هو الذي يضيء. خذ كتابا وإذا كنت لا ترى ما فيه فاقترب منه من الشمعة وهي في مكانها.

انحنيت وأخذت كتابا مخطوطا وكان عنوانه (المصالحة مع الحبيب) وأخذت آخر فقرأت (وصف ذي الجلال وما له من جمال)، وثالثا كتب على غلافه (الأنوار القدسية) للإمام الشعراني، ورابعا وخامسا حتى أمسكت بين يدي مخطوطا عنوانه (شرح أسماء الله الحسنى) لابن برّجان الأندلسي. ظل الرجل يتابع نظري في الكتب وقال:

ـ ألا ترى معي أنه كنز؟

قلت:

ـ ولكنه مهمل و يحتاج إلى عناية.

قال:

ـ وكيف ؟

قلت:

ـ الكتب تحتاج إلى ترتيب ونفض للغبار، ورفوف تنظم عليها.

تبسم وقال:

ـ هل تفعل ذلك؟

قلت:

ـ نأتي أولا بخادمة تنظف المكان ريثما يصنع النجار الرفوف.

عاد ينتفض وقد بهت وأصفر وجهه أصفر تحت ضوء الشمعة المتراقص، وبدا عليه الغضب وقال:

ـ لا. أبدا. أنا وثقت فيك عندما أدخلتك إلى هنا. هذه الكتب لا يقترب منها الجهلة ، فربما يسرقونها أو يستخفون بها.

قلت له:

ـ وماذا نفعل ؟

قال:

ـ لن يدخل إلى هنا أحد غيرك. أنت من سيرعى هذه الكتب، ويستضيء من أنوارها. فهل توافق ؟

قلت:

ـ لكن هذا يحتاج إلى وقت.

ـ ليس ذلك مهما، والمهم هو أن تعدني على ألا يدخل هذا المكان أحد غيرك.

ـ كيف سأدخله والمفاتيح معك ؟

ـ أنت اطلعت عن السر وعرفت مكان الكنز. فلترعه وعين الله ترعاك.

فكرت قليلا وقلت له:

ـ ألا نفكر في إدخال الكهرباء إلى هنا، وتبليط الغرفة وصباغتها؟

قال:

ـ هل سيدخل عمال الكهرباء إلى هنا؟ الكتب تضيء على نفسها وعلى قارئها بالليل والنهار.

وسكت قليلا وهو بادي الانشغال ثم قال:

ـ هذا الكنز كنزي أنا، وقد خفت أن أموت فيبقى هنا مستورا، ولذلك كشفت لك عن مكانه. وما دمت حيا فهو لي ولك، وإذا متُّ وأبقاك الله حيا فهو لك وحدك.

بقيت واقفا أمام الكتب أفكر فيما ساقتني الصدفة إليه، وأقبل على خابية الماء فأخذ الكأس وملأه منها ثم قال لي:

ـ اشرب.

فشربت من الكأس ماء تذوقت له طعم المداد أو السماق، وقلت لنفسي هل أنا أشرب حبر الكتابة، فأخذ مني الكأس وشرب ما بقي فيها، ونظر إلى الشمعة التي احترق معظمها، وقلت:

ـ كيف سنتواعد على المجيء إلى هنا ؟

قال:

ـ تبدو جادا في وعدك، وهذا يفرحني. ما اسمك يا ولدي ؟

قلت:

ـ عبد الحي.

ـ اسمع يا عبد الحي. لا تسأل عن الأشياء التي لم يأت ميعادها.

وانحنى على كتاب مهلهل الأوراق والحواشي، فأخذه بين يديه، ونظر فيه، فرأيته يصغر والكتاب يكبر حتى اختفى بين أوراقه وما سقط الكتاب بل بقي مرفوعا في مكانه وكأن اليد ما تزال تحمله، فاعترتني القشعريرة، وفي تلك اللحظة انطفأت الشمعة، فأخرجت من جيبي المشعلة وما رأيت الكتاب إلا فوق ركام الكتب، والرجل لا وجود له، فحملت الكتاب ووجدت بين أوراقه ريشة لطائر فأعدته إلى مكانه ونظرت حوالي فما كان لوجود الرجل من أثر.

وقفت حائرا و بدا لي أن أذهب فتأكدت من انطفاء الشمعة ورفعت الخامية وأغلقت الخوخة ورأيت قمرا يضيء السماء والممر المرصف ومشيت

إلى أن وصلت إلى الباب الخارجي فأزحته قليلا حتى خرجت ثم أعدته إلى مكانه وسرت وأنا أفكر فيما حدث لي وللرجل، ولقد نسيت أن أسأله عن اسمه، أو أن أعرف محل سكناه.

سرت في طريق عقبة السبع وخرجت إلى البطحاء فضقت بزحام البشر وذهبت في طريق الجنانات أفكر فيما جرى للرجل هل هو سحر أو كرامة من الكرامات، وهل سيعود للخروج من بين أوراق الكتاب أم أن تلك الريشة هي ما صار إليه.

في تلك الليلة جفاني النوم. وقفت لساعات أمام كتب مكتبتي وأنا أستعرض الأفكار التي تنطوي عليها فتغيرت نظرتي لتلك الكتب ولتلك الأفكار. وفي الصباح الباكر خرجت من الدار واتجهت نحو تلك العرصة فدفعت الباب الخشبي وسرت في ذلك الممشى، ولما رفعت نظري رأيت غرفة أخرى فوق تلك الغرفة لها شرفة وتصورت الرجل يطل علي من تلك الشرفة. فتحت الخوخة ورفعت الخامية وأطللت على الداخل. كان ركام الكتب كما هو والحيطان أصابها الرشو وأعمدة خشب السقف مائلة منخورة. حاولت فتح الباب ليدخل الضوء وكان زكرومه صدئا دفعته فلم يبرح مكانه. اكتفيت برفع الخامية وحملت الكتاب المتفرق الأوراق فكانت الريشة ما تزال في مكانها. منذ ذلك اليوم صارت تلك الغرفة مكان خلوتي أكتشف فيه أسرار الكتب، وهناك تعلمت الصبر على الوقت والجوع كما تعلمت نسيان جسدي وبعض أحوالي.

أنا الآن أبدأ العالم على نحو جديد، فهل أتراجع؟ إذا ما عدت إلى فاس على هذه الصورة نحيلا متعظم الوجه أرتدي خرقة الصوف، في كفي بعض حبات الزيتون وتحت إبطي قربة الماء، فلن يعرفني أحد، ولكن فاس التي أنجبتني لن تتخلى عن معرفتي، ففي القربة من زلال مائها الجوفي ما يعرف

الكثير من أسراري، وإذا لم تعرفني الأشجار التي صاحبتها أو نسيتني أو تنكرت لي فيكفيني أن فاس ستعرفني. ولكن ها أنا أبدأ العالم من جديد، فهل أتراجع ؟

لا ليل ولا نهار.

الأيام نسيت عددها والشهور أنا في حل من نفسي ومن كل التبعات.

لا ضوء ولا ظل.

هل هو العمى الرائي؟

هل أنا أقترب ؟

الذئاب أتجنب طرقاتها وإن صادفتني فهي تعوي وتتجمع حولي ناظرة إلي وأنا أنظر إليها إلى أن تقبل عليها الكلاب فتتفرق، وإن نبح في وجهي كلب إليه فهو يديم النظر إلى نظري ويبسط قدميه على الأرض، ولما تتبح الكلاب من فهو يتراجع خفيفا قبل أن يطلق ساقيه للريح.

ولربما هي فاس تحضر في خاطري، منسابة مع الظل والضوء، رائية بعيون العميان، نذيرها وبشيرها يغيبان في أوقات ويحضران في أوقات والبشير والنذيرلا يحتاج إليهما أحد من سكان فاس ففي كل السويعات يُخْرِجُ فاسي من جيب سرواله ريالا وينظر إليه فيعرف هل الوقت وقت رخاء أم وقت شدة، وتَعُدُّ فاسية حبات العدس التي وضعها لها زوجها بمقدار من حفنة يده على زليجة لتنقيها من الحصى ولما تجد البصل قد نفد من بيت العولة فهي تعرف أن الوقت وقت شدة، وإذا ما جاء وقت آخر وعاد زوجها من سوق الرصيف بأكباد الغنم أو برأس عجل أو بديك بو بنارة لم يتردد في إلقائه في الخم وسارع إلى ذبحه فهي تعرف أن الأيام هي أيام رخاء، وحتى أخبار الراديو لم تكن تبشر أو تنذر بشيء، فقد كان الناس في كآبة ليالي الشتاء

يستمعون إلى المسلسلات التاريخية متدفئين بنار المجمر وبما يتعشون به من خليع فُقس فيه البيض أو بحريرة ساخنة و آذانهم على المذياع.

بعد حين سوف أسمع الأذان من صومعة جامع الرصيف وسيكون الباعة قد أسرعوا إلى المسجد قبل أن يفتحوا دكاكينهم أو يعرضوا الخضر والفواكه المقطوفة توا من الجنانات على النواصي، وإذا ما سمعت الأذان وأنا هنا في هذه القفار فسأوحد الله ولن أنهض من مكاني لكي أصلي، فالقِبلة هي حيث أنا أولي وجهي، والطهارة هي طهارة النفس، وأما الجسد فقد صار إلى فراغ فذهب عنه الدنس وتطهر، وفي تَطَهُّرِ الروح ما يكفيها، فمع ارتقائها إلى مدارج ذلك اللقاء الموعود مع الأنوار السماوية التي تشع في الأرض.

وسنان يصلي صلاته مع ذلك الأذان الذي سمعه من صومعة جامع الرصيف في فاس الفيحاء وهو في قفر من هذه القفار ناظرا إلى قبلته وحيث كان متكئا إلى كوعه مستندا وجهه براحة يده، ناظرا إلى تجاويف ظلماء تزيحها الأنوار حتى يغدو العالم بقعة صغيرة من نور يبدأ كفتيل تشتعل في رأسه نار ثم يمتد الضوء فيتسع و يضيع الفتيل الذي كان مجرد وهم فيكبر ضوءه حتى يشع في النفس ويمتد إلى حدود لا نهاية من هذا العالم.

يبتسم وسنان ويقول محراب في قفار، في طرف من العالم ؟

يصوم وسنان وينسى صيامه فيفطر على ما يجد من فاكهة للصبار أو بقول أو ثمار لأشجار برية، ثم يستمر في صيامه وقد أدرك إفطاره ويقول إنما الأعمال بالنيات.

يضرب في الفيافي تاركا لقدميه حرية المسير بين الشعاب والوهاد والمسالك، ناظرا إلى جبل بعيد كأنه هو الغاية. وعلى أعلى نقطة من ذلك الجبل تركزت نظراته وهو يترقب أن يبزغ منها ضوء بعيد لن يراه سواه، فظل يمشي الهوينا والطريق يقصر ويبعد. المسافات العارية الجرداء تمتد

أمامه والشمس حارقة وعيناه كليلتان ترقبان حركة الميلان البطيئة نحو الغروب فيما وراء الجبل. ومتى تغرب الشمس فهي تشرق من جديد، وإذا ما حل الليل وعم الظلام يخرج الفراغ من الخرقة وستبقى الجبة مكومة على هذه الأرض الجرداء، كما ستبقى قربة الماء ممتلئة إلى النصف، وكسرة خبز وبضع حبات من الزيتون، تنتظر أن يأتي إليها قاطع طريق أو واحد من المشردين، فإذا رفع الخرقة في الهواء مفتشا عما قد يكون بداخلها من مال مستور فلن يجد أي شيء، وإذا ما أغرته بأن يلبسها ليتقي بها برودة الليل فسيصبح جسده فراغا من ذلك الفراغ ، وسيحيره ذلك فينزع الخرقة عن جسده ويذهب للبحث عن جسده في الخلاء.

وسنان هو صاحب ذلك الجسد الضائع في الفراغ، وأما ناظراه فمعلقان بتلك النقطة التي هي أعلى نقطة في الجبل ينتظر أن يبزغ منها ضوء قليل ساطع سرعان ما سوف يتسع ويغمر العالم، فتغرق فاس في تلك الأضواء وتتلألأ المدينة في ليلها ونهارها وتزول عن الدروب وحشتها وعن القلوب والعيون ما اعتراها من ظلمات النفس وأدران الجسد.

هل هي طهارة الضوء النابع من أعلى نقطة في جبل لعله تغات أو زالغ؟

وهل أنا أمشي في اتجاه جبل الحبيب أم هي مكائد الجبال تخدعني كما خدعتني مكائد النساء؟

قد لا يكون شيء من ذلك كله فالجبال راسيات في أماكنها والنساء على عاداتهن لا يزلن، وربما هي مكائد النفس التي خدعتني بالخروج من طريق والذهاب في طريق، لكن طريقي حتما هو الجبل حتى وإن كان برزخا من البرازخ أو عزلة لرؤية ذلك الضوء النابع من أعلى نقطة أو معاشرة للكلاب والذئاب والقتلة والمحاربين.

وماذا سوف أفعل؟ هل أعود إلى القطانين لكي لا يعرفني أحد؟ هل أحلق هذه اللحية وأترك الخرقة للفراغ وأرتدي ما يرتديه الناس؟

والضوء القريب السطوع ألا أراه؟

أين هي إذن تلك التينة المجففة التي قضيت في عد حبيباتها الصغيرة وقتا من غير أن أعرف؟ وأين ما عددته من عدد النجوم في ليال صفت لي فيها السماء؟ وما الريح التي أخذتني نحو الصحراء فتبدد من حولي ما كنت أحصيه من حبات الرمل ؟

أخذتني السكرة ومشيت حتى وصلت إلى ماء لا يحده إلا الماء. هو بحر في هذا البر؟ ماء ساكن نظرت إلى عمقه فما استطعت أن أقدر ما يكون عليه من العمق. جلست على حافته ونظرت إلى وجهي فرأيت بياضه قد تحول إلى سمرة قريبة من الزرقة، وعظام الحنكين بارزة، والبرص قد زاد من صعوده من العنق إلى الوجه. أفرحني ذلك. هذه هي أول خطوة للوصـــول. سارت عيني مع ذلك الماء فلم تنته إلى منتهى. ألقيت بنفسي فيه فابتل الجسد وابتلت الخرقة. شعرت بالأسى فالجسد ما يزال غير فان، ولذلك فقد أحس بالبلل، أو رأته عيناي وهو يبتل. سرت في اتجاه الشمس كسير الطرف، وبعد حين أصبحت الشمس حارقة وأخذت الأبخرة تتصاعد من الجسد والخرقة، وما عدت ناظرا إلى شيء فقد أصبح طريقي بعيدا للوصول، وهذا ما كشفت عنه السكرة التي طارت، فصرت أحتاج إلى سكرة أخرى.

هل كان نهرا أو بحيرة فقد أغشى عيني الماء وأنا أرتمي فيه حتى أرى و لكني لم أر غير الماء.

أنا الآن أسيرٌ شاعرا بالمذلة والاحتقار، ولعله قد أذلني واحتقرني حتى يختبر ما ينطوي عليه القلب من وله.

أسير وأتذكر تلك الشجرة التي أحبتني وقالت لي أنت عاشق لغيري وأنت المعشوق. أقترب من وهاد خضراء ترعى فيها الماعز فأغير طريقي في اتجاه التل. الحلفاء نامية تطفح خيوطها النباتية بالاخضرار. هنا أحجار صخرية ناعمة متداخلة الألوان. نزلت التل من الجهة الأخرى فرأت أشجار رمان فاكهتها ناضجة ومدلاة. قطفت رمانة وجلست إلى الأرض فنزعت عنها القشر بأظافري وظهرت لي حباتها المتماسكة فأخذت أحصيها. أخطأت في العد وأعدت الكَرَّةَ من أول حبة ركزت عليها نظرتي متتبعا صفوف الحبات، ثم أخطأت في العد.

لم أذق من الرمانة ووضعتها في الصرة مع الخبز والزيتون. وربما سرت نحو تلك الجهة أو نحو جهة أخرى طالبا أن أسكر بسكرة من السكرات.

النشوة لا تُبلغ في حينها ومن أول اقتراب، وكما تكون الجبال راسيات فهي كظهر الدابة أولها صعود وآخرها هبوط وبينهما خريف أو ربيع، مفازات ومغارات للدم، أنهار من طين وصلصال ومواد عجيبة تسبح فيها الأسماك ويقتات منها العباد، مدن منذورة للخراب وأبواب خضـــراء لا تنفتح إلا للعاشقين.

وهل وسنان عاشق ؟

العشق نور وضاء يملأ القلوب ويهيج النفس والحواس لملاقاة المعشوق.

والعشق نار حارقة يحترق بها العاشق في غياب المعشوق.

المعشوق لا يغيب عن العاشق لحظة وإنما هي الحواس تخدع في أن تجعله قريبا منه وما عليه إلا أن يدرب حواسه على السماع والرؤية.

وكلما كان التدريب يبطل مفعول الحواس الظاهري إلا واقتربت من الإدراك الباطنـي وساعتها يتجلى المعشوق للعاشق كأبهج ما ترى العين وتدرك الحواس وتعجز أخيلة الشعراء عن التصوير،

فهي لحظة ذهول تنفلت من الزمان والمكان.

لحظة دخول في سجوف الغيب لا تعقبها لحظة خروج.

لحظة فيض وامتلاء.

وهكذا فلن يخرج من تلك اللحظات إلا من كان مطرودا من الجنة أو من كان لا يقدر على أن يثقل كاهله حمل الأنوار كلها في القلب والعين وراحة اليد، ومن كان راجف الأطراف من رؤية تلك الأنوار، غير ثابت القلب على اقتناص لذة الوصول، من دهشته أو عدم احتماله لبريق تلك الأنوار التي تكون قد سرت في روحه فرآها تتوهج من حواليه في المدن والجهات.

هكذا العشق يا وسنان، فلقد خسرت ما مضى من حياتك في أبراج منسية كما نسيت الإسم الذي كان يناديك به الناس في القطانين والزربطانة والبطحاء. تتذكر الحي وتنسى عبد الحي. تقترب من القريب وتنسى البعيد. نسيت الجسد الذي ما عاش إلا لكي تحرقه نار امرأة، وكل ذلك كان.

رماد الجسد يبعث من الرماد لتسير في هذه الحدائق تبحث لها عن الأنوار والأنوار لا تنبع إلا من أعلى نقطة في جبل لا اسم له حتى وإن ظل الناس يسمونه تغات أو زالغ.

رماد نساء سبع هو الذي علمك ما هو الرماد، وما الفراغ الذي يحتوي الرماد والجسد الذي صار إلى رماد، فما أنت يا وسنان، وما أنا، فما هي إلا صورة امرأة وحيدة هي التي تجلت في كل هذه العزلة وهذا الظلام، هي الربيع والخريف والتيه في الأخاييل والرؤى ورائحة الجسد؟ ما الإحراق الذي صير الجسد إلى رماد، لأن الجسد لم يتعلم كيف يحترق حتى يذخر لبقائه شيئا من البقاء، إذ لا يتعلم الإنسان كيف يواري حرائقه في جهات منسية من الجسد، وكأنه ذاهب نحو الخسارات.

هل أنا وسنان وقد نسيت ؟

أسير نحو الجبل والجبل غير كائن، كأني قد رأيته في حلم أو عينت جهته بالأنواء والعواصف والرعود وإمطار السماء في غير مواعيد الإمطار.

حلمت به، جبلا شامخا أشم مسنون الصخور لا ينبت عليه شيء من نبات، تجاويفه أوكار للنسور ومآو للذئاب والضباع. مَثُلَ أمامي فرأيت في تضاريسه قوارير وكؤوسا مشعشعة وكؤوسا أخرى يفيض منها الحباب، فمددت يدي إليها على كل ذلك البعد فوجدت كأسا في يدي فأترعتها وجاءتني كأس أخرى وتوالت الكؤوس حتى سكرت وقد اختفت كل معالم الجبل من أمامي ففرحت وقد علمت أن ذلك الخفاء يعني الظهور، فكلما كان الخفاء إلا وكان ينبئ بالظهور، ووجدت نفسي صريعا طريح تلك الأرض التي لا تحدها أرض، فمتى أفيق من سكرتي حتى أرى ما سوف يظهر بعد ذلك الخفاء ؟

وهل أفقت ؟

بين أن يهبك الجبل كأسا وبين أن تشرب تلك الكأس، يكون الغمام قد غمم كل شيء وضاعت مواقيت الوقت وانحسر العالم كله وصغر حتى صار بإمكان وسنان أن يرى فاسا وهو كلها وهو يسمي الأشياء بالأسماء.

أنا وسنان الساكن في متاهات هذه الظلال.

أنا الخياط الأبرص.

هل لبستني فاس أم أنا لبستها فجئنا معا إلى الجبل ؟

التقى عبد الحي مع وسنان وكان كل واحد منهما قد ضاق بحاله وبحال دنياه. التقيا في مكان معلوم أو مجهول لا أحد يعرف، وسنان لا يتكلم مع الناس ولكنه في تلك الليلة التي قضياها معا تحت ضوء القمر غنى بصوته الحسن كلاما جميلا بالعربي الفصيح فعجب عبد الحي للذين قالوا عنه إنه ريفي لا يعرف العربية، ورأيا من أضواء تلك الليلة الباهرة. قال عبد الحي:

ـ أنا ذاهب.

وقال وسنان:

ــ وأنا ذاهب أيضا.

سأله عبد الحي:

ــ والطريق؟

فرد عليه وسنان:

ــ الطريق واحد و لكن كل إنسان يذهب فيه حيث يجد المذهب.

ــ وهل ستتخلى عن جلب الماء من سيدي احرازم.

ــ سأعود إلى الريف.

ــ والخرقة ؟

ــ فيها الجسد و هو فان.

ــ وفاس يا وسنان؟

ــ سآخذها يا عبد الحي في عيني إلى الريف.

ــ والأصحاب ؟

ــ ليس لي أصحاب.

افترقا أو التقيا لا أحد يدري ما حدث بينهما، وكان ما كان. مشى عبد الحي من طريق ووسنان من طريق.

كان وسنان يلبس البذلة الرومية التي خاطها عبد الحي لنفسه بنفسه في محل الخياطة، ومن تحتها قميص عبد الحي، وحتى ربطة العنق كان يضعها في عنقه، والحذاء هو حذاء عبد الحي، حتى ولم يكن كل ذلك على مقاس وسنان. ولا يدري أحد هل ركب سيارة ذاهبة إلى الناضور أم ذهب إلى مكان لا يعرفه غيره، فقد اختفى وسنان.

وسار عبد الحي نحو باب بوجلود يلبس الخرقة، ثم لا يدري أحد من أين جاءته القربة، والصرة التي يخفي فيها كسرة خبز وحبات من الزيتون

الأسود. ومن باب بوجلود ذهب نحو باب الساكمة، ومن هناك خرج إلى الخلاء وسار فيه حتى وصل إلى تلك القفار.

الطريق إلى الجبل يبدأ من الباب. لم أجد سوى طريق واحد هو الذي أسير فيه غير هياب ولا وجِلٍ طالبا أن أقترب من القريب، فهو من يمد لي كاس المدام صهباء تُوهج الأذواق والمواجيد فلما لا أظفر بالوصال أنام على طيف يأتيني في الخيال. بالفراسات والمكاشفات أدرك أن المعشوق قريب على كل ذلك البعد فأشرب من بحر المحبة لا تُثنيني عنها سقامات الجسد، فهي إمارة العاشقين فرادى وجماعات ولو أضاءها نور الجلالة لانسكب ذلك النور في العروق وأقام للجسد الفاني أوده ولنطقت تلك الجبال الراسيات بما في قلوب الحجر من أسرار، وحتى والطريق بعيد فالأرواح تخاطب الأرواح، والضمائر تكشف عما في الضمائر، والأحاسيس ترق وترهف تاركة للحواس أن تبلغ مرادها بعد تصريم وحشة الليالـــي والإقبال على السماع وقد صار صوت الحبيب ينوب عن صورته، وبهاء الصورة كمال لا يدركه الوجدان والخيال، فلا حيلة إلا بالاكتفاء بما وهبه الحبيب من نشوة ولا طلب بعد ذلك، فما بقي هو ما يملأ القلب بالفرح بما يتصل بالحب من الأحوال التي يرضى عنها الحبيب، وهي أحوال الشراب الذي يأتي من غيمة أو يعتصر من كرمة أو يقطر من تمرة أو تينة، لِيَبْلُوَ الجسد بالصبر ويمنح العين رؤيتها البعيدة وتجلياتها الباهرة ويخبر القلب بالمواجيد.

وسنان يستلقي على ظهره فوق التراب، فهل مات وقد مضت أيام وهو على هذه الحال والحمى تأكل من جسده الملتهب، وطرفه لا يقدر على النظر إلى تلك النقطة في أعلى الجبل ليرى هل ظهر ذلك الضوء فهي إشارة من المعشوق أم أنه لم يظهر بعد. والعاشق سكران سكرة لم يسبق أن سكرها في

حياته، وهو طريح على الأرض، وإن صحا قليلا فهو يمد يده طالبا كأسا أخرى.

نهض وسنان وأخذ يمشي هائما كأنه هارب من شيء، وهو يقول:

مولاي يا مولاي

سهرت أبغي منك الوصال

وقد نلته في الخيال.

مولاي يا مولاي

تكاثر الحراس والرقباء على الأرض فضاقت بالعاشق

وأنت مـن جعلها رحيبة

فـيسر لي مسكانا للخلوة

وانظرني

وأنا أراك

واجعل المودة سارية بيني وبينك

فقد انفطر قلبي وما عاد يرف لي جفن من شدة الوجد

وإن ختمت بالقرب فكل ما لاقيته سهل علي وأنا قادر على الاحتمال.

فهل تصفو لي رؤياك بعد أن داومت عليها في الخيال، وبعد أن تجلت لي في المنام؟

الأحلام والمنامات

الأشواق والأذواق

الحدوس والحسيات والبصريات

الشعور والضمير

المراقبة والمحاسبة

الكرامة والولاية

المسموعات والمرئيات

الإقترابات الوجدانية

تلك هي المجاهدات والفراسات والمكاشفات التي تقرب العاشق من المعشوق وتجعله بين الحضور والاستحضار، بين قبول عادات الحبيب في الحضور والغياب وبين تجميل قبح العاشق ليكون مقبولا لدى المعشوق.

وتلك هي دلائل ترويض الأحاسيس لمقاربة أبعادٍ بعيدةِ الخيال تستروح من الأرواح أرواحها وتبقي على الأذواق الحسية من جميل أذواقها وتخلع على الجسد لباسا من الوجد الروحي كما تُنطق اللسانَ بتسبيحات وأذكار ومواجيد وغزليات وخمريات وتلك هي آية الافتتان والافتتان.

البراهين

هل أتخلى الآن عن هذه الأرض وأطير نحو السماء؟ كيف يمكن أن تكون الأرض مهدا للنبوءات وأتخلى عنها ذاهبا في مسير لا كالمسير؟

الشمس ضربتني بضربتها على قنة الرأس وأنا ذاهب نحو ممكنات مستحيلات، تاركا للذكري سالفا في أمد وقادرا على التحليق بذراعي فوق قمم الجبال، وإن تعاليت فلي ألا أرى أحدا وأن أرى الفراغ يبدأ العالم ببدايات عجيبة كميلاد نجمة أو تشكل غيمة أراها من فوق وهي تتشكل.

ولا بأس فكل هذا العجب هو العجب، وهذه مدن لم أزرها لكني أراها وأرى الصوامع والأضرحة والكنائس والبيعات فلا أسأل الخالق لماذا خلق لكل هذه الديانات شعوبا ومللا ونحلا ولا أسأله لماذا لم يخلق للناس دينا واحدا فهو عليم وحكيم ولذلك لم أتجرأ عليه بالسؤال وهو مانحٌ اللسانَ قدرتَه على الكلام، وهو من يرمي بكل هذه الأفكار في روع الإنسان فيراقب كيف يستجيب لها الإنسان أو لا يستجيب وكيف يقارعها بأفكار أخرى هي من قِبَلِ أفكار الشيطان أو من عمل ما قد يتجلى له في الأوهام ويحاسبه على ذلك وهو الحسيب الرقيب.

حالما كنت في تلك السجف التي هي ليست أرضا ولا سماء فقد رأيت ما لا يرى وسمعت ما لا يسمع، واقتربت من البعيد وأمسكت بشهب النار الحارقة بيديَّ فما احترقتا، وفي تلك السجف كان جسدي قد تحلل وصار إلى فراغ، وما أضناه أن يرقب نفسه على بعد وهو يهيم مع الفراغ فيما بين الجبلين، طائرا وراء ذلك الطائر الأسود الذي كان يصرخ صرخته العظيمة في الصباح والمساء وما عاد له موعد يأتي فيه حيث ما عاد ثمة أحد. هل اتسعت الخرقة

على ضيقها إلى هذا الحد ؟ وأين هي الخرقة الآن؟ وجدت أن المرئيات للعين ليست كالمرئيات لما تسمو به الروح إلى أقصى تجلياتها التي يكون الطريق هو الوجادات.

وما العارف سوى من جعل الخمرة وسيلة للكشف عن الأسرار المكنونة والدرر المسنونة في الذات الإلهية. أما أنا فلست شيخا ولا مريدا ولكني أعرف طريقي، والطريق قد تصل بي وقد لا تصل، ولكن ما الحاجة إلى البرهان والبراهين حدسية وأنا قد صرت من أصحاب الحدوس؟

أبواب المعرفة

ثلاثة أبواب للمعرفة هي الرياح والنجوم والكتب، وقد عرفتها ثم رأيت أن أزيد على تلك الأبواب الثلاثة بابا آخر للمعرفة وهو باب إدخال الخيط في ثقب الإبرة، فيما تعلمته من صنعة الخياطة فالخيط هو ما يبحث عن باب لدخوله وثقب الإبرة هو مكان الدخول ولكن بدون ضوء وعين تتطلع إلى الضوء لا يمكن أن يتم كل ذلك.

عرفت أن الضوء والعين هما باب آخر من أبواب المعرفة، واهتديت إلى أن الأبواب المعروفة لا تمنع الإنسان من أن يخترع له بابا بحسب قدرته على الإختراع، كما وجدت أن الأبواب ليست جميعها مفضية إلى المعرفة، فقد لا يفضي أحدها إلى شيء.

استنكرت على نفسي أن أكون عالما بالسر وأنا أبحث عن السر، ودارت بي الدوائر وانقلبت على عقبي وإن أشعر بالخسران، فقد كان عجبي من أن يكون الضوء أمامي وأنا أنفق ما تبقى من العمر في البحث عنه، فهو ضوء لا يراه إلا من ينذرون أنفسهم لمثل هذه المكابدات.

ثم إنهما طريقتـــان للوصول إلى المعرفة، إحداهما عقلية منطقية رياضية وفيزيائية، وهي لا حدود لها ولا كمال، وكل زيادة فيها زيادة في المعرفة. والثانية حسية وكل زيادة فيها في المعرفة نقصان، ولكن بها تسمو الحواس وتتهذب فيسمع الإنسان ما يرى ويرى ما يسمع، فهناك من الناس من لا يرى ما يرى ولا يسمع ما يسمع، وهذه الطريقة الثانية هي أصل كل ما ينتسب للذوق والوجدان.

وقد كان لي أن أفتح كل تلك الأبواب وأن أسير على الطريقة الحسية متعاليا ومتساميا فلما بلغت العين اقترابها من كمال الرؤية فقد تمزقت عنها الغشاوة وتغيرت منها أحوال النظر كما أسبلت الجفون وهي على ذلك الاقتراب من بلوغ الكمال.

وسواء تأخر بي البلوغ أو لم يطل فأنا هنا أرقب النجم يتهاوى وأمسك أطراف السماء بين يدي ولا أتوانى عن المسير.

حاشية

كان يختار أن يقف أمام باب أخضر من تلك الأبواب الخضراء التي تفتح على قلوب خضراء، وأن يجلل قلبه بجلال امرأة بيضاء قلبها من حليب، وأن يعاشر الأصفياء.

وكان يحتار بين باب أخضر وقلب أخضر، فظل واقفا أمام كل الأبواب التي تخلخلها الرياح وتقتلع رتاجاتها فلا تبقى ثمة أبواب أمام عينيه، وإن هي بقيت، فقبل أن تفتح أو توصد تصير لا لون لها، وتصير فراغا مفتوحا على الفراغ، كما يصبح الدخول والخروج لا معنى لأحدهما يميزه عن الآخر.

ظل رائحا و غاديا يبحث عن الأصفياء حتى يعاشرهم، وفي ذلك الغدو والرواح ما كان له أن يجد مبتغاه، فظل يطوف بين الدروب باحثا عن باب ولم تكن للبيوت والحوانيت أبواب، كما لم تعد للمدينة أبواب ، فأخذ يشتهي زمن الوقوف أمام باب أخضر من تلك الأبواب الخضراء التي كان يحلم بأن تفتح له على قلوب خضراء.

ما كان يمكنه أن يفعل غير ذلك، فقد تَوَلَّهَ في رؤية شروق الشمس وهي تصعد من وراء الجبل، واحتار أهي تشرق أم تغيب، وفي حيرته تقلصت المسافات كلها حتى لم يجد له مكانا يسير فيه كما تقلصت المسافات بينه وبين الشمس والجبل، فاحتضنهما في حناياه وما احترق بلهيب ولا ثقل عليه ما يحمل، وأخذهما إلى مكان قريب من القلب، ثم صارت له أجنحة خافقة فطوى تحتها الشمس والجبل وأخذ يفكر إلى أين سوف يطير بهما، أ للشرق أم للغرب، أم عليه أن يطير بهما إلى أرض فاس ثم يعيد الجبل إلى مكانه والشمس إلى مكان سطوعها في السماء ويختلي في خلوة من الخلوات. ولكن

ما كان بإمكانه أن يفعل، فهل هناك خرقة فارغة من الجسد تستطيع أن تفعل كل؟

وهو وسنان، عبد الحي السراج، ما تجرأ على أن يكون له براق وما احتمل أ يرى الشمس والجبل بين يديه، الجبل فوق راحة اليد والشمس فوق الراحة الأخرى، وهكذا سار لا يدري إلى أين الوصول، وما هي ساعة الوصول.

في لياليه الحالكة كانت الشمس تضيء الجبل، و في نهاراته البيضاء كانت هناك إضاءة للجبل وقد تجلل بالضوء، لكن عينيه مظلمتان، ويداه عَمِيَّتَانِ لا تدريان ما فوق راحتيهما، وهكذا سار. هل وجدوه ميتا أو أنه عاد إلى أرض فاس، أم أنه قد تفرق شعاعا كما يتفرق الضوء أو الرماد؟ ربما، ولكنه هو عبد الحي، والحي باق لا يموت، لكن في الموت حياة.

الخفافيش

وكالة الصحافة العربية
القاهرة، 2002

الإهداء

إلى . . .

كل الذين أخذوني معهم نحو الجهات

[... وتأمل أيها الكاتب أن لا مآل لك، فمآلك هو هذه الريح التي تهب عليك من الجهات، بما تحلم به من الكائنات وما لها من النعوت والصفات،وبما تحرثه في أرض السياسة والكياسة، والعيافة والقيافة، فهم أبناء وبنات تلدهم مما بين صلب وترائب الكتابة، وهي أرحام وأجنة، وها أنت تحتار هل تعاشرهم في الأوهام أم تعاشر نفسك في الوجع والذكرى والمستطرف والمستظرف، والجارح والمستنكف، والماثل للعين والرخيص والثري وما بين السر والعلن، ووجوه هذه المهن والمحن، تخلق عالمك وتحيا فيه وكأنه قد كان موجودا في المكان والزمان، فأنت لا مآل لك، كان الله لي ولك، وللوراق، ولقارئ هذه الأوراق].

ابن ضربان الشرياقي

تقديم لما حدث

حيث لا مكان

فالأماكن كلها تتسع لاختراقات الزمان

وبين ما يمنحه الإنسان للمكان

وما يريده المكان للإنسان

ألف مسافة للكشف والبيان

صدفة يمكن أن يتوغل الكائن في كينونته، وهو يبدأ لحظات الذهاب الأولى نحو جهة من الجهات الست المعروفة.

ومع ذلك الذهاب في كل واحدة منها يفقد ما كان ينطوي عليه من دهشة واكتشاف، وتصير كل جهة كانٍ قد ذهب إليها الكائن مخزونا من التجارب والأفكار والقلق وطرق المواجهة وحالات الخيبة والأخطاء التي منها يتعلم أو لا يتعلم الإنسان.

وهي جهات ست، ولكل واحدة منها ذهاب مُضْنٍ، شاق، مُعَذِّبٌ ومُسَلٍّ، مُتْرَفٌ باللذات والحنين. وكل واحد منا قد يظن خطأ أنه هو الأول الذي ذهب في جهة من تلك الجهات، بينما تؤكد التجارب أن لكل جهة آثار خطى من كانوا قد عبروا مجاهلها وساروا في مفازاتها حتى جعلوا لكل جهة من تلك الجهات تواريخ غير مكتوبة وعلامات كأنها ليست مجردة وإنما هي أبعاد لجغرافيا لا أدري هل اختطها الكائن أم أن وجودها كان قد تحقق قبل وجود الكائن.

وصدفة أيضا، يجد الكائن نفسه وهو يتوجه نحو جهة سابعة هي التي تصبح مدار حياته حتى وإن كانت رُكْنًا قَصِيًّا يوجد خارج الجغرافيا المعروفة أو زاوية للنسيان، فهي الصدفة التي تجعل الكائن يصل إلى هذه الجهة السابعة ليسكنها أو تسكنه وهو يختزل من خلالها الأبعاد والتفاصيل والجراح، وهي جهة محفوفة بالأسرار والأوهام والألغام، ففي كل لحظة يتفجر جرح أو لغم، ليعيد الكائن إلى جهة من تلك الجهات الست، وكأنه قد ارتَجَّ، أو ارتَدَّ نحو بعضٍ مما كان، ومع ذلكِ الارتجاج والارتداد يخرج الكائن من ظلمائه وضوء عينيه حتى يرى ما كانت قد تكشفت عنه بعض التفاصيل.

ذلك أن الجهة السابعة هي فراغ كبير هائل، يمتلئ دوما باشتباكات عجيبة لكل تواريخ وعلامات وآثار تلك الجهات الست، فهي جِماع، وكلُّ مُلْتَحِمٌّ وغابة من الأضواء و المعتمات.

تلك الجهة السابعة على كل حال، ليست أرضا محروثة بالزرع أو يبابا أو ساحة للحروب، وليست سماء للنجوم أو الغيم، أو نقطة تَوَجُّهٍ روحاني لاكتشاف سجوف الغيب، ولا يمينا أو يسارا لمواقع السياسة واحترابانها.

وهي ليست مجرد وراء لما يرثه الكائن من معاناة وتجارب، ولا هي أمام للأمام، بل هي مخبأ سري يتم فيه تصعيد كل ما كانت تلك الجهات الست قد اختزنته من تاريخ لمعاناة الكائن، وفيها لا يمكن أن تخلد إلى المنام أو تضاجع امرأة أو تقول إلا إذا كان القول غير ما يقال.

صدفة يأتي إليها الكائن مصابا بجراحات تلك الجهات الست، لا ليضمد جراحه، وإنما لكي يستعيد من الحقب والأزمنة واللحظات ما كان قد جعله يصاب بتلك الجراح، والعرق البارد يتصبب على جبينه في قر الشتاء، وهو ولاشك آيب إلى جهة من تلك الجهات الست.

الجهة السابعة ليست مجرد تحليق أو عبور في مكان طوباوي، بل هي ملجأ غير آمن، يوجد في حياة كل الناس، أو أغلبهم على الأقل، وفي هذا الملجأ غالبا ما يحضر ما في بطون الكتب، والخطب، وما قاله أحد ومشى، والثرثرات المهووسة بكلام يعيد نفسه في كل وقت وحين، والبكائيات، والأغاني، والدم والدمع، والسجون وتهتهة السكارى، وبقايا نساء عابرات في الظل وعبورهن لا يمكن أن امرأة رجموها لأنها أرادت ألا تمنح جسدها إلا لمن تحب، والشظايا التي هي شظايا كائنات، والأحلام والأوهام، وما لا يوصف.

ففي الجهة السابعة لا نجد تفسيرا لشيء أو حادث، وإنما نجد أنفسنا أمام كل الأشياء التي كانت قد جعلت الكائن يرتبط بجهة من جهاته الست أو بها جميعا وهي تُرَتَّبُ من جديد ترتيبا عجيبا وخارقا لكل عادات الترتيب، حيث لا منطق إلا منطق تكسير المنطق واستعصاء الوقوف عند جهة واحدة من تلك الجهات، ولأننا أمام وضع تتشابك فيه الصور والأخاييل والأفكار والمرجعيات ولحظات التاريخ البشري وزخم دخول الزمن في أزمنته، فلكل جهة من تلك الجهات الست أزمنتها وتاريخها. ولكنها تمحي في الجهة السابعة لكي تظهر من جديد، على شكل لبوس أو هلام، وعلى شكل وجوه أو أقنعة، أو ما بين الوجه والقناع.

وهي على حالتها تلك، لا أوضاع لها تستقر عليها، بل لها كل الأوضاع التي عاشها الإنسان، وكما كان قد تعود على الهروب من نفسه أو من الآخرين فقد تكون كذلك.

وهي أيضا، ليست مرآة عاكسة أو محدبة أو مقعرة، لأن ما تعكسه لا يوجد أمامها، بل وراءها أيضا، وحواليها، هنا وفي كل مكان.

وأنا عبد الحميد، وستعرفونني فيما بعد، لكني أخبركم الآن بأني أحيا في هذه الجهة السابعة، التي جماع كل ما يمكن أن يوجد في الجهات الست، وقد قررت ذات يوم أن أكتب كتابا يضم كل الأحلام التي كنت قد حلمت بها ومنذ طفولتي إلى اليوم. وانتني هذه الفكرة بعد أن بلغت الستين من العمر، وبالفعل، كتبت نتفا من هذا الكتاب، ولم أتجرأ على الاستمرار في الكتابة، لأن تلك الأحلام التي أردت كتابتها كانت غير قابلة للتصديق، وقلت لأكتب كتابا حتى وإن كان غير صالح للنشر وسيبقى بدون قارئ.

جربت أن أُدخل البياضَ في السواد، والخيط في الإبرة، والسكين في العظم، ثم استنكرت على نفسي هذه القسوة التي هي قسوة الجهة السابعة التي

أنا أحيا في براكينها التي تدفع الحمم، وقلت لماذا لا أكتب كتابا عن هذه الجهة السابعة، فوجدته كتابا سوف يحفل بتواريخ الديانات وأشكال الحروف واللغات، والحب، والموت، وأنواع حضور العقل أو تغييبه إراديا بفعل المسكرات والمخدرات، والأغاني، والخطب، والوصايا، وحفيف الأشجار، وأشياء أخرى كثيرة تستعصي عن أن أذكرها كلها الآن.

وقلت لنفسي إن كتابا كهذا لا يمكنه أن يتناول موضوع الجهة السابعة إلا إذا كان قد بدأ من وصف علاقة الكائن بكل واحدة من الجهات الست، وأنا لست باحثا ولاعالما، فلست ممن يكتبون تواريخ الموتى ولا من المنجمين أو الرحالة المغامرين وإنما أنا هو عبد الحميد.

كيف إذن يمكن لعبد الحميد أن يكتب كتابا يجمع كل ما في الكتب في كتاب واحد؟

هل هذا ممكن؟

والمسألة تتعدى ما في بطون الكتب وأمهاتها وآبائها إلى ما في

هذه الجهة السابعة من فتنة و افتتان، وما فيها من حروب تنشب بين الجهات، وتَغَيُّرٍ للمواقع، ودخول الجهة في الجهة حيث لا يعلم أحد كيف يتم الخروج، وما فيها من مجريات وأحداث ووقائع ومستحيلات لا يمكن أن يصدقها ذو عقل راجح.

وأنا عبد الحميد، ناقص عقل ولذلك يكثر عندي الكلام، فمن رجح عقله يقل عنده الكلام، والمسألة في غاية البساطة، لأن راجح العقل لا يعجز عن الكلام وإنما يمسك عنه ويحفظ للسان أن يخوض في الأعراض، حتى وإن كان عرضه، أو أن يلغ في الدم، دم تلك الجراح التي قد يظن أنها قد صارت منسية، وهي ليست مجرد دماء أناس يعيشون حولي، بل هي دماء الذين جاءوا من كل تلك الجهات الست، بأفكارهم وعذاباتهم، وأيامهم السوداء

والبيضاء، ليحيوا معي في هذه الجهة السابعة، وليكونوا قريبين أو بعيدين مني فهي جهة تضيق أو ترحب بحسب الأوقات والأمزجة وأنواع المعاناة، وقد يلتقي الناس فيها من غير أن يروا بعضهم، أو يشعروا بوجود غيرهم، فكل في شأنه ولا وقت للتعارف ولا حاجة للثرثرات.

عرفت أني ناقص عقل، لأني لم أكف عن الكلام في أية مناسبة من المناسبات، حتى تلك التي لم يكن فيها معي أحد، أي أنني كنت أخاطب أناسا يأتون إلي من أماكن بعيدة، ومن تواريخ تلك الجهات الست، ممن لا أعرفهم بالتمام و الكمال، وإن كنت أعرف قليلا أو كثيرا عن انتمائهم إلى جهة من تلك الجهات، وسواء أكانوا رجال دين أو سياسة، حمقى مأفونين، أو مغنين أو لصوصا أو باعة صور للشيطان، أو حفاة عراة أو صانعي أفكار، فإنني كنت لا أكف عن الكلام معهم، ولا أصون لساني ما يبقي عليه نظيفا، فما كان يلغ فيه، في الغالب، هو دماء فاسدة لموتى أحياء أو لأحياء أموات لا تجمعني بهم أية علاقة سوى علاقة الجهة السابعة بتلك الجهات الست.

وناقص العقل هذا، محدثكم، هو عبد الحميد الدباغ، ولا أعرف سوى أنني قد ولدت من أب قضى حياته كلها في دبغ الجلود، وأسرتنا تنتمي إلى القطب الرباني سيدي عبد العزيز الدباغ، صاحب المقام في التصوف، فلما جاء الشرفاء إلي للتشاور معي في أن يصنعوا لضريح العالم القطب كسوة وغطاء أعطيتهم مالا كثيرا كنت أعرف أنني أهبه لواحدة من تلك الجهات الست، وعبد الحميد لا يمكن أن يتوانى عن العودة من جهته السابعة إلى تلك الجهة، وهذا ليس مهما، ولكن الدباغ، أي دابغ الجلد، يبدأ عادة من غسل الجلود في ماء مندفع لينزع عنها كل روائح الدم الخانزة وكل بقايا التعفن، فهي جلود أبقار وماعز و غنم، لم يكن الدباغ قد شهد لحظة ذبحها ولا أكل

من لحومها، ولكنه، وقبل أن يكشط الصوف أو الوبر عن الجلد، لا بد أن يغسل منه كل آثار للدم.

ما يهم من حكاية والدي الدباغ رحمه الله هو هل أنا دبغت جلدي، وقبل أن أدبغ جلدي هل دبغت لساني؟

هذا السؤال محير لأنني لا أعرف كيف أجيب عنه، فكل ما أعنيه بدبغ الجلد و دبغ اللسان هو أن أكف عن هذه المحادثات مع الناس و مع نفسي وأن أذهب في زوال نهائي أو لا نهائي حيث أتحول أنا الآخر إلى واحد من كل الذين كانوا قد تركوا آثار خطاهم على جهة من تلك الجهات، وأقصد أولائك المجهولين، الذين لا تاريخ لهم سوى تاريخ الجهة التي كانوا قد ذهبوا فيها.

وليكن فإن ذهابي، صدفة، قد أوصلني إلى الجهة السابعة، وهي جهة الجهات.

يمكن أن يترحم علي واحد منكم أو أن يذكرني أحد بالسوء في ليلة جنازتي وهو يملأ فمه بكسكس عشاء القبر، فما هو ذاهب حيث أنا كنت قد ذهبت، ولا هو ذاهب معي حيث سأذهب، ويمكن لسقاء عجوز أن يرش قبري برشة ماء وهو ينتظر أن يقبض عليها الثمن، مسترقا السمع إلى ما يقال عن الميت، وما ترك، وما كان وأين كان، من غير أن يعلم ذلك السقاء الذي يسقي القبور أن جهة واحدة لا يمكن أن تنوب عن باقي الجهات، وحتى ولدي زكريا، لن يدري بذلك.

الجهات ليست مجرد أماكن، ولكنها تواريخ لعنف دموي ظل يمارسه الكائن على الكائن، إما للتلذذ بالدم أو لمجرد الرغبة في رؤيته مع التظاهر الكاذب بشيء من التقزز والنفور، أو لقسوة الكائنات على بعضها، حيث تصبح القسوة نظاما له أولياته في كل الجهات، ففي جهة الوراء على سبيل

المثال نجد قابيل لا يعرف كيف يجيب حينما سئل أين هو أخوه هابيل، لأنه كان قتله وتعلم مما رأى الغراب يفعل كيف يدفنه لإخفاء أثر الدم، والحقيقة أن القاتل والمقتول يختلطان عليّ كما يختلط عليّ اسم قابيل مع اسم هابيل، ولذلك فقد لجأت إلى حرف القاف لكي أرسخ في ذاكرتي اسم القاتل، وهي قاف قابيل.

وفي جهة الفوق، حيث السماء الواسعة برحابتها، لن نرى ما تحجبه الغيوم من طبقات من كلام حول الوجود الخالق، فقبل أن تظهر الديانات السماوية حاملة للبشر فكرة التوحيد، كان عُبّاد الشمس وعباد ذواتهم الإلهية وعباد الأفكار التي اخترعوها يتقاتلون، مع أن العبادة على ما يبدو لا تستدعي إهدار الدماء، ولكن هاكم (ماني) على سبيل المثال، الذي عرفت فلسفته بالمانوية، فقد كان أعرج قميئا وما كان يتوجب أن يوجد أحد على هاتين الصفتين من بين رجال الدين في عصره، ولكنه حير كل الكهنة بما ادعاه من أنوار لا تأتي من تلك الأنوار التي كان من سبقوه يدعون أنها وحدها هي مصدر الأنوار، ولذلك امتحنوه، وحاكموه بتهمة الإتيان بأفكار دينية جديدة، هي التي بها انتهى إلى مسار بادئ في علاقة الكائن بالجهة العلوية.

ومن عجب أن الجهة السفلى لها دمها الملتذ به هي الأخرى، فقد كان أورفيوس هابطا إلى العالم السفلي وممنوعا من النظر إلى الوراء، وكأن الإنسان ليست له سوى جهة واحدة هي التي يحتم عليه أن يتجه نحوها، و إذا كان هذا قد حدث في أزمنة سحيقة فهو ما يزال يحدث اليوم ودون أن يتغير شيء في نظرة الكائن إلى الجهات، إلا إذا كان قد وصل إلى الإقامة في الجهة السابعة.

أنا كنت كشافا في الكشفية الحسنية مع بداية الخمسينات، وقبل استقـــلال المغرب، فمع الكشافة صعدت الجبال ومشيت في الغابات ووصلت إلى منابع الأنهار ومصباتها ودخلت المغارات ورأيت الشروق والمغيب وعاشرت كائنات الليل حتى تشابهتُ مع كل الكائنات التي كانت قد مرت من كل تلك الأماكن، سرت في الأرض صعودا وهبوطا ورأيت الليل كيف يدخل في النهار وكيف يدخل النهار في الليل، واستعدت حالة الإنسان الأولى وأنا أصعد الجبال وأنام في العراء وأتوغل في الغابات حاملا حربتي التي هي عصا غليظة في رأسها نصل حاد للدفاع عن النفس، فقد يهاجمني ضبع أو سبع.

من الكشفية تعلمت أن الكائن ليست له جهة واحدة، ولهذا ظلت مسألة كتابة ذلك الكتاب الذي حدثتكم عنه تشغلني، وهو الكتاب الذي يجمع كل الكتب في كتاب واحد ويغني عن الكتب كلها، فلا يغني عنه سوى عن كتاب واحد هو كتاب الله العزيز. وما كنت أقصد بذلك كتابا يضاهي القرآن الكريم، وحاشا لله، فالفكرة لم تخطر على بالي، لأن كتاب الله مُنَزَّلٌ وأنا فكرت في كتاب يكتبه إنسان ويكون من وحي قلمه وتجربته في الحياة، فإياكم أن تخرجوا كلماتي عن مواضعها، إلا إذا كنتم ممن يتلذذون بالدم فهذا حسبكم وحسبي الله.

ولما حان الوقت، ومن غير أن أخطط له، التقيت صدفة بكاتب وطلبت منه أن يكتب عني بالنيابة ذلك الكتاب.

ذهبت إلى نادي الفروسية لأحتسي كأسين أو ثلاثا، ولكني قبل أن أتوجه إلى النادي مررت بالإسطبل وأطللت على فرسي لوكي، كانت جاثمة ولكنها نهضت وأخرجت رأسها من الفتحة فمررت راحتي على حنكيها ولم تكن معي قطعة سكر حتى أطعمها إياها، ولم أتبين هل أكلت علفها، فتركتها

فدخلت النادي، وهناك وجدت مولاي عبد السلام محرز ومعه شخص لا أعرفه، فجالستهما، ولما سألته عن فرسه خولة أخذ يتحدث عن تلك الجولات التي قام بها فوق خولة وهي منتشية تكاد لا تلمس الأرض بحوافرها، وقال إن ظهرها يعلو فوق ظهر كل امرأة، فبدا مغمورا بفرح النشوة التي أصابته حتى ظننناه خارجا لتوه من حضن امرأة باذخة ومجربة دفعته إلى اكتناه مكامن اللذة في عروقه وحناياه، وضحك فضحكنا ثم قدم لي مجالسنا الذي كان لم ينبس بكلمة، وإن كان يضحك على ما يبدو، مجاملة لنا ومسايرة لجو الجلسة، فقد رأيت الغياب حاضرا في نظرته الشاردة.

كان نحيلا مُتَعَظِّمَ الوجه غير مبال بتصفيف شعره أو تشذيب شعر لحيته المدببة، حركاته طائشة لا معنى لها. ولما أخبرني مولاي عبد السلام بأن الرجل كاتب يكتب القصص والروايات ، فقد عدت مع نفسي إلى موضوع الكتاب الذي لم أكتبه، وما أردت أن أحرج الكاتب الشاب بذلك السؤال عن كتابة كتاب يجمع كل ما في الكتب، ويتعدى ذلك إلى ما كانت قد عرفته الجهات الست من آثار خطى، ظنا مني بأنه لن يفهم ما أقول، ولكنني سألته:

ـــ من أين تأتي بحكايات وتجارب قصصك ورواياتك ؟

فارتبك وتلعثم، واحمرت وجنتاه، وقال وكأنه يقذف بالكلام من أعلى جبل ليسمع صداه:

ـــ من الحياة.

وساعتها بادرته بالسؤال:

ـــ وما هي الحياة، هل هي جهة أو جهات ؟

فتدخل مولاي عبد السلام وقال لي:

ـ شفْ آ عبد الحميد، أنت تتفلسف، والكاتب لا يفلسف الحياة وإنما يكتب عنها كما هي.

ثم رشف من كأسه وقال:

ـ انظر مثلا إلى خولة، فهي تأخذني على صهوتها إلى جهة الفوق، وهي لا تعرف جهة الوراء، إلا ما كان من خَبِّهَا في بعض الأحيان، إذا ما كانت ترقص.

وتطلع الكاتب الشاب إلى مولاي عبد السلام، وكأنه أراد أن يقول شيئا، ولكنه لاذ بصمته و ذهب نحو جهة ذلك الغياب، فقلت لنفسي ربما يكون هذا الشاب من حزب الاتحاد الاشتراكي، وقد يكون ماركسيا له أصحاب في المعتقل، ولعله يعرفني كَمُنْتَم للتجمع الوطني للأحرار، ولذلك فهو لا يتنفس الهواء الذي منه أتنفس.

وسألته:

ـ وما عدا الكتابة، أين تعمل ؟

أصعده السؤال من بئر عميقة و قال:

ـ مدرس فلسفة.

ابتسمت وقلت له:

ـ أهلا وسهلا.

وبغير شعور مد لي يده للمصافحة فصافحته، وضحك مولاي عبد السلام و قال:

ـ والله لو كانت لخولة يد لكانت لا تكف عن مصافحتي، ولقبلت تلك اليد.

ودعا النادل للإتيان بكؤوس أخرى أعلن أنها على حسابه، ثم تفرسني وابتسم وقال:

ـ ما سر اهتمامك بهذا الكاتب ؟ هل قرأت له شيئا ؟

وقلت:

ـ لم تعد لي مكتبة في الدار، فأنا أسكن في غرفة في الفندق كما تعرف، وبعض الكتب أقرأها و أهديها لأصحابي.

وأضاف مولاي عبد السلام:

ـ وماذا تريد منه ؟ هل ترغب في أن يكتب لك سيرة حياتك ؟

ودون تفكير قلت:

ـ إذا شاء.

تطلع الكاتب نحوي في تلك اللحظة فاقتحمت نظراته المنكسرة بنظراتي، وقلت له:

ـ نسجل على الأشرطة، فأنا ناقص عقل، ولذلك أُكْثِرُ من الكلام.

ـ وسألني ذلك الكاتب:

ـ وماذا سوف نفعل بالأشرطة ؟

فقال له مولاي عبد السلام:

ـ أنت تفرغها على الورق، وتعيد صياغتها بأسلوبك الأدبي.

وقال الكاتب:

ـ أنا لا أكتب تحت الطلب.

فقال له مولاي عبد السلام:

ـ هذه ليست كتابة تحت الطلب، فأنت سوف تتزود بمواد حكائية لك أن تحذف منها ما تشاء ولك أن تضيف إليها ما تشاء.

وفكرت في أن قلمي عنين، وأن قلم هذا الشاب ربما يُحْيِي بوارا في أرض غير محروثة، وأنه قد يهتدي، بحكم ما سأقول، إلى تلك الجهة السابعة، ليصاحبني فيها وأصاحبه، وقد نصل معا إلى كتابة ذلك الكتاب الذي لن أقص فيه أحلامي كما كنت في بداية المسألة أرغب، ولكن إلى كتاب يحتوي كل الكتب، ويزيد على ذلك ما ليس في الكتب من تاريخ ووقْعِ خطى لمن عبروا الجهات.

ثم فكرت في أن أغريه بالمال إن أراد، فقلت له:

ـ كم سأدفع لك مقابل هذا العمل؟ والطبع على حسابي.

فما كان منه إلا أن جفل و نهض خارجا من النادي، فذهب مولاي عبد السلام من ورائه وأعاده إلى جلستنا أصفر الوجه غائر العينين، فابتلع كأسه دفعة واحدة، وقـــال لي:

ـ أنت حمار.

ضحكنا أنا ومولاي عبد السلام وزاد تأكدي من أن هذا الشاب الكاتب ولد أصيل، يمكن أن أعمل معه في كتابة الكتاب، ولذلك فقـــد هدأته ببعض الكلمات، فَرَقَّ ولاَن، وابتهج بخوض تجربة لم يخضها من قبل كما قال، واتفقنا على أن نبدأ الجلسة الأولى في مساء الغد، بالفندق.

وفي غرفتي أعددت ما يسعف بالكلام، ولما جاء الكاتب وفتحنا جهاز التسجيل لم أعرف من أين سأبدأ، وبدوت مرتبكا وشاردا غير قادر على الكلام، حتى عرفت أنني لا يكثر عندي الكلام إلا حينما أكون وحيدا، وأحس الكاتب بالخسران، فسقيته كأسا بعد أخرى، وقلت له:

ـ لا أعرف من أين سأبدأ.

نظر إلي و قال:

ـ ابدأ من أي حادث تتذكره، من محنة من المحن التي مررت بها.

قلت:

ــ لكني لا أحب أن نكتب كتابا عن حياتي وتجاربي.

فقال:

ــ وماذا تريد ؟

لم أدر كيف أشرح له فكرة الكتاب الذي يحتوي كل ما في الكتب مخافة أن ينفر من العمل معي ويتركني. فقلت:

ــ هل نؤجل إلى الغد؟

فوافق على ذلك، وفي تلك الليلة، وبعد ذهابه ومن غير مسجل، حكيت لنفسي كل ما يجري لي ولغيري في الجهات الست، وكيف وصلت ووصل بعض الناس معي إلى الجهة السابعة.

حكيت كل ذلك في وقت وجيز وأنا مُنْبَهِرٌ بتدفق الأفكار على ذهني والأحداث والرؤى والوقائع، ولعلي كنت عرقان وأنا مستلق على الفراش لا أجد اللحظة المناسبة لتجفيف العرق عن جبيني وعنقي، وكان ذلك الكتاب قد كتب بالتمام والكمال، وفي ليلة واحدة، أو في وقت وجيز من تلك الليلة.

ولكنه لم يكتب، فنهضت من الفراش واقفا وأضأت نور الغرفة وشربت كأس ماء، ولما طرحت على نفسي سؤال من أين كنت قد بدأت، حتى أبدأ بمثله في الغد مع الكاتب وآلة التسجيل، فقد نسيت كل ما كنت قد استعرضته من تفاصيل ذهابي في الجهات، وما تذكرت سوى أنني كنت أضحك في بعض الأحيان، وأسمع جاري في الغرفة المجاورة ينقر على الجدار بنقرات كي ينبهني إلى أنني قد أزعجت منامه، وسرعان ما سمعت وَقْعَ خطى على الممر، وطرقات على بـــاب غرفتي، فلما فتحت الباب وجدت أناسا ميزت من بينهم وجه حارس الليل في الفندق، الذي قال لي:

ـ آ السي عبد الحميد، هل ندعو سيارة الإسعاف؟

ولم أعرف كيف أرد، حيث كانت عيون أولائك الغرباء نزلاء الغرف المجاورة تتلصص بنظراتها على داخل الغرفة، ولما استدرت إلى جهة ورائي وجدت أمامي كل كائنات ذلك الوراء، واحترت ولكني تخلصت من ذلك الموقف بكلمات لطيفة بعد ضبط الأعصاب، وعاد كل إلى فراشه، وعدت أنا إلى تلك الجهة السابعة.

وفي الغد جاء الكاتب، في موعده، ويمكن أن أقول إنني قد شغلته بزوبعة من الكلمات حتى استدرجته إلى الذهاب نحو النادي، وهناك وجدنا مولاي عبد السلام محرز يجلس وحيدا فجالسناه، وحدثنا مولاي عبد السلام، ضاحكا، عن جولاته مع خولة، وما أصابه من تلك الجولات من ذهاب نحو جهة الفوق، على صهوتها، إلى أن أصابته الرعشة الكبرى، كما قال، وسألنا:

ـ هل ما يحدث لي مع خولة هو فعل حرام؟

بقينا ساكتين فتغيرت نظراته وقال:

ـ حقا إن وضوئي ينتقض ولكنه ليس زنا كما أرى على كل حال.

وعاد يضحك وقال:

ـ خولة بسحرها و بهائها ومباذلها تفوق كل امرأة، وما علي إلا أن أسأل العلماء لأعرف الحلال من الحرام.

فقلت:

ـ لا تسألوا عن أشياء إن ...

نظر إلى الكؤوس التي أمامنا وقال:

ـ الله غفور رحيم.

وساد الصمت بيننا ماعدا ما كان من هرج على بعض الموائد وصخب النادلين وهم يتبادلون الأحاديث فيما بينهم. وبعد حين قال لنا مولاي عبد السلام:

ـ هل سجلتما شيئا في ليلة البارحة ؟

فرد عليه الكاتب:

ـ الأستاذ كان غير قادر على الكلام.

وأفرحني جوابه، فقد استرجعت الفرق بين حالتي نقصان العقل ورجحانه، وقلت لنفسي إن مثل هذا الكتاب لا يكتب إلا فيما بين البين، أي فيما بين جهة وأخرى، حيث ينتفي للجهة مكانها الخاص ويدخل ذلك المكان في جهة الجهات، وهي الجهة السابعة، وبشرت نفسي بقرب الوصول.

وسأختصر عليكم في الكلام، فالشرائط هاهي بين يدي، يمكن أن تستمعوا إليها، وأما ما قرأته في كتاب الخفافيش فهو مجرد ظلال باهتة لأضواء ساطعة كانت تضيء طرق تلك الجهات الست، فلعل الكاتب كان قد شغل وقته و وقتي بأشياء عادية تحدث في كل مكان، وأما الجهة السابعة فلم يتمكن الكاتب من الذهاب فيها معي، وأنا عبد الحميد، أقول لكم إن رواية الخفافيش هي محض افتراء علي وعلى الجهات الست وعلى الجهة السابعة التي أسكنها، حتى وهي غرفة في فندق صغير، فالعالم صغير، ولكنه كبير، وأنا المفترى عليه، عبد الحميد الدباغ، الذي لم يدبغ جلده ولسانه بعد، أنصحكم بقراءة هذه الرواية بما هي خدعة انطلت علي، لأن هذا العبد الضعيف الفقير إلى الله ما أراد أن يصف إلا ما لا يوصف، من حيث إن الكائن يولد صدفة، ويتوغل في كينونته، ليذهب نحو الجهات الست، وكتاب الكاتب هذا هو مجرد بدعة، لأن الكتاب كنت أنا قد ألفته في ليلة واحدة هي

ليلة الفندق تلك التي حدثتكم عنها، فما بال هذا الكاتب الشاب يدعي أنه قد أمسك بتفاصيل حياتي الخاصة وما حياتي وسيرتي هي كل شيء؟ علما بأن ذلك لا يهم، فهو لن يحدثكم عن الجهة السابعة في هذه الرواية إلا من حيث كونه لم يتساكن معي فيها، ولذلك فإن هذا الكتاب، ليس هو الكتاب الذي يمكن أن يجمع كل ما في الكتب في كتاب واحد، ويزيد على ما فيها أوهام وأحلام تلك الكائنات التي عبرت في الجهات الست، حتى أوصلتها الصدفة نفسها إلى الجهة السابعة.

وأنا حدثت نفسي كثيرا عن مبايض الحيتان في أعماق البحار، كما رأيت الأتان تلد حمارا جميلا أبيض سرعان ما كبر أمامي وأول ما برز منه أذناه وقواطعه التي صارت صفراء، وقد عايشت نجما قطبيا كان يهل فوق المقبرة التي كنت آوي إليها في بعض الليالي فكـــان ذلك النجم مؤنسا لي في عالم الموتى، ولقد سمعت ضجيجا يأتي من إحدى الجهات ممزوجا بالصراخ والتصفيقات فعلمت أنهم الساسة يخطبون الخطب، كما استبدت بي الوحشة وأنا أرى نافورات الماء والسواقي تفيض دما فمشيت هائما على وجهي في الأرض لا أدري أ كنت أسير إلى الأمام أم إلى الوراء، يسارا أو يمينا، فأنا براء من كل ما سوف يحدث، لأنه ليس سوى هب ريح من هبوب تلك الرياح التي لا تنجح في أن تغير مجاريها، وهو لذلك ليس سوى كذب يدحضه ما في الشرائط، وهاكم إياها، لتستمعوا إلى صوت عبد الحميد.

شطح

الأماكن تزهو بقرب أو بعد عن الوصول
والكائن يصل أو لا يصل
ذاهبا في رحلة المستحيل
ممهورا بأضواء الأماكن
التي كأنها
عتمات النفس

لاح في أفق هذا اليوم شيء قادم كأنه ربيع أو خريف، بشارة أو خسارة، وربما ولادة لم تكن لها أية تباشير و لم تظهر علامات مخاضها لأحد.

ورحت أرى نفسي في صباح ذلك اليوم أحلق في الفراغ، بعد أن تسلل نظري نحو الأعلى حيث حلقة الدار التي هي سقفها العلوي المفتوح على السماء، والحلقة هي الفتحة الوحيدة الممكنة التي يدخل منها الضوء، ومنها نرى السماء أكانت صافية زرقاء أم مدمدمة بالسحب الآتية بالمطر إذا ما كنا تحت، في الباحة أو في إحدى غرف السفلي، مع أن كل غرف الطابقين العلوي والسفلي ما كانت بها نوافذ تطل على خارج الدار، فمن الحلقة يدخل الضوء وكل نوافذ الغرف مفتوحة على الباحة، حيث تقعد الآن أمي على فروة خروف وهي تتهيأ لفعل شيء.

غدوت وكأني أصعد، فما كان ثمة من شيء يمكن أن أفعله في هذا الفراغ الهائل الذي يحيط بي، وأخذت معالم الأشياء وأبواب الغرف تغيم ثم تمحي وتحولت أمي لالة خدوج إلى كائن لا مرئي أحس بوجوده قريبا مني ولا أراه.

، وفي ذلك الصعود غدوت وكأني أتحرر من فراغي ذاهبا في اتجاه لم يسبق لي أن ذهبت فيه، وأنا أشعر بالخفة، ولا أدري هل تحولتُ إلى ريشة من جناح طائر أم أنني قد صرتُ إلى فناء جسدي وأن شيئا مني هو الذي كان يصعد هادئا في صعوده، مقتربا من تلك السياجات الحديدية التي لم تمكني من مزيد من الصعود لأخرج من تلك الفتحة التي تجعل دارنا قريبة من السماء. وما تلك الأسيجة سوى شبكة من حديد تسمح مربعاتها الصغيرة بدخول الضوء والمطر والطيور، مع أن الغرض منها هو أن تمنع اللصوص الذين غالبا ما يتسللون إلى البيوت من السطوح. لم أحس أي اصطدام حقيقي

لجسدي بذلك السياج الحديدي، فما ارتج رأسي ولا اندقت عظام جسدي، فقد صرت كائنا بدون رأس وجسد، وما تهاويت هابطا، ولكني بقيت هناك، وقلت لنفسي ماذا لو حدث لي مثل هذا الصعود وأنا في سطح الدار، فإلى أين كنت سأصل، وماذا كنت سأرى، وهل كنت سوف أتحسر على فقدان هذا الرأس وهذا الجسد؟

وما دريت أين ذهب مني الرأس والجسد والأطراف، فقد كنت أشعر بوجودي ولكني لا أحس لي جسدا وأنا أهبط خفيفا كالظل.

لا أدري كم بقيت هناك، كما لا أعرف كيف كان هبوطي، إلا أنني رأيت أمي لالة خدوج تضع طحين القمح في القصعة، وتنظر إلى الزلافة التي فاض على حوافها ما كان قد تخمر من خميرة عجين احتفظت به من البارحة، وقالت:

ـ أينك يا عبد الحميد؟

فجفلت و اقتربت منها وقلت:

ـ ها أنا.

قالت:

ـ تعال اسق لي ماء للعجين.

نسقي الماء الصالح للشرب وتحضير الطعام من سقاية الحي، وليس في دارنا سوى معدة ماء تظل تبقبق، وفي الشتاء يكون ماؤها أحمر بما يحمله معه من أتربة، وهي مرتع للعلق، وأما في الصيف فيصفو ماؤها فكانت أمي تُصفِّيه في خرقة الحياتي وتصبه في الخابية وتتركه يقعد فنشرب منه ماء باردا ممزوجا بشيء من رائحة القطران، والخابية ترشح فتلقي عليها أمي حبات من زريعة الحبق فينمو الحبق طافحا أخضر على حواف الخابية

المغطاة دوما بغطاء فوقه كأس من زجاج أصفر، وما توانيت، ولكنها نهرتني:

ــ الما للعجين.

أخذت الإبريق وهممت بالخروج، ولكنها قالت:

ــ الإبريق لا يكفي، خذ السطل.

وخرجت و سطل الماء في يدي ألهو به مقلبا إياه على يميني ويساري، ومرة أجعله خلفي أو أمامي، أو أجعله يدور حولي وأنا أدور حوله، وكنت ما زلت أفكر في صعودي ذاك الذي ولاشك وقع من بعده هبوط لم أدرك كيف تم.

في .الطريق وجدت أولادا وبنات يلهون بسطول الماء قبل أن يصلوا إلى السقاية ليجتمعوا حولها لاهين متمازحين متراشقين بالماء. اقترب مني العباسي قال:

ــ شُفْ، هاد الرجل هو أب كنزة.

فرأيت رجلا قادما من رأس الدرب، بطول وعرض، يرتدي قفطانا وبدعية وسروال قندريسة، والطربوش الأحمر على رأسه والبلغة الزيوانية في قدميه، يميل بخطواته على جانب هو ذلك الجانب الذي تستقر عليه شكارة الجلد. وقال العباسي:

ــ جزار.

وقلت له:

ــ وأين هي كنزة ؟

فضحك وقال:

ــ بنت من بنات الحومة. ما تعرفهاش؟ اقترب الجزار من البنات وصاح:

ـ كنزة، ارجعي للدار.

توقفت البنات عن القفز على الحبل المطاطي وخرجن من تلك الحلبة التي كن خططن معالمها بالطباشير، وتراجعن جميعا ناحية أبواب البيوت فلم أدر أيهن كنزة، ولما سألت العباسي عن أيهن كنزة ضحك وقال:

ـ كلهن كنزات، ولكن كنزة واحدة والدها هو الجزار.

أطلت أمي من باب الدار وأخذت تنادي:

ـ عبد الحميد. يا عبد الحميد.

فملأت سطل الماء من السقاية، وعدت به إلى الدار وشيء مما به من ماء ينهرق و يبلل ساقي.

انحنت أمي على قصعة العجين، و عدت أقف في وسط الدار، أنظر إلى تلك الحلقة ومن خلالها إلى السماء التي كان يعبرها الغيم، وحاولت أن أصعد مرة أخرى ولكن ذلك لم يكن بإرادتي، بل إنني قد أحسست بنفسي وأنا أتضاءل وأخسف في الأرض وهي صلبة لا تفتح لي مجالا للهبوط إلى عوالمها، وربما جاءتني الحاجة إلى ذلك الهبوط فلم تتفتح له أرض دارنا مع صلابة ذلك الزليج المكون من مربعات ودوائر زرقاء وبيضاء وصفراء وقد تبلطت به الأرض.

هبوط لا أدري إلى أين كان يأخذني، ولكني كنت أحلم خلاله بعالم الجنيات وقصورهن المنيفة وأنا أخاف من أن تخطفني إحداهن فلا يبقى لي شيء من عالمي هذا الذي أحيا فيه. كنت أشتهي ذلك العالم السفلي وأخاف منه، أتردد عليه في هبوطي وأقترب من أسراره ومكنوناته ثم أهرب منه وأنا مذعور.

وفي ذلك الهبوط أتذكر أن الوالد كان قد مات منذ عامين، وقد ترك لنا ثلاث مطفيات في دار الدبغ جاء من اكتراها لدبغ وصباغة الجلود، وهـو

يأتينا بين الوقــت والآخر ليقدم لأمي بعض أوراق المائة ريال ويترحم على المرحوم من غير أن يرفع نظره نحوها. فلمن سوف أترك أمي إذا ما أنا أخذتني جنية من الجنيات للعيش معها تحت الأرض؟ وماذا سوف أفعل إن كان زواجها مني والعيش معها في قصر من تلك القصور مشروطا بألا أطلب العودة إلى دنياي ؟

انحنت أمي على قصعة العجين وكنت أنتظر أن يتخمر لتطلب مني أن آخذه إلى الفرن، ولكني رأيت الدموع تطفر من عينيها، وظننتها تذكر المرحوم، ولكنها قالت يا وليدي يا عبد الحميد جدتك خرجت من شهر ولم تعد، وهي أمي الحبيبة العزيزة، لا أعرف ماذا تأكل وماذا تشرب وأين تبيت. خرجت وما رجعت، وأنا بحثت عنها في الأضرحة وعند الصلاح وأولياء الله في فاس كلها ولم أجد لها أي أثر، وأنت يا وليدي يا عبد الحميد تخرج وتمشي إلى الطالعة أو فاس الجديد أو تهبط إلى السبطريين أو تنزل مع عقبة الفيران علك تراها، ويمكن أن تراها، وقل لها قالت لك لا لة خدوج بنتك العزيزة عليك تترجاك ترجعي للدار، وخذها بالخاطر الله يرضى عليك، سر، ولا تترك مكانا إلا وتبحث عنها فيه حتى تجدها وتعيدها إلى الدار. وأنا لا أعرف إن كانت تبيت أ في المقابر أو في زاوية سيدي أحمد التيجاني أو في زاوية مولاي عبد القادر الجيلالي، البرد والشتا والعرا وهي أمي الحبيبة، وأنت رجل، رجل هذه الدار بعد أن مات المرحوم، ولو لم يكن قد مات موت الله لكان النصارى قد قتلوه.

الله يرحمه كان وطني، والدباغة احبوا يخرجوا النصارى من المغرب وهو كان معهم، عملوا منهم الفدائيين وعملوا المظاهرات ووقفوا لفرنسا شوكة فالحلق، حتى الرصاص كان عندهم، وأنا كنت خايفة ليقتلوه ولكن مات موت الله حين جا الأجل.

كانت أمي الحاجة زهور تعيش معنا فالدار وفي بعض الأوقات كانت تذهب عند أخوالي. ولكن ها هي خرجت ولم تعد. سألت عليها ولا أحد قال إنه قد رآها. أنا هي يما، ما عملت لها لا بيدي ولا برجلي ولا بلساني، امرأة مجذوبة وعقلها مخطوف مع الصلاح وأولياء الله وأنا ما عرفت ما نعمل ؟ هي طلبت مني الباسبور باش كانت مشت للحج، وهي مشت للحج قبل ما نجي أنا للدنيا، وفين هو الباسبور؟ زمان يا وليدي كانت مشت للحج مع القافلة على الجمال وبقوا فالقاهرة شهور وهي كانت تتحكي لي على القاهرة وسيدنا الحسين والسيدة زينب وما رأته في حفلة المولد، وهي ما زالت إلى اليوم تنطق بعض الكلمات باللهجة المصرية، وكانت تحكي لي أشياء كثيرة عن مرسيليا التي قضت فيها شهورا وكان يكثر فيها الذباب كما تكثر فيها أسواق لبيع الثوم. وفي لالة مكة أعزها الله كانوا يسكنون في حارة بها سوق كبير تباع فيه الملح أكداسا أكداسا. وكل هذا كان قد مضى وأبوها مات الله يرحمه، فأين هو الباسبور؟ قالت لي الباسبور يحضر دابا من السند أو من الهند، وقلت لها آيما والله ما عندي ولا عارفة منين نحضره لك، وقالت لي هو في الصندوق الذي بقي عند سيد الهادي والصندوق بعد ما مات سيد الهادي بقي عند لالة ربيعة امرأته، ولالة ربيعة تزوجت رجل آخر ومشت معه يمكن للرباط أو الدار البيضا، ويمكن قالوا لي ففضالة أو مازاكَا، قلت لها آ يما فين غدي نلقى هاد لالة ربيعة وأنا ما عرفت فين صبت ريحها؟ وغضبــت وعادتني، وخرجت وما رجعت. قم واخرج وابحث عنها فالثلث الخالي من الدنيا، ها هي فاس قدامك، اطلع واهبط مع الطالعة من باب بوجلود حتى لباب الفتوح وشف فين تلقاها يا وليدي، وغير تجيبها لي للدار نسخن الماء ونغسل لها عظيماتها ونسرح لها شعرها بالغاسول ونحني لها يديها ورجليها بالحنا على الله يذهبوا الشياطين.

وخرجت فطفت بالطرقات، مشيت مع زقاق الحجر وذهبت إلى القطانين، ووقفت عند باب مولاي إدريس واقتربت من الشماعين وعيني على النساء العابرات للطريق بجلابيبهن وشرابيلهن واللثامات تغطي الوجوه.

رأيت سحرا في بعض العيون واستوقفت نظري بضاضة بعض الأيدي على ما هي عليه من بياض، ونظرت إلى القامات من الخلف أو من الأمام، صدور ممتلئة وأرداف هي أيضا على ذلك الامتلاء، وتخيلت حرارة الملامس فارتعش جسدي، وغبت أتصور مكامن السر فسرى في جسدي تيار من الدفء والحنين، وقلت لنفسي سأظل أبحث عن جدتي الحاجة زهور إلى أن أجدها، وحتى وإن وجدتها فسأظل متظاهرا بالبحث عنها لكي أرى ما أراه من فتن وسحر النساء العابرات للطريق وهن يأخذنني إلى حيث أنسى أين تقع خطاي وأين أنا، وطال بحثي، فكنت كل يوم عطلة دراسية أقول لأمي أنا ذاهب للبحث عن جدتي، فيجري الدمع على خديها، وتقول لي سر آ وليدي الله يرضى عليك، وفي بعض أيام ذلك البحث كنت أعود متأخرا فلا تلومني على ذلك التأخير، وتقول:

ـ عرفت أنك لم تجدها، ولكن زد ابحث الله يرضى عليك.

وأقول:

ـ سألقاها، فاس كل شيء فيها معروف.

وتقول:

ـ أخشى أن تكون قد ذهبت إلى الرباط أو الدار البيضاء، بحثا عن لالة ربيعة التي بقي عندها ذلك الصندوق.

ـ لا يا أمي. لا يمكن.

ـ وكيف عرفت ؟

ـ هي كبيرة السن ولا تقدر على السفر.

ـ تقدر. أنت لا تعرفها. هي إذا صممت على شيء تقدر عليه.

ـ ولكن الدار البيضاء بعيدة.

ـ تركب القطار حتى من غير أن تدفع ثمن الورقة وتطلب ضيف الله لأناس لا تعرفهم، وهي امرأة مجذوبة لن يلومها أحد على شيء تفعله.

وطمأنتها الى أن جدتي الحاجة زهور لا يمكن أن تغادر فاس حتى أستمر في البحث ولكنها لم تطمئن. في تلك الليالي الباردة كنا نتعشى بصحن خليع فقس فيه البيض، أو بالحريرة، وخلال تناولنا للعشاء كانت تظل تتحدث عن غياب أمها الحاجة زهور، وتبكي، وحتى مع بكائها وهي تتوقف عن تناول الطعام فقد كنت اندفع مع شهيتي حتى آكل ما يكون لها جانب من الصحن، وأحيانا آكل كل ما في الصحن وهي لا تبالي.

ومر الزمان فانتقلت للدراسة في القرويين، وما تغير شيء من تلك الجولات في طرقات فاس التي كنت أزعم من خلالها لأمي ولنفسي أنني أبحث عن جدتي الحاجة زهور، وما كنت أبحث سوى عن التمتع بقضاء الوقت في التيه بين الطرقات وأنا مأخوذ بسحر النساء والصبايا والتملي بطلعاتهن وتأمل حركات مشيهن والإصغاء إلى أصوات همساتهن أو ضحكاتهن المكتومة.

وأنا الآن لا أستطيع أن أسترجع ما كنت أراه، ولا ما كنت أفكر فيه، أصعد إلى باب بوجلــود وأهبط إلى باب الفتوح وأسير مع كرنيز وواد رشاشة ثم أتجه نحو العشابين، أتآنس مع صمت بعض الدروب وعتماتها ولا يهمني مرور طوابير العساكر وبنادقهم مسددة، حيث كان يقال إن الملك في المنفى والوطنيين يعملون على إرجاعه إلى عرشه، وكانت فاس سحابة سماوية لم أدر أكانت تظللني أنها كانت تحملني فوقها لأطوف معها حيث

تطوف، وأسير معها في الاتجاه الذي تسير فيه، وبقيت أمي مكلومة تنتظر من رجوعي إلى الدار أن أعيد إليها أمها الحاجة زهور.

مرة قالت لي ها أنت قد أخذت من العلم ما يكفي، ألا تفكر يا وليدي يا عبد الحميد في أن تأخذ مال أبيك الذي في الصندوق وتخرج لتبيع وتشتري، صنعة دار الدبغ ما عادت تنفع في شيء، وإذا ابتعدت عن طريق السياسة فسيفتح الله عليك بمال كثير، اليوم الدنيا عيانة، الكساد وفي كل يوم يطلب الوطنيون من أصحاب الحوانيت أن يغلقوها إعلانا عن الإضراب، وكل من لم يغلق دكانه يسمونه خائنا ويخلطون ما في الدكان من طحين مع زيت الكاز والصابون مع الزبدة والخليع مع جافيل. والخونة الله وحده يعلم ما في قلوبهم، وما كان يمكن أن تكون هناك حوانيت خاصة بالخونة وأخرى خاصة بالوطنيين، صار الناس يشترون الزيت والسكر من سطوح البيوت، ولكن شف، فكر في أن تكمل هذا العام في القرويين وخلال الأشهر الباقية تجد لك تجارة مناسبة، دار الدبغ ليس لك ما تعمل فيها، افتح حانوتا في القيسارية أو في سوق الذهب، وأنا أعرف أنك تحب كنزة ولكن الوقت لم يحن لكي أخطبها لك، فاصبر حتى تستقر في تجارة ويجري المال بين يديك، ولن يخطفها منك أحد، فعيني عليها وعلى دار والدها الجزار وأحس أن عينها عليك، ولن يزوجها من غير من تحب، هذا كان يحدث زمان، أما اليوم فالبنت تتزوج برضاها والعدول يسألونها هل توافق عن الزواج والسكوت علامة الرضى.

كنت صغيرة وها أنت قد ذكرتني بأيامي. كنت أضحك وألعب ولا ينقصني شيء في دار والدي الحاج الله يرحمه. ووالدك سليمان الله يرحمه كان غزال، رجل كامل من الطول والعرض، وأنا كنت غزالة في الصغر

تشوفني الغنم ما ترعى، السالف خروبي والخد عكار، وهو كان قد رآني في أيام الربيع ونحن نتنزه في سيدي احرازم بين النخيل والماء الجاري.

أقمنا بعض الحواجز بالأزر والأغطية التي علقناها بين النخيل وفرشنا الحصر والزربية وأشعلنا النار في المجمر لنقلي حوتة شابلة أتينا بها معنا وكان والدي الحاج الله يرحمه قد اشتراها من سوق الرصيف من حوات جاءوا بها إليه من واد سبو. حوتة أنثى باتت في شرمولة والخل أحببنا قليها للغذاء، وكنا قد أحضرنا معنا البقول والخليع وزبدة اللبان.

ووالدي مع أعمامي خرجوا للعوم في الحامة وأنا قلت أضع رجلي في ماء الواد الذي كان يمر بين النخيل ريثما تتقد النار في المجمر. وفي تلك اللحظة رأيته يمر أمامي، يرتدي بذلة رومية وفي قدميه حذاء عكري لامع، وبمجرد ما التقت نظراتي مع نظراته وقف وأخذ يتأملني بنظراته ثم مشى بين النخيل حتى غاب عني ثم عاد يمر أمامي فنظر إلي وابتسم، واحمر خداي من الخجل فعدت إلى الخباء الذي نصبناه بين النخيل من الأزر والأغطية وأنا أفكر في نظراته إلي، وقد تفتح له قلبي وإن لم أدر من هو وماذا يريد من تلك النظرات وذلك الابتسام. تغذينا وخرج والدي الله يرحمه مع أعمامي إلى جنب الواد ليلعبوا الكارطة، وما جاء وقت العشي حتى جاءت شابة طويلة مجردة تلبس جلبابا أصفر واللثام على وجهها فاقتربت من خبائنا وقالت:

ـــ السلام عليكم يا ناس هاد المكان.

أطلت أمي من وراء الستار وردت عليها:

ـــ وعليكم السلام يابنتي.

وقالت الشابة:

ـ يمكن تعطيوني شي شريبة د الما ؟

وقالت لها أمي:

ـ مرحبا. ادخلي. ما هنا رجال.

ولما جلست أخذت تتفحصني بنظراتها وهي تبتسم، فقدمت لها شربة الماء وبدا عليها أنها ليست عطشانة، وبعد حين قالت لأمي:

ـ يا لالة حبيت نعرف داركم ففاس. الكلام مشي هنا، والصواب يكون.

وسألتها أمي:

ـ علاش يا لالة ؟

قالت:

ـ شي خُطّابْ يا لالة للبنية الغزالة ديالكم .

وأعطتها أمي علامة الدار بالنعت والصفات، وما مرت أيام حتى جاءت هي وأمها لخطبتي، كانت هي عمتك يا وليدي. قالوا لنا شغله معلم دباغ ووالدي الله يرحمه قال أخشى أن يكون لباطا، اللباط هو الذي يغسل الجلود من الدم، والدباغ صنعته شريفة، وسأل في دار الدبغ فقالوا له السي عبد سليمان معلم دباغ وسمعته حسنة وهو من أخيار الناس، وأنا ما شفت معه غير الخير، الله يرحمه، كان قلبه كبير وكان مع الدباغة يريد أن يخرج فرنسا من المغرب، وفي كل عيد من أعيّاد العرش كان يذبح الذبائح وأنا أطبخ له المحمر والمجمّر والحمال يأتي ليأخذ الصحون إلى دار الدبغ، وقبل يوم العيد كانوا يفرشون الأرض بالزرابي والحصر ويزينون المداخل بجريد النخل والأضواء الحمراء والخضراء التي تنظم على شكل نجمة خماسية هي راية المغرب. وأنا كنت لا أخرج من الدار ولكن والدك الله يرحمه كان يحدثني عن كل ما يقع .

كانت بعض القنابل قد انفجرت، والفرنسيون أعدموا بعض الوطنيين وأخذوا آخرين إلى السجون. والمرحوم كان يقول لي الملك لا يعرفنا ولكننا نعرفه ونحبه من القلب، وهذا زمان الشدة وكل شدة لها فرج، وعندما يعود محمد بن يوسف إلى عرشه وتخرج فرنسا من البلاد سنفرح بالاستقلال ونبني هذا الوطن.

ولم أكن أفهم من كلامه إلا القليل، فكنت أشاركه في هذه الآمال حتى وأنا لا أفهم منها شيئا سوى أن المغاربة لن يعود من بينهم خونة ووطنيون، ولكن سيصبحون جميعا وطنيين، ولن تغلق الحوانيت كما يحدث في أيام الإضرابات.

وأمي الحبيبة يا وليدي ها أنت شايف، خرجت وما رجعت، وما عرفت فين نلقاها، وما جات غير تطل علي فباب الدار.

مضى كل ذلك الوقت وجدتي الحاجة زهور لم يظهر لها أثر، ولم تنسها أمي فكانت تبكيها بكاء بدموع حرى وتقول ربما تكون قد ماتت وأنا لا أعرف قبرها حتى أترحم عليها، وأخوالي منشغلون عنها بتجارتهم وبنسائهم، وكلما طلبت منهم أن يبحثوا عنها يقولون أختنا هذا هو حالها، تقصد رجال الله أينما كانوا وتبيت في الأضرحة وتأكل من طعام الفقراء، وسياتي يوم تظهر فيه فلا داعي للقلق، وكم من حاجة قضيناها بتركها، فكانوا لا يتحرك لهم حراك للبحث عنها وأنا قلبي يحترق و هذه الدموع وإن كانت لا تنفع فهي تريحني وتخفف من عذابي.

وما تخليت عن عادتي في التجوال بين الشوارع والطرقات والدروب، حاسبا بين كل وقت وحين أنني سوف أراها، ولم أرها.

تركت الدراسة في القرويين وبدأت أتاجر في بيع آلة سنجر للخياطة، وهيأت محلا لإصلاح أعطابها، في رحبة الزبيب، ومكث في ذلك البيع

والشراء لسنوات عاد فيها الملك من المنفى مع أسرته وبدأت سنوات الستينات الأخيرة تفصح عن كلام جديد يردده أناس لم يرضوا عما كان قد جناه هذا الاستقلال للمغرب مشيرين بإصبع الاتهام إلى الكيفية التي صيغت بها معاهدة إيكس ليبان، وبدأ التمرد داخل حزب الاستقلال ببوادر انشقاق عنه وتأسيس حزب جديد لمع فيه اسم المهدي بن بركة كما كان اسم علال الفاسي وعبد الخالق الطريس لامعين في وقت مضى.

غيرت تجارتي من آلة سنجر للخياطة برحبة الزبيب إلى بيع قطع غيار السيارات بشارع الزرقطوني بالمدينة الجديدة، وفي مقهى لارونيسانس، الذي كانت صاحبته الفرنسية مدام آنيط ما تزال موجودة كما كانت أيام الاستعمار كنت أشرب قهوتي الصباحية، وأثرثر قليلا معها حول الطقس وأخبار بعض الزبناء القدامى، وبعد ذلك صارت لي محطة بنزين وتاجرت في كل شيء، ولم أدخل عالم السياسة إلا مع ظهور حزب السي أحمد عصمان. قالوا حزب رئيس سابق للحكومة ليس له شهداء ولا مقاومون وقال السي أحمد نحن نؤسس لعهد جديد من الديمقراطية ونناضل من أجل ذلك، وامتلأت أفكاري بالكثير من الأشياء التي لم تغنني عن تجارتي وإن كنت بحضوري في الحزب أقنع نفسي بأنني أفعل شيئا لهذا الوطن.

وكنت قد تزوجت كنزة دون أن أنسى صندوق المال والجواهر والدمالج والخواتم الذي كان والدها الجزار قد أخذه، وستعرف كيف وقع ذلك فيما بعد، فأنا أمام آلة التسجيل هذه لا أستطيع أن أرتب كل ما حدث حسب الزمان والمكان، وأن أقص عليك الحوادث في حينها، فهذا شأنك أنت.

يمكنك تعجن كل هذه الأحداث مع غيرها مما سيأتي وتصوغها صياغة جديدة، ولكن لا تحذف شيئا من هذا الكلام إلا بمشورتي، وإن أردت أن تزيد عليه من كلامك فلك ما تشاء شريطة ألا تفسد المعنى أو تذهب بالزيادة إلى

حد أن تكتب حياتك من حيال حياتي، ومشاهداتك من خلال مشاهداتي، ومعاناتك من خلال ما عانيت، فذلك أمر آخر.

ها أنت تراني قد اختصرت عليك الطريق حتى وصلت إلى نقطة أصبحت أرى فيها أن لا جدوى مما أحكيه، فما عدت قادرا على الإمساك بتلك الأوقات الحرجة التي عشت معها قسوة الذهاب في تلك الجهات، فكل ما كنت أريد أن أحكيه ليس هو قصة حياتي أنا، وإنما قصة توغل الكائن في كينونته وهو يكتشف الجهات ويمضي فيها، فأوقف ذلك الشريط قليلا لكي أعيد ترتيب ما أود أن أقول.

الأشياء كلها تبدأ هكذا، بسيطة ولكنها سرعان ما تتعقد، وأنا أختصر لك في الكلام وربما أتعرض لحوادث لا تهم في شيء ذهاب الكائن نحو الجهات. فكيف يمكنني أن أحكي لك كل شيء دفعة واحدة، وهل الكتاب الذين يكتبون الكتب يكتبونها دفعة واحدة ؟

لا أعرف، ولكني أيها الكاتب قد رأيت الكتاب الذي أنت بصدد تسجيل مادته وهو يكتب أمامي دفعة واحدة في ليلة الفندق تلك التي كنت قد زرتني فيها لأول مرة واستعصى علي الكلام.

عجبت كيف لا أعرف من أين أبدأ الآن وأنا أشغلك وأشغل نفسي بهذه الحكايات التي ليس فيها شيء مما أريد أن أصل إليه، فكأني أحوم حوله ومن غير أن أتمكن من أقول شيئا ذا فائدة يوصل إلى جهة من الجهات.

ألم أقل لك إن الجهات تتداخل حتى لا يبقى من شيء يحد بين الجهة والأخرى؟ وإذا كان كل ما كان قد كان فما الحاجة إلى كل هذا الكلام، وهل يمكن لاسترجاع التفاصيل الضائعة أن تنير طريقا للوصول إلى الجهة السابعة، بعد أن نعبر إليها من كل الجهات؟

ربما، ولكني أستتفه هذه البدايات وأخشى ألا تكون لها نهايات محتملة، فماذا علي أن أفعل، ومن أين تبتدئ الحكاية؟ خذ كأسك و أجبني عن سؤال من هذه الأسئلة ، فربما بخبرتك في الكتابة تلهمني الصواب. اضغط على زر آلة التسجيل وتابع معي، وحتى وإن طال بي الصمت فيمكنك أن تمحو ذلك البياض.

جاء يوم خرجت فيه من الدار وما قطعت خطوات حتى رأيت أناسا يسحبون التراب والردم من خرابة ويضعون ما يسحبونه على ظهور الحمير، ولما تأملت هيأتهم وجدتهم ليسوا البناءين أو مستخدميهم، فثيابهم حسنة والطرابيش الحمراء على رؤوسهم، وعجبت كيف أنهم لم يستدعوا من يقوم بإخلاء تلك الخرابة من أتربتها وما تراكم فيها من أزبال، ثم سمعت أحدهم وهو ينفض الغبار عن طربوشه وثيابه يقول:

ــ نطلب الأجر من الله.

ورد عليه آخر:

ــ الأجر مقبول عند الله.

وقال آخر:

ــ الحمد لله. الدنيا ما يزال فيها الخير.

كانوا من أهل الحومة والحومات المجاورة، تجار وصناع، واحد عرفته وهو معلم نجار، وآخر كان يبيع الأثواب في القيسارية، ظل يحمل البالة مليئة بالتراب ويفرغها في الشواري الذي كان على ظهر الحمار، وبعد أن خلت الخرابة من الأتربة تماما و تَسَوَّتْ أرضها رشوا الماء وكنسوا المكان مما تبقى من أتربة، ثم رشوا ماء الزهر وأحرقوا البخور في مباخر نحاسية أتوا بها من أحد البيوت، وجاءت حُمُرٌ تحمل عل ظهورها الحصر والزرابي فبسطوا الحصر وبسطوا فوقها الزرابي ووضعوا مخدات للاتكاء

هنا وهناك، ومنهم من رش الطريق بالماء ومنهم من كنسه، وقال أحدهم وهو يلتفت حواليه:

ــ شوفوا آ اسيادنا، نسينا الجير.

فقال آخر:

ــ ما وقع باس.

ــ ولكن كنا سنرش الحيطان بالجير لِتَبْيَضَّ القلوب.

ــ القلوب بيضاء والحمد لله.

ــ آ سيدي نهار مبارك هذا.

ــ أيام الله كلها مباركة.

ــ تأخروا. لعلهم قادمون ؟

ــ مازال. ولكن قرب الوقت.

وطافوا بالمباخر تفوح منها رائحة عود القماري، ومنهم من كان يخرج العود من جيب سرواله ويضعه في المبخرة، وبعد حين ظهر شيوخ وأطفال يرتدون ثياب الصوف الخشن وفي أيديهم الدفوف والبنادير وأدوات الدق التي لم يبدؤوا الدق عليها بعد، فاصطفوا على جانب من الطريق منتظرين، إلى أن جاء عميان يقودهم عور أو بعض المبصرين، وعرجان يتكئون على عصي، ومقعدون يحملهم رجال بين أيديهم، ومجاذيب تخثر البصاق على جنبات أفواههم، وأخذ الرجال الذين نظفوا الخرابة يُجلسونهم صفوفا، وجاءت أمة سوداء هي الأولى بطبق كبير من الفخار مغطى بغطائه، فاحت منه رائحة الدجاج المحمر، ثم تبعتها خادمات البيوت بأطباق مغطاة ربما كان بها كسكس بالبصل والزبيب أو لحم مشرمل، وظهرت كنزة وهي تحمل الطست ويده لغسل الأيدي فأخذه منها أحد الرجال وحاول آخر أن ينزعه من يده ولكنه قال وهو يتمسك بما في يده:

ـ سيد القوم خادمهم.

فقال له الرجل الآخر:

ـ حاشاك آ الشريف.

وانبعث من بين الجماعة رجل وأمسك بالطست ويده وقال:

ـ آ سيدي بحال بحال ، كلنا من آدم ، وآدم من التراب.

رمقتني كنزة وهي آتية من دارهم بطبق بدا وقد أثقل عليها فحاولت أن أحمله عنها ولكن أحد الرجال كان قد سبقني إلى ذلك، وبعد حين جاءت تحمل طبقا آخر، وقبل أن تصل إلى مكان التجمع أشارت إليّ برأسها أن آتي إليها، وتوقفت عن الخطو، ولما اقتربت منها وهممت بأخذ الطبق خطفتْ لثمةً على شفتي في غفلة من الرجال، وبقينا نمسك الطبق معا، حتى تخلت عن إمساكه وعادت تجري إلى دارهم ووضعت أنا الطبق حيث كانت توضع تلك الأطباق، ونشوة فرح تغمرني، ولكنها عادت تحمل طبقا ثالثا فما حملني ارتعاش ركبتي على أن أقترب منها، ولما تلقفه منها أحد الرجال قال لها:

ـ الله يخلف، سلمي على الوالد.

فقالت:

ـ هو جاي لعندكم.

وبمجرد ما انسحبت قال رجل وقور:

ـ جزار كريم وابن كريم.

وقال آخر:

ـ الجزارون يغشون في الميزان، ويعطونك عظيمة فوقها لحيمة وهم يتعشون بالسقط، ولكن السي...

فقاطعه ذلك الوقور:

ـ يا سيدي الله يخلف عليه وصافي. ها هو جاي.

ومن رأس الدرب ظهر والد كنزة وهو قادم يرتدي الجابادور والسروال القندريسة وعلى رأسه عمامة شالاشاكر، فسلم على الرجال ودعوه للجلوس وقبل أن يجلس سلم على العميان والعرجان والمخبولين، وقَبَّلَ أحدهم على رأسه وهو يتبرك به، و لِبُعْدِ مكان وقوفي ما كنت قد سمعت ما دار بينهما من كلام، واستعجلنا الرجال لنتناول الطعام قبل أن يبرد، فأردت أن أعود إلى دارنا ولكن أحدهم أمسكني من يدي وأجلسني بجوار الجزار، وقال هذا ولد سليمان الدباغ، الله يرحمه، ولو كان والده حيا لكان معنا، ولكن هذا الغصن من تلك الشجرة، والشبل من الأسد، ونظر إليّ الجزار نظرة خاصة فاحمر خداي من الخجل، ولم أدر أهي نبعت من إحساسه بأني قريب من ابنته كنزة، وتوانيت في الأكل فكان يقدم لي أفضل قطع اللحم، واحدة بعد أخرى، فقبل أن آكل الواحدة يكون هو قد وضع أخرى أمامي على حافة الصحن، ورأيت ذلك الشريف الذي قدم للناس الطست ويده ليغسلوا أيديهم يجالس العميان والعرجان على نفس المائدة ويطعم مخبولا في فمه والطعام لا يستوي في فم ذلك المخبول، ورُفِعَ من ذلك الطعام الشيء الكثير الذي فاض عن حاجة الطاعمين، وعاد ذلك الشريف يقدم للناس الطست ويده ليغسلوا أيديهم، وعبقت من المباخر رائحة عود القماري، كما سمعت من يقول:

ــ آ اسيادنا، أتاي من بعد.

وبدأ إنشاد الأمداح النبوية والشطح والحيرة، واختلط الناس ببعضهم، وكانت ثمة نساء يطللن من سطوح المنازل، وفي ذلك الزحام رأيت جدتي لالة زهور، هي وكيف لا أعرفها؟ ترتدي قفطانا رمانيا لم تضع عليه الجلباب ووجها سافر من غير لثام، فكأنها قد خرجت من الدار للتو، وكانت تمسك بولدين صغيرين، واحد بيدها اليمنى والثاني بيدها اليسرى، وتقدم نحوها أحد الرجال وقبل يدها، فقالت له:

ـــ لم يخبرني أحد بشيء ولكني سمعت وجئت.

وقال:

ـــ مرحبا آ لالة الحاجة زهور. نهار كبير هذا.

وأسلمته الولدين الذين ظهرا كمختونين يرتديان الجابادور والبدعية والمنتال وطربوشان مطرزان من وبر أخضر على رأسيهما، وهما كدميتين، لا تطرف لهما عين، فلما اقتربت منها ورأتني قالت لي:

ـــ ويلي يا الويل يا عبد الحميد. يشويني فيك.

فقبلت يدها وقلت لها:

ـــ لالة. توحشتك. فاين هاد الغيبة ؟

فقالت:

ـــ أنا هنا قريبة من الدار. أراك كل يوم و أنت لا تراني.

عجبت لكوني أبحث عنها كل هذه المدة وهي قريبة مني من غير أن أراها كما قالت، وظننت كلامها محمولا على سبيل المزاح أو على سبيل ما يمكن أن يكون قد أصابها من خبل. تمسكت بها فأخذت تتفحصني بنظراتها وقالت:

ـــ آش اخبار يماك ؟

وقلت لها:

ـــ تتبكي عليك بالليل والنهار آ لالة .

فضحكت وقالت وهي تنفخ الهواء فيما بين شفتيها:

ـــ علي أنا ؟ الله يبقي الستر.

وعادت تفحصتني بنظرتها وقالت:

ـــ سبحان الله، لسانك تيقطر بحلاوة السكر بحال باك سليمان الله يرحمه، ويماك لسانها بحال الفلفلة السودانية.

وتركتني فدخلت في الشطح، وغابت نظراتها، ومع ارتفاع إيقاعات ذلك الدق، بدت وكأنها سوف تتهاوى، وسرعان ما أغشي عليها فأراحوا جسدها على الزربية وأسندوا رأسها بوسادة، فاقتربتُ منها ولكن أحد الرجال نحاني بحركة زاجرة من يده، وفكرت في أن أقفز قفزات لأصل إلى الدار وأخبر أمي، ولكني خفت من أن تنهض من تلك الغشاوة فتختفي قبل أن أعود إلى المكان ومعي أمي لالة خدوج ، فبقيتْ عيني عليها، وقلت لأحد الرجال:

ـ الحاجة لالة زهور هي لالة ، نأخذها إلى الدار.

وبدا وكأنه لم يسمعني حتى ظننته أطرش، وكررت نفس الكلام على رجل آخر فلم يبال، حتى توقفت الحيرة مع آخر دقة، فنهضت جدتي واقفة وقالت:

ـ فين هما الحسن والحسين؟

فأسلمها أحد الرجال الولدين اللذين تأكد لي من تشابهها ومن اسمهما أنهما توأمان. وبعد أن عبقت رائحة أتاي بنعناع الجنانات جاء كل من كان قد جاء بأطباق الطعام بصحون الكعب غزال وغريبة وحلويات أخرى و جاءت كنزة بصحنها ولكنها تحاشت النظر إلي، ولما امتلأت الطريق بالهرج والمرج فقد وقف من الرجال من جعل من نفسه منظما ولكنه ما حرم أحدا من كاس أتاي مع غريبة أو كعب غزالة.

وبعد حين وضعوا صندوقا فارغا في وسط ذلك المكان، غطاؤه مقلوب على ظهره حتى يظهر فارغا، ووضع فيه أناس عدة أوراق من مائة ريال أو مائتين، ومنهم من وضع في الصندوق ورقة الألف ريال صحيحة، وتقدمت نساء بوضع بعض اللويزات الذهبية في الصندوق، ووضعت نساء أخريات دمالج وأقراطا و خواتم، وتقدم الشريف فوضع في الصندوق عدة أوراق من الألف ريال، وتقدم الجزار فأخرج من جيب صدريته عدة أوراق للألف

ريال، وتقدم الجزار فأخرج من جيب صدريته عدة أوراق للألف ريال ووضعها في الصندوق، وكانت عيني على جدتي، فأخرجت من صدرها منديلا ملفوفا وفتحت عقدته وأظهرت ما بالمنديل من خواتم من الماس ودمالج مرصعة ووضعتها في الصندوق، وتقدم أطفال ربما كان آباؤهم قد أنابوهم عنهم لتقديم الهدية فوضعوا في الصندوق أوراق المائة ريال أو المائتين، ومنهم من وضع فيه خلخالا أو قرطا ذهبيا، وتقاطرت قطع اللويز الذهبية على الصندوق تباعا فوقف الشريف ومن كان معه من الرجال وقال:

ــ الله لا يضيع الأجر.

وقال ذلك الوقور:

ــ سنبني في هذه الخرابة ملجأ خيريا إن شاء الله، للمكفوفين والمعذورين، تبارك الله، هذا خير كثير.

وتهامس ذلك الرجل الوقور مع الشريف، حيث أشاح الشريف عنه واعترض برسم حركة لا بسبابته، واجتمع الرجال وتهامسوا فيما بينهم حتى ظهر الخلاف على سحناتهم وحركاتهم، وأخيرا أسلموا الصندوق وما فيه للجزار ليبيت عنده إلى أن يباع كل ما فيه من ذهب وفضة وجواهر، واختلوا فأحصوا عدد النقود وسجلوا كل التبرعات في ورقة احتفظ به الشريف، وجدتي لالة زهور كانت عيني عليها وهي تمسك بالتوأميـن بيديها وتتابع الإحصاء والتقييد، وقالوا:

ــ الله يخلف، والله يجزي أجر المحسنين.

وبدأ الجمع يَنْفَضُّ فاقتربت من جدتي وقلت لها:

ــ لالة، آجي معايا للدار.

فتمسكت بالتوأمين وقالت:

ـ أنا مشيت مع رجال الله.

وأشارت بسبابتها نحو السماء، وقالت لي:

ـ قل لأمك تحضر لي الباسبور من السند أو من الهند.

قلت لها:

ـ يا لالة والله ما هو عنها.

قالت:

ـ وحتى يلا ضاع أنا ما بقات عندي حدادة، نمشي فاين ماحبيت.

وتوسلت إليها وأمسكت بطرف قفطانها الرماني ويداها ممسكتان بالتوأمين فقالت لي:

ـ فاين تتقرا ؟

وقلت لها:

ـ فالقرويين.

وقالت:

ـ تبارك الله على ولد سليمان الدباغ، يمكن تخرج عالم، قاضي أو حتى عادل، ولكن يمكن ما تخرج إلا مخلخل بالدمياطي والشيخ خليل.

وسكتت وهي تنظر إلى السماء وقالت:

ـ ويمكن مؤقت، جهتك هي الأفلاك والنجوم.

وأشارت بيدها إلى السماء. ثم قالت لي:

ـ سر وقل لها آنا جاية، و فالوقت اللي نحب، ماشي دابا.

وفي تلك اللحظة اختفت لا أدري كيف، وما بقيت أمام عيني سوى تلك الحركة التي كانت قد رسمتها بسبابتها نحو جهة من الجهات لم أتبينها، وها قد وجدتها بعد بحث عنها في الدروب والطرقات وها هي تضيع مني، فماذا أقول لأمي؟ ظننتها بقفطانها الرماني تولي بالدبر فتبعتها وما وجدت سوى

طيف خيال يشبه هامتها في الطول وانسدال سالفين من حرير أسود كانت تخلف بهما سالفيها القديمين وقد ظفرتهما على نفس المنوال، ولا أدري كيف اختفى التوأمان معها فقد كانت يداها في يديهما.

قالت لي أمي:

ــ وماذا كانت تلبس؟ قلت لها:

ــ القفطان الرماني.

بهتت وقالت:

ــ يا وليدي القفطان الرماني ها هو ما يزال في صندوق ثيابها، وهي خرجت من الدار بجلباب شعر الجمال تحته كانت تلبس منصورية خضرا.

ونهضت إلى الصندوق ففتحته و أخرجت منه القفطان الرماني وقالت لي:

ــ أهو هذا ؟

فقلت:

ــ هو يا أمي. ولكن كيف يكون في الصندوق وأنا رأيتها تلبسه؟

ثم سألتني:

ــ والتوأمان، من هما؟

قلت:

ــ لا أعرف.

وجلست تضع يديها على خديها فعادت الدموع تطفر من العينين، ولما حاولت أن أهدئها قالت:

ــ دعني أبكي وأفرج عن خاطري بالبكاء.

ثم عاد إليها هدوئها وبدت سارحة تفكر، و قالت:

ـــ والمنديل الملفوف الذي قلت إنها قد أخرجت منه خواتم الديامانض والدمالج المرصعة من أين جاءت به ؟

وقالت هي أمي وأنا أعرفها، كانت لا تحب وضع الخواتم في أصابعها، وحتى عندما كان المال كثيرا فهي لم تكن تشتري خواتم وكانت لا تحب سوق الذهب والنقرة ولا تريد أن تقترب معي من ذلك السوق فتستميلني إلى باب مولاي إدريس لنشرب من سقاية باب الوفاء، وتتصدق على الفقراء بما يرضيهم وأكثر ولكنهم يلحون على مزيد من العطاء ويطيلون في الدعاء لها وهم يتكاثرون من حولنا متزاحمين فيحاصروننا وتكاد روحي تزهق من فرط ذلك الزحام الذي لا سبيل لنا للخروج منه، ويتصبب عرقنا وهي تعطيهم إلى أن ينقضي ما معها من المال، ولكنهم يتكاثرون ويسدون علينا الطريق وقد ركنونا أنا وهي إلى ركن وأخذوا يزاحموننا بأجسادهم ومناكبهم، نساء ورجالا وأطفالا، و أنا أختنق وأكاد أسقط من دواخ أصاب رأسي، وهي تظل تتوسل إليهم أن يتركونا نشرب شربة الماء ونذهب، وتقول لهم:

ـــ نهار آخر.

ويأتي فقراء آخرون من جهتي الطريق ليغلقوا كل منفذ علينا أنا وهي وأولائك الفقراء الذين كانت قد تصدقت عليهم، فتقول وهي تبتسم:

ـــ نهار الخميس إن شاء الله.

وبشق الأنفس نخرج من ذلك الزحام، وفي الطريق تقول لي:

ـــ لو كان بإمكان الإنسان أن يتصدق بمال غيره، لكنت أخذت منك تلك الفلوس التي كنت تنوين أن تشتري بها من سوق الذهب خاتما أو سلسلة، ولكن ذلك لا يجوز.

وأقول لها:

ـــ يا يماء، وحتى لو أعطيتهم مال قارون، هل سيكفون عن التسول؟

فتقول:

ـ هذا أمر الله يا بنتي.

وقالت أنا يحيرني أمر هذا المنديل الذي فكت عقده وأخرجت منه الخواتم والدمالج، فهل عثرت عليه في الطريق، أم أنها كانت تخبئه في دار أخوالي في حومة عين الخيل، و هل ذهبت إليهم ؟

أنا سأذهب إلى دار أخوالي واستكشف ما تفعله أمي من وراء ظهري، وإن كنت لا أحب نساءهم المتدللات في الكلام، الثقيلات الحركة، فلا يقدمن كأس شاي مع غربية بالسمن إلا بعد طلوع الروح، وهن دوما متزينات كأنهن في حفل يخطرن بين الغرف بتكاسل و تمطيط شفاه عند كل كلام عادي. وأعرف أنهن جميعا سيقلن لي:

ـ والله ما عرفت، حبيبك الحاج هو اللي عارف.

والأخرى ستقول:

ـ حبيبك الحاج مريض بالسكر، يلا كانت شي مشكلة هو راه ما قادر على مشاكل.

والأخرى ستقول:

ـ حبيبك مسافر، وبعد عشرة أيام ارجعي ويكون رجع بالسلامة.

والأخرى ستقول:

ـ الحاج ما عنده خبر بهاد الذهب يا لالة خدوج، والله ما عرفت منين جابته الحاجة لالة زهور..

هن أربع نساء يا وليدي يا عبد الحميد، متزينات بالليل والنهار، يَلُكْنَ العلك كما يلكن الكلام، وأنا أقول لك هذا لتعرف أخوال أمك ونساءهم، الموت والحياة بيد الله، وأنا سأذهب إلى حومة عين الخيل و سيعرف أخوالي كل شيء، إن لم يفسر لي واحد منهم من أين جاءت بها الحاجة زهور بذلك

الذهب فأجعله يسأل هذا السؤال مثلي، ويبحث، إلى أن نعرف الحقيقة، ولكن أين هي أختهم، يما الحبيبة، ولماذا لم يبحثوا عنها في كل هذه المدة التي غابت فيما عن الدار؟ قلوب الحجر. يا عبد الحميد ما بقيت أخوة فهاد الدنيا، وأنا لا أخ لي ولا أخت، وأنت يا وليدي يا عبد الحميد وحيدي، لا أخت ولا أخ لك.

وما مر يومان على ذلك الحفل الذي عقده رجال الحومة في تلك الخرابة، وكنا قد دخلنا في الهزيع الأول من الليل ونحن نيام، حتى صحونا على صوت يشق الحجر، يصرخ في الدرب ويقول كلاما غير مفهوم، ولما رأتني أمي أنهض من فراشي، على شعاع قليل من ضوء الأدراج الذي نتركه يبيت مضيئا، نهضت و أضاءت ضوء الغرفة وقالت:

ـ هذا العباسي راجع من الملاح.

واقترب من باب دارنا ذلك الصراخ المخمور، فقالت أمي:

ـ شرب الماحيا مع اليهوديات.

ثم قالت:

ـ لا. طريق العباسي لدراهم ليست من دربنا. اشكون هذا ؟

وصعدنا إلى سطح الدار مُلَفَّعَيْنِ بأغطيتنا بسبب البرد القارس، فرأينا الجزار يندفع نحو حائط ثم يدفعه ذلك الحائط نحو الآخر، وهو يصرخ، ويردد مثقل اللسان:

ـ أنا ما عندي صندوق، ما شفت حتى شي صندوق.

وأحسسنا بحركة في البيوت المجاورة مع ما ظهر لنا من أضوائها في هذا الهزيع من الليل، وعرفنا أن كل سكان الحومة قد نهضوا من منامهم وهم يسمعون ما يقوله الجزار.

ثم ما مر شهر حتى أخذ الناس يتحدثون عن الجزار الذي أصبح يملك عدة حوانيت لبيع اللحم في سوق الرصيف والطالعة وفي أحياء أخرى من أحياء فاس، فقد أصبح تاجـــر جملة يزود تلك الحوانيت باللحم ويضع فيها من يبيع تحت وصايته، وبعد شهور سمعنا أنه يشتري العجول و قطعان الغنم ويذبحها في المجزرة ويبيع اللحم لتجار الجملة، فتحيرت في أمر حبي لكنزة، وقررت أن أتخلى عنها، ولكنها كانت تتسلل قافزة على حيطان سطوح المنازل، في بعض الأماسي، و ترمي إلي بحجر، وحالما أصعد إلى السطح للقائها لا تسمح بالقبلة، وتباعد ما بيني و بينها إن أردت العناق، ثم تقفز على تلك الحيطان و تعود إلى سطح دارهم فأبقى حيران مُوَلَّهًا ذاهبا في أخيلة تأخذني إلى ما لا أتذكره بعد أن أخرج منها، وبعد وقت صارت تأتي قافزة على الحيطان، و تدخل معي غرفتي التي على السطح، وتجلس على فراشي، ناظرة إلي و هي تبتسم، ولما أقترب منها تنهض خفيفة بنفس تلك الخفة التي تتسلق بها الحيطان فلا أراها إلا وقد أصبحت فوق سطح دارهم، وكانت تترك رائحة الأنثى في غرفة السطح تلك، فأبقى في حيرتي وذهولي، وما كنت أقدر على مصارحتها بما فعله والدها بالصندوق، وكنت أقنع نفسي بأن لا ذنب لها هي في خيانة والدها لأمانة أهل الحومة وما تبرعوا به لبناء ذلك الملجأ الخيري، ولكن غصة كانت تقف في حلقي، وما كنت أدري كيف يمكن أن أتصاهر مع الجزار، ولكن ذلك قد حدث من غير أن يكون لي قرار.

وفي ذلك الصباح سمعنا طرقا عنيفا على باب الدار، فنهضت أمي وقالت:

ــ شكون؟

وازداد الطرق حدة فقالت:

ــ أنا جاية.

ولحقت بها نحو باب الدار، فلما فتحته رأينا أناسا يحملون جدتي بين أيديهم، ودخلوا مسرعين يبحثون عن أقرب فراش يضعونها عليه، وولولت أمي، وجدتي الحاجة لالة زهور مسجاة على فراش في البرطال، وكان طائر قد هبط من الحلقة وحاول أن يصعد للخروج منها ولكنه عاد يهبط نحو دربوز الفوقي ناقرا من خشبه وقافزا هنا و هناك، وصرخت أمي:

ـ ماتت ؟

فقال لها أحد أولئك الذين جاءوا يحملونها بين أذرعهم:

ـ الدوام لله.

ولطمت أمي خديها، وحلق ذلك الطائر في فراغ الدار من غير أن يصعد نحو الحلقة، ونظرت أنا إلى وجه جدتي فكان مشربا بحمرة الدم، ورف جفنها، واستوت جالسة وقالت:

ـ خذوا قلبي وفتشوه، فليست فيه خواتم ولا دمالج.

وبهتت أمي، وانهالت فوق جسدها تقبل يديها، فانسحب أولائك الذين كانوا قد حملوا جدتي، وقالت أمي و هي تقبل يدي جدتي:

ـ دعيني أقبل اليدين، فأنا أشم فيهما رائحة الجنة.

وعاد ذلك الطائر يحاول الصعود، فصعدت معه وأنا أخف حتى صرت ريشة في جناحه، وبدأ الهواء يتلاعب بي والطائر يحلق ويصعد و ينزل هابطا ليقف عند قفص فارغ من الطير كان معلقا على مسمار على جدار البرطال، محاولا أن يدخل ذلك القفص الذي كان بابه مغلقا، وليس به ما يغري ذلك الطائر من زئان بالدخول.

لا تسألني عن ذلك الطائر هل غدا في صعود أم هبوط، وأنت لن تقدر على أن تفسر لي كيف صار جسدي على تلك الخفة وكأنه قد فني وما بقي إلا إحساس غامض بوجوده، كما لن تفسر لي كيف اختفت جدتي وهي

أمامي، فهي أسرار الجهات وخفاياها، فأوقف آلة التسجيل الآن ودعني أستريح.

والآن وقد أوقفت جهاز التسجيل قل لي ما الذي يجمع أو يفرق بين هذه الجهات، جهة الجزار و جهة جدتي الحاجة زهور و جهة ذلك الطائر، وإذا أحببت أن توضح لي أكثر أيها الكاتب، فما الذي يجمع أو يفرق بين جهة كنزة وجهة والدها وجهات الدباغين وجهات سطوح المنازل وجهات فاس الأخرى. ولن أسألك عن جهاتي أنا فهي موضوع هذا الكتاب الذي أصبح يبدو لي أن لا موضوع له، وأنني بالدخول في الكلام عن أناس عرفتهم إنما أبحث عن الموضوع. فمن كان يصدق أن جدتي ستموت ميتتين، لتعود من ميتتها الأولى وتعطينا قلبها لتفتشه، ومن كان يدري أن الجزار سيخون الأمانة وأنني سوف أتزوج كنزة وأغرق معها في الوحل، ومن كان يظن أن حروب السياسة سوف تنتهي إلى كل هذه الجراح.

هب الريح

للمكان أسرته النيرة
بنيران الحرائق
أو ربما
كان ما يقطنه سراب

ظلت معلقة في فراغ، كدمية مربوطة من أطراف خفية بخيوط لا مرئية، ترتدي فستانها الفضفاض الطويل الأحمر ذا الذيول المنتشرة حول أطرافه السفلى، وكانت تلك الذيول تتشعب مع حركة الرقص وتذهب بالفستان وبكنزة نحو هالة من فراغ كبير يصير أكبر من اتساع الصالة وانفتاحها على متسع من مرافق الفيلا وأنحائها، وكل ذلك يقع تحت أضواء خلابة وكأننا في مهرجان.

ولم أدر متى كانت كنزة قد تعلمت الرقص على هذه الطريقة ولا متى خاطت ذلك الفستان، فقد فاجأتنا بخروجها من غرفة نوم والدها حيث اختفت هناك لبعض الوقت ثم خرجت وهي ترتدي ذلك الفستان وأخذت ترقص، وأنا بالرغم من زواجنا الذي مضت عليه سنوات لم أتمكن من التحقق من أنها هي كنزة إلا بعد مضي وقت، فالألوان التـــي اصطنعت منها زينة وجهها، والبقع الزرقاء على العينين، وتسريحة الشعر، كلها ألقت على شكل كنزة ظلالا غامضة مما جعلها تشبه إحدى راقصات الفلامينكو أو مهرجة في سيرك، وكل هذا إضافة إلى نظرات عينيها، وتعلقها بالفراغ الذي بدا الجسد نفسه معلقا فيه، وذهاب تلك النظرات نحو غياب ذاهل مجنون، حتى ظننتها سوف تنهار وتبكي في منتصف الرقصة، أو ستمزق ذلك الفستان على جسدها، وتخلط ما تكاثف من أصباغ على وجهها، ولكنها ظلت ترقص، ووالدها يبتسم لي، وزوج أختها يركز نظراته على صدرها وحركات جسدها خلال الرقص، وعيناه تلمعان.

عجبت كيف ترقص الآن وهي التي ظلت تنكد كل لحظات الفرح بكلمات جارحة كأنها كانت خبأتها لتلك اللحظات، أو بانزواء نحو حزن غامض ما كنت أجد له من الأسباب ما يجعلها تنكس نظراتها لأيام ولا تحب أن تخرج من غرفة النوم التي كانت قد صرفتني عن دخولها بصفة نهائية،

وما كانت تمشط شعرها و تتزين إلا حينما أدعوها للعشاء في أحد المطاعم، فتشترط هدية ثمينة مقابل ذهابها معي، وتقول هي التي سوف تختار تلك الهدية، فأفتح دفتر الشيكات ولما أهم بكتابة الرقم تقول لي وهي تضع يدها على القلم أنت وقع وأنا أكتب الرقم، إن كنت حقا تحبني، وتريدني جليسة لك على مائدة ذلك العشاء الذي دعوتني إليه، وأحيانا ينتهي ذلك الموقف الذي وضعتني فيه إما بأن أتجاهل كلامها فأكتب رقما محترما على الشيك وأسلمه لها، فترده لي، وتقول أنا لست طماعة ولكن أريد أن أطمئن على أن نساء أخريات لا يسيطرن على أموال زوجي، وأحسن لك أن تذهب إليهن وتصرف مبلغ هذا الشيك معهن، ولن أقلق لأنه مبلغ زهيد، وإما ينتهي الموقف بإلغاء دعوة العشاء، ولو حدث وذهبنا إلى مطعم فهي تفتعل المغص في أمعائها أو معدتها وتجعلنا نعود إلى الدار في الأوقات التي يخرج فيها الناس من بيوتهم عادة، وإن أخذت المبلغ، و تعشينا، فهي تستعجل عودتنا إلى الدار لكي لا تضيع منها حلقة من أحد المسلسلات، تشاهدها في تلفزيون غرفة النوم، وتطلب مني ألا أدخل، فلو كان العشاء والشيك شرطا في أن أعود للمبيت في غرفة النوم لما كانت قد قبلت.

ظل والدها يمسك بيده المتشنجة الحركة على حافة كرسي الإعاقة وهو يتأهب بنظراته لاصطياد نظراتي، حتى يبتسم لي، ويدعوني من الاقتراب من أذنه ليهمس لي بأنها هاهي الآن ترقص، فرحة بنفسها وبزوجها، فلا داعي للقلق، أو التفكير فيما لا تحمد عقباه، وما هو أبغض الحلال إلى الله تعالى كما قال نبينا الكريم، ثم يقرص أذني ويقول لي افرح بامرأتك يا عبد الحميد، كنزة غزالة، شف، ها هي فرحانة بك وبالعائلة.

وقفت على قدم ثم وقفت على رؤوس الأصابع وأمالت عنقها ونشرت هالة الثوب حول جسدها.

دخلتِ الهالةَ الكبيرة فدخلنا معها فيها وصار البيت كله كهلام فنظرت نحو زوج أختها ونحو والدها و بدا لي وكأنني لا أعرفهما، وتبدد من ذاكرتي ما كان يجمعني مع هؤلاء الناس وهذا البيت، وتمنيت لو كان بإمكاننا أن نستمتع بالراحة التي يقدمها لنا هذا النسيان، فما بقي شيء من ذكرى كنزة يفرحني أو يخلج جسدي ويذكي عواطفي أو يشعرني بحاجة الرجل إلى احتماء دافئ بامرأة تعيد إليه توازن نفسه ومواقفه مع تقلبات اليومي وألاعيب السياسة ومع من يفتعلون عداوات لا أساس لها من أساس الصراع، ولا عيب أن يجد هذا العقل المكدود راحته في امرأة هي إلفه وشقيقة روحه وهي هدهدة اليد التي تبعث في تعب الجسد الراحة والهدوء، ولكن امرأة محتملة تأتي من الأخاييل هي التي يمكن أن تفعل ذلك ولربما تأتي من الطفولة، أو من صحراء هذا العمر ومواطن تيهه وانهياراته.

لو نسيني كل هؤلاء الناس، ليصبح بإمكاني أن أتأكد من أن كنزة قد صارت شبحا غريبا كما أنا روح غريب في مكان جلوسي هنا في الصالون، كما أنا غريب في أماكن أخرى، من أهمها، مكان غرفتي الأول، غرفة النوم.

رقصت أمام نعيم، فملأ نظره من عينيها وجسدها وقبل ذيلا من تلك الذيول الثوبية وهو يمسك به فأعاق حركة رقصها وكادت تسقط، وتجاهلت أختها أن ترى شيئا من كل ذلك و لكنها التفتت نحوي وقالت لي:

ـ هل يمكن لأحد أن يرقص بغير موسيقى؟

فأبديت امتعاضا وقلت:

ـ مجنونة.

وعض نعيم على طرف سبابته وقال لزوجته التي لم تكن تسمعه:

ـ آه لو كنت ترقصين لي لفرشت لك الطريق بأوراق المائتي درهم.

بدت كأنها حقا لا تسمعه، وهي حالمة بعالمها الذي لم أحدد شيئا من عوالمه، فنهض وهو يضطرب في مشيه و عاد يحمل في يديه كأسين شرب من أحدهما وسقى صهرنا برشفة من الكأس استقبلتها شفتاه برضى، وأشار بعينيه ونظرته إلى مزيد حتى لأفرغ الكأس وقد كانت مترعة في جوفه، وحومل وحوقل، وتجشأ فقالت له حماتي:

ـ أما كفاك ما شربت آ الحاج في أيامك ؟

وقال لي نعيم:

ـ أنت تعرف كيف تصب من تلك القارورة في كأسك فاتركني أسقي نفسي وأسقي الحاج.

وسقاه بكأس أخرى قربها من شفتيه فجعل منها الحاج حليب رضاعة وكأنها ثدي أمه أو مرضعته، وصار في تلك الليلة زوج ابنته مرضعا له وهو نهم لذلك الحليب الذي كان قد تعود على الرضاعة منه من قبل .

رقصت كنزة من غير توقف، وقالت حماتنا:

ـ ها قد تفجر داء السكري وجعل بإحدى قدميه تنز وتنتفخ باستمرار.

فأراد زوج ابنتهما العزيزة أن يسكتها عن هذا الكلام فأتي بقارورة عطر وأخذ يرش منها على عنق و ثياب حماتنا العزيزة، ثم قال:

ـ هذا عطر رجالي.

وذهب الى مكان فعاد بقارورة أخرى ورش منها على عنق وثياب وراحتي يد صهرنا العزيز، ثم قال:

ـ آه لقد أخطأت فهذا عطر نسائي.

واقترب مني ليرش علي من ذلك العطر فاعترضت بحركة من يدي واقترب من زوجته فاعترضت وقالت:

ـ أنت سكران ولا تميز بين عطور النساء وعطور الرجال.

وقال لها:

ـ هما سواء.

وضحكت كنزة وهي ترقص، فأخذ يلاحقها وهو يرش عليها من القارورتين معا، وضحك صهرنا كيخ كيخ كيخ وظلت أخت كنزة كأنها غير موجودة، تقرأ في كتاب، وتسرح بأفكارها متجاهلة رقص كنزة الذي بدا مضحكا وطيش زوجها الذي أخذ يقبل يدي صهرنا من الوجه والظهر ثم يقبل يدي حماتنا وهي تضحك وتقول له:

ـ هكذا يكون أولاد الناس.

جاءت تقترب مني بجسدها الراقص فتجاهلت أن تلتقي نظراتي مع نظراتها، وظل والدها ينظر إليها ويبتسم بغباء وقد احمرت وجنتاه وانتفخت عروق راحتيه، وقال:

ـ آح على شي طروح د الكارطة مشحرين، أيما فين أصحابي وفين هي الليالي، أنا مشيت وتقاضيت.

وقالت له حماتنا:

ـ بسم الله عليك، باقي دارنا تعمر بالصحاب وبالخير.

ولما جاءت كنزة ترقص أمام والدتها شدت على وسطها حزاما وضحكت، وحاولت أن ترقص جسدها الثخين وهي جالسة، وأخذت كنزة تميل و تدور وتلك الهالة نفسها تتسع، لتخفيها وتخفي البيت كله في دوامة من الفراغ، فاختفى وجه والدها الجزار المقعد، واختفى زوج أختها واختفى معه ما كان في يديه من كأسين مترعين، واختفت المدينة و المحاكم والسجون وما عاد ثمة سوى نار وكانت تأكل جسدين لرجل وامرأة وقد التفا في إزار كان

أبيض ثم تدخن ثم ما عاد يتقلب في الفراغ سوى تينك الجسدين وقد شممت رائحة الشياط.

تأملت تلك النار وقلت أنا رجل سياسة وعضو قيادي في حزب مهم فما معنى أن يكون سبب تلك النار هو هذه الأمور الخاصة جدا، التي لا تعني أكثر من ثلاثة أشخاص، بينما يحتمل أن تشتعل حرائق أكبر لتأكل الوطن كله، وليحتاج إلى مواطنين مخلصين لهم تضحياتهم التي و حدها يمكن أن تبعث الوطن كله من رماد لا كالرماد ؟

عاد نعيم يضحك ضحكاته التي ما عاد من ورائها أو أمامها شيء سوى تآكل عظام تفحمت وبدأت تندثر، فهل النار تشتعل في البيت، أم أنها تشتعل في المدينة والوطن، أم أنها نار تشتعل في عيني.

مشيت وحيدا وسط الحقول وتذكرت شيئا من أوقات صباي يوم كنت أنتمي إلى الكشفية الحسنية، وكان شعارنا:

الكشاف دائما مستعد

سألت نفسي هل لمغارة فريواطو التي كنا قد دخلناها عروق وجذور في تلك الجهة السفلى من العالم ؟

فكيف يسير الكائن في تلك العروق والجذور؟

وما أدراك، فهي قطرات مائية تنز من بين صخور السقوف فلا هي بيضاء حليبية ولا هي من دم، دم أم حليب ؟

لكني كنت في تلك الفترة من الطفولة أتخيل الدم والحليب كما هما قريبان مني في الجهة التي كنت أحيا فيها، وأما اليوم، فيظهر أن الحليب يمكن أن يختلط بالدم كما تتداخل الجهات مع بعضها.

ولعلك تراني أخرف أيها الكاتب ولذلك تنظر إلي بهذه النظرات المندهشة، وإذا لم تفهم ما أقول فكيف سوف تكتب الكتاب، أعني كيف سترتب

مادته التي أحكيها لك على هذا المسجل وتعطيها المعنى أو المعاني الملتبسة ببعضها كما هي الجهات تلتبس؟

كيف؟ أنت تتلذذ مبهورا بما أحكيه لك وأنا لست صاحب رسالة ولا فيلسوفا ولا شهيدا ولا ضحية، وإنما أنا أضمن لك في هذه الأشياء التي أحكيها ما يمكن أن يعنيه الذهاب نحو الجهة، إلا أنك تبدو، ومن نظرات عينيك، كأنك لم تفهم وكأني لم أقل.

ولعلك لم تدرك غاية الكلام معك في هذا المسجل أو حتى بدونه، فهذه الأشياء التي أحكيها ليست سيرة شخص اسمه عبد الحميد الدباغ، لأن السير تكتب عادة للعباقرة والأنبياء، وما أنا إلا واحد من الذين عبروا الجهات، وأقول وصلت إلى الجهة السابعة، فما يهم قارئ الكتاب من أن كنزة رقصت أو لم ترقص، أو أن ذلك الطائر أراد أن يدخل قفصا فارغا لا زئان ولا ماء فيه؟ وإنما أنا ألف وأدور حول الكلام لكي أصل إلى ما أريد أن أقول، وأصف لك كيف يذهب الكائن في الجهات مثخنا بجراج لا يرى لها أثرا على جسده، ولو كتبت ذلك الكتاب الذي أردت أن أدون فيه أحلامي، لكان أسهل مما أريده منك الآن ، لأنها جهة واحدة هي التي كانت تذهب فيها تلك الأحلام، ويمكنك أن تحذف هذا الكلام من الكتاب، فهو غير ذي فائدة للقارئ.

دعاني لأقترب منه وقال لي أنا أتذكرك يا عبد الحميد وأنت صغير، والدك سليمان الدباغ كنت أعرفه لا كجار وحسب وإنما كصديق وحبيب وكم لعبنا من طروح الكارطة وكم شربنا من البوخة في جنان السبيل ونحن نستمع إلى أغاني السيدة أم كلثوم تصدح من الميكرفون.

سكت لحظة وبدا عليه أنه يتذكر، وقال كانت داركم قرب التوتة في درب البشارة ودارنا غير بعيدة عنها، وأنت لا تتذكر ذلك اليوم الذي احتفل فيه سكان الحي بالفقراء فأكلنا معهم وشربنا وكنت أطعمك بيدي وأقرب نحو

جهتك أفضل قطع اللحم، هل نسيت؟ جدتك الحاجة زهور الله يرحمها تبرعت بخيط الريح وكان من اللويز الخالص، وكما تبرعت أنا بالمال في سبيل الله، ولكن اذهب الآن إلى درب البشارة وستجد أن تلك الخرابة قد ارتفعت فيها عمارة من أربعة طوابق، ولا أثر للملجأ الخيري الذي كنا قد تبرعنا من أجل بنائه، أحد أولاد الحرام كان قد أخذ صندوق التبرعات وقلنا الحلف على من ادعى واليمين على من أنكر، وحلف باليمين على أنه لم يأخذ معه ذلك الصندوق، وجاء الشهود وشهدوا على أنه قد أخذه رغم حلفه باليمين ولكن القاضي كان بغله قد زطم في المرايا ففض القضية، ويقال إن ذلك القاضي لم يفض القضية حتى وقد أخذ ثمن ذلك، ولكن وصية من الجلنار الفرنساوي الكبير قد جعلته يسكت أهل الحي واليوم صار هذه الأحداث التي عشناها مثل الخرافات.

كنت أنت صغيرا لا تدري بهذه الأمور، تلعب في الدرب وتراني أنظر إليك فتخفض بصرك، وسبحان الله، فمنذ ذلك الوقت تمنيت لك كنزة، هي بالذات، ولم أفكر في أن تكون أختها بشرى لا لأنها كانت اصغر من كنزة ولكن ربما لأن الإنسان يولد ومعه امرأته التي سوف يتزوجها، في عالم السر، إلى أن يخرج ذلك السر للوجود، فلما جئت تخطبها لم أفاجأ وإنما كنت أنتظر ذلك اليوم، وقلت هي الأحداث التي يخبر القلب بوقوعها، وها أنا في هذه الكروسة أنظر بعيني وأحتاج إلى من يضعني على السرير، ولا أصحاب ولا أحباب.

ستَكْمُنُ تلك النار في الحنايا وبين الضلوع لتصير لها جهتها وهي واحدة من تلك الجهات.

وتصور أنني قد أفلست في تجارتي عدة مرات وكنت أبدأ من الصفر، وكم من عدة مرة فكرت في بيع الفيلا وشراء شقة لنسكنها حتى أبدأ برأسمال

جديد، ولكن الظروف لم تكن تعاكسني دائما، فبالتعامل مع البنوك، وببيع مواد كنت لم أشترها بعد، كنت أعود إلى الوقوف على قدمي، وكان زكريا ابني الصغير، وحبيبي، يشجعني بنظراته إلي حتى وهو لم يدر ما أنا فيه ولم يتعلم الكلام، فخلال أشهر أو على مدار سنة كانت أحوالي المالية تعود إلى أفضل مما كانت، ثم تأتي بعض النكسات، وأنا لم أكن أعبد المال كما أنني لم أبذره تبذيرا، ولكن جاء الوقت الذي طلقت فيه كنزة وتخليت لها عن الفيلا وما فيها من أثاث، وفضلت الإقامة في غرفة هي هذه التي نحن فيها الآن، أنظف ثيابي في المصبنة وأتناول وجباتي في المطاعم.

وأنا الآن أتذكر مطعم الشرنقة، ففي ذلك المساء الخريفي هبت الريح عاصفة وظلت تتصارع بين شرقية وغربية فوقفت كنزة عند أبواب الريح حتى تحللت وذابت في فراغ وأخذتها الريح نحو الجهات، ولما عادت للظهور أمامي قلت لها يا كنزة ماذا أصابك؟ فأخذها البكاء ثم صارت تضحك وانحنت كأنما سوف تسقط أو ستذهب مع الريح حيثما تذهب، لكنها تطاوست وتزينت مستعدة للخروج ثم غسلت وجهها من زينته ودخلت غرفة النوم وأغلقت عليها الباب، وظل عصف الريح يزعزع النوافذ والأبواب يكاد يخلعها، فخرجت كنزة من غرفة النوم وأعدت لنفسها قهوة ثم تخلت عن احتساءها وأشعلت التلفزيون ثم أطفأته، وبدرت على طرف لسانها أغنية ثم كتمتها، وبدت كأنها سوف ترقص ثم تهاوت على أقرب فراش في الصالون وعيناها شبه مغمضتين وشعرها مفكوك وأطرافها راعشة، وكنت أرقب ما تفعله بنفسها وأنا أعرف ولا أعرف، ولما خشيت أن تأخذها الريح أو يتحلل جسدها من جديد فقد وقفت أمامها ودعوتها إلى العشاء في مطعم الشرنقة، فما سمعت اسم المطعم حتى ابتسمت وأغمضت عينها للحظة ثم نهضت لعمل زينتها وارتداء ملابس الخروج.

حدث ذلك منذ سنوات بعيدة، وها أنا أستعيد ما حدث في مطعم الشرنقة وقد تعشيت فيه قبل أيام ، فقد كان خاليا إلا من مائدتين يجلس إلى أحدهما رجل وحيد، أصلع، مائل إلى السمرة، وكان يمد أصابعه المتشنجة على مقربة من نظره ثم يشرب محاولا إيقاف ذلك الرعاش، وأظافره الطويلة الصفراء، ربما من إمساكه للسجائر واحتراقها بين أصابعه، تظهر أمامي وقد أخذت لون التبغ المحترق، حتى والضوء خفيف وجلس إلى المائدة الثانية ثلاثة رجال أحدهم وسيم ذو نظارة شفافة، كثير الحركة والتبرم والنظر إلى الفراغ، يوسع من إحكام ربطة العنق الزاهية الألوان على عنقه ثم يعود ليسويها في المكان المناسب على ياقة القميص الناصع البياض، وأما الآخران فكانا يدخلان في الكرسيين اللذين يجلسان عليهما ولا يمدان يديهما إلى كأسيهما إلا حينما يمد يده ذلك الوسيم إلى كأسه، وظل الأصلع المائل إلى السمرة يرمق جلستهم وقد ظهر من حركاته أنه يهم بشيء ثم يتراجع عنه، ولم أعرف أهم البزناسة أم رجال المخزن أم هم أشباح هذه الليالي الكئيبة التي لا أدري كيف قادتني إلى هذا المطعم آتيا إليه من ازدحام شارع محمد الخامس بعد أن اطلعت على عناوين بعض الجرائد في كشك اشتريت منه السجائر ثم مشيت أسحب خطاي المثقلة بتعب السنين، وأنا أرتعش من برد ذكرني ببرد تلك الليلة الخريفية، فقلت أتدفأ بكاس وأتعشى.

وأنت تعرف أن بعض الأماكن قد تكون لها جاذبيتها، فحينما يقرر الإنسان ألا يذهب إليها أبدا، لكي لا يضع الملح على الجراح، فتلك الأماكن تجذبه إليها، ليجد نفسه وهو يتذكر ما حدث، مرغما عنه، حتى وإن لجأ إلى النسيان.

كانت كنزة قد أغمضت عينيها وها أنا الآن أتذكر ذلك الإغماض الخفيف، وحالما تزينت أرسلت خصلات شعرها في الفراغ حتى تسترسل،

ولحظت أنها قد نزعت خاتم الزواج من بنصر يدها اليسرى فلم أقل شيئا وتركتها تمرر قلم العكر على شفتيها وتزمهما قليلا وهي تنظر إلى المرآة ثم تضع الرداء الأحمر المطرز على كتفيها وكأنها سوف تدخل أو تخرج من مقصورة من مقصورات عالم ألف ليلة وليلة، ولكنها كانت ذاهبة معي إلى مطعم الشرنقة.

بعد أن شربت كأسي الأولى نهض الأصلع من مكانه وأخذ يتهامس مع الوسيم الذي ظل يخلع نظارته عن عينه لينقر بها على المائدة عدة نقرات ثم يعيدها إلى عينه ويعود ليخلعها فينقر بها تلك النقرات، ولربما كان في تلك الحركة سر يعرفه صاحباه، فقد تحفزا ولم ينتظرا أن يمد صاحبهما يده إلى كأسه فأفرغا كأسيهما في جوفيهما وصارت نظراتهما عدوانية، وبدا لي وكأنهما سوف يكشفان عن زنديهما أمام ناظري الأصلع الذي كان ينحني على أذن الوسيم، ولكنه عاد يتراجع نحو مائدته ليتجرع كأسه مضطربا، ثم رأيته يقف ويفتش عن شيء في جيوب الجاكيتة البنية اللون التي كان يرتديها، من جيب لجيب، وهو يتظاهر بافتقاد شيء، ويعود للجلوس والسيجارة لا تفارق أصابعه وهو يتمتم بكلمات غير مسموعة، ورأيته يخبئ زجاجة بيرة مختومة بغلاقها فلم أدر هل كان ينوي أن يغالط محماد في حساب عدد زجاجات البيرة أم أنه يخبئ هذه البيرة المختلسة لوقت عصيب، وحينما نظر إلي متوقعا أنني قد انتبهت إلى ما فعل تجاهلته بنظراتي، ولما عدت أنظر إليه كان يدخن بحرقة وقد احمرت عيناه وبدا عليه السكر.

المرآة نفسها التي نظرت فيها كنزة إلى زينتها ما تزال في مكانها في المطعم، فهو لم يتغير، ماتت مديرته الفرنسية كما أخبرني محماد، والأصص التي تتدلى نباتاتها على حواف النوافذ ما تزال في مكانها، والأباجورات والموائد والكراسي، وحتى محماد أخذ يتطلع إلى وجهي كلما أتاني بكاس

وكأنه قد ذكرني، فالصورة الوحيدة التي نشرتها لي الصحف كانت منذ ترشيحي للبرلمان، ولكن صورتي كانت تغطي كل الشوارع وواجهات المتاجر والمحلات، ووقتها طلبوا مني أن أخطب في الناس ولكن الناس كانوا يعرفون ما سأقول كما أعرف أنا أنهم في أعماقهم لن يصدقوا شيئا مما أقول، وإن كانوا على استعداد للتصفيق لمجرد ظهوري أمامهم، ولا أتذكر كيف خرج الكلام من فمي فمجدت رئيس الحزب الذي خرج من رئاسة الحكومة لتأسيس حزبنا، ونظرت في لائحة الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت مطبوعة على ورقة الترشيح في يدي، وأصابني الشرود، فأخذت أتحدث عن الجهات الست، وتواريخ ذهاب الكائن في تلك الجهات، وأن جهتنا هي الأمام والوراء، الأمام والوراء معا، واستدركت أنني قد أخذت أخرف وأن ما رأيته في عيون الناس هو ذلك الاستفهام الغامض، وعدت أمسك برأس الخيط فتكلمت عن أن وراءنا تراثا مجيدا يجب أن نحافظ عليه، وفقرا يجب أن نتخطاه، وأن أمامنا إصلاح كل الأعطاب التي أصابت قطار تنميتنا، وصفق الناس، وبقيت في صوتي غصة تلك الجهات التي لم أتحدث عنها كما كنت أرغب، فذلك خارج عن كل ما كانت تبشر به ورقة الترشيح من إصلاحات، وجاء بعدي من تحدث عن اللون، لون ترشيح حزبنا، ومشت الأمور ، ولكن هل ذاكرة محماد حصيفة إلى هذا الحد ؟ ففي تلك الليلة لم تكن لي شهية للطعام، وأخذت كنزة تنظر إلى صحنها وتدق على حافته بالشوكة والسكين دقا خفيفا، ولم تأكل منه سوى ما يمكن أن يأكله الطير.

أشعل الرجل الأصلع ذو الأظافر الصفراء سيجارة وكانت أخرى موضوعة على المنفضة، وظلت عيناه زائغتان وهو يأكل من الصحن الذي أمامه ويدخن ويشرب في آن، ثم نهض واقفا وأخرج من جيب جاكيتته بعض

الأوراق وراح ينظر إليها بنظر أعشى فيميلها على جانب ويميل معها نظره مائلا على جانب واحد ثم يرفع عينيه نحو السقف كأنه يبحث عن ضوء قريب يسعفه للنظر، وعاد يجلس فتناول قطعة لحم أخذ يلوكها في فمه بحركة اختلج لها فكاه يمينا ويسارا وتمططت شفتاه، ومسح بالمنديل عرقا على جبينه، في هذا الطقس البارد الذي لا يعرق فيه أحد، وعاد ينهض ويهمس في أذن ذلك الرجل الوسيم ذي النظارة الشفافة وجليساه يتحفزان بالنظر وحركات الذراعين وتحريك عجيزيتهما على المقعدين، وهو لا يبالي بتحفزهما، وبمجرد أن عاد الى مائدته أخرج الرجل الوسيم هاتفه المحمول وركب بعض الأرقام وسمعته يقول:

ـ آلو، أنت معايا ؟ عشرين مليون.

ـ . . .

ـ تنقول عشرين. سمعت ؟

ـ . . .

ـ تنقول ستة، ما تلعبش معايا هاد اللعب وأنا عارفك.

ـ . . .

ـ شف، أنا تنتعشى فمطعم الشرنقة، والسيد جاي بعد شوية.

ـ . . .

ـ قلت لك عشرين وما ترد حتى كلمة. بالسلامة.

أقبل جليساه على ما تبقى من طعام في صحنيهما وهما يتطلعان إلى نظراته الساهمة وهو يخط على الورق بعض الحسابات، والأصلع يتتبع كل ما يحدث وهو يحرق السجائر وينفث الدخان في الهواء، واقفا وجالسا وداعيا محماد ليطلب بيرتين وقد امتلأتْ مائدته بالزجاجات الفارغة فطلب من محماد أن يأخذها، وكان قد خبأ في جيب جاكيتته ثلاث بيرات ممتلئة، ولما أخذ

محماد القوارير الفارغة طلب شريحة لحم ثم قال له صافي، بلاش، وكلما أدار محماد ظهره ذاهبا إلا وكان يناديه، ويقول له جيب الكالامار، أو جيب الإسكلوب، ثم يقول له صافي بلاش، ومحماد متحير بين أن يذهب أو يجيء، ونهض خارجا فظننته ذاهبا إلى المرحاض ولكنه عاد وفي يده باقة ورد وضعها على مائدة فارغة في ذلك الركن القصي، فتفطنت إلى أنها هي تلك المائدة التي سيجلس إليها ذلك السيد الذي سيأتي، بحسب مكالمة الوسيم، وقال الأصلع:

ـ ما عندهومش الورد هنا.

فلم يرد عليه أحد، فقال:

ـ أنا جبته من قلعة مكونة.

وضحك الوسيم ولم يضحك جليساه، ونظر الأصلع إلي مستجديا ضحكة فلم أضحك وتجاهلت نظراته، وظل يشير الى محماد الواقف عند المدخل والى باقة الورد وهو يضحك ومحماد لا يضحك.

في تلك الليلة أصاب كنزة مغص مفاجئ فأخذتها إلى دورة المياه تحت نظرات محماد وهي تمسك بذراعي، وكانت لم تأكل شيئا مع استحالة فساد الأطعمة في هذا المكان، وكانت قد نزعت رداءها الأحمر فشد فستانها الحليبي على جسدها حتى بدت تقاطيعه لنظرات الزبناء التي أحسستها تتبعنا من الخلف، وتشككت في أن يكون قد أصابها المغص، فأنا أعرف خروب بلادي، وبعد عودتنا إلى البيت أكلت تفاحة وغيرت ملابسها بثياب النوم، فغيرت ثيابي، أقبلت عليها وقلت لها:

ـ ألم يوصك والدك بأن تكفي عن هذا الهجران ؟

واعترضت بحركة من ذراعها التي فتحتها في الهواء وقالت:

ـ والدي ما كان يجب أن يعرف ما بيننا من أمور الفراش، وأنت قلت له.

ـ ولكن أنا ... منذ شهور طويلة لم أفعل ما يفعله الإنسان مع زوجه، وليست لي معاشرة أخرى خارج البيت.

وعادت تعترض وقالت:

ـ هذا شأنك، اخرج من غرفة النوم، أنا سأنام.

ولكني جلست على حافة الفراش، ورأيتها وكأنها قد هدأت من ذلك الهيجان، وطمعت في أن تغير قرارها، ولكنها قالت لي:

ـ مسكين نعيم.

فقلت لها:

ـ ماله ؟

ـ له خصية واحدة.

ـ وكيف عرفت ؟

ارتبكت وبدا عليها التلعثم ثم قالت:

ـ أختي قالت لي.

ـ وماذا يهمك الآن من خصية نعيم ؟

ـ بشرى حامل.

ـ مبروك.

ـ وأحب أن أسألك هل يقدر نعيم بخصية واحدة على أن ينجب؟

ـ اسألي أختك.

ـ وها أنت لا تحب أن ترد على سؤالي. اخرج ودعني أنام.

واستعدت لحظة الجسدين الملفوفين في إزار أبيض وقد بدأت تأكل أطرافه النار وأنا أنزوي في مكان نومي الأعزل، وبعد حين دخل المطعم رجل مشعكك الشعر، أسمر يميل في مشيته إلى شيء من العرج، وهو يتكئ على قدم اتكاء خفيفا، ولم يمنعه محماد من الدخول فقد أوسع له بالرغم من مظهره الرث وهيأته التي توحي بأنه بائع يانصيب أو سجائر مهربة، وفي وسط المطعم وقف مشعكك الشعر وقفة مسرحية وهو يفتح ذراعيه، وقال بصوت عال:

ـ الكوميسير جاء.

ـ ونظر الأصلع إلى المائدة التي في الركن القصي وإلى باقة الورد وسارع الوسيم إلى هاتفه وأخذ يقول:

ـ شف، تاكلها بالزربة أو تتقياها.

ـ . . .

ـ ما عندناش الوقت.

ـ . . .

ـ قلت لك عشرين مليون.

زكريا ما عاد يطيق أن ألاعبه وأخذ يتبرم مني بعد أن سممته كنزة وملأت صدره علي بالحقد، وبعد أن داريت ما كنت ألاقيه منه من جفاء، وقلت لنفسي الولد صغير ولن ينسى محبتي له بهذه السهولة، ولكنه ودونما سبب أخذ يأخذني من يدي حتى يصل بي إلى باب الفيلا ويطلب مني أن أخرج فلا أعود مرة أخرى، وأقول له:

ـ وأين سأذهب ؟

فيرد علي:

ـ انعس فالخلا.

وأقول له:

ـ ستأكلني الذئاب.

ويقول:

ـ تأكلك.

وحاسبت نفسي هل فعلت ما يمكن أن يغير من محبة زكريا لي فما وجدت سببا غير أن كنزة قد أوغرت صدره علي، فغرفته مليئة باللعب وأنا آخذه معي الى الجولات والنزه والمسابح وإلى إيفران وقتما يكون ثمة ثلج، وأعشيه معي في المطاعم، وما كان ذلك رغبة في تدليله وإنما كنت أستأنس به في وحدتي وفراغي، ولما جئته بلعبة غالية الثمن، وتركته يلعب بها، حتى شبع من اللعب، استدرجته للكلام وقلت له:

ـ زكريا، لماذا لم تعد تحبني ؟

فقال:

ـ لأن ماما لا تحبك.

وبدا عليه الغضب وقال لي:

ـ هاك، خذ هذه اللعبة والعب بها أنت، واخرج من الدار

فكما أخرجتني كنزة من غرفة نومي ها الولد يريدني أن أخرج من الدار، فماذا بقي لي سوى أن أبحث عن نفسي الضائعة في جهة من الجهات؟

وأنا في هذه الليلة، في مطعم الشرنقة أستحضر كل هذه الأشياء، فما كنت أظنهم من البزناسة، فرئيس حكومة آخر خرج من رئاسة الحكومة ليؤسس هو الآخر حزبا ربما سوف يحظى بالأغلبية، والأحزاب الأخرى بعضها يقاطع الانتخابات وبعضها الآخر يلعب مع وزارة الداخلية لعبة القط والفأر.

الصورة التي كنت قد علقتها على جدار عند مدخل الفيلا، حيث كنت أظهر فيها مع السي أحمد عصمان وهو يضع يده على كتفي، لم آخذها معي إلى فندق النخيل هذا الذي نحن فيه الآن، ولعل كنزة قد نزعتها عن ذلك الجدار، وهو نفس الجدار الذي وقفت عليه وهو يبنى آجرة بعد أخرى، ويلبس ويطلى بالصباغة، فلقد كان ما كان وتركت لها الفيلا، بعد أن بدأت أفترض أن زلزالا قد هدها وخرجت منه ناجيا لأقنع نفسي بقبول تلك الخسارة.

علمتني التجارة أن أفرح بالربح وأن أتوقع الخسارة محتاطا لوقوعها، كما كنت من وراء الإقامة في غرفة في الفندق أعلم نفسي الاستغناء عن مظاهر الترف التي لم تعد علي بالسعادة.

وكنت أقول لنفسي ماذا لو جننت أو أقدمت على الانتحار أو لفقوا لي تهمة قادتني إلى السجن المؤبد أو مت في حادثة سير، ألم تكن كنزة سوف تبقى في تلك الفيلا لتنعم بالعيش فيها؟

لم أكن أتمنى لنفسي شيئا من ذلك ولكني بدافع اليأس كنت أفترض بعض الافتراضات، وأقول إنه ما كان بإمكاني إخراج زكريا من البيت الذي ولد فيه، وما لي حاجة إلى البيت بدونه، سيما وقد قطعت على نفسي عهدا بألا أقع في حبائل امرأة وألا أفكر في الزواج.

وفكر معي أيها الكاتب هل كنت على خطأ أم على صواب.

ما أراه الآن هو أنهم يتناظرون ويوشوشون بعد أن أخذت المائدتان تقتربان من بعضهما، وغدا مشعكك الشعر يهدئ من ورع الوسيم ويطلب من الأصلع أن يكف عن الوقوف والجلوس اللذين لا معنى لهما وهو يضع يده على صدره متحسسا مكان إخفاء زجاجات البيرة في جيب الجاكيتة الداخلي، وتضايقت من ذلك الجو فدعوت محماد لكي أدفع الحساب، وللتو ظهر لي أن

أطلب كأسا أخيرة، فسيجفوني المنام كالعادة في غرفة الفندق، ولكن محماد انحنى علي وقال لي:

ـ اسمح لنا الله يخليك، المطعم محجوز والسيد الذي حجزه جاي دابا.

فخرجت إلى شارع محمد الخامس الذي كانت تهب فيه الرياح، ولم أهلع، أو ربما كان قد أخذني الهلع إلى حيث لا أعلم، فغابت عني صور الأشياء والمرئيات ونسيت الجهة التي علي أذهب فيها ولم أنس زكريا الذي ظل وحده معي في كل ذلك السديم.

نصف حياة في حلم

لا مرايا

لا هدايا

ليس ثمة إلا النوايا

حينما تأكدت من أنني لم أعد هلعا تراءت كنزة أمامي وهي تضحك وتحرك بأناملها المصبوغة الأظافر بطلاء فضي نظارتها السوداء ثم ترفعها لتجعلها تحط على الجبين.

ولما رأيتها تضحك لم أعرف ما هي مناسبة ذلك الضحك الذي أظهر ضرسها الداخلي وهو يلمع، فلم أتفطن إلى أنها قد اصطنعت عكرا فضيا على شفتيها إلا بعد حين، فقد أخذني غور فمها نحو لمعان الضرس وعرفت أنه معوض من البلاتين.

كان شعرها مصفوفا وأظافرها مطلية بذلك البريق الفضي وشفتاها فضيتان، وقلت لنفسي هما ليستا للتقبيل وإنما هما للنظر، وظننت أنها خارجة من حانة مطار فاس سايس، صدفة ربما، أو لتستقبل ولدنا زكريا الذي ربما كان عائدا من دراسته في كندا، ولعلها قد جاءت إلى المطار باحثة عن المجهول.

في تلك اللحظة كنت قد تحررت من كنزة وكدت أنسى ما كان بيني وبينها فظننت أني لا أعرفها إلا خارجة من حانة المطار وقد جاءت تبحث عن حظها في المجهول، وكان زكريا قد انطلق للعب في البراري يريد أن يصطاد قنفذا أو يطلق كلبه وراء أرنب، وبقيت أنا أواجه ضحكات كنزة وأنظر إلى الغور الذي يستقر فيه ضرسها البلاتيني حتى وإن لم أنظر وأحنيت نظراتي، ثم أخذت أشم روائح المواد الطبية التي يستعملها أطباء الأسنان وأسمع أصوات الثقابات والخراطات وأرى أناسا يمضمضون الماء في أفواههم ويبصقون ما يتبدى لهم خيوطا من دم، فكيف تضحك كنزة والطائرة ما تزال جاثمة فوق سطح البيت مهددة بانهياره والركاب ما يزالون أسرى رعبهم وانتظارهم للنجاة ؟ ربما ينفجر خزان الطائرة وتندلع النيران، وكنا أنا وهي ربما نقف على الأدراج أو في وسط الصالون أو نمضي في

خطوات قصيرة تحكمها أمتار قليلة داخل الفيلا التي كنا نسكنها، حيث تجثم الطائرة على السطح وقد وقعت بكل ركابها وطاقمها إن لم يكن الربان وأعضاء الطاقم قد قفزوا بمظلات احتياطية، وكنت أحب أن أصعد إلى السطح لأساعد الركاب على فتح الأبواب أو أفعل أي شيء ممكن، ولكن كنزة ظلت تضحك وزكريا قال وهو يخرج لاصطياد قنفذ أو أرنب إن رجال المطافئ وخبراء الإنقاذ ومعهم السلطات المحلية سوف يهبون لمكان الحادث، وأنه يتلهى في الخلاء ريثما يراهم قادمين، وبدت كنزة وهي تضحك كأنها لم تصدق هول الكارثة، فقد أخذت الطائرة تحوم مع اقترابها من المطار وهي تميل على جناح واحد وتبدو ساقطة لا محالة ثم ترتفع قليلا وتحوم مائلة فوق سطح دارنا لتعود ثقيلة الحركة وتسقط فوق سطح الدار، وبالطبع، فمن غير المعقول أن تسقط أو تحط طائرة فوق سطح منزل، ولكن كنزة ظلت تفيح رائحة تلك المستحضرات، وعدت أرى المشهد من جديد والطائرة تلوح في الأفق وهديرها مسموع وزكريا يشير لها بسبابته فرحا بمقدم طائرة لتحط في مدرج مطار سايس القريب من مكان سكنانا ولكنها ارتجت في الحركة ومالت واضطربت وبدت عاجلة السقوط، ثم استوت ومضت بعيدا وأنا وزكريا نلاحظها بناظرينا، وعادت تقبل مضطربة الحركة حتى رأينا وجوه الركاب وسحاتهم ولم أعد أرى أي شيء سوى أن يدي قد تشبثت بيد زكريا وقد ضمتته إلى صدري، ولكنه نفر مني وقال سيذهب إلى ذلك الخلاء لاصطياد قنفذ أو أرنب، وغابت الخرائط والمواقع والأشياء والسهل والجبل واتجاه المطار وغاب عني موقع جسدي من فرط الهلع، وما كان بإمكاني أن أبعد عني حضور كنزة وهي خارجة من حانة المطار وكنت أواجه حربا قاسية مع لحظة هذه المأساة حيث تسقط طائرة بكل ركابها فوق سطح البيت، وعدت إلى تلك اللحظة التي كنت قد ضممت فيها زكريا إلى صدري فلم أجد

سوى الفراغ ، وبعد حين وأنا على ذلك الهلع رأيت أناسا قادمين بغير ملامح وهم بعدد الحصى والحجر، فدخلوا الفيلا وصعدوا الأدراج يتزاحمون ويتسابقون حتى وصلوا إلى السطح فخلعوا الباب الخلفي للطائرة وبدءوا يخرجون الأمتعة والحقائب والصناديق ويرمون بها من السطح إلى الأرض، ولم يفتحوا للركاب بابا ولا عبأوا بتلك الإشارات المستغيثة والمتوسلة التي كان الركاب يرسلونها بحركات من وجوههم وأيديهم من وراء زجاج النوافذ، وظهرت كنزة على الطريق، تعطي الأوامر لأولائك النهابين بأن يكتفوا بما رموا به من أمتعة وحقائب وصناديق، فنزلوا الأدراج وحملوا كل تلك الأشياء بأيديهم وعلى ظهورهم، ورأيتها تعود إلى حانة المطار، تظهر أظافرها المصبوغة بذلك الطلاء الفضي، وفي غور فمها يظهر ذلك الضرس البلاتيني.

بقيت أشم تلك الرائحة.

ظلت الجدران تضغط على العين والقلب وتميل وتتهاوى وقد أخذ منها التهدم، وما كان ثمة من جدار ناهض وحتى السقف أخذ يتكئ على عمود مائل يهدد بالسقوط. وقلت لها:

ـ هل يمكنني أن أعرف في هذه اللحظة إلى أين سوف تذهبين؟

فقالت لي:

ـ ولماذا تريد أن تعرف ؟ ألسنا مطلقين؟

وبدوت لنفسي وكأني قد نسيت موضوع الطلاق أمام هول فاجعة الطائرة، فقالت:

ـ هل تظنني سوف أعود إلى بيت والدي الجزار ؟ لكني أنا أعرف إلى أين سوف تذهب أنت وهذا يكفي.

وقلت لها:

ـــ أنا عابر سبيل في مملكة هذه الخرائب الواسعة

فقالت:

ـــ أنا لم أشاهد الصحراء مرة في حياتي ولا أحب الظلام وعيناي لا تضيئان إلا في طريق صعب شديد الانحناء.

وقلت لها:

ـــ ما الذي سوف تفعلينه بما نهبته من ركاب الطائرة؟

فقالت:

ـــ دعنا من هذه الثرثرة فالشمس غربت والوقت فات.

وقلت لها:

دعينا نجلس على شظية من هذه الشظايا لنسترجع بعض الذكريات.

فقالت:

ـــ أهي شظية من جسدك أم جسدي ؟

وقلت لها:

ـــ إنني أرغب في اللحظة بالخروج من هذه الخرائب، فهل نتساند ولو لوقت قصير ريثما نخرج من الخرائب ليذهب كل منا نحو جهته؟

فقالت:

ـــ أنت تتحدث عن الصمم وهو صمم هذه الجدران التي لا تقوى على أن تسمع كلامك، بالأمس وقبل أن تقع الطائرة عل سطح هذا البيت حلمت بجسد هائل يواقعني وينشر ظله علي وما كان له من وجه وكنت عذراء فاخترقني ودخل ذلك الماء في الماء.

وقلت لها:

ـــ وهل كانت له خصية واحدة أم خصيتان؟

فقالت:

ـ أنت لا تستطيع أن تنسى.

ولا أدري هل هو صمت مقبرة في وقت الهجير أم أنها الطيور الكواسر قادمة للإجهاز على جثث ما تزال دمائها طرية ؟ فما عادت لي جهة أسير نحوها وخشيت أن أبقى هناك وسط ذلك الخراب. والحق أيها الكاتب أنني كنت أرغب في الابتعاد عن كنزة التي صار لها وجه ذئبي فحسبت أن الذئاب الأخرى قادمة لتحاصرني. لكنها لم تبتعد، وبقدر ما كنت أبتعد عنها ظلت تقترب مني وأنا لا جهة لي أسير فيها.

قلت لها:

ـ هي الريح صرصر عاتية والتوابع والنجوم تتهاوى والأبراج والقلاع والحصون تستبيحها اقتلاعات لا تبقى ولا تذر، والجذور لا عروق لها ولا نسغ في الأرض والتراب.

أخذت تضحك وقالت:

ـ وما النسغ وما العروق ؟

وقلت لها:

ـ أنا اسمع هدير الموج وأرى انهيار الماء والضوء في الشلالات.

قالت:

ـ هل أنت مراب أو بائع أرواح أو تاجر أسلحة ؟

وقلت لها:

ـ أنا بائع أوهام وأحلام وصانع عرائس من قصب أبيعها لعرائس أخرى من قصب، أحب السحب وقد كانت جدتي الحاجة زهور الله يرحمها لا تحب الذهب.

ولا أدري كيف انتهى بنا ذلك الموقف الذي حسبته حلما رأيتها فيه، وما كان بحلم، فقد قرأت في جرائد غد ذلك اليوم أن طائرة قد تحطمت فوق

منزل وأن أشياء شبيهة بما حدث كانت قد حدثت، وحتى والمنزل كان يقع في أرض غير هذه الأرض، وفي مكان غير هذا المكان، فقد أخذت أبحث بين سطور الجرائد عن اسم كنزة فلعلهم يذكرونه مع أسماء هؤلاء النهابين.

أصابني الإعياء والجهد والتحير، وكنت خارجا من مطعم الشرنقة لا أدري هل أعود إلى فندق النخيل أم أتيه في الطرقات لأطرد عني شبح كنزة أم أدخل حانة المطار التي تبقى مفتوحة إلى هذا الوقت المتأخر.

أتذكر أنني كنت قد قلت لها:

ـ وزكريا متى يعود؟

فقالت:

ـ أليس مصيبة أن يعود فيجد هذا البيت مُنْهَدًّا ؟ يكفيه ما يعانيه، فهو يعالج عند الطبيب النفساني.

ثم أضافت:

ـ بالمناسبة، فالطبيب يستدعيك لجلسات خاصة معك، حتى يعرف مرض الولد الذي ظل مغلقا ولا يرد عن الأسئلة.

و قلت لها:

ـ أهو الكابوس ؟

فقالت لي:

ـ هي خفافيش الليل.

وقلت لها:

ـ هل لكل ما حدث علاقة بالخفافيش ؟

فقالت لي:

ـ يمكن أن تطرح هذا السؤال على الطبيب النفساني.

وقلت لها:

ـ والمرائي والمرايا ؟

فقالت:

ـ كل ما يظهر فيها وعليها هو الخفافيش، ألا يكفي أنك تتهمني بسرقة متاع ركاب طائرة لم تسقط أبدا ؟

ركنت إلى جدار وجدتني وحيدا أعزل غارقا في الحلم والذكرى، ولعنت ذلك الطريق الذي قادني في تلك الليلة إلى مطعم الشرنقة، وما دريت إلا وأنا أدخل الفندق وأطلب من حارس الليل أن يوقظني في السادسة صباحا، حتى أدرك قطار السادسة ونصف، لأني سوف أتوجه نحو الرباط.

تذكر أيها الكاتب أنني في يوم سابق كنت قد أذعت لك سرا من أسرار حياتي وهو أنني كنت قد بدأت كتابة كتاب يضم الأحلام التي حلمتها، وكتبت شيئا منه ثم توقفت عن تدوين تلك الأحلام، لأني خشيت على القارئ من أن يشترك معي فيها، وقلت ليق هذا الكاتب غير منشور ويدون قارئ، لكني وجدت أن لا فائدة من ذلك، فلن يستفيد من تدوين تلك الأحلام غير أطباء النفس، وأنا لم أتفرغ لعلاج أمراض الجسد فكيف بي أزور طبيبا نفسانيا كما كانت كنزة قد اقترحت علي.

ولهذا فقد التقيت البارحة بكنزة في مكان غريب عني وعن فاس وعن المدن التي سبق لي أن زرتها. كانت به أشجار لا كالأشجار، وبنايات على غير البناء الذي نعرفه، فلا هي منازل تقليدية ولا هي عمارات ولا هي من دور الصفيح، وكان المطر يتهاطل أسود كالمداد والناس يسيرون تحته وقد اسودت ثيابهم ووجوهم وهم لا يعبأون بذلك، وكنت أحث الخطى تحت ذلك المطر الأسود راغبا في أن أحتمي بما يحميني منه، وفي مشيتي ذاك التقيت بكنزة، فوقفت أمامي وأخذت تشتمني بأنني تربيت على السرقة منذ صغري فأنا من سرق ذلك الصندوق الذي كان مليئا بذهب والجواهر والأوراق النقدية

مما تبرع به سكان الحي لبناء الملجإ الخيري، فقد اختطفته كما قالت وهربت به إلى أمي لالة خدوج لتخفيه في مكان وهي أنكرت أمام سكان الحي أنني قد جئت للدار بأي صندوق، وقالت والدي الحاج رآك وتستر عليك لأنه كان يعرف أنني كنت أحبك. واستمرت في الشتائم المقذعة فقالت إن رائحة الجلود المدبوغة وغير المدبوغة ما تزال على جسدي ولذلك كانت لا تريد أن تضاجعني، وقالت كلاما آخر عن شذوذي الجنسي وميلي إلى الغلمان وأنا معروف بذلك وفاس تعرفه بأسرها، وقالت أشياء أخرى وأنا أكاد أختنق مما أصابني من الحنق.

كل ذلك والمطر الأسود يتهاطل على رأسي وكتفي وثيابي ويلطخ وجهي، وأنا أميل إلى جهة أحتمي فيها من ذلك المطر وهي تحاصرني مهددة بالضرب بيديها فلما صفعتني لا أدري من أين جاءتني سكين فطعنتها في القلب.

تساقط المطر الأسود على جثتها فصارت سوداء. وحتى سيارة الشرطة التي جاءت توقفت تحت ذلك المطر الأسود، ورجال البوليس، فتحوا المحضر وهم يأخذون اعترافي بقتلها تحت ذلك المطر، فكان من بينهم اثنان من معارفي حاولا أن يهدئا من روعي، وقد رأياني أرتعش من الخوف وأنا أظهر لهما السكين المدماة، وقال لي أحدهم أنت آ السي عبد الحي تسكن في فندق النخيل فما الذي أتى بك إلى هذا المكان؟ ولم أعرف كيف أرد، وقال الآخر السي عبد الحميد لا يُنهض دجاجة عن بيضها وهو لم يذبح دجاجة فكيف يقتل امرأة؟ وقال ثالث لم أعرفه هذا زمن القتل والقتلة في كل مكان، وأي واحد يمكن أن يقتل، حتى أنا وأنتم. ثم اقترب مني وهو يعتذر عن وضع الكبل في يدي وقال هذا هو واجب العمل. وكانوا لايعبأون بذلك المطر الأسود الذي كان يتهاطل بغزارة وقد جعل كل شيء أسود، وجاءت سيارة الإسعاف فنزل

منها رجلان حملا التي جثتها ووضعها على النقالة ثم دفعا بها إلى داخل السيارة فانطلقت، وأركبوني سيارة الشرطة، ولما جلست على كرسي قال لي أحد الشرطيين لا تتكر أمام المحقق وأمام القاضي، وسنعيد تصوير الجريمة في نفس المكان، فعسى أن يكون هذا المطر الأسود قد توقف، وقال لي الشرطي الثاني إن السجن للرجال، فقال له زميله إذا كان السجن للرجال فلماذا لم تذهب إليه وأنت رجل؟ فضحك وقال أنا لم أقتل حتى أدخل السجن، والسجن للنساء أيضا، وسألتهم عن مدة الحبس فقال لي أحدهم كلها خمس عشرة سنة أو حتى عشرون وتخرج بالسلامة، وقال الآخر نحن أصدقاء ولن ننسى أن نزورك وأن نبعث لك بالطعام وبالسجائر، ولكن هل معك فلوس، هل معك شيك توقعه وتدفعه لنا حتى نجد ما ندفعه للمحامي وما نشتري لك به حاجياتك وأنت في السجن؟ ففك أحدهم القيد من يديَّ حتى أخرج المال من جيبي وأوقع الشيك، فأعطيتهم ما طلبوا ولكن أحدهم نظر إلى الشيك وقال لي أهذا كل ما عندك في البنك؟ إنك لن تحتاج إلى المال بعد الآن.

في قاعة المحكمة كان ذلك المطر الأسود يتهاطل فنظرت إلى السقوف ولكني لم أعرف هل كانت قاعة المحكمة عارية بغير سقوف أم أن السقوف هي التي كانت تنزل ذلك المطر. وبدا القضاة والمستشارون جالسين في مقاعدهم غير عابئين بذلك المطر الأسود. ثم سألني القاضي عن اسمي فقلت عبد الحميد الدباغ، وسألني عن عنواني فقلت فندق النخيل، واستغرب ذلك فسألني عن سبب إقامتي في فندق، وقصصت عليه قصة الفيلا غير كاملة فقد قاطعني وقال لي فمهنا جوابك. وسألني عن مهنتي فقلت تاجر، وسألني عن أي شيء أتجر به فقلت كل شيء يُتجر به ما عدا الأخلاق والسياسة فأنا لا أتجر بهما، وزم شفتيه وتبادل نظرة مع المستشارين، ثم تفرسني وسألني عن علاقتي بالقتيلة، فقلت هي جارة قديمة في حينا القديم، فاستغرب الجواب وقال

لي هل كانت زوجة لك، فقلت كانت ولم تكن، وطلب مني أن أوضح فقلت كانت تمانع في الفراش، وعلت همهمات في المحكمة، فطرق القاضي بمطرقته وقال العون: سكوت. وسألني عن أسباب الطلاق، فحضرتني تلك الجملة التي أفحمت بها القاضي يوم ذهبت إليه أطلب الطلاق، فقلت : استحالة المعاشرة. وسألني هل قتلتها فقلت هي التي قتلتني، فأعاد علي السؤال هل قتلتها؟ فقلت لا تصدقوا أنها قتيلة فبعد حين سوف ترونها واقفة هنا أمامكم، وقال لي القاضي نحن لا نمزح هنا في المحكمة فهل قتلتها، فقلت إنها لا تموت، وأخرج السكين المدماة وأطلعني عليها وقال لي هل تعرف هذه السكين فقلت هي سكين والها الحزار، ويمكنكم أن تتحققوا من أن والدها كان جزارا، وكل ما أورثها هو هذه السكين، فتبادل القاضي النظرات مع المستشارين، وقال لي هل قتلتها؟ فقلت نعم. وسألنني هل تعترف بالجريمة؟ فقلت إنها ليست جريمة، وعاد يسألني هل قتلتها؟ فقلت نعم.

نهض القاضي من كرسيه وبعه المستشارون واختلوا للمداولة، فبقيت تحت ذلك المطر الأسود الذي زاد من تهاطله، فأغرق أرضية المحكمة، وارتفع ماؤه الأسود فأغرق الحراس، وحاولت أن أسبح فيه حتى لا أختنق لكن يدي كانتا مغلولتين.

وكفانا ما سجلناه فاضغط على الزر وسيعقب هذا الكلام كلام آخر، وأقول لك مرة أخرى إن هذه التفاصيل لم توصلني إلى ما أردته من الكتاب، واعلم أيها الكاتب أنك لست مرتزقا ولا باحثا عن الشهرة على حساب هذه المهازل والمآسي، فأنت صبور وولد طيب، صبرت معي على أن أحاول عبثا، القبض عل بعض الأشياء الهامة التي قد تعنيني وتعني غيري من الناس، وعبثا ها أنا أحكي لك بعض الأشياء، على سبيل الاستئناس لكي أصل إلى المهم.

ومع إيقافك لشريط التسجيل فأنا أحب أن أختصر لك شيئا مهما عن علاقتي بلوكي، فرسي التي أتركها في ذلك الإسطبل، فهي التي تعرف جهتي، وكما كان مولاي عبد السلام يتحدث عن خولة ويقول إن ظهرها يعلو على ظهور كل نساء هذا العالم، فأنا لا أبالغ مثله ولكن لوكي هي التي تعرف كيف تسبح بي في ذلك الهواء مراوغة كل الجهات التي تعترضها، سائرة تكاد لا تلمس الأرض بقوائمها، نحو علو لا أدري مقامه من العلو، ولو كان لي الوقت الآن لذهبت إليها وأطللت عليها وأطعمتها بعض قطع السكر، وداعبت حنكيها براحتي، فهي حتى وإن كانت جاثمة فستشم رائحتي على بعد وتنهض لتسبق لحظة أطلالي عليها من فتحة الإسطبل وسأجد رأسها يطل علي ومخطمها يتحرك ونظرتها متقدة في الظلام، ولكنك سوف تذهب، ولوكي ستبيت معي في فراشي في هذه الليلة، ولا أدري على صهوتها إلى أين سوف تحملني، ولكني أعرف أنها هي جهة واحدة، تلك التي أردت أن أحدثك عنها ولم أجد إلى ذلك سبيلا أمام تداخل الجهات وابتعادها واقترابها من بعض، فتصبح على خير، وإن غدا لناظره لقريب.

الموشومات

لعل أماكن النسيان

هي أماكن الذاكرة

ولعل أعراسا أو مناحات للأماكن

سوف تقام

في ثلج وصحراء هذا المكان.

أطلت برأسها على داخل العربة وبدت كأنها سوف تسير مع الممر، ثم تراجعت وفتحت الباب.

نظرت إلي نظرة خاطفة ووضعت حقيبتها على الرف، ولما استوت جالسة قبالتي تطلعت إلى وجهها فأشاحت عني، وأخرجت منديل كلينيكس نظفت به أنفها وسوت خصلات شعرها ومالت على جانب ثم استوت شبه متكئة على الجانب الآخر، ورمت بنظرها نحو الخارج ثم عادت تنظر إلى الأرض وأخرجت من حقيبة يدها مرآة صغيرة فتطلعت إلى وجهها، وأعادت المرآة إلى مكانها في الحقيبة ثم أخرجت علبة سجائر وأشعلت سيجارة ونفثت الدخان في اتجاهي، ولما أدركت أن ذلك قد ضايقني أخذت تبدد تلك السحابة بحركة من يدها ونهضت ففتحت الباب وتركته مفتوحا.

كان القطار قد تحرك وأخذ سرعته العادية، وما في العربة أحد سوانا يمكن أن يلحظ نظراتي في اتجاهها وانشغالي بتفحص ملامح وجهها، فهي سمراء نحيلة شعرها فاحم وعيناها مليحتان، تبدو في العشرين، لباسها متحرر وها هي تدخن بحرقة وتبتلع أكبر قدر مما تستفه من السيجارة لتنفثه بعد حين وقد خبأته في صدرها، ولحظت أرنبة أنفها فرأيت أثر وشم يبدو أنه كان ثم امحى وترك أثره، وأحسست ألفة مع ذلك الوجه، كأنه وجه قديم آت إلي من مجاهل حياتي الماضية، أو كأنه جرح ذكرى ما تزال تنزف في حناياي.

بعد مضي وقت سألتها:

ــ ذاهبة إلى الدار البيضاء ؟

فردت وهي تتنهد:

ــ إلى تطوان.

فقلت:

ـ ستغيرين القطار. طريقنا إذن ليس واحدا.

وقالت كالمذهولة:

ـ لماذا ؟

ـ لأنك ذاهبة إلى تطوان وأنا ذاهب إلى الرباط.

ـ آه. الطريق. ظننتك تقصد طريقا آخر.

ـ أي طريق؟

لا أعرف. ولكننا انطلقنا معا من فاس.

أربكني كلامها، و فرحت بكونها قد أخذت تشاركني في الحديث، حتى وإن كان حديثا من قبيل الألغاز، وقلت بنت صغيرة ولكنها تبدو مجربة فهي تتصرف بثقة وتعال، وتفتح بحركاتها و كلماتها باب الكلام ثم توصده بنهاية غير متوقعة لتعود إلى ذهولها ونظراتها القلقة بين النافذة والممر وما بداخل حقيبة يدها، وكأنها تداري قلقا يوشك أن يفضح شيئا مما تعانيه، لعله هو دافع هذا السفر إلى تطوان.

عدت مع ذلك الصمت أتفحص بنظراتي أثر ذلك الوشم على أرنبة أنفها، ولما أحست بالمكان الذي تتوجه إليه تلك النظرات زاد ارتباكها وأشعلت سيجارة وأخذت تدخن بعصبية وهي تشيح عني بوجهها، ولكي تهدأ تجاهلتها وأخذت أنظر إلى مناظر الحقول وطريق السيارات والى بعض السحب المنعزلة التي كانت تتفرق في السماء متجهة نحو بعضها لكي تتكاثف ولكنها تبدو أكثر تباعدا وذهابا مع اتجاهات الريح.

وبعد حين سألتها:

ـ ما اسمك؟

قالت:

ـ ابتسام.

وسكتت ثم قالت:

ــ أعجبك الإسم ؟ ثمة أناس لا يسمون بناتهم بأسماء. يكتشفون بناتهم وربما تعجبهم الأسماء، أما الأولاد فيذبحون لهم كبش العقيقة...

في تلك اللحظة رن جهاز الهاتف المحمول وتلقيت مكالمة من صديق أخبرني بأن جلسة البرلمان قد عرفت مشادة كلامية حادة بين رئيس البرلمان وبين رئيس فريقنا المعارض في زمن التناوب هذا، وأراد أن يقدم لي مزيدا من التفاصيل ولكني أخبرته بأنني الآن في القطار، في الطريق إلى الرباط، وسأتصل بعد وصولي، لنتداول مزيدا من التفاصيل، وكنت مشغولا بما قالته ابتسام وكانت بفطنتها قد أدركت ما جاء في المكالمة فقالت لي:

ــ برلماني؟

فقلت:

ــ كنت سأكون.

وضحكت وقالت:

ــ كم خسرت من المال في الحملة ؟

أحسست أنها تتشفى، ولكني قلت:

ــ ملايين.

ــ شراء أصوات ؟

ــ مصاريف الحملة الانتخابية، ثم أن الجميع يشتري الأصوات.

وبدت ساهمة فقلت لها:

ــ أنت تفهمين في السياسة.

فردت:

ــ الحياة كلها سياسة، ولو كنت أنا وراء تسيير حملتك الانتخابية لكنت قد حصلت على المقعد.

وأوضحت لها:

ــ كان ترشيحي في انتخابات سابقة، قديمة، وربما كنت لم تولدي بعد.

ضحكتْ. ذكرتني بمليكة فأحسست جرحا ما يزال ينزف في قلبي. ولعل ما ذكرني بها هو الوشم، فعدت أنظر إلى أثر الوشم على أرنبة أنفها، فكتمت الضحكة وهي تراني أنظر إلى مكان الوشم الممحو، وقالت:

ــ ولماذا لم تسافر في السيارة ؟

فقلت:

ــ أجريت عملية جراحية من وقت قريب، ولم أطمئن على صحتي بعد.

فقالت:

ــ والمَدام ؟

ارتبكت وقلت:

ــ لا، أنا . . .

ــ مطلق ؟

ولم أرد، وكما وخزتني بجرأتها فقد أردت أن أتجرأ عليها فقلت:

ــ أهو وشم ذاك الذي يبدو أثره على أرنبة أنفك؟

انتفضت مذعورة وقالت:

ــ وشم؟ كيف عرفت؟ أهو ما يزال ظاهرا ؟

واضطربت حركاتها وبدت زائغة النظرات، فأشعلت سيجارة.

وفي ذلك الصمت تذكرت أن كنزة كانت قد وقفت عند محل في طوري مولينوس وقالت لي انظر فما فهمت شيئا، وكان الزحام يشتد على ذلك المحل، وبنات أجنبيات وشبان يتهافتون على الداخل، وقالت لي كنزة إنه

محل لاصطناع وشوم جميلة على الذراعين والفخذين وما فوق السرة، وعلى النهد.

وقالت لي:

ـ شف آ عبد الحميد أنا لم أتوحم على شيء وأنا حبلى بولدنا زكريا وحتى بعد أن ولدته فها أنا أريد وشما من هذه الوشوم.

قلت:

ـ وأي وشم تتوحمين عليه الآن؟

قالت:

ـ عندهم أشكال شجيرات وأوراق نعناع وتيوس وثعابين، تنانين وديناصورات، ورود وسنابل قمح ودبابات وخناجر وأعضاء ذكورية ووجوه ممسوخة كأنها وجوه الشياطين.

أخذت أضحك فقالت:

ـ اسمع آ عبد الحميد، انتظر قليلا حتى آخذ دوري واصطنع لي وشما.

ولما كنت جذلان في تلك اللحظة فقد سمعت كلام كنزة وتركتها تدخل المحل، واقتنصت وقت الانتظار لاحتساء كأسين من البيرة في محل مقابل، حتى عادت كنزة وهي تقول:

ـ البنت صانعة الوشم قد تلطفت معي وكان وضع ذلك الوشم لا يوجع.

لم أبال بكلامها فقالت:

ـ الناس يتعرون دون أن يواجهوا نظرات الفضول، ولا أحد ينظر إلى الآخر.

رأتني غير مبال بما تقول واستمرت في كلامها كأنها تحدث نفسها:

ــ وشمت مكانا من جسدها سوف يفاجئك.

قلت لنفسي سوف يفاجئني إن هي تعرت وكشفت عنه، فقد كانت كنزة تحب أن تتعرى لنفسها أمام المرآة، بينما تتستر أمامي وأنا زوجها في الحلال، ولم ألتفت إلى كلام كنزة وما همني المكان الذي وضعت عليه الوشم، ما دام ليس لي، ومادامت هذه الوشوم الاصطناعية لا تغريني.

عجبت كيف تخجل البنت ابتسام من وشمها، ولماذا سعت إلى محوه، بينما يتغزل رجال كثيرون في الموشومات، ويذهبون إلى طريق الحرائق والمتعة، حيث تكون ثمة موشومات.

نظرت إلي كأنها تريد أن تقول شيئا ولما رأتني ساهما فقد كفت عن الكلام.

استعدت شهوة الحياة والضحك والكلام في سفر آخر إلى إسبانيا مع مليكة، وحيث لا أدري كيف صبوت تلك الصبوة لمزيد من حب الحياة وقد تفتقت الرغاب في دمي.

مليكة هي ابنة يزة، السيدة البربرية التي تقطن في عين اللوح. ومليكة هي التي دعتني إلى ذلك السفر. ففي يوم من آخر أيام السنة الدراسية جئت لأراها بباب ليسي طارق في أزرو فصعدت السيارة وقبلتني ثم سألتني وهي مبتهجة:

ــ لديك جواز السفر؟

فأجبت بالإيجاب وسألتها:

ــ ولماذا هذا السؤال؟

قالت:

ــ أنا وأنت يا حبيبي سنسافر إلى إسبانيا خلال عطلة الصيف.

قلت وكأني سأطير من الفرح:

ــ نسافر بعد زواجنا ؟

ظلت صامتة وهي تقطب ما بين حاجبيها، وبعد حين قالت:

ــ الحب هو كل شيء يا حبيبي، وما عداه يأتي فيما بعد، أو لا يأتي، وإذا لم يأت فلا ينبغي للإنسان أن يحسب أنه قد خسر شيئا، فقد ربح الحب.

فهمت أنها ما تزال تحيرني بإعلانها للحب ورفضها للزواج، وهو ما لم أفهمه ولم أقبله. عانقتني وقبلت وجهي، فسألتها:

ــ وكيف سنسافر إلى إسبانيا من غير زواج؟

ضحكت وقالت:

ــ أنا سأسافر مع عمي عبد الحميد.

قلت لها:

ــ لم أفهم.

قالت:

ــ حصلت على جواز السفر، وأقنعت أمي بأنني سوف أسافر معك لأسبوعين، وهي وافقت، وحتى المال الذي سأحتاجه للسفر أوجدته وهو داخل الجواز.

ولما كانت أمها كأخت لي فقد أحسست أنني أخون الأمانة، فلا يمكن لسفر كهذا أن يحدث إلا مع زواجنا.

بعد أن عدت إلى فاس ظلت تكلمني بالهاتف وتقنعني، وتلح علي في ألا أتحدث عن حبنا للسي عبد الهادي، بينما تقول إن أختها سعيدة تعرف كل شيء.

كانت مليكة لم تبلغ العشرين، شبيهة بابتسام، هاته التي تجلس قبالتي الآن في عربة القطار، حبة لوز مقشرة ومقلية، شيطانة من نار لذة لا يمكن

أن يكتوي من لهبها سوى من يعرف أين تكمن تلك الخبايا، وكان ذلك اللمى على شفتيها يستدرجني إلى جنوني فكنت أمنحها مزيدا من فيض عروقي، ربما في الخيالات والأحلام أو ربما في اختلاس جميل كان بعبر بعض أوقاتي.

وشم على أرنبة الأنف.
ألق العينين والاحمرار الخفيف على الخدين
وبعث حركات جسدها لما كنت فيه من رقاد وخمول
الدهشة أمام اكتشاف امرأة أولى
كأنها بادئة للحظة الوجود الأول
السفر والاقتراب من الماء والشجر
الضحكات والربيع في كل الفصول
انتعاش الروح
والفرح الطفولي.

وما كنت أتغزل بها فما كان لي لسان ينطق بذلك الغزل، بل كنت مولها بامتلاكي للعالم كله بين يدي.

كانت تمسكني من ذراعي وتصغي إلى بعض حكاياتي الضائعة ونحن نسير في المدن.

وكانت تنام في غرفة الفندق لوحدها بينما هي كانت تنام معي في فراش فوق الماء أو هو فراش من أغصان الشجر أو من ندف الثلج وقد ترسبت وتكاثفت فصارت الأرض بيضاء كما صار كل شيء أبيض فخشيت أن تضيع كنزة مني في ذلك البياض.

كنت أطعمها من يدي وكانت تطعمني وهي تضحك. تتذكر زملاءها في ثانوية طارق بأزرو وتحكي حكايات عن الحب والدراسة والمدرسين. ولما تراني شاردا أو وقد نظر في نظراتي ما يفضح تعكر صفوي فهي تتركني وحدي مستأذنة في أن تأخذ مكالمة للبيت حتى تطمئن على والدتها وتخبرها بمتع السفر والأشياء الجميلة التي شاهدتها.

كانت تشتري من مالها بعض الهدايا لأختها سعيدة، وأحيانا تقترح علي أن أختار مكان لعشاء هي التي سوف تدفع ثمنه فأقدر فيها المبادرة وأختار المكان ثم لا أتركها تدفع. ومن كان يرانا في المدن والفنادق والمقاهي يحسبها ابنتي، وكان مجرد أن أقرأ ذلك في عيون العابرين يغيظني ويعيدني إلى فارق السن بيننا.

وفي إشبيلية كانوا يقترحون علينا غرفة واحد للمبيت فكنت أشعر بالحرج وألح على غرفتين، وأرى في نظراتها ما يحفزني على قبول عرض موظف الاستقبال. وفي غرناطة كنا لا نجد في الفنادق غير غرفة واحدة من سريرين، فأصرف عنها نظري ونخرج باحثين عن فندق يتوفر على غرفتين، ولما لا نجد تقول لي:

ــ ولماذا لا نبيت أنا وإياك في غرفة واحدة؟

أصمت وأسمعها تبتسم بمكر وتقول:

ــ لن أخبر أمي.

ولما تراني لا أرد تقول:

ــ لا أحب النوم في غرف الفنادق وحدي، فقد تعودت على أن أنام مع أختي سعيدة في غرفة واحدة.

وما كنت أدري أهي براءة أم دهاء أم شهوة في عروق أنثوية تحرق الجسد، ولكن كل ذلك كان يصنع وقتا لجنوني وقد بدأت أحسب أن حياتي

تبدأ و لا تنتهي في وقت كانت فيه كنزة قد هجرت البيت وانتهينا إلى الطلاق، وبعد أن كنت قد ملّكْتها العقارات التي كانت في ملكي بخدعة من والدها الجزار، فلما ملكتها بدأت تشتمني وتجعل ولدي زكريا يظهر لي الكراهية، فكان الطلاق وغادرت الفيلا لأقيم في غرفة في الفندق.

محنة الكاتب

رياح الأماكن
والجهات عاصفة
والبرد شديد في هذا الليل
الشديد الدخول بين البياض والسواد.

لعلك أيها الكاتب تدري أن موضوع حديثنا لا زال يجري في القطار، وأنا أسافر من فاس إلى الرباط، وقبالتي تجلس الشابة التي قالت اسمها ابتسام.

ولكن هل تسمح لي بحديث بيني وبينك لا تضمنه في هذا التسجيل ولا تضمه إلى الكتاب؟

لا أريد أن أسألك عن جهتك أو جهاتك، آ السي يوسف الطاهري؟ لكني أسألك عن الحب.

رفع رأسه نحوي فبدت لي عيناه ضيقتان ولحيته المدببة تجعل من وجهه رسما من الرسوم أكثر مما تجعل منه كائنا حيا يمثل أمامي. وشرب من كأسه وقال:

ـ الحب؟ وما ذا تريد أن أقول لك عن الحب؟

قلـــت:

ـ قل ما تراه.

قال:

ـ الحب قصص وحكايات. هل نبدأها من كيوبيد أو قيس بن الملوح، أم من شهداء الحب المنسيين؟

ـ ها أنت تصل إلى تاريخ جهة من الجهات.

ـ لكن الحب فكرة خلقها الإنسان ليتعذب عذابا أليما.

ـ تعني الشوق للحبيب، ولوعة الفراق، والهجران، و . . .

ـ بل أعني ما يحول الحب إن وجد إلى كراهية، وعداء وحقد.

ـ هل يحدث ذلك بسبب الإخفاق في الحفاظ على الحب؟

ـ يحدث لهذا السبب ولغيره، فالعادة نفسها تقتل الحب، والنرجسية، وحسد الحاسدين، فالحب نفسه ليس فكرة نقية وخالصة إلا في الأساطير، وأما في حياة الناس فهو لحظة عابرة تخلف وراءها كثيرا من الأسى والندم.

ـ وهل هذا هو حالك أنت ؟

ـ هذا هو حال كل العاشقين.

ـ متزوج؟

ـ وفاشل في الزواج.

ـ زوجتك تعمل؟

ـ مدرسة مثلي. كنا طلبة في شعبة الفلسفة، وكانت مناضلة مع القاعدين اضطهدها البوليس فجاءت لتختبئ في بيتي لأيام، وخلال تلك الأيام ظهرت بيننا حالة الحب.

ـ تسميها حالة، وكأنها حالة مَرَضية.

ـ هي كذلك، وكل العاشقين يعتبرون أنفسهم مرضى بالحب، ولا علاج لهم إلا به.

ـ وتوظفتما وتزوجتما؟

ـ كذلك كان. نوال. اسمها نوال. رجولية عكرة المزاج أبدا، تُسَفِّهُ أفكاري وكأني تلميذ من تلاميذها، وتنظر إلى قصصي ورواياتي على أنها تفاهات.

ـ أهذا ما أوصلك إليه الحب؟

ـ بل أكثر من هذا، فهو تحبط مشروعي في الكتابة، تقول إن النقاد لم يعيروا أعمالي انتباها، وأنني كاتب في الحضيض.

ـ وماذا نشرت من أعمال؟

ـ روايتان هما: رياحنا الأربع، وصخب المدينة، وقصص قصيرة في الجرائد والمجلات.

ـ ولم تفرح بك كاتبا؟

ـ بل صارت تغار من كتاباتي، وتعتدي على بعض مسوداتي فأجدها أحيانا في القمامة، وأحيانا لا أجدها فأراها تتلذذ بعذابي.

ـ وضاع الحب؟

ـ الحب لا يكون بين رجل وبين امرأة فاقدة للأنوثة في نظرتها وحركاتها والتفاتاتها الجميلة، وكلماتها الرقيقة. فعندما تكون المرأة مُيَئِّسَةً وسوداوية المزاج فالرجل لا يعرف من أين يأتيها بالأمل فيصبح يائسا سوداوي المزاج.

ـ ومع ذلك فقد أحببتها.

ـ توهمت ذلك. أو قل إنني أحببت فيها روح النضال.

ـ وهل تفكر في الانفصال؟

ـ الطلاق يستوجب علي مالا كثيرا لأداء المتعة والنفقة. هل استمتعت؟ وبماذا؟ وحتى وإن كنت قد استمتعت فهل علي أن أدفع ثمن المتعة؟

ـ وإن فارقتها فهل ستذهب إلى امرأة أخرى؟

ـ أنا مثلك لا أجد المرأة إلا في الأحلام والأغاني وحكايات تاريخ منسي أو غير متداول.

ـ في تلك الجهة؟

ـ في تلك الجهة التي أجد نفسي فيها ورقة بيضاء عليها يمكن أن يتجلى عالم الكتابة.

وسكت ثم قال:

ـ ولكن آ السي عبد الحميد الله يخليك لا تعد إلى مناداتي بالكاتب، فأنا يوسف، يوسف الطاهري، والكتابة ليست حرفة أو مهنة وإنما هي محنة أخرى من هذه المحن.

ثم عاد إلى صمته لحظة وقال:

ـ نوال تراقب علاقتنا أنا وإياك، وقد اضطررت لإخبارها بما نفعل.

ـ وماذا قالت ؟

ـ قالت إنني اليوم كاتب عمومي، وغدا كاتب في مجلات البيترودولار، لأنني تافه، وحقير، ولاشيء.

ملأت له كأسا شربها دفعة واحدة، ونهض وهو يقول:

ـ سأذهب. تحضير سباغيتي ينتظرني، عقابي اليومي.

قلت وهو يهم بالذهاب:

ـ لا تنس، فقد كنت في عربة القطار، وابتسام تجلس قبالتي.

قال:

ـ سأذكرك إن نسيت.

عود على بدء

الأماكن جبال

والجبال مراس

والمراسي أوقات للكلام

كان صديقي السي عبد الهادي قد عرفني على يزة. قال لي تعال نسافر ليومين أو ثلاثة لنرتاح وتنسى مشاكلك وتسترد قدرتك على الاستمرار في العيش، وضحك وقال:

ـــ سافر تجد عوضا عمن تفارقه.

أكملت البيت الشعري وأنا أضحك:

ـــ وانصب فإن لذيذ العيش في النصب.

ابتهجت يزة وهي تستقبلنا في بيتها، وقدمت لنا طعاما احتفاليا ودخل صاحبي معها في أحاديث استرجعا من خلالها بعض الذكريات وترحما على المرحوم زوجها وأنا صامت أصغي إلى حديثهما الحميم.

بدت لي يزة امرأة رصينة على مرحها وضحكاتها وأخذت أسترق إليها النظر على حياء وأنا أرقب على أرنبة أنفها نافرا وكأنه سوف ينطق.

كانت بالجلسة بنتاها الصغيرتان مليكة وسعيدة، التوءمان، وظلتا تلهوان بما قدمه لهما السي عبد الهادي من هدايا.

كان يريد أن يخرج من حقيبته تلك القارورة الذهبية، ويزة فهمت الحركة التي كان يريد أن يقوم بها فطلبت منه ألا يتسرع في ذلك، وقال لها الله يخليك آ لالة يزة صاحبي السي عبد الحميد راه زعفان كره الدنيا وهو ما جاء ليأكل وأنت صاحبة الخير الله يخلف عليك ولكنه جاء ليضحك ويسمع الغناء وينسى الهم، فصرفت البنتين واستوت في جلستها، فأخرج القارورة وصب لنا كأسين.

بعد صمت جاء صوتها ليشق الحجر، متراميا يخترق الجبال الصماء وهي تردد صداه، ومن فرط ما أخذنا صوتها لم تمتد يدانا إلى الكأسين، وكنت مأخوذا بسحر صوتها وجبروته واختراقه للمكان آخذا معه ما اضطرب في خاطري من أفكار غامضة ما كنت أدري جهة لها، كما لم أدر

أيها الكاتب في أية جهة أنا والصوت المغني يأخذني ناسيا أنني في (عين اللوح) وذاهبا في تلك الجهة، ولعلها الجهة السابعة التي هي جُمَاع كل الجهات.

كنت مفتونا بين الأسى والفرح، مشدودا إلى عالم كان يتبدى أمامي وأنا واقع تحت سحر الغناء.

وبالرغم من أنني لم أكن أفهم ما تقول وهي تغني بالأمازيغية فقد استبد بي الجيشان فخشيت أن تتفجر الدموع من عيني وأنا أحسبها تتدفع نحو المآقي، وما كنت في حاجة لأن أفهم لغة الكلام، فهي، فقد فهمت ما هو أبلغ من الكلام من صوتها الذي كأصوات البدء كان، متحررا من أي تصنع، وهي تذهب به نحو أبعاد لا أبعاد لها.

وما دريت، فلعلي كنت مسحورا أهيم في عوالم غامضة هي التي صورها لي ذلك الغناء.

عوالم من ريح أو غمام أو أقصى درجات تحرر الروح، فلعلي قد نسيت جسدي الذي صار يخف ويتصاعد مع تصاعد آخر ما تبقى في الروح. ما عدت أرى يزة فقد كانت مغممة بذلك الغمام، وهي نفسها تحولت إلى روح هائمة شفافة تحلق فوق جبال الأطلس ومنها إلى جبال الريف بعد أن تتساكن مع الريح والشجر والسحاب.

جش صوتها وتحول إلى دمع سماوي فخشيت أن يكون هو الفراق أو الوداع، وأنا وإن كنت لا لقاء لي مع امرأة حتى يكون الفراق أو الوداع فقد حسبته هو الموت لا يبقي من النحيب إلا ما يحوله إلى صرخة التياع.

حسبتها هي وصوتها قادمان من الأساطير، نابعين ومن تراث الأمازيغ، من الغناء الذي يجري مع الأنهار كما يجري في الدم أو يسير في اتجاه الأثير أو يعود من سفره البعيد ليمزق نياط القلب.

بعد أن انتهت من الغناء طلب منها السي عبد الهادي أن تشرح لنا بالعربية كلمات الأغنية، فاعترضتُ على ذلك وقلت إن ذلك الغناء كان فوق اللغة وفوق الكلام.

شربنا أنا والسي عبد الهادي من تلك القارورة الذهبية وشربت يزة شايا بالنعناع بعد أن جاءتها إحدى ابنتيها التوأمين بالصينية ووضعتها أمام السي عبد الهادي، الذي كان قد أخفى القارورة قبل دخول البنت، فصب من البراد في كأس وقدمه ليزة.

بدأت تتطلع إلي بنظراتها، ثم قالت وهي توجه لي الكلام:

ـ السي عبد الهادي سيكون قد أخبرك بأنه أخ وصديق، كان شريكا في التجارة لزوجي المرحوم، وهو يعرف أن بيتنا بيت شرف.

وقال السي عبد الهادي:

ـ الله يرحمه، كان رجلا ونعم الرجال.

وقالت يزة:

ـ أنا لا أستقبل الغرباء في بيتي. لدي بنتان وعلي أن أصون عرضهما بصون عرضي، ولكن مرحبا بالسي عبد الهادي وبمن أتى معه إلى داري.

ووجهنا كلمات شكر فعادت ترحب بنا، ثم قالت:

ـ في عين اللوح كثير من البيوت التي تستقبل الغرباء، وهذا أمر يسيء إلى سمعة بلدتنا، ويجعل بعض الناس يحسبون أن كل البيوت سواء.

ولأول مرة انتبهت إلى صورة رجل في الخمسين معلقة على الحائط، فلما رأتني أنظر إليها قالت:

ـ زوجي المرحوم وهو قبره يرى كل ما يحدث في الدار، وأنا لا أجعل شيئا يحدث قد لا يرضيه.

فقلت وأنا أشير إلى القارورة:

ــ معذرة.

قالت:

ــ كان يشرب مع السي عبد الهادي هنا في نفس هذا المكان، الله يرحمه ويغفر له.

فقلت:

ــ تقصدين الغناء؟

قالت:

ــ المرحوم كان لا يمنعني من الغناء أمام الرجال، بل هو الذي كان يطلب مني أن أغني أمام أصدقائه الذين يحترمهم.

قضينا ثلاث ليال في بيت يزة لم نخرج خلالها فتألفت معها ومع البنتين، وعرفت عني كل شيء وعن محنتي في الزواج من كنزة. وإذا شئت أيها الكاتب أن تعرف ما حكيت لها فهو ما كنت قد حكيته أمام جهاز التسجيل، وحتى حكاية الصندوق الذي أنكر والدها الجزار أنه قد تسلمه أمانة من سكان الحي، وحكاية الإزار الأبيض الذي التف فيه جسدان لرجل وامرأة واشتعلت فيه النار، وخصية نعيم الواحدة، وترشيحي للبرلمان، وحكاية كل جهة من الجهات، حكيتها ليزة وأنا غافل عن إنصات ابنتيها مليكة وسعيدة ربما من وراء الباب.

لم ننم إلا نوما قليلا، ورغم الوسن في العيون فقد كنا نشطين نفرغ ما في قلوبنا من الهموم ونضحك من القلب ونستمع إلى الغناء.

ولما جاء وقت ذهابنا رفضت يزة أن تأخذ مبلغا وضعته في يدها، ووقف صاحبي مشدوها وقال لي أنت آ عبد الحميد أفسدت كل شيء، فهل تظن أن المحبة تُشترى بمال؟ يزة أختنا وعزيزتنا، وإذا أردت أن تصون

كرامتها فخذ مالك واعتذر عما فعلت، وقدمْ لها هدية في مناسبة قادمة إذا شئت، فبادرتُ إلى دعوتها هي والبنتين لزيارة فاس، ووعدت بأن تنفذ تلك الزيارة في القريب، فتركت لها رقم الهاتف، ولم يمض شهر حتى اتصلت وقالت أنا ومليكة وسعيدة في فاس، وقالت صاحبك عارف، واتصلتُ به فأخذناهن إلى فندق زالغ بعد أن كن قد أقمن في نزل صغير بالملاح، يرتاده الغرباء عن فاس عادة، وهو رخيص الثمن قريب من وسط المدينة ولكنه لا يليق بأسرة لها عزها في قلب جبال الأطلس الشماء، ولذلك رأيت أن فندق زالغ يتوفر على غرف نظيفة ومطعم لا بأس بأكله فأقمن فيه.

ونظمنا لهن زيارات لمولاي إدريس باني فاس والقرويين والقيسارية وإلى الضواحي حيث زرنا سيدي حرازم ومولاي يعقوب، واشترينا لهن من صواني المفضض والبابور الذي يغلى فيه ماء الشاي، ومن الجلاليب والقفاطين والشرابيل المطرزة، ومن الشماعين اشترينا لهن اللوز والجوز المقشر وحلوى زريعة الكتان، وتناولنا معهن العشاءات في مطعم الفندق، فما كان لي بيت أستضيفهن فيه، والسي عبد الهادي كان لا يريد أن يفتح باب الشك والغيرة عند امرأته حتى ويزة كأخت له كما صارت كأخت لي. وكان يبدو متعجلا من أمره، فتضحك يزة وتقول له:

ـــ عارفاك. خايف من مولات الدار.

فيبتسم ويقول:

ـــ آ لالة يزة كنت أحب أن أدعوكم لداري، ولكن. . .

فتكمل:

ـــ مولات الدار. هي لا تعرف أنك كنت صديقا لزوجي المرحوم، والنساء من معدنهن الشك والغيرة، وكأن العلاقة بين الرجال والنساء لا يمكن أن تكون إلا على ما هو معروف.

ويقول:

ـ أنا وصديقي السي عبد الحميد لسنا كأغلب الرجال نتهافت على النساء، فأنا متزوج وقانع بما أعطاني الله في الحلال، وهو مطلق منذ مدة ولا امرأة في حياته.

تضحك وتقول:

ـ يتزوج ليكون له الحلال.

تغيم عيناي وأقول مستنكرا:

ـ أنا؟ أنا آ لالة يزة؟ بعد كل ما رأيت مع كنزة؟

تقول:

ـ ذاك نصيب آ السي عبد الحميد ويمكن أن يجعل لك الله نصيبا أحسن.

ويضحك السي عبد الهادي ويقول:

ـ نزوجه من عين اللوح، ليجري الدم الفاسي الأندلسي في الدم البربري، كما كان يجري عبر التاريخ.

بعد شهر من زيارتهم لفاس ضاقت بي الأحوال ووجدت نفسي أسوق السيارة على غير هدى حتى أوقفت نظري لوحة لإشارات الطريق كتب عليها:

عين اللوح

فأخذت ذلك الطريق حتى وصلت إلى دار يزة وقد عرفت الدار. كان السي عبد الهادي مشغولا ببيع وشراء في الدار البيضاء، وكان يلح علي في أن أذهب ليوم أو يومين لأرتاح في عين اللوح وألا أشعر بالحرج من شيء، فيزة أختنا وعزيزتنا وقلبها كبير، وعليك أن تنوب عني في كل شيء، في

أخذ الهدايا وفي الفرح والسهر وسماع الغناء، وفي تناول ما لذ وطاب من أطعمة سوف تتفانى يزة بنفسها في إعدادها، وبُحْ لها كما تبوح لي كما تبوح لي علك ترتاح وتغير مزاجك السوداوي. وهكذا جاء ذهابي صدفة فلم أحمل معي هدايا للبنتين وليزة، وحتى تلك القارورة الذهبية لم أحملها معي، وتجرأت لأول مرة على طرق الباب، فاستقبلتني بالترحاب، وفرحت البنتان بزيارتي، فقضيت تلك الليلة وغنت فحملتني بين السماء والأرض وأخذتني إلى تلك العوالم البعيدة بغنائها، وكان طعام العشاء لذيذا مشهيا تناولته بنهم بعد أن عفت طعام المطاعم.

مضت السنون وبقيت أكرر الزيارة لبيت يزة وحدي أو مع السي عبد الهادي، ومليكة وسعيدة تكبران تحت نظري، فصارتا تلميذتين في ليسي طارق بأزرو تقيمان في الداخلي فكنت أزورهما وأحمل لهما بعض الهدايا، ولما كانت توأمين فما كنت أستطيع أن أميز بين مليكة وسعيدة إلا وأنا أطلب من التي تحضر أمامي منهما أن أن تذكر اسمها، وكان ذلك مضحكا ومسليا.

ومرة زرت البنتين في داخلي الثانوية فخرجت معي إحداهن للتجول في طرقات أزرو بعد قنوط أصاب البنت بسبب بقائها في الداخلي لأيام، وكنت أسير معها وأنا أفكر هل هي سعيدة أم مليكة، لكني حدست أنها مليكة. فقلت لها:

ــ أنت مليكة.

فضحكت وقالت:

ــ وكيف عرفت؟

بدا لي أنني متأكد ولكني لم أعرف كيف عرفت، فنظرت إلي وهي تبتسم وقال:

ـــ أنا سعيدة.

فقلت لها:

ـــ أنت مليكة.

فقالت:

ـــ وأنت من تريد أن تكون معك الآن، مليكة أم سعيدة؟

فقلت:

ـــ لا أختار، فأنتما أختان، ولكن أنت مليكة.

ركبنا السيارة وجلست بجواري وسرنا في الطرقات بين الجبال والأشجار، وكانت تحدثنا عن الأساتذة والدروس والزملاء والزميلات من التلاميذ، فسألتها:

ـــ هل لديك صديق من التلاميذ؟

نظرت إلي نظرة فأحسست أنها قد فهمت قصدي من السؤال، وقالت:

ـــ هم أصدقاء ولا أحد منهم أخصه بشيء خاص.

قلت:

ـــ وما هو هذا الشيء؟

قالت:

ـــ الحب.

ونظرت إلي فاختلجت نظراتي وتحاشيت أن أنظر إليها، وبقيت أسوق السيارة وأنا شارد. فقالت:

ـــ عمي عبد الحميد إلى أين سنذهب؟

صدر عني صوت غاضب لم أتقصده وقلت:

ـــ لا تناديني عمي.

قالت:

ـ وماذا أناديك؟

ارتبكت وقلت:

ـ عبد الحميد.

أمسكت بذراعي وابتسمت وقالت:

ـ حبيبي. أناديك حبيبي.

لم تعد يداي تسيطران على مقود السيارة فأوقفتها إلى جانب الطريق ووضعت رأسي بين كفي. كنت حائرا هل أحسبها كابنتي أم أستسلم لتلك الأنوار التي كانت تشيعها في نفسي، أنوار محبة أكبر مما يكون بين رجل وامرأة، فقد حسبتها ملاكا سماويا يركب السيارة بجواري.

قالت:

ـ حبيبي مالك ؟ حزين؟

أمسكت براحة يدها، وسقت السيارة فقالت:

ـ إلى أين سوف نذهب؟

قلت:

ـ إلى آخر الطريق.

أمسكت بذراعي وقالت:

ـ الطريق لا آخر له.

فقلت:

ـ سنذهب إلى آخر الطريق وأوله، إلى بيت والدتك.

ذهلت وقالت:

ـ ولماذا؟

قلت:

ـــ سأخطبك منها.

وبدت مذعورة فلما رأت ما في عيني من كدر قالت:

ـــ هل ترغب في أن تتزوجني؟ الزواج يفسد الحب يا حبيبي.

قلت:

ـــ لكنه تملك لمن نحب، نراه معنا في كل وقت.

قالت:

ـــ ولذلك نمله ولا نشتاق إليه.

وجدت هذه الأفكار أكبر من سنها، فهي صبية لم تفارقها مسحة البراءة ولكنها تتكلم كامرأة مجربة. نظرت إلى الوشم الذي على أرنبة أنفها ورغبت في أن أقبل مكانه، لكني كنت في حيرة من أمري وأمر مليكة، فهي تحبني ولكن يبدو أنها غير راغبة في الزواج، وأنا أريدها امرأة لي أرى بعينيها العالم، فهل هي لحظة مراهِقة عابرة أم أن العالم كله يأتي بين يدي؟

قالت:

ـــ أرجعني إلى المدرسة الآن، وتعاليا أنت والسي عبد الهادي في يومي السبت والأحد القادمين.

قلت متحمسا:

ـــ وسأخطبك من لالة يزة.

بدت صامتة ولما وصلنا إلى باب الثانوية نزلت ونظرت إلي وقالت:

ـــ أجل موضوع الخطوبة، ولا تقل شيئا للسي عبد الهادي.

ومضت فبقيت جامدا في مكاني ذاهلا حتى سقت السيارة وذهبت إلى بحيرة (ضاية عوا) فرأيت الماء والبط والأسماك التي تتقافز على سطح الماء، وشممت رائحة الأرض المبتلة بالمطر، وكانت ثمة سحب ذاهبة في

السماء، فسألت عن الجهة التي أنا فيها، وعن الجهة التي يذهب إليها ذلك السحاب.

كنت أتأمل هذه الدروب الوعرة التي أخذتني إلى مليكة، وحيث أصبح يبدو لي أن الحب قادر على أن يجعل من كل الأعداء أحباء بما يمنحه من تسامح، ومن الشر الذي يسكن بعض النفوس ما يمكن أن يُحتوى به ليصبح خيرا، فالحب هو الجهة التي يمكن أن توجد بين الجهات، فهو جهة للمرأة كما هو جهة للرجل، ولكنها جهة للكراهية أيضا، وللأحقاد والعداوات، ورغم ذلك التسامح فطريق الحب لا يؤدي إلا إلى أصعب الطرق وأكثرها وعورة فهي دوما محفوفة بالخطر، خطر أن يتحول الحب إلى كراهية، والتسامح إلى تصلب وصراع أنانيات.

أهذا ما كانت تخاف منه مليكة فطلبت مني تأجيل خطبتي لها من لالة يزة؟

وجدتها تحضر في أحلامي وهي تلم شظايا جسدي الذي كان قد تبعثر بين الريح والرمضاء. فهل جاءت مليكة من قمم الأطلس الشماء لتمنحني بكارة أعيد بها بكاء اكتشاف الأشياء؟

ففي كل أحلامي بمليكة كنت أخرج من الزمان والمكان وأحيا معها في رحاب لا حدود لها، وأنا لا أصدق أن الموت يمكن أن يفرقنا.

وقد كنت أذهب في ذلك الأخذ كما لو كنت أمسك بحواف الأسوار الجارحة وأنا أتردد في الاقتراب منها، فما كنت أحتاج إلى من يقول لي خذها إليك وتذكر أنك تتوجع في الوحدة وها هي الآن قريبة منك.

لا امرأة تضاهيها في نضارتها وابتهاجها وبما يحتمل أن توقظه من نار في العروق.

كنت ألقي بنظراتي في ماء البحيرة وأنا أرى الحرائق تشتعل في دمي، فأقول لنفسي لا تخف يا عبد الحميد، وكن خفيفا كالظل.

كل ذلك كان مجرد حلم حلمت به وأنا أرغب في مليكة وأنتظر أن تقبل الزواج مني فأخطبها من أمها، لكنها ظلت تؤجل الموضوع، وتفقد مرحها كلما عدت إليه، فتتقبض نفسها ويأخذها الشرود.

سافرنا كثيرا وكنت أزورهم في البيت، ومرة زرناهم أنا والسي عبد الهادي وكانت البنتان في أزرو للدراسة، فسألت يزة عنهما، وردت بأنها تعرف أنني أسأل عن مليكة، فحدست أنها قد عرفت علاقتنا. لكن مليكة كانت تلح على ألا أفاتح أمها أو السي عبد الهادي في علاقتنا، وتهدد إن فعلت بألا أراها بعد ذلك اليوم.

وها هو الوشم على أرنبة الأنف، وشم لا يمكن أن يمحي، أراه أمامي في الفراغ فأعلل النفس بلقاء قريب.

كانت مليكة هي التي اتصلت بي بالهاتف، وأخبرتني بأن يزة مريضة مرضا شديدا وأنها تريد أن تودع الأهل والأحباب، وأجهشت بالبكاء، وتوسلت إلي آتي لزيارتها أنا والسي عبد الهادي بأسرع وقت ممكن.

تذوقت من مكالمة الهاتف ملوحة ذلك الدمع ن كما أصغيت إلى تلك الشهقات، وعدت أشم رائحة الأنوثة، وأصابني دوار خفيف، وما هي إلا ساعات حتى وصلنا أنا وصاحبي إلى عين اللوح.

كانت يزة مسجاة في الفراش الوثير، لا تقوى على أن ترفع نظرها إلينا لترانا، فانحنى عليها السي عبد الهادي وأمسك بيدها وأجهش بالبكاء، وعانقتني مليكة فامتزجت دموعها بدموعي وأرخت رأسها على كتفي وظلت تشهق، وزاد التصاقها بي وهي تبدو كأنها تحتمي بي من سقوط محتمل، وكان السي عبد الهادي قد جثا بركبتيه على الأرض فصار قريبا يزة التي

كان صدرها يعلو ويرتفع، فقالت لي مليكة هامسة في أذني خذه معك إلى الغرفة المجاورة فهو مريض بالسكر، وأخذناه من ذراعيه فتناهض ومليكة تساعده على أن يخطو، ولكنه ما أن استقر جالسا على فراش تلك الغرفة المجاورة حتى أخذ أصابته نوبة بكاء.

فجأة نهض وسار نحو فراش يزة، فوقف لوقت طويل ينظر إليها وعيناها غائبتان وصدرها يصعد ويهبط، ثم بدا وكأن صحوة عقل قد أدركته، فقال لنا والطبيب، لماذا لا نأخذها إلى مصحة في فاس أو الرباط أو حتى في فرنسا ؟ مالها العزيزة؟ وفي تلك اللحظة بدت يزة كأنها تسمع كلامه، فرفعت نظرتها نحو عينيه وحركت سبابتها بحركة لا، فعاد إلى جيشانه وأخذ يشهق حتى اضطرب شهيقه وزفيره وبدا وكأنه سوف يختنق، وسعيدة تصفعه صفعات خفيفة على خديه ليعود إليه وعيه وتقدم له فنجان القهوة حتى يتوقف ذلك الارتعاش الذي عم سائر جسده، وقالت مليكة:

ــ أمي الحبيبة مشت، وما بقي خصها لا طبيب ولا دوا، خصها الراحة، راحة ما قبل الموت.

قضينا ليلة بيضاء وكان السي عبد الهادي يغفو لبعض اللحظات ثم ينهض جالسا ويضع كفيه حول وجهه ويجهش بالبكاء.

وقبيل الفجر أعدت مليكة فنجاني قهوة وقدمت لي واحدا وقالت:

ــ جفاني النوم، السي عبد الهادي نام أو هدأ على الأقل، وسعيدة نامت، وأنت يا حبيبي عليك أن تؤنسني فروحي تكاد تزهق من عد اللحظات.

وذهبنا أنا وهي للإطلال على يزة فكان صدرها ما يزال شديد الاضطراب وعيناها غائبتان.

قلت في نفسي إذا ماتت فهل سوف تأخذ معها كل ذلك الغناء؟

وجاءني صوتها وهو ينبع من أعماقها ليخترق كل الجبال المحيطة بعين اللوح، مارا بالقلوب والأرواح ليوقظ فيها الجراح المنسية. وغدوت في أسى على أن تصبح حنجرتها محشوة بالتراب. لكني أيقنت من أن صوتها سوف يبقى في الأثير.

أخذتني تأملات حول موت الإنسان وما يمكن أن يتبقى منه فنظرت إلى عيني مليكة الواسعتين وقلت هل يتخطفهما الموت إلى جهته، فأخذت وجهها بين راحتي ونظرت طويلا إلى العينين واغرورقت عيناي بالدموع. ولاشك أنهما لم تدر ما يدور بخلدي، فحسبت بكائي على أمها بينما أنا كنت أبكيها وهي ما تزال واقفة أمامي.

وكان لمليكة غناؤها الذي كان يأخذني إلى الجهات كلها وأنا ذاهب مع امتدادات الصوت وتموجاته وصعوده وانحناءاته. مرة أخبرتني بأن فريقا من التلفزيون جاء إلى عين اللوح لتصوير حفلة غنائية فكان من تحدث للفريق عن يزة وغنائها، ولما اتصلوا بها رحبت بهم ودعتهم للعشاء في بيتها شريطة ألا يحضروا معهم الكاميرات وآلات التسجيل، ولما استغربوا ذلك قالت لهم أنا أغني لنفسي قبل أن أغني للناس، وإذا حضر من يسمع غنائي فهو مجرد ذريعة لكي أغني، لا أريد الشهرة وأخاف على غنائي، وأصرت على رفض التصوير والتسجيل، وحاولوا إقناعها بأن غناءها إذا سمعه كل الناس فسيبهج الأرواح ويريح القلوب، ولكنها حدثتهم عن رجال السلطة الذين يحشدون المغنين والمغنيات في المناسبات الرسمية للغناء في الساحات العمومية، وهي لا تحب أن تفعل ذلك، ولا أن تغني تحت طلب إلا إذا جاء الطلب من أناس تحسب أن لهم آذانا يصغون بها.

قلت لها وأنت يا مليكة ألا تحبين أن تذهبي بغنائك نحو أن يسمعه الناس؟ إذا أحببت ذلك فلتذهب إلى باريس لتسجلي بعض الأشرطة. وردت

علي بأنها لا تحب أن تدخل في أمر كهذا، فهو يستدعي جوقا للعزف وشاعرا يكتب لها الكلمات ولحنا وتوزيعا وبيعا وشراء وهلم جرا، وكل ذلك ليس من شأنها.

في الصباح شرب السي عبد الهادي كأسين من الويسكي، وزار يزة في غرفتها، ثم عاد يطرح موضوع إحالتها على مصحة، ولكننا عدنا أنا وإياه إلى فاس في مساء ذلك اليوم، بعد أن علمنا أن أقارب ليزة سوف يأتون لزيارتها ولاشك أنهم سوف يتساءلون عن وجودنا وعن العلاقة التي تجمعنا بها، وربما لن يقتنعوا بأنها علاقة محبة وأخوة فتبدأ شكوك نحن في غنى عنها.

ظل صامتا طوال الطريق، وهوساهم ينظر إلى لاشيء وأنا أسوق السيارة وألتفت نحوهن حين لآخر فأراه لا يراني، وإن أنا كلمته يبدو لي وكأنه يصحو من سبات أو يعود إلى القريب من مكان بعيد. وحالما اقتربنا من فاس قلت له لو كانت مليكة قد قبلت الزواج مني لكانت يزة قد فرحت بابنتها عروسا قبل أن تذهب إلى دار البقاء، فلم يرد علي.

ومرت أيام وأنا أتصل به بالهاتف وهو لا يرغب في الكلام. ثم أخبرتني مليكة بالهاتف بأن والدتها قد ماتت، ورغم أنها كانت بعيدة عني فقد بدا لي وجهها النير مجللا بالبياض وقد أخذته الفجيعة فأشفقت عليها من البحة التي حبست صوتها، وقلت لها لن نتأخر عن حضور الجنازة أنا وعبد الهادي، لكنها طلبت مني أن نؤجل الزيارة، فأهلها سوف يتساءلون عن وجودنا.

تبادلنا العزاء أنا وعبد الهادي، ورأينا أن نؤجل زيارتنا إلى أربعينية المرحومة، وما مر شهر على الوفاة حتى كنا قد رتبنا بعض الأمور مع مليكة وسعيدة باتصالات بالهاتف، فتم بناء القبر، وأحيينا ليلة عظيمة قرأ فيها

الطلبة القرآن وأكلوا الكسكس واقتسموا ما كان فوقه من قطع لحم، وبعد العشاء قرأوا شيئا من بردة الإمام البصيري، إلى أن راح المدعون وخلا البيت إلا من بعض النساء اللواتي كن ينظفن أواني الطعام ويرتبن كل شيء في مكانه كما كان، وما أن تسللن خارجات، متلحفات بلحافات الصوف البيضاء، حتى جاءت إلي مليكة تفرك يدا بيد تريد أن تتدفأ بي وهي تشكو من برد الليلة القارس، وقالت إنها لم تتعش، فأحضرت صحنا كبيرا مليئا باللحم وفوقه برقوق معسل ودعتني إلى أن أشاركها في الطعام، وجاء عبد الهادي ليجالسنا وفي يده كأس مشعشعة بالثلج.

أعطتني مليكة ذلك الحب كله، وظلت لا تكف عن الاتصال بي بالهاتف، وسافرنا كثيرا وكنت أدخلها في حناياي وأفرح بها وأجعلها تهدأ وتحلم وتنام في وداعة وأنا أرقب جفنيها ينسبلان وشعرها يرتخي على الوسادة وأنفاسها تلاحق منتظمة وجسدها النحيل الأسمر شبه عار بجواري.

لكنها بعد وقت تغيرت معي وصارت كثيرة السهوم والإطراق إلى الأرض بنظر كسير، وصارت ميالة إلى الصمت، لا ترد على كلامي أو سؤالي، وبدأت تهمل زينتها وحتى صوتها فقد مرحه وضحكاته فلم أدر ما أصابها، وما عادت تتصل بي بالهاتف، وإن كلمتها أنا فهي ترد بفتور، إلى أن قالت لي ذات مرة:

ـ لا تعد الى الاتصال بي آ السي عبد الحميد الله يخليك، وخلينا أحباب على بعد، وتفكر الوالدة الله يرحمها وأيامي معك بالخير.

ذهلت وقلت:

ـ هل أخطأت معكِ في شيء؟ هل جرحتك بكلمة لم أتقصدها؟ صارحيني يا مليكة.

قالت:

ــ لاشيء من هذا.

قلت:

ــ أخبريني بما يقلقك. وإن كان هناك خطأ فيمكن إصلاحه.

قالت:

ــ بعض الأخطاء لا يمكن إصلاحها.

وسمعت بكاءها، ثم قطعت الخط.

ذهبت إلى عين اللوح فلم تسمح لي بدخول الدار، لولا أن سعيدة تدخلت بلطف وألحت علي في أن أرتاح من السفر وآكل شيئا، فاختفت وأدخلتني سعيدة فجلست في الصالون أضع وجهي بين كفي وأداري ما طفر في عيني من دموع. قالت لي سعيدة:

ــ لا أعرف ما الذي أصابها، وإياك أن تظن أنها على علاقة برجل آخر غيرك، فهي ما كانت لتستبدلك برجل آخر.

قلت لها:

ــ يا سعيدة أنا لا أستطيع أن أعيش يوما واحدا بدونها. ولو صارحتني بما بها لتم إصلاح كل شيء.

قالت:

ــ تقول إنها من فرط حبها لك، وخوفها عليه من أن يموت، فقد أراده أن يقف عند هذا الحد.

قلت لها:

ــ قالت لي هذا الكلام، وأوضحت لها أن الحب لا يعيش إلا بلقاء الحبيب.

قالت سعيدة:

ــ لعلها تخفي شيئا آخر.

ونظرت نحو مدخل الصالون متوقعة أن مليكة تصغي إلى ما نقول. ثم أضافت:

ـــ أحس أنها تخفي شيئا، ولمنه بالتأكيد ليس رجلا في حياتها.

قلت لها طلبت من أختك أن نتزوج مرات وألححت عليها وهي كانت تطلب مني برجاء ألا أعود إلى طرح هذا الموضوع، وقلت لها يا حبيبتي الفيلا أخذتها كنزة وأنا الآن أقيم في فندق وأتناول وجباتي في المطاعم وأنظف ثيابي في مصبنة عمومية، فهل يرضيك حالي؟ تقتلني العزلة وأنا لا أفرح إلا حالما ألتقي بك في لقاءات مهما أعطيناها كثيرا من الوقت فهي مع ذلك خاطفة وتظل مجرد ذكرى نعيش عليها إلى حين أن نتدبر أمر لقاء آخر، وكانت تقول هذا هو أجمل ما في علاقتنا، هل تريد أن تسأمني في يوم من الأيام، وتنطفئ نارك وناري؟ وأقول لها يا مليكة الحياة فيها أشياء كثيرة يمكن أن نستمتع بها ولا نقدر الآن أن نخطط لها، وبإمكاني أن أبني فيلا أخرى أسميها فيلا مليكة، ومعي من المال ما أجهزها به لسكن لائق، وظلت تعترض وتقول الحب والمال يا حبيبي لا يلتقيان، أنا أيضا لدي مال كثير ورثته من أمي ولا معنى لأن أشتريك به كما تريد أنت أن تشتريني بما سميته فيلا مليكة، ويكفي ما مضى بيني وبينك، وعلامتك التي وضعتها على مكان خفي في جسدي لم يرها أحد، والحرائق تنطفئ الآن.

كنت أعرف أنها من وراء مدخل الصالون تسمع ما أقول، فرجوت سعيدة أن تدعوها لمجالستي، فنهضت متراخية وأمارات وجهها تدل على أن مليكة لن تستجيب. غابت لبعض الوقت وعادت لتقول إنها متعبة، والكلام سيزيدها تعبا. ثقلت قولي إنها لا تحب أن تراني. وأحسست ألما كحد سيف يخترق صدري، وطفرت الدموع من عيني.

أقول لك يا سعيدة، إن أختك قد صارت طيفا يزورني في المنام، بينما أنا أستطيع أن اجعلها تنام بجواري في فراش الزوجية، وهي على ما يبدو، فضلت أن تبقى طيف خيال على أن تعيش معي زخم الحياة، فلعلها خشيت أن نتخاصم، وأن أشتمها أو تشتمني، أو أُعيِّرَهَا بشيء لِتُعَيِّرَنِي هي الأخرى بما تراه جارحا أكثر في حياتي.

تذكرت أنها في آخر لقاء قالت دع الحب نقيا ولا تنس اللمسة التي كانت ناعمة كريش نعام ولكنها جارحة كمخلب نسر، وهاك قطرة من دمي، وهاك بكائي وشهقاتي ودعني أشرب من دمك ما أنهض به حرائق هذه الليلة الأخيرة، وعضتني عضا مؤلما تحملته لكي لا أصرخ، وبكت، فأحسست أنني سأخسر نفسي إن أنا خسرت مليكة، وما أردت، وها هي ترفض أن تسمح لي بدخول الدار، ولا تحب أن تسمع نداءاتي الليلية في صمتي وعزلتي ووحدتي وكأنها بكل ما منحتني من حب قد أرادت أن تصير عذابي.

تأسفت سعيدة وهي تبوح لي بأن مليكة مصممة على فراق نهائي، وقالت لي الدار دارك ويمكن أن تأتي مع السي عبد الهادي عند سعيدة، ولكن هل يمكن أن تنسى مليكة آ السي عبد الحميد وتبدأ حياتك مع امرأة أخرى ؟

قلت:

ـ وهل في الدنيا امرأة كمليكة؟

عرفت أنها بهذا الكلام تضع حدا نهائيا لعلاقتي بمليكة، فطفرت الدموع من عيني.

قالت:

ـ كل شيء يصبح ممكنا مع مرور الزمن، ولا تنسنا على كل حال.

غادرت الدار ورجعت إلى فاس وأنا طوال الطريق أعد نسيان مليكة من قبيل المستحيل، وأفكر في طريقة لاسترضائها وإقناعها بأن تظل كما

كانت مختبئة في حناياي، بين أضلعي وأنا أسهر على ذلك الوسن في عينيها إلى حين أن تدخل في نعاسها، لكني كنت شبه واثق من أن كل الوسائل لن تنفع، ولن ينفعني السي عبد الهادي كما لم تنفعني أختها سعيدة.

بدأت أكتفي بوجبة طعام واحدة في اليوم، واتصل بمليكة بالهاتف وأقول لها:

ـ أنا جائع وأحب أن آكل من يدك يا حبيبتي.

فلا ترد، وتظل مع إلحاحي في الكلام تردد:

ـ آلو، نعم، أنا . . .

ثم تقطع الخط، وأفهم أنها كانت تريد أن تقول إنها ليست طباخة وبيتها ليس مطعما عموميا ولكن شيئا من إشفاقها علي قد جعلها تفضل قطع الخط على أن تكون عنيفة معي، وبعد محاولات استسلمت، وأقنعني السي عبد الهادي بالنسيان، فعدت إلى ولعي بفرسي لوكي أنسى معها لكي لا أتذكر تلك الحرائق التي كنا نحترق فيها بعد خمود نار، ومليكة في فراغ غرفة الفندق بجسدها الأهيف، وهو يبتعد، وأنا أتواطأ معها في الحلم أو الخيال بلعب يحوم حول الجسد باحثا عن لحظة أو كلمات مناسبة والجسد حيران، وأنا أحترق والعين في العين، وكأننا في أرض فيحاء أو فوق ماء أو هلام كما يصير جسدانا من هلام.

تلك كانت هي الأحلام التي أحلمها كل ليلة قبل موت يزة وبعده، لكنها حلفت لنفسها ، ألا تراني، ولا أدري ما فعلته بنفسها في عين اللوح، كما لم أدر ما كان يأتيني به ذلك الخمار من كسل جسدي يقعدني في الفراش.

ومع انطفاء كلمات السياسة التي كان لها وهجها، حتى وقد عرفنا أنه مؤقت، ظهر منافسون عتاة تواطأت معهم السلطة كما كانت قد تواطأت مع حزبنا، بينما ظل السجناء والمنفيون ومعهم قوى حية في العالم يطالبون بفتح

ملف حقوق الإنسان ومعه ملفات التعذيب وقمع الرأي وغياب الحريات، كما ظلت الأحزاب الأخرى تنظر إلى المشهد وبعض أجنحتها يرغب في مساومة الحكم على الدخول إلى الحكومة بعد أن ضاق بدور المعارضة بينما كانت أجنحة أخرى لا ترى أي إمكانية للوفاق مع النظام ما دام هناك معتقلون ومنفيون.

وما كنت هذه الحروب السياسية تقل أهمية عن حروب جسدي مع العزلة، ومضي الوقت بين مشاغل التجارة وحروبها.

هل لك الآن أن توقف آلة التسجيل حتى أعرف في أية جهة أنا الآن؟

لعلها جهة الكلام.

جهة ما أخذتني بالكلام حيث أريد.

تعال إذن في الغد في نفس الموعد، وإذا أحببت أن ترافقني إلى نادي الفروسية فأنا سأكف عن الكلام في هذه الليلة وأرجو أن تجد لي العذر على ما أنتظر أن يستبد بي من صمت قد يكون هو أعلى درجات الكلام.

لو لم أكن قد تورطت معك في البدء بالحديث عن هذه الأشياء لكنت أفضل أن أقولها لنفسي في صمت.

هل يمكن لآلة التسجيل أن تنقل الصمت إلى كلمات؟ وأنت هل تقدر على استنطاق الصمت؟ هل يمكن؟

تعال بنا إذن إلى نادي الفروسية، فقد اشتقت إلى لوكي وإلى حمحماتها واحمرار عينيها وهي تنظر إلي، وسأتركك مع ثرثرات مولاي عبد السلام.

اضغط على الزر لنسجل فأنا سأعود إلى عربة القطار، فلا شك أنك تذكرت أن ابتسام تجلس معي في العربة.

صحوت على صوت آت من الميكرفون يخبر الركاب المتوجهين نحو طنجة وتطوان أن يغيروا القطار في المحطة القادمة، فالتفتُ نحو ابتسام، ورأيتها تنظر إلي، فقالت:

السي عبد الحميد، أعطني رقم البورطابل.

عجبت كيف عرفت اسمي، فأنا سألتها عن اسمها ولم أقدم لها اسمي، وكانت قد نهضت وفتحت في وجهي مذكرة أخرجتها من حقيبة يدها

قلت:

ـ كيف عرفت اسمي؟

قالت:

ـ ستعرف فيما بعد. سأتصل.

ذكرت لها الرقم وسجلته، وقالت وهي تضع حقيبتها من فوق الرف العلوي الذي كان فوق رأسي:

ـ لكنك لم تسألني لماذا أنا ذاهبة الى تطوان ؟

قلت:

ـ خير إن شاء الله.

فقالت:

ـ الكونتربوند، بضاعة سبتة آ السي عبد الحميد.

وضحكت وهي تحمل حقيبتها وتضعها على الممر:

ـ ويمكن، قد أنفع في حملة انتخابية قادمة، وسأتصل لأسأل عن زكريا.

فصرخت من غير أن اشعر:

ـ تعرفينه ؟

قالت:

ــ هل تخاف على ولدك مني؟ أنسيت أنه في كندا، يدرس على حسابك آ السي عبد الحميد، ولكن أنا. . . مهربة للسلع بين حدود الشمال وأزرو وعين اللوح. تبقى على خير.

ولما أوشكت على النزول والقطار يتوقف تماما، قال:

ــ ماما تسلم عليك. مليكة. هل تذكرها؟

أردت أن أنزل وراءها وأتبعها لأتبين منها ما كانت تقول، ولكني تسمرت في مكاني وقد أخذني الدوار واشتد بي الخفقان حتى حسبت أن وجيب القلب سوف يتوقف في هذه اللحظة.

عدت أتذكر وشم أرنبة أنفها، الممحو، الذي كان ربما هو وشم مليكة ووشم يزة، وما عرفت هل تكون البنت ابتسام بنتا لمليكة وهي لم تتزوج، فهل تكون بنتا لي من غير أن أدري بها طوال هذه السنين التي مضت؟

كيف عرفت ابتسام اسمي واسم ولدي زكريا، وما الذي كانت تقصده بكلامها عن الآباء الذين لا يسمون بناتهم بأسماء بينما يذبحون للأولاد كبش العقيقة؟

لا أدري كيف وصلت إلى الرباط. وفي تلك الليلة، كان صاحبي الذي كان قد تلفن لي يحكي تفاصيل مشاجرة عنيفة بين رئيس فريقنا المعارض، في زمن التناوب هذا، وبين رئيس جلسة البرلمان، وهو الآن ينتظر مني اتصالا أو زيارة، وما كانت بي رغبة لسماع شيء من ترهات تلك المشاجرات، فقد بدأت علاقتي بالسياسة تطرح غلي أسئلة لا أجد لها بعض الأجوبة أمام تشابك أوضاع المشهد السياسي في البلاد، وزاد من فقدان تلك الرغبة ما أنا فيه من حياة غير متوازنة ومن تدهور صحتي وتعرضي لإجراء عملية جراحية بعد أخرى حتى أصبحت أنتظر لحظة سقوط أخير، واليوم تأتي ابتسام لتوقظ في الظنون والمواجع وتضعني أمام الحيرة والقلق.

رشفت من الكأس وفجأة رن جهاز الهاتف المحمول، وسمعت صوتها يقول لي:

آلو، نعم، أنا ابتسام، أطلب رقم هاتف الاتصال بزكريا في كندا، واطمئن آ السي عبد الحميد.

فقلت من غير أن أشعر:

ــ على ماذا سوف أطمئن؟ هل هو بخير؟

وضحكت ضحكة خليعة وقالت:

ــ هو بخير، ولكنه يريد الفلوس.

وقلت:

ــ وأنت؟ ما شأنك بهذا الموضوع ؟

فردت بلهجة مصرية حاكت فيها ما يقال في بعض المسلسلات:

ــ عمر الدم ما يصير مية.

حاولت السيطرة على أعصابي وقلت لها:

ــ قولي لي بالذات من أنت، وماذا تريدين؟

فقالت:

ــ أنا؟ أنا أخته، ولن أقول لك بابا آ السي عبد الحميد، فقد التقينا صدفة في عربة القطار، ولكن سأنادي زكريا أخي، حتى وهو ولد كنزة، وأنا بنت مليكة، لأننا معا من صلبك آ السي عبد الحميد.

وقطعت الخط. تلفتت لمليكة، فبدت ناهضة من نوم ثقيل، وقالت:

ــ شكون؟ آش خصك؟ آ اشمن رقم تتطلب؟

وقلت لها:

ــ أنا عبد الحميد.

فقالت:

ـ اشكون عبد الحميد؟

وقلت لها:

ـ يا مليكة اسمعيني، البنت ابتسام، دعيني أشرح لك هي كانت. . .

أنا كنت . . . والتقينا في القط . . .

ولكنها قطعت الخط، وكررت الاتصال فكانت قد وضعت السماعة في غير مكانها. بقيت أتعذب، وبعد جاءتني مكالمة من ابتسام وقالت لي:

ـ لا، فضائح السياسة لا تصلح لستر فضائح العائلة، ما كان عليك أن تزعج امرأة مقهورة، شاخت في عين اللوح قبل الأوان.

قلت:

ـ ابتسام الله يخليك. . .

فقالت:

ـ الحب آ السي. ومالك آ السي ؟ لن أقول لك آ السي بابا.

وضحكت ضحكتها الخليعة تلك، فقلت لها:

ـ ابتسام أنا صحتي عيانة، و. . .

فقالت:

ـ شف، ياك خويا زكريا فكندا؟ ياك أنا غادية جاية بين عين اللوح والفنيدق، بايعة شارية، إيوا ما عرفتيني ما عرفتك، غير تلاقينا فالقطار.

قلت لها:

ـ ابتسام قلت لك أنا مريض و. . .

فقاطعتني وقال:

ـ شف. أحسن ما تعمل هو أن تجعل رئيس فريقك في البرلمان يدافع عنا نحن المهربين والمهربات، ويجبر رجال الجمارك على ألا ينظروا إلى

النساء منا والبنات كعاهرات. الشرف هو أن تعيش المرأة بعرق الجبين، وها هو عرق الوقوف عند باب الديوانة.

تنهدت وانقطع صوتها ولم ينقطع الخط. قلت:

ــ ابتسام.

قالت:

ــ إذا كانت كرامتك قد جرحت في ابنتك، فلا تخف عليها. خف على صحتك العيانة.

وكنت سأسقط، ووجيب قلبي يضطرب، وعرق بارد يتصبب على جبيني، ويدي ترتعش وهي تحمل الجهاز. قلت لها:

ــ أعطني رقم هاتفك لكي أتصل الآن بعد أن تقطعي الخط.

قالت:

ــ أنا أتصل من التلي بوتيك. بفلوس الكونتبوند.

قلت:

ــ سألحق بك غدا إلى تطوان لأراك.

لكن الخط انقطع. وفكرت في السفر إلى تطوان ولكن أين سأجدها وسط حشود العابرين للطريق بين الفنيدق وتطوان؟

جددت الاتصال بمليكة ولكن الجهاز كان غير موصول بالحرارة.

لا أدري كيف قضيت تلك الليلة في الرباط وكيف عدت في الغد إلى فاس باحثا عن السي عبد الهادي ليشير علي بما أفعل.

حالما التقيت به بدا غير مكترث بالموضوع، وبدل أن يشاركني في بلواي ويشير علي بما ينبغي أن أفعل، أخذ يحدثني عن يزة، فقال أنا فقدت أعز الناس في حياتي، كانت لي أختا وأما وصدرا حنونا أودع فيه كل أسراري وشكواي من حال الدنيا وحالي. قبل أن يتوفى الله زوجها كان

يدعوني إلى البيت فنسهر ونشرب ويزة تغني لنا وأنا أنظر إليها نظرة الاحترام، فقد كان زوجها المرحوم يحبها حبا شديدا ويحب غناءها حتى كان يريد كل أصدقائه الأوفياء أن يسمعوه معه، وما كان يغار عليها فقد كان يثق في وفائها له ثقة كبيرة، وما كان أحد يستطيع أن ينظر إليها بنظرة الطمع في جمالها، فسطوتها، وصرامة نظراتها، وما تضفيه على نفسها من هيبة واحترام، كلها أشياء حصنتها من الطامعين في جمالها. وما نظرت إليها نظرة طمع في حياة زوجها، ولكن بعد وفاته راودتني نفسي عنها فأحببتها في الحلال، فانتظرت قضاء شهور العدة وأرسلت إليها من يفاتحها في الموضوع، وردت بأنها تحب أن تراني وأن أسمع الجواب منها، فطرت إليها وأنا أنتظر أن تفتح لي الدنيا أبواب الفرح، ولما جالستها قالت لي بلغني آ السي عبد الهادي ما تطلب، وأنت متزوج وعليك أن تعطي ما تدخره من الحب لامرأة أخرى لامرأتك، ولتكن بيني وبينك محبة الأخوة، فأنت صديق للمرحوم، وما رأينا فيك إلا الخير، وأنت العاقل الرزين، وإن كنت تعزني فأحبني كما يحب الأخ أخته. ألا يبقى في هذه الدنيا شيء للناس يفرحون به من المحبة غير الزواج؟ قل إنك أخي وانظر إلي كأخت، تسأل عني وأسأل عنك، تزورني كما كنت تزور بيتنا في حياة المرحوم، وحتى وإن كنا لم نخرج من بطن واحدة، وحتى وإن كنت أنت فاسيا وأنا بربرية، فالأخوة بيني وبينك هي الطريق لمحبة لن تكدر صفوها مشاكل الحياة. سيبقى الماء صافيا بيني وبينك، فلا أنا ولا أنت من المنافقين الذين كانوا إخوان الشياطين، ولذلك أخبرك بأنني عاهدت نفسي بألا أعاشر رجلا بعد المرحوم معاشرة المرأة للرجل، فأحبني كما كنت تحب زوجي المرحوم، وأنا كان لي إخوة كلهم ماتوا وما أحوجني إلى أخ عزيز، وأنا أشكر لك ما طلبته مني في الحلال، وأرجو

أن تنسى الموضوع، وأن تتذكر أن يزة هي أختك، وأن البيت بيتك، وأنك عم للبنتين مليكة وسعيدة، والعهد بيننا على الأخوة.

هكذا آ السي عبد الحميد انقطع عني كل طريق وأصبحت مطوقا بعهد الأخوة مع يزة. والآن يمكنك أن تفهم لماذا حزنت كل ذلك الحزن على وفاتها. وبقي أن تعرف شيئا آخر، وهو أنني لم أكن راضيا على علاقتك بمليكة في السر، فما كنت تحسبه سرا كان أمرا مكشوفا، فأنت لم تراع أن مليكة كانت صغيرة السن، وفي حبها لك من الصدق ما حيرني وحير يزة، لكننا انتظرنا منك أن تتصرف بعقل وحكمة. يزة كانت تعرف كل شيء عن علاقتكما ومنذ أن عدتما من السفر من إسبانيا، فهي عندما أرسلت ابنتها معك إلى ذلك السفر، كانت ترى فيك عما للبنت، فأنت من يحميها من الطيش والضياع، لا من يدفع بها إلى ذلك الجنون. والعتب عليك، وحتى بعد أن أردت خطبتها والزواج منها في الحلال فقد صدمني طلبك، لكني قلت إن الحلال يذهب الحرام، وتداولنا أنا ويزة في الأمر، وتصور أنها قبلتك زوجا لمليكة، لكن مليكة فاجأتنا جميعا بأنها هي التي ترفض الزواج. سألناها عما تريد من هذه العلاقة فقالت تريد أن يبقى الحب على حاله، وأن تبقى حرة في اللقاء بك، تسافران وتأكلان في المطاعم وتتفسحان في البحيرات. وسألناها عن الحلال والحرام فقالت وهل كان آدم وحواء يلتقيان في الحرام؟ قلنا لها عبد الحميد ليس هو آدم وأنت لست حواء، فبكت وانسحبت من الجلسة وهي تقول إننا لا نفهم ما تفكر فيه.

وبعد موت يزة بقيت أحاول إقناعها بالزواج، وكانت لا تخفي عني شيئا من لقاءاتكما، ولما ظهرت عليه علامات الحمل قررت أن تقطع علاقتها بك، وألحت على ألا أخبرك، وما بلغت ابتسام شهورها الأولى حتى تغيرت وأصابها السقام وبدأت تبكي بالليل والنهار، وسعيدة تتصل بي وأنا لا أعرف

ما أفعل. صارت مقعدة في فراش الصمت والعزلة وأحاديث محمومة عن عبد الحميد، وسعيدة تقول لها دعيه يأتي لزيارتك وستريه وهو قريب منك، فكانت تمانع، وتقول إن رأى ابنته فسيعود لموضوع الزواج. والأمر لله، فقد ماتت يزة وهي لا تدري بأن الأمور قد تطورت إلى ما وصلت إليه.

ثم سألني:

ــ منذ متى لم ترها؟

قلت:

ــ منذ تلك الزيارة التي رفضت فيها أن أدخل الدار، فأدخلتني سعيدة، ورفضت أن تراني.

قال:

ــ وهل تعرف حالها الآن؟

قلت:

ــ لا أعرف.

قال:

ــ بعد زواج سعيدة بقيت هي وابتسام في الدار وحيدتين، فأكلتها العزلة، ومرضت.

قلت:

ــ فاجأني صوتها الذي تغير في الهاتف. هل هي الآن بخير؟

قال:

ــ حالتها سيئة.

ــ وهل يمكن أن تساعدني على رؤيتها.

ــ لن تقبل. وخير لك ألا تراها.

ــ لماذا ؟

ــ صارت مخبولة، تكلم نفسها، وخير ألا أصف لك ما صارت عليه.

ــ هل جنت؟

ــ ذهب الجمال وذهب العقل، وصارت كشبح.

طفرت الدموع من عيني. وأطرقت برأسي والدنيا تدور من حولي، فأحسست أني على وشك السقوط.

بعد حين قلت للسي عبد الهادي:

ــ وابتسام؟ ألا أتيناها شرعا؟

قال:

ــ ابتسام تقول إن تبنيك لها لن يزيد فيها شيئا ولن ينقص.

ــ لكن ذلك سيريحني.

ــ ولن يريح مليكة وابتسام، ومع ذلك فهو واجب.

ــ وكيف بابتسام تتجر في المهربات؟ أين المال الذي تركته يزة؟

ــ سعيدة أخذت نصيبها نقدا، ومليكة احتفظت بالدار، وما كان معها من مال ذهب في زيارات الأطباء ومحاولات العلاج.

هو وشم على هذه الجذور.

وشم هو جذور امرأة كأنها نابعة من تاريخ الحب بكل أفراحه وجراحاته وكأنها جهة من الجهات.

ولذلك لن يكون الكتاب كتاب فضائح لرجال مع النساء، بل هو كتاب الجهات، فمليكة أيها الكاتب عنفوان لجهة لاشك أن البشر قد ساروا فيها ومنذ بداية التاريخ، وآثارهم عليها إلى الآن.

ولا شك أنك تستعجل النهايات، والكاتب الذي يستعجل النهاية ليس كاتبا كما أن القارئ الذي يستعجل النهاية ليس قارئا، فأحيانا لا توضع خواتم

للبدايات، وخاصة إذا ما تعلق الأمر بجهة من الجهات أو بها جميعا، فما بالك بالجهة السابعة.

وسأقول لك إن زكريا هو الذي أخبرني بموت نعيم بسرطان الكلي لما عاد من كندا من غير شهادة أو تخصص في شيء، وجاء يطلب مني أن أقدم له ضمانة لدى البنك لينشئ مقاولة لتربية الدجاج، فقد رن جرس الهاتف في غرفة الفندق وقال لي موظف الاستقبال:

ـ واحد السيد باغيك.

فقلت له:

ـ اشكون هو؟

فقال:

ـ يطلب منك أن تنزل لمقابلته.

ولما نزلت وجدت زكريا، وقد صار مسدل الشعر إلى ما وراء قفاه ولحيته منسدلة على صدره وقد وضع عوينات على عينيه. عانقته وكان صدره عاليا ويداه قويتان عند المصافحة، وقال لي:

ـ نخرج إلى المقهى.

ولما دعوته إلى صالون الفندق ألح على أن نخرج إلى مكان نشم فيه الهواء كما قال، ودون أن اشعر أردت أن أجامله فسألته:

ـ كيف حال أمك ؟

فقال:

ـ أمرها لا يهمك آ السي عبد الحميد.

وعجبت للهجته الرجولية المتحدية، ولم أدر ما أقول، ولكنه راح يحكي عن الفيلا التي باعتها كنزة ودخلت بثمنها في رأسمال في شركة، وعن بشرى التي بقيت أرملة بعد موت نعيم، وقد كبر ولدها عزيز.

وفي المقهى طلب قهوة شربها دفعة واحدة من غير سكر، وكان يبتسم للفراغ ويحرك رأسه إلى ما فوق وتحت حركة لا معنى لها، خلال ذلك الصمت الذي كان بيننا، ثم قال:

ـ اتصلت بي ابتسام.

ورآني لا أرد فقال:

ـ هل كنت قد تزوجت أمها في السر، أم أنها مجرد بنت سفاح؟

ولم أرد، فقال:

ـ قل آ الوالد، حتى أعرف هل هي أختي أم أنها مجرد بنت سفاح ؟

وأشفقت على ابتسام وزكريا يواجهني بنظراته فلم أتبين ما أقول. ثم قلت له:

ـ أمك هي التي دفعتني لذلك.

فقال:

ـ وهل تعرف أنت إلى أين دفعتها ؟

وقلت:

ـ هل جئت لمحاسبتي ؟

فقال:

ـ أنت كنت قد تملصت من جلسات الطبيب النفساني وظننت أنك تعرف ما بداخلك، ومن يظن أنه يعرف كل شيء عن نفسه فكيف لي أن أحاسبه ؟

وكدت أقول له وماذا تريد ولكن هذا السؤال لا يطرحه أب على ولده رغم كل تلك الظروف التي مضت، وكأنه قد تفطن إلى ما في عيني فأخرج من ملف بعض الأوراق وقال لي:

ـ نُصفِّي موضوع ابتسام لأعرف هل هي وريثة معي.

قلت:

ـ لكني لم أمت بعد.

قال:

ـ لكنك ستموت. قل آ الوالد؟ هل كنت زوجا لأمها؟

قلت:

ـ ابتسام ابنتي، وهي أختك.

عض على شفته وقال:

ـ وإذن فلابد أن تأخذ نصيبها من الميراث.

قلت:

ـ ألهذا جئت تبحث عني؟

قال:

ـ جئت أحتاج إلى ضمانة لدى البنك. ستضمنني، فأنا اشتريت حضيرة لتربية الدجاج، وأفكر في تربية النعام.

وذهبنا إلى البنك فقدمت له الضمانة التي يريد، ومنذ ذلك اليوم لم أره، وما عادت ابتسام تتصل بي بالهاتف.

جهة الكلام

لا ريح تحرك
هذه الجبال الراسيات
ولا قناديل
تضيء هذه الجهات

جلست في صالة نادي الفروسية واحتسيت كأسين وأنا أفكر في دارنا القديمة بدرب البشارة قرب التوتة وقد تحولت إلى مطعم للسياح بعد أن ماتت الوالدة وبعتها لمن جعل منها ذلك المطعم، ففي نهار هذا اليوم كنت قد نزلت إلى المدينة القديمة ومشيت متظاهرا بالبحث عن جدتي التي كانت قد غابت عن الدار، حتى وأنا أعرف أنها قد ماتت، وأنني لم أعد طفلا وإنما أنا في الستين من العمر، وأن أشياء كثيرة قد تغيرت في ذاتي وفي فاس، وكنت بذلك التظاهر بالبحث عن جدتي كأني أستعيد طفولتي المفقودة، وأستعيد معها فاسا التي في خاطري.

وفي الطالعة كانت بضائع سبتة المهربة تملأ الأرصفة، ورأيت البنات القصيرات الثياب إلى ما فوق الركب وضحكاتهن الخليعة تختلط بضجيج المارة ونداءات الباعة.

سرت هبوطا نحو زقاق الحجر، وعين الخيل حيث كان بيت أخوال أمي، وسرت مع كرنيز وواد رشاشة والعشابين، ثم عدت راجعا إلى دارنا القديمة في درب البشارة كما كنت أرجع إليها من ذلك التيهان في الطرقات وأنا صغير.

ولعلي قد استعدت طفولتي بعد نسيان، لكن صورة فاس الماثلة أمامي ما كانت تقدم لي سوى مدينة توغل فيها الخراب، فكنت أستعيد بهجتها من الذاكرة وأحلم بأيام الأعياد والمناسبات وبصوت الأذان وهو يتصادى من أعالي الصوامع وبخيرات سوق الرصيف وبأناس راحوا ولكن خطاهم ما تزال على الطريق.

وصلت بي الخطى إلى دارنا القديمة في درب البشارة، وبعد تلك السنين كلها فالخرابة ما تزال خرابة كما كانت، والفرن ما يزال في مكانه ولكن وجه المعلم الفران تغير بوجه آخر، وشجرة التوت الضخمة لم يمت ولم تبرح

مكانها، لكن ما مررت به في الطرقات جعلني آخر للمدينة وجها غير الوجه الذي أعرفه، فعيشي في المدينة الجديدة لسنوات طويلة لم يمكنني من ملاحظة ذلك التغير. وكما تغيرت ملامح فاس فقد تغيرت دارنا، فالباب العتيق الذي كان موصدا أبدا صار مفتوحا يكشف عن السطوان الذي أضيء بأضواء في النهار تعلو جدرانه زخارف مفتعلة لعلها من صميم فاس ولكنها لا توضع في تلك المواضع من البناء، وقد كتبت على مدخل السطوان لافتات بكل اللغات تقول:

الذوق الفاسي

فدخلت ونظرت الى الباحة التي كانت أمي تجلس فيها على فروة خروف وهي تعجن العجين، وكانت في الباحة موائد عليها خوانات وصحون وهي معدة لتناول الطعام، فنظر إلي النادل وقال:

ــ شي حاجة ؟

فقلت له:

ــ أريد أن أتناول الغذاء.

فبدا عليه الارتباك وقال:

ــ المطعم محجوز للنصارى.

ولما رآني أتطلع إلى الحيطان وأبهاء الغرف قال لي:

ــ السيد براني ؟

فلم أرد عليه وقال:

ــ يمكن أن تتناول غذائك بالزربة، قبل أن يأتي النصارى.

فوافقت بحركة من رأسي وأشار لي إلى المائدة فجلست وقال:

ــ شي دجاج محمر، أو شي طاجين د الغنمي؟

وقلت له:

ـــ دجاج محمر.

فراح يطلب الطعام من الطباخ، واكتشفت أن البرطال ما يزال فيه ذلك القفص الذي كان فارغا من الطير، ولكنه الآن صار يحتوي أنثى وذكر يمام يتناقران ويتقافزان، كما صارت غرفتنا السفلية مطبخا ولا شك أنهم قد أدخلوا إليه الماء والمجاري والهوائيات التي تبدد أبخرة وروائح الطعام.

ورفعت عيني إلى حلقة الدار، فخشيت على نفسي من أبدأ لحظة ذلك الصعود، فالمحن قد خففت من ثقل الجسد ولكن وزنه بسبب تلك المحن قد زاد فلو تصاعد فسيرتد ساقطا ومتهاويا فوق هذه الموائد والصحون، وتطلعت بنظري الى الغرفة الفوقانية التي كنا ننام فيها أنا وأمي لالة خدوج الله يرحمها وكأني قد سمعت من الصومعة مؤنس الغرباء وهو يحكي قصة سيدنا أيوب الذي صبر وصابر، وكأني قد سمعت صوت الجزار يعود في الهزيع الأول من الليل سكرانا وهو يقول أنا ما عندي صندوق.

وضع النادل أمامي صحن سلاطة الفلفلة بالثوم وزيت الزيتون وقارورة سيدي علي الصغيرة، فقلت له:

ـــ عندكم البيرة ؟ فقال:

ـــ هاينيكن؟

وقلت له:

ـــ وإلا، قارورة نبيذ صغيرة.

فقال:

ـــ كروان؟ القصر؟

وجاء بقارورة النبيذ فأزاح غلاقها وصب لي قطرات في كوب تذوقتها وأشرت برأسي فملأ الكأس وانسحب.

ولا أدري لو كان اليوم والدي سليمان الدباغ قد عاد إلى هذه الدار ورأى ما رأى، أو أن أمي لالة خدوج قد رأت مكانها الحميم وهو يتحول إلى ما صار عليه، فهل كانا سوف يصدقان؟

قلت هي جهة المكان الواحد وهو يدخل الجهات، وهم السياح الأجانب الذين ربما يشمون من المكان روائحه العتيقة ودون أن يدروا أن الجهة نفسها كانت لها جهاتها الخفية والتي أصبحت الآن سرا من الأسرار، فمن منهم يذكر أن هذه الدار كان قد اشتراها سليمان الدباغ ليتساكن فيها مع تلك العروس التي كان قد رآها في حامة سيدي احرازم وخطبها للتو، لتكون فراشه وغطاءه، وقرة عينيه؟

وضع النادل أمامي الطاجين ورفع غطاءه فظهرت دجاجة كاملة محمرة وعليها زيتون وليمون، وحلّبَت الرائحة ريقي، فأكلت وتذكرت طاجين لحم الغنم باللقيم أو السفرجل أو الكرنين وقلت لنفسي يا حسرة، ولكني أكلت من ذلك الدجاج الرومي وقلت ربما يصبح ولدي زكريا موزعا كبيرا لهذا الدجاج الرومي على المطاعم والأسواق.

وسرعان ما توافد النصارى، فنظر إلي النادل واقترب وقال:

ـ شي ديسير ؟

فقلت له:

ـ بلاش.

وأخذت طريقي صاعدا حتى وصلت إلى ساحة البطحاء فركبت طاكسي أعادني إلى الفندق لآخذ نوم القيلولة، ولكني لم يطرف لي جفن، فقد تحول كل ما أراه أمامي إلى جهة من جهات فاس، وقد اتسعت المدينة بمضيها في تلك الجهات حتى صارت لها جهتها السابعة، وتحيرت وأمضيت الوقت الى أن جئت إلى النادي وداعبت حنكي العزيزة لوكي، وأطعمتها

بعض قطع السكر، ولم تكن خولة في اصطبلها فعلمت أن مولاي عبد السلام يركب صهوتها في جولة من الجولات، وما شربت كأسي الثالثة حتى أقبل علي مستبشرا وضاء المحيا وقال ضاحكا:

ـــ علي الجنابة، فخولة ركضت بي في المعابر.

وقلت له:

ـــ هنيئا لك بركوبها آ مولاي عبد السلام.

فبدا باسما وقال:

ـــ خولة هي التي تحس بتلك النار فتحمحم، وتشكو إلي نارها.

وبعد مضي وقت فاجأنا يوسف وهو يدخل النادي وفي يده كتب قد أثقلته، وتبينا أنها نسخ لكتاب واحد، فقدم لي نسخة ولمولاي عبد السلام أخرى وظل صامتا. قرأت على غلاف الكتاب عنوان:

الخفافيش

قرأت من صفحته الأولى ما كنت قد بدأت بتسجيله على الشريط، فابتسم يوسف وقال:

ـــ هذه هي النسخ الأولى التي استخرجتها من المطبعة.

ونظر مولاي عبد السلام نحوي مبتسما وقال لي:

ـــ مبروك.

فقلت له:

ـــ مبروك للكاتب .

فالتفت الكاتب نحوي وقال:

ـــ ولكني لم أثبت عليه اسمي.

وقرأنا على الغلاف اسما غريبا هو إدريسَ الأصفر، ولما رأى استغرابنا للاسم قال:

ــ هو اسم مستعار.

وقلت له:

ــ ولماذا لم تضع اسمك أو اسمي على الكتاب؟

فقال:

ــ هو كتاب موجه للقراء، وأنا ليس لي فيه شيء سوى ما نقلته من شريط التسجيل، هو ليس كتابك الذي أردت أن تكتبه.

فقال مولاي عبد السلام:

ــ ولكنه قصة حياته.

ورد الكاتب:

ــ أي منا يستطيع أن يكتب قصة حياته، والتفاصيل تنفلت منه وتضيع؟

وقلت للكاتب:

ــ بكم طبعت هذا الكتاب؟

فقال:

ــ الناشر تكلف بالنفقات ولم يعطني حقوقا على النشر.

وبدا مولاي عبد السلام منتشيا فقال ليوسف:

ــ وهل تكتب لي كتابا عن قصتي مع خولة؟ فأشاح يوسف بوجهه، وبعد صمت قال:

ــ إذا كانت خولة هي التي سوف تحكيها ، هل يمكن؟

وانتهت تلك الجلسة بأن أخذت معي نسخا عديدة من رواية الخفافيش وعدت إلى الفندق فقرأت شيئا منها واسترجعت كل ما كان من حديثي عن

الكائن وتوغله في كينونته وهو يذهب نحو الجهات، وتذكرت أنني كنت ناقص عقل وإلا فلماذا لم أكف عن الكلام؟

هل أنا هو عبد الحميد أم أنا هو إدريس الأصفر أم أنا الكاتب يوسف الطاهري؟ يوسف ينشر كتبه باسمه كما أخبرني، وكأنه اليوم يتنكر لكتاب الخفافيش فينسب تأليفه لمؤلف آخر هو إدريس الأصفر. ولا أدري لماذا جعل إدريسا هذا أصفر ولم يجعله أحمر أو أزرق أو أبيض، وكلها أسماء أسر عرفت بهذه الألوان في فاس.

كان موعدي مع يوسف الطاهري في نادي الفروسية، وانتظرته فلم يحضر، ولاحظ مولاي عبد السلام ما ظهر علي من قلق، ومرت أيام وأنا أنتظر يوسف وهو لا يأتي، حتى سألت مولاي عبد السلام عن مكان سكناه أو الثانوية التي يدرس بها فأبدى حيرته وقال لا يعرف شيئا من ذلك. وكان يلح علي حلال تلك الأيام بالسؤال:

ـــ ما رأيك في الكتاب؟

فأرد عليه:

ـــ لم أقرأه بعد.

ومرة قال لي:

ـــ آ السي عبد الحميد، الكتاب معتبر، ولكن ما كنت أعرف عن حياتك تلك الأيام مع الموشومات. وصديقنا المشترك السي عبد الهادي لم يخبرني، فلماذا لم تأخذوني معكم ولو مرة واحدة إلى عين اللوح؟

فقلت:

ـــ هل صدقت ما في الكتاب؟

قال:

ـــ والموشومات؟

قلت:

ـــ أي موشومات؟

فقال:

ـــ يزة ومليكة وابتسام، فأنا قرأت الكتاب في ليلية واحدة.

فقلت:

ـــ تلك أوهام وأخيلة لحظات التسجيل، وحبذا لو كان.

ونظر إلي مولاي عبد السلام نظرة استنكار وقال:

ـــ هل كان ما حكيته مجرد خيال ؟

وقلت:

ـــ ربما، هو خيال ممزوج بالواقع. وتلك حياة عاشها إدريس الأصفر وهو حر فيها.

بدأنا نتداول أمر غياب يوسف وهل يمكن أن يكون شيء قد دهاه عن الحضور. وقال لي مولاي عبد السلام سيبحث عنه ولكنه في لقاء آخر أخبرني بأنه بحث عنه ولم يجد له أي أثر.

وعاد مولاي عبد السلام ينبش في تفاصيل صغيرة عن كنزة ومليكة وابتسام وزكريا يريد أن يشبع منها فضولا لم يشبعه ما قرأه في كتاب الخفافيش، فقلت له:

ـــ ألا تصدق أنها شخصيات عايشها إدريس؟

قال:

ـــ لكن إدريس الأصفر هو اسم مستعار.

فقلت:

ـــ إذا أردت أن تعرف الحقيقة، فتلك أوهام وأخيلة لحظات التسجيل.

نظر إلى نظرة استنكار وقال:

ـ هل كل ما حكيته مجرد خيال؟ يعني لا وجود في الواقع لابتسام، وزكريا، ولا وجود لكنزة ومليكة، والصندوق لم يكن ليسرقه الحاج الجزار، ونعيم لم تكن له سوى خصية واحدة، و . . .

أشرت له بيدي معترضا فتوقف عن الكلام، وحدق في بنظرات حادة ثم قال:

ـ لكني أعرف أنك كنت زوجا لكنزة، ,أنت الآن تقيم في فندق النخيل، و . . .

قلت:

ـ وهل هناك امرأة واحدة في العالم بهذا الاسم، أو فندق واحد بهذا الاسم؟

بدا الارتباك عليه وقال:

ـ وإذن فأنت لست عبد الحميد.

قلت:

ـ بل أنا هو، ولكني لست عبد الحميد الذي تعرفت عليه في كتاب الخفافيش.

كنت قد سحبت من البنك مبلغ عشرين ألف درهم ووضعتها في ظرف منتظرا أن يأتي يوسف حتى أسلمها إليه، وأخذت أحضر الغلاف معي كل يوم إلى نادي الفروسية ولكنه لا يأتي، كما قمت بإجراء تحريات عنه للاهتداء إلى مكان عمله أو سكناه، وكاد ينقطع الرجاء في الوصول إليه، إلى أن كنت خارجا من الفندق فصادفته يدخل للبحث عني. صافحني بفتور ولما نظرت إلى عينيه رأيت فيهما تعب أيام طويلة ومظاهر من جفاه النوم. ترافقنا إلى النادي وهو لا يرغب في الكلام، فكان يسير وكأن شيئا يجذبه نحو الأمام.

جلسنا في الصالة وعدت أتفرس وجهه تحت الأضواء فكانت نظرته كسيرة والاصفرار باد على وجهه. وبعد صمت قال:

ـ ألم نتفق على أن أكتب سيرة حياتك؟

لم أدر ما يعنيه بالسؤال وعلاقته بما يشغله كل هذه الأيام، وقلت:

ـ ليس بالتحديد. أنا كنت مشغولا بالجهة السابعة.

رأيت نظرته وقد تملكها شيء من الاضطراب والغضب. أضفت:

ـ هي سيرة حياة تشبه حياتي، وحياة أناس آخرين. سيرة الأوهام والأخيلة. أنسيت أنني كنت أرغب في أن أكتب كتابا أدون فيه أحلامي؟

بدا شاردا ثم قال:

ـ هل كنت تسرد أمام آلة التسجيل أحداثا لم تقع، وتتحدث عن شخصيات لم توجد؟

ضحكت وقلت:

ـ كفاك من الأسئلة. أين غبت كل هذه الأيام؟

زفر الهواء من فمه وقال:

ـ كنت أحيا في غابة أشجارها تسكنها الخفافيش، وكانت معي مرآة أرى فيها حياتي.

وضع النادل أمامنا كأسين مشعشعتين بالثلج، فأخذ كأسه بلهفة وشرب نصفها دفعة واحدة، وبدا في عينيه الأسى والشرود.

كرهت أن يقرأ الناس صورة عن هذا الفشل اليومي إلا إذا كانوا سوف يستلذون به أو سيجدون فيه شيئا من فشل حياتهم، وما كان يهمني أن أختصر حياة الناس في النجاح والفشل، فالحياة يرغب الجميع في أن يحياها على ما نتجرعه فيها من مرارة، ومجنون من ينتحر أو يسعى نحو حتفه حتى وإن كان يحيا في أحلك اللحظات.

وأنا في وقت مضى كنت أحب أن أنوب عن الناس في الحياة النيابية وأتدخل لمناقشة ميزانية الدولة وأناقش قضايا السياحة والعقار وما ينزل على البلاد من كوارث طارئة وما له علاقة بخروقات الحريات العامة وغير ذلك، وها أنا لا أقدر على أن أنوب عن الناس في شيء، حتى في التقاط تفاصيل حياتهم اليومية المعذبة، وفي أن أبني ملجأ خيريا فوق خرابة من الخرابات يحضن المعاقين أو أطفال الشوارع أو العميان، خوفا من أن يأتي رجل آخر من هذا الزمان يسرق صندوق ما تبرعت به من مال، وهي لحظة خوف طارئة، رغم أن ما كان قد وقع في ذلك الزمان تكرر اليوم مع مؤسسة محمد الخامس للتضامن، حينما ذاعت بعض الأخبار عن رجال السلطة الذين سرقوا أطعمة الفقراء التي كانت المؤسسة تنوي أن تقدمها لهم، وسمعنا الناطق باسم الحكومة يذيع بلاغا ينهي فيه إلى العموم خبر فتح تحقيق في الموضوع، والتحقيق لم تنشر الحكومة نتائجه، ورغم ذلك فلاشك أن لصوص المال الذي وهب للفقراء سينتهون إلى نهاية الحاج الجزار أو إلى نهاية أسوأ.

قلت هي لحظة خوف طارئة، فاللصوص يوجدون في كل مكان، ويمكن أن أفكر في هذا المشروع الخيري، فما معي من المال يزيد عن حاجياتي الشخصية وقد تعودت على إنفاق قليل وعلى الإقامة في فندق صغير هو فندق النخيل. ولن أقسم مالي على زكريا وابتسام لسبب واحد و هو رغبتي في أن يخوض كل واحدة منهما تجربته في معترك الحياة، فابتسام تتاجر بالتهريب وزكريا صارت له محضنة لتربية الدجاج، ولكن علي أن أشاور رجل قانون حتى أعترف ببنوة ابتسام لي وانتمائها الشرعي لي كأب، لتحمل اسم عائلة الدباغ، حتى وإن كانت لا تعرف شيئا عن هذه العائلة، ولن أترك للوارث ما يرث، فلربما كان بناء ملجإ خيري سوف يخرجني من حياة غرفة الفندق إلى حياة أوسع أتساكن فيها مع اليتامى والمحرومين من أطفال

الشوارع أو مع العميان أو المعاقين، وربما بعد انطفاء تلك النار التي كانت حارقة للجسد سأجد في المشروع الخيري ما يلبي ندائي للذهاب في جهة واحدة على الأقل، من تلك الجهات الست، وحالما أمشي فيها فهي التي سوف تحدد اسمها ونعتها وصفتها، ولن أخاف على نفسي ساعتها من الشك في امتلاكي، على الأقل، لجهة واحدة حتى وإن كانت لها جهاتها التي كانت قد قادتني إلى الجهة السابعة.

ظل يوسف جالسا أمامي وكأنه في مأتم، إلى أن جاء مولاي عبد السلام، فارتحت لمجيئه الذي قد يفرج ما تكاثف من سحب سوداء على جلستنا.

بعد ملاطفات وأحاديث أخرجتُ الظرف الذي يحتوي على عشرين ألف درهم وأظهرته أمام يوسف وقلت:

ـ أرغب صادقا في أن تقبل هذا المال.

فتغيرت نظرته إلي وإلى المغلف وقال:

ـ آ السي عبد الحميد، هل نسيت العشرة ؟

وقلت:

ـ ما نسيت.

فقال:

ـ أنا عاشرت بيتكم القديم في درب البشارة، ووالدتك لالة خدوج، وجدتك الحاجة زهور، و. . .

فقلت:

هذه أمور مضت وطواها النسيان.

فقال:

ـ ولكني عشتها أفضل مما عشتها أنت، لأنك عشتها ونسيتها،

أما أنا فقد احترقت بها وأنا أصوغها في كتاب الخفافيش.

وقلت له:

ــ اسمع يا ولدي. كفاك من هذه الأوهام، وهاك أجر ما فعلت.

وظننته سوف يمد يده ليتسلم المغلف أو سيغضب ويقول إنه ليس كاتبا تحت الطلب لينسحب من جلستنا فنعيده إليها بعد تلطف واعتذار، ولكنه تبسم وقال:

ــ السي عبد الحميد، سآخذ المال وأنت تعرف ما سوف أفعله به.

نظر إلينا مولاي عبد السلام وقد وشت نظرته بأنه يدرك ما صار بيننا من أسرار. وقلت:

ــ يا أخي يوسف افعل به ما تشاء.

قال:

ــ سأحرر نفسي. سأتحرر من الظلم والعبودية.

ثم ضحك وقال:

ــ ومن عشاء السباغيتي الذي أقوم بتحضيره كل ليلة وآكله كواجب.

نظر إلي مولاي عبد السلام وقال:

ــ هل صار بينكما ما لا أفهمه من كلام؟

وقال لي يوسف:

ــ أنا لم أكتب شيئا عن حياتي الخاصة في القصص والروايات التي كتبتها، ولكن حياتك تشبه حياتي.

وتدخل مولاي عبد السلام فقال ليوسف:

ــ وهل لك جهات أخرى أنت الآخر؟ أنا جهتي هي جهة خولة والسلام، وإذا أحببت أن تكتب سيرة حياتي فخولة هي التي سوف تسردها، إذا كنت أنت تعرف لغة الخيل.

وقلت:

ـ الكاتب كما عليه أن يعرف لغة الطير عليه أيضا أن يعرف لغة النبات ولغة الماء ولغة الخيل.

أخذ يوسف الظرف ووضعه في جيب سترته، وبدا فرحا وقال:

ـ سأطلقها. بهذا الماء سأطلقها وأتحرر.

فقال مولاي غبد السلام مندهشا:

ـ من هي؟

قال يوسف:

ـ القصيرة المكيرة. امرأتي. نوال.

ثم التفت نحوي وقال:

ـ يعجبك الكتاب ؟

فقلت:

ـ ليس هو ذلك الكتاب الذي يجمع الكتب كلها في كتاب واحد.

فقال:

ـ لأن ذلك مستحيل.

وصمت مفكرا في أسباب هذه الاستحالة، ثم قال لي يوسف:

ـ الآن وجدنا إدريس الأصفر. هل نهيئ كتابا آخر ننشره باسمه؟

ولم أرد، فقد كنت أفكر في الملجإ الخيري. وأخذ مولاي عبد السلام يتحدث عن خولة وامتطائه لصهوتها في جولة كانت ستزهق معها روحه، ,أنه ما تردد في خوض تلك المغامرة، فقد بدأت خولة تشيخ وتكاد تكبو أحيانا ولكن ملمسها وهي تطير فوق الأرض ما يزال ناعما وحارقا وعنقها عرقان وهي تقاوم ما حل بجسدها من توان وفتور لتمنحه فوران الدم والارتعاش حيث لا يدفن مسماره إلا في سرجها ويداه تعانقان عنقها والأشياء

والأماكن تغيم وتتوارى حيث لا تبقى سوى جهة هي جهة ذلك الإخصاب الممكن ولكن لا يمكن أن يخصب رجل مع فرس، وذكر متحسرا أن لا أولاد له، وأنه لو كان بإمكانه، يخصب مع خولة وهو فوق سرجها لكان ذلك شيئا باهرا ومفرحا، وطفرت الدموع في عينيه.

اعتذر الكاتب يريد الذهاب وهو يقول إن تحضير سباغيتي ينتظره فاستبقاه مولاي عبد السلام ولكنه تظاهر بالذهاب إلى دورة المياه فانسل ذاهبا إلى شأنه ولم يعد إلى جلستنا بعد انتظار، وما استمرأت ما حدث طوال تلك الجلسة ففعلت بعذر ما فعله يوسف وانسحبت إلى خلاء المراكض الذي خيم عليه ليل بهيم، وبقيت وحيدا.

دم الوعول

المحتويات

الباب الأول:

باب في معاناة مصطفى التواتي، ضابط بقسم الاستعلامات، للحاجة إلى الأسئلة، وهي أسئلة تشمل كل الموضوعات التي يمكن أن تفسر شائعة تحول عبد الرحيم الأزرق إلى قزم، واحتمال أن يكون ذلك التحول إشاعة مغرضة تمس بأمن المواطنين.

الباب الثاني:

وفيه يسرد مقدم برنامج تلفزيوني، اسمه عباس المرادي تفاصيل استغلال اللحظة لإجراء مقابلة مع عبد الرحيم الأزرق، ولكن خانه المصور الذي تأخر في المرحاض.

الباب الثالث:

وهو يشمل رواية لكل من مريم طليقة عبد الرحيم ووالديه عبد الغني وبديعة، وهي رواية تفضح الكثير من أسرار العائلة.

الباب الرابع:

ويشمل روايتين إضافيتين، لكل من مصطفى التواتي ضابط الاستعلامات وعباس المرادي معد البرنامج التلفزيوني، وهما يتحولان إلى قزمين.

الباب الخامس:

باب في ما يسميه عبد الرحيم الأزرق بحكايته البسيطة، لكنها تشبه حكاية الطاق وطرطلاق والكبش المشوي عالأوراق.

الباب السادس:

باب في ما يسميه عبد الرحيم الأزرق بالنازلة، وهي حادثة تراوحت بين الهزل والجد، فهي على ما يعتقد عبد الرحيم سفر في صحراء، كأنها صحراء عمره، ولكن هي الصحراء نفسها، التي لا يحدها غير الصحراء.

الباب السابع:

باب في الأيام البيضاء والأيام السوداء التي عاشتها المصحة العقلية، وفيه نعرف هل عبد الرحيم الأزرق قزم أم أن المصحة كلها حومة للأقزام.

[وكن حلو الكلام، متسق النظام، خفي السرقة لطيف الأخذ واسع المذهب، لطيف المغارس، جميل الملابس، لكلامك لَيْطَةٌ بالقلب، وعبث بالروح، وبرد على الكبد.

ولا تكن غليظ اللفظ، كثير العقد، واهتم بالسلاسة والبعد عن المسلوك، فلا تبرز ما يُخفى، ولا تُكَدِّرْ ما يُصَفَّى، حتى تكون للقارئ منك سكرة في القول، إذا ما أفاق منها خُمِر، وإذا خمر سدر.]

ابن ضربان الشرياقي

الباب الأول

[باب في معاناة مصطفى التواتي،
ضابط بقسم الاستعلامات،
للحاجة إلى الأسئلة،
وهي أسئلة تشمل كل الموضوعات التي يمكن أن تفسر
شائعة تحول عبد الرحيم الأزرق إلى قزم،
واحتمال أن يكون ذلك التحول إشاعة مغرضة تمس بأمن المواطنين.]

موضوع للتحقيق والبحث:

الأخبار التي وصلتنا تقول إن رجلا عاديا تحول إلى قزم. ولدينا كثير من التقارير التي كتبها مخبرون نعرف أنهم أشبه بالأميين، فهم لا يعرفون كيف يشتغلون ولا من أين يستقون المعلومات، لا يدركون من أسرار المهنة غير التبجح بذاتهم وممارسة العنف على مواطنين أبرياء، ولكن جهاز أمن الدولة مع ذلك لا يستغني عنهم.

التقارير تقول إن الإشاعة قوية وقد انطلقت من فاس، لكنها انتشرت في الدار البيضاء والرباط وفي كل المدن. انتشرت بروايات متعددة، وذُكر لها العديد من الأسباب فصارت موضوعا لخيال الناس يزيدون فيها وينقصون، ولكنهم جميعا يخافون من أن يصبحوا بين عشية وضحاها أقزاما، وهذا الخوف هو ما يجعل الدوائر الأمنية تتحرك، سيما وأن ما يهمها هو أمن المواطنين.

جاء في التقارير أن الرجل اسمه عبد الرحيم الأزرق، ولأن المحققين لا يحققون في شيء، فعليهم أن يأتونا به إلى دائرة الاستعلامات حتى نحقق في الإسم إن كان موجودا بالفعل أم أنه اسم حركي لمفسد أو إرهابي أو تاجر للمخدرات، فقد يكون الاسم منتحلا، لكن من تتبعوا الإشاعات من المخبرين أكدوا على أن صاحب هذا الاسم ممرض في مصحة سيدي بوجيدة العقلية، يقارب الستين، مطلق، يعيش وحيدا، ليست له سوابق، كان يعيش حياة عادية، ومعروف بين الناس بقامته العادية، فقد كان متوسط الطول، ولكنه فجأة ظهر كقزم، وهذا كل ما لدينا من معلومات.

غموض يلف الموضوع

حادثة غريبة وغامضة تتعلق بمواطن راجت حوله الإشاعات، ولو كان الأمر يتعلق به وحده لتركناه يعيش قزما ولخضنا في الأمور الجادة التي تهم البلاد، ولكنه مواطن شائعة، والشائعات بالنسبة لنا لها خطورتها وتأثيرها على الرأي العام، يجب أن تُدرس، وأن تستثمر إذا كانت لصالح الدولة، وأن تحاصر، ولو بإطلاق شائعات أخرى، إذا كان الأمر ليس في الصالح العام.

تحقيق مفترض

حينما وصلتنا التقارير من المخبرين أرسلتُ من قسم الاستعلامات من يقومون بالواجب، وأوجب ما عليهم أن يقوموا به هو أن يجدّوا في البحث عن عبد الرحيم الأزرق، في كل مكان، وأن يأتوني به، حتى أتحقق منه فأعاينه وأفحصه من الداخل والخارج وأقارن بين الشخص الذي وجدناه وهو عبد الرحيم الأزرق وبين ما توصلنا إليه عن حياته من أخبار وعادات يومية وأن نعرف كل شيء عن مزاجه وطبائعه، ومعاملته لأهله ولزملائه الممرضين في المصحة وللمرضى النزلاء، وأن نصل إلى أحلامه وتعليقاته على ما يشاهده في التلفزيون من أخبار أو مباريات لكرة القدم أو مسلسلات، وهل هناك جريدة معينة هي التي اعتاد قراءتها أو النظر في عناوينها، وهل ينتمي إلى حزب معين أو نقابة من النقابة أو جمعية من جمعيات حقوق الإنسان، وهل يصلي الصلاة في وقتها ويتدبر القرآن في تلاوته أم أنه مستهتر بشؤون دينه، هل يشرب الخمر وهل له علاقة بالنساء، وأيهن، فإن وجدنا امرأة كانت له بها علاقة نأتي بها ونسألها عن رائحة جسده وعن عاداته وكلمات الغزل التي كان يقولها، ومتى كان يغضب.

وعلينا أن نعرف علاقته وبالأولياء والصالحين وهل يزور الأضرحة، وما دام مُطلّقا فما هي أسباب الطلاق، وهل زوجته هي التي طلبت الطلاق،

وما الذي يقوله الجيران عن خصومات محتملة مع زوجته هي التي أدت إلى الطلاق، وإن كان له أبناء استجوبناهم وسمعنا ما يقولون عن والدهم القزم، هل مزاجه سوداوي أم أنه يضحك، هل يضحك على نفسه أم على الآخرين، ومن هم الآخرون الذين يضحك عليهم، ألهم علاقة بالجيران ورواد المقهى وزملاءه الممرضين، أم لهم علاقة برجال محترمين تطاول عليهم ناسيا قدره ومكانته؟

وكل هذا بطبيعة الحال، هو مشروع أسئلة للتحقيق، ولكن متى نتمكن من الوصول إليه فثمة أسئلة أخرى بانتظاره أنا بصدد التفكير في موضوعاتها.

أسئلة كبيرة يجيب عنها قزم

مادامت الإشاعات تقول إنه رجل يقارب الستين، فلاشك أنه قد عايش كثيرا من الأحداث التي وقعت على مر الخمسين سنة الماضية على الأقل، فابن العاشرة يتذكر ما شاهده أو عاشه من أحداث ووقائع، وربما يكون قد شارك في بعضها، فعلينا أن نختبر ذاكرته في كل المراحل التي عرف فيها المغرب أحداثا كبرى، فنعرف كيف يتذكر معارك تحرير الوطن أيام الاستعمار، وهل يحفظ أسماء الشهداء ورجال المقاومة، وما تعنيه عريضة المطالبة بالاستقلال، ثم نطلب منه أن يكتب لنا سطورا قليلة بخط يده يلخص فيها حياة الملك محمد الخامس وأعماله وفضله على البلاد، وظهوره على القمر، ونفيه مع أسرته إلى جزيرة كرسيكا، وأفراح الاستقلال، وفجيعة موت الملك، وفرح الشعب بتولي ولي عهده الأمير مولاي الحسن مُلْك البلاد.

والمسألة بسيطة، فكأنه سوف يكتب موضوعا في مباراة للتوظيف كالتي اجتزناها نحن، وهي ليست مباراة فهو لن يُوظف ولن يرسب في المباراة،

ولكننا فقط، نريد أن نقبض على بعض الكلمات فيما سوف يكتب، وتلك الكلمات سوف تعطينا المفتاح لبعض الأسئلة الأخرى.

سنساعده ولابد، فنوجه أجوبته نحو ما نريد الوصول إليه، وهو أيضا سوف يساعدنا، حتى ونحن نطلب منه أن يلقي على نفسه بعض الأسئلة ويجيب عنها، وإذا رأينا أنه متعب أو ضاق به الحال أو خائف من مقابلتنا نمهله وقتا ليرتاح، ثم نعود لنسأله عن انشقاق الاتحاد الوطني للقوات الشعبية عن حزب الاستقلال، وعما يتذكره من صخب نقاشات أول برلمان مغربي وحيث كان التلفزيون في بداية الستينات ومع أول ظهور له يبث تلك المناقشات الحامية الوطيس بين المعارضة والحكومة، وهو ما أدى بالملك الراحل إلى إعلان حالة الاستثناء، وعلينا أن نسأله ما هي حالة الاستثناء، وهل هو حالة استثناء؟

عليه في هذه اللحظة أن يجيب كما يشاء، بالضحك أو بالبكاء، بالكلام أو بالصمت، وفي كل الحالات سوف نعرف فهمه لحالة الاستثناء.

ثم ما الذي يعرفه عن المهدي بنبركة، ومومن الديوري، وشيخ العرب، وعمر بنجلون، وما الذي يعرف عن انقلاب الصخيرات الفاشل، وهل شارك فرد من أسرته أو جار من جيرانه في المسيرة الخضراء المظفرة، وهل ساهم في بناء معلمة المغرب، مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء، بمبلغ مالي وهل كانت مساهمته إجبارا أم تبرعا، وإن أجاب بأنه تطوع فلماذا وإن قال إنهم قد أجبروه على التبرع فمن هم الذين أجبروه، وما دليله على ذلك؟

أسئلة أخرى كبيرة وأكبر من القزم، ولكن الأسئلة لا تقاس بالكبر والصغر، بل بما لها من فائدة في الأجوبة.

دموع المحققين

سوف نذرف الدموع، ونقول له إننا نتذكر موت الملك الراحل ونبكيه، لنرى إن كان سيبكي مثلنا، وساعتها علينا أن نسأله هل كان يحب الملك الراحل وهل بكى في يوم موته فذرف عليه الدموع مثل التي نذرفها الآن. ونطلب منه أن يقول بصراحة، فكلنا تحررنا من الماضي، ويمكننا أن نقول كل شيء بصراحة عن ذلك الماضي، حتى إن بعض رجال السياسة قد تجاسروا كثيرا وتجاوزوا الحد، فمن اللباقة واللياقة أن نمارس نقد الماضي، ولكن مع الاحترام، ودون تجريح أو مبالغة أو تعرية لعوراتنا التي لن يستفيد منها غير أعداء الوطن.

نتركه هو نفسه يجفف دموعه ودموعنا، ثم نسأله أسئلة أخرى، وإن رأيناه قد تعب فستطرح عليه سؤالا بسيطا حول شعار المملكة.

تعب الأسئلة

وأوف ! يبدو أن الرجل لن يتعب من الأجوبة وأنا تعبت من الأسئلة، فالأسئلة استغرقت تاريخ الوطن، والرجل عاصر ثلاثة ملوك.

ولكن لا ينبغي أن أتعب، فلنا الصبر، مهنتنا هي مهنة المتاعب، ففي زمان حقوق الإنسان هذا لا يمكننا أن نبتز أجوبة بواسطة التعذيب، فنحن نحترم من نستجوبهم ونقدم لهم الشاي والقهوة، ونمازحهم، ونحاول ألا يبدو تعب المهنة على وجوهنا، أو تبدو الشراسة علينا أو أن نفوه بشتائم جارحة أو أن نتلفظ بعبارات سوقية، فنحن أناس مهذبون، ونعمل في إطار القانون، لا نستعمل العنف، لأنه لا يوصل إلى نتيجة، ولأن من تسأله فأنت في جميع الأحوال ترغب في أن تصل من أجوبته إلى نتيجة، وكل سؤال يفتح لك بابا للوصول إلى مبتغاك، ولأنك لست معقدا بالمعلومات التي تعرف، فهي

معلومات ليست جامدة، عليك أن تساعده ليجيب الجواب الذي يريد، أو الذي تريد.

هذا ما نفعله مع جميع الناس، وهي تقنيات نسعى بها للوصول إلى الحقيقة، حقيقة ما نريد، وما فيه خير للصالح العام، لكننا دائما نعمل بناء على الشك في كل شيء، وفي كل التفاصيل حتى ولو كانت صغيرة، فنمحص فيها بالأسئلة، ونقارن بين الأجوبة وأجوبة أخرى، وفي الغالب نبدأ من أسئلة لا يتوقعها المستجوَب، فنتجه إلى ما لا يخطر على باله، لنتجنب ما يكون قد افترضه من أسئلة فأعد لها أجوبة جاهزة ومضللة، وعلى سبيل المثال يمكن أن نلاحظ لون قميصه فنسأله لماذا اختار له ذلك اللون، أو نلاحظ وجهه فنسأله منذ متى لم يحلق دقنه وماذا شغله عن ذلك، ومنذ متى حضر آخر عرس من الأعراس، وما هي نهاية مسلسل(الشموع لا تحترق)، وهل يفضل له نهاية أخرى، ويحتمل أن يجيبنا بأنه لم يره، فساعتها نسأله لماذا، هل كان مشغولا بشيء؟ وأين كان وقت عرض ذلك المسلسل؟ ويمكن أيضا أن نطلب منه بناء على عنوان المسلسل أن يتنبأ بموضوعه، فالمعروف أن الشموع تحترق، وما هو الأمر المعني بالشموع التي لا تحترق؟.

كل هذا سوف نفعله مع عبد الرحيم الأزرق متى وجدناه، وسنجده في أقرب وقت ممكن، فرجالنا يجدون في البحث عنه في كل مكان.

رجال مرحون

ونحن نحب المرح، بل إننا نجعل من يحضر أمامنا مرحا بالرغم عنه، لنمرح معه، والمسألة كلها مسألة راحة لنا وله، نحن نسأل وهو يجيب، وعندما تتوافق رغبتنا مع رغبته، مائة في المائة، فقد وصلنا نحن وهو إلى الغاية والمطلوب.

نحن لا نصعق أحدا بالكهرباء

المطلوب بسيط وهو الوصول إلى الحقيقة التي نقدمها للضابطة القضائية، فنحن لا نضرب، ولا نُجلس رجالا ذكورا لم يقرب أحد أدبارهم على القوارير، ولا نحن نعلق أحدا في المعلاق الذي يسمى الطائرة، ولا نقلم أظافر الناس بل إننا نفرض عليهم تقليمها بأنفسهم بمقصات خاصة بالأظافر حتى لا تكثر الأوساخ والميكروبات تحتها فيتسمم أناس هم على ذمتنا ونحن مسؤولون عن صحتهم، فنحن لا نصعق بالكهرباء، ولا نرعب أحدا من أجل أن يعترف، وربما كان شيء يحدث من هذا في وقت مضى، أو لم يحدث فنحن لا نعترف به ولكن بعض الصحف وبعض جمعيات حقوق الإنسان تضخم الأمور وتزيد فيها استنادا إلى أقوال أناس يرغبون في أن يكونوا ضحايا، وأن تشتهر أسماؤهم على حسابنا. قد يكون شيء من ذلك قد حدث، وهي هفوات أشخاص لا غير. ولذلك بدأنا اليوم نأخذ حذرنا، فنحتاط، فلا نصفع أحدا ولا نركل أحدا ولا نبصق في وجه أحد، فما بالك بأن نقوم بتعذيب المواطنين على ذلك النحو المذكور. نحن اليوم في العهد الجديد، وعفا الله عما سلف، وقد طوينا صفحة الماضي.

هل عبد الرحيم الأزرق قزم بالفعل؟

السيد الذي أريده أن يكون أمامي اليوم، هو عبد الرحيم الأزرق، وأريد أن أراه لأعرف هل هو قزم بالفعل، فإن لم يكن قزما فسأسأله عن الإشاعة، ومن أطلقها، وكيف ذاعت وانتشرت حتى وصلت إلى بعض المدن، وما الهدف من إطلاقها، وإن كان قزما فسأسأله عن عبد الرحيم الأزرق الآخر، الممرض في مصحة سيدي بوجيدة للأمراض العقلية، المعروف بقامته العادية لدى جميع الناس، أين هو، وما علاقته به، هل سبق له أن سمع عنه، وهل هما معا من أسرة واحدة هي أسرة الأزرق أم أن من قبيل المصادفة وجدا

يحملان نفس الاسم، وما هي أوجه الاختلاف بينهما، في أي شيء، مثلا، في التفكير، في العادات، في تفضيل الشاي على القهوة، أو تفضيل الكوكاكولا عليهما معا.

وإن أبكيناه فسنعتبر ذلك من قبيل الضحك الذي يدمع عيني الإنسان، ولكننا سنحلل دموعه لنرى كم نسبة الأملاح فيها، لنعرف هل هي دموع حقيقية أم دموع تماسيح.

سهولة التحقيق وصعوبة التعذيب

أنا أحب التحقيق في القضايا التي يلفها الغموض، وأما القضايا الواضحة فأكلف بها هؤلاء الكسالى الذين يقضون نهارهم في المكاتب يتظاهرون بقراءة الجرائد، وهم يمططون أذرعهم، وإن تثاءبوا فالواقف بالقرب منهم يشم رائحة الخمر.

يقولون إنهم يكتبون المحاضر على الآلة الكاتبة بيد واحدة هي اليمنى بينما اليد اليسرى تحمل المطرية، حتى وهم داخل المكاتب، بسبب المطر الذي يتسرب من السقوف.

وأنا أعرف أن كل واحد منهم يحصل على دخل يومي لا يقل عن خمسمائة درهم، فهم يجدّون في إلقاء القبض على المهربين ومعهم الحشيش، ثم هم أنفسهم يرسلون من يخبر ذويهم أو معلميهم ليأتوا برشوة يدعون أنها للكومسير، ويطالبون بالإسراع بذلك قبل كتابة المحضر، فيأخذون المال ويطلقون سراح من كانوا قد اعتقلوه، ويحجزون الحشيش لتسليمه لمن يبيعه من جديد، ليعتقل من جديد، ويأتي من يدفع عنه الرشوة من جديد، وهكذا دواليك.

أعرفهم، ولكن ماذا أفعل والكل يعرف هذه الحال؟ أنا لست المسيح عيسى بن مريم لأخلص العالم من الشر، مصطفى التواتي مجرد ضابط في

الاستعلامات والقضايا ذات الطبيعة السياسية هي التي تهمني، فأنا أعرف إضراب الطلبة قبل أن يقع، وأسماء الخطباء وما قالوه في الخطب، وتجمعات المساجد التي لم تبنها وزارة الأوقاف ولا عينت عليها قيمين وإنما هي مساجد في دور أرضية لبعض العمارات، لا يُخطب فيها للجمعة بالخطبة التي أرسلتها وزارة الأوقاف للخطباء، ولا يُدعى فيها لأمير المؤمنين، وتسجيلاتها موجودة عندي في المكتب، بأصوات خطباء لباسهم أفغاني، ولهجتهم حجازية، وتعظيمهم لأسامة بن لادن يصل إلى التأليه، وشتائمهم لأمريكا وللحكام العرب هي التي تستغرق معظم الوقت، فأي صلاة جمعة هذه التي لا تشيع الخشوع في النفس والطمأنينة في القلوب بل تحرض على الكراهية وتحول المواطن إلى قنبلة موقوتة؟

المساخيط. ها هم في المكاتب يتهيأون لغنائم يومهم، ويتركون لي التحقيق في الملمات، في المصائب التي تحل بهذا الوطن، ولكن أنا فرح بالتحقيق في هذه الملمات والمصائب، وأخطرها الشائعات.

إشاعة عن انتحار مسؤول كبير

مرة وصلنا بلاغ عن انتحار مسؤول كبير، ثم تبين أن الشخص المنتحر يتشابه معه في الاسم، والناس سمعوا اسم المنتحر فحسبوه هو ذلك الرجل المشهور، وراجت الإشاعة، حتى اضطر ذلك المسؤول الكبير للظهور أمام الناس في الشوارع والمقاهي والأماكن العمومية، بل إنه في يوم ظهوره على شاشة التلفزيون لمحت له معدة البرنامج مرضية بنت الشعط إلى الإشاعة فسألته عن رأيه في الانتحار، ورد بأنه جبن، مروق عن الملة والدين، خلل، والمنتحر لا يرضى عنه الله ولا يرضى عنه الناس. ونظرت مرضية بنت الشعط إلى الكاميرا لترسل من عينيها الماكرتين رسالة للنظارة، مفادها هو تفنيد شائعة انتحار المسؤول الكبير.

لكن شائعة أخرى انتشرت، مفادها أن ذلك الرجل الذي يتعمد الظهور في الأماكن العمومية، والذي جاءت به مرضية بنت الشعط إلى برنامجها التلفزيوني الشهير، ليس هو المسؤول الكبير، وإنما هو شبيه من أشباهه، فما العمل ؟

ما العمل؟

عبد الرحيم يستحم في حامة مولاي يعقوب

أما وإن عثرنا على عبد الرحيم الأزرق، فكل تلك الأسئلة السابقة سوف تدرج وفي إطار من الفكاهة، وستأتي مخللة بأسئلة أخرى، من مثل: هل تحب أكل البقولة والملوخية والحلزون؟ وعلى ذكر الحلزون، فما رأيك في قرون استشعار الحلزون، وما الذي يستشعره بها الحلزون، وهل يعجبك الاستحمام في حامة مولاي يعقوب، نعني، الغطس والاختفاء عن أنظار الناس، تحت الماء، وكم تدون مدة الاختفاء في ذلك الغطس في الصهريج، نعني، في المسبح؟ وهل تفضل ذلك في الغطس في الصباح أم في المساء، يعني، متى تغطس، أي متى تختفي عن الأنظار وأنت تحت الماء، حتى والماء هو ماء حامة مولاي يعقوب؟ وما الذي تتذكره عن الصهريج القديم؟

فإن جاءته ذكريات العوم في الحامة، بدا متحمسا للسباحة في الماء الكبريتي في المسبح فلننقل الجلسة إلى هناك، فليس لدينا من مانع، فنحن نوفر له الجو الملائم الذي يسمح له باستحضار الذكريات، حتى وإن اقتضى الأمر منا أن نأخذه إلى أماكن تلك الذكريات.

حتى الحلزون نفسه، يمكن أن يأتي به مطبوخا في مرق لذيذ له عبق ورائحة، فنذيقه منه، وساعتها يمكن أن نسأله عن الحلزون، وعن قرون الاستشعار.

وهل من عيب في أن نسأله عن الوالدة رحمها الله إن كانت قد ماتت، وأبقاها الله له إن كانت ما تزال على قيد الحياة؟

هل يذكر حادثة طريفة أو مؤلمة وقعت له في صباه، لها علاقة بالولد، أو بجار، أو بترب من أتراب الطفولة؟

هل ثمة طائر في قفص كانوا يربونه في البيت، وهل كان يطعمه الزئان أم فتات الخبز، وهل هو يحب الطيور أم الأقفاص؟

وماذا يتذكر عن أبواب فاس، ولماذا فاس لها أبواب، وما الذي تذكره به فكرة الأبواب التي توجد داخل الأبواب؟

هل يذكر شيئا عن تلك الأيام التي تساقط فيها الثلج على فاس فظهرت كمدينة بيضاء، فهل فاس مدينة بيضاء، ولماذا هي ليست زرقاء كما هو اسمه العائلي؟

ومن قبيل المزاح أن نوجه سؤالا حول علاقته في الفراش مع زوجه، وهل كان قد فلت فلتة مع امرأة أخرى، من هي، ومتى وقع ذلك، وفي أي مكان، فهذه أسئلة حميمة، تجعلنا حميمين معه، كما نحن حميمون مع أنفسنا ومع المواطنين.

مراسلات مع الأهل والأصدقاء

ثم إنه ليس متهما في قضية سياسية، وإنما هو متهم بأنه قزم، والناس الذين روجوا الإشاعة هم الذين يتهمونه، أما نحن فإنما نقوم بالواجب، وهو واجب يفرض علينا أن نقوم به ونحن مرحون، نتظاهر باللامبالاة، ندخن سجائرنا ونشرب القهوة، ونتجول في أرجاء المكاتب، ونتبادل الأحاديث فيما بيننا، فلسنا جلادين كما كانوا يقولون عنا في الجرائد.

وعموما فمن الأسئلة العادية التي يلقيها الناس على بعضهم في كل مكان، ذلك السؤال الذي يتعلق بالبرامج التي تعجبه في التلفزيون، وما رأيه

في أغاني أم كلثوم وما هي أقرب أغنية إلى قلبه ومن هو أعز صديق لديه، وهل له مراسلات مع أهل أو أصدقاء؟

جسد عار أمام المرآة

وما دمنا قد استأنسنا ببعضنا، وبدأنا نحكي عن كل شيء بصراحة، فهل يعجبه أن يرى جسده عاريا أمام المرآة، وكيف يراه، هل هناك علامة هي التي تأخذ باهتمامه، ما هي، ولا مجال للكذب هنا فنحن نستطيع أن يعريه، وحتى أن تضع أمامه مرآة ليرى جسده في المرآة، وفيها نرى تلك العلامة.

لكننا لن نعريه إلا لنكسوه بالريش، فنراه طائرا، لنسأله هل هو رخ أم نعامة.

لتربية الأولاد طريقتان

وبالطبع فسوف نتحدث عن الطريقة التي ربى بها أولاده، هل كانت عصرية أم تقليدية، هل كانت تعتمد على العصا لمن عصى وكان كان يقول الآباء لفقهاء المسيد اقتل آ الفقيه وأنا ندفن، أم بالتسامح ومنح الحرية للطفل في التعبير حتى تتكون شخصيته، وما هي الطريقة الأمثل، أو ما هي عيوب كل من الطريقتين، فمعروف أن الأولى تورث الأبناء عقد الخوف، والثانية تجعل الأبناء يتجاسرون على آبائهم فلا يطيعونهم في شيء ويتمردون عليهم لأتفه الأسباب.

ولاشك أنه يعرف كل هذا، فسنضيف إلى علمه أننا اليوم في عصر حقوق الإنسان، فنعددها عليه حتى نراه يعدها معنا على رؤوس أصابعه: حقوق المرأة وحقوق الطفل وحق الرأي وحق الاختلاف وحق المرحاض، وحتى حق الإنسان في الضراط، ولم لا؟ فالإنسان قد تنتفخ بطنه بالغازات، فيحتاج إلى الضراط، فهل تمنعه من ذلك؟

لكن حقوق الإنسان الأخرى، هي الحق في العمل، والحق في التعليم، والحق في الصحة، وهي كلها حقوق تختلف عن حقوق الحيوان، الذي ليس له سوى حق حمايته من الانقراض، وفي ذلك الباب يدخل الحفاظ على بيئته، وعلاجه إن مرض، وهي أمور عصرية جاء بها العصر، دون أن تلغي ما اهتم به أجدادنا من حقوق الجار، وحقوق البائع والمشتري، وحقوق العبد على سيده وحقوق السيد على العبد، فقد كانت لأسواق النخاسة قوانين سنت من الفقه الإسلامي، وأما حقوق الحيوان، فقد اهتم بها القدماء والمحدثون، حتى إنهم قد أقاموا في مراكش (دار بلارج) للاهتمام باللقالق التي تصاب بالأذى، وفي طنجة جعلوا مقبرة خاصة بالكلاب والقطط، فكرمنا الحيوان في حياته وموته، فكما كرم الله تعالى بني آدم فقد كرموا الحيوان، فإذا كنا نصل الماضي المجيد بالحاضر التليد فما هو فهم عبد الرحيم الأزرق للأصالة والمعاصرة، وأي تنافر أو لقاء بينهما؟

وعموما فكيف كانت علاقته بأبنائه، وهل هو مع القمع أم مع الحرية، أم يفضل أوسط الأمور، أي شوية من القمع وشوية من الحرية واشكون هو اللي بزاف فيهم؟

كوكا كولا أم بيبسي كولا

ومن قبيل التعارف أكثر بيننا وبينه نسأله هل له أخت، فما اسمها، هل يحبها، وطبيعي بأن يجيب بأن كل الذكور في العائلات يحبون أخواتهم البنات، ودعنا من الشعور بالغيرة إن كان الآباء قد فضلوا البنت على الولد في شيء، فليس هذا هو بيت القصيد، ولكن سوف لن نفشي له سرا إذا ما أطلعناه على بعض الملفات التي عرضناها على القضاء، والتي تتعلق بزنى المحارم. سنطلعه عليها ونسأله عن رأيه فيها. ففي بعض الأحياء تنشأ علاقات خاصة بين الأخ والأخت، سيما مع وقت البلوغ، وإن كان ضيق المسكن قد جعل

الأخت تنام في غرفة واحدة مع أخيها، وإن كان الظلام قد عم فستر كل شيء، فالنفس أمارة بالسوء، والأخوان المراهقان يعميهما عن كل سوء ما هما فيه من نار تشتعل في الجسد، جسد الأخ وجسد الأخت، فإن كانا لا يصليان ولا ينظران إلى ربهما فقد يحدث مثل ما حدث في عدة بيوت ولدينا عليه تقارير ومحاضر واعترافات لم نأخذها بالعنف.

فهل سولت له النفس الأمارة بالسوء في مثل هذه الظروف أن يشتهي جسد أخته ذات يوم وهو مراهق؟

لتلطيف حدة هذا السؤال يمكن أن نحكي له بعض الحوادث الموجودة في الملفات، ونحن نطلعه عليها، وهي تتعلق بأناس لم يكتفوا بما سولته النفس في هذا الباب بل إنهم قد قاموا بعمليات اغتصاب. ولذلك نسأله عن الاغتصاب، فهل سبق له أن اغتصب امرأة، أو فتاة، وهل سبق له أن اغتصب نفسه؟

ثم ننتقل إلى مقهاه المفضل، ونوع المشروب الذي يشربه، القهوة؟ ولماذا لا يشرب الشاي؟ كوكاكولا؟ ولماذا لا يفضل عليها أختها بيبسي، أو سبرايت، أو هواي؟ وإذا كان المقهى الذي يرتاده قريبا من حانة أو لم يكن فهل سبق له أن شرب الخمر أو دخن المخدرات، وهل. . .؟ وهلم جرا. . .

تفجيرات بالدار البيضاء

وسنسأله عن الإرهاب، فما هو الإرهاب، هل له علاقة بالسياسة وحدها؟

ما الذي يعنيه بالنسبة له فصل الدين عن الدولة؟

نحن لا نؤمن به ولنا أمير للمؤمنين أطال الله بقاءه، فقد يكون علمانيا كافرا يشيع أفكار الإلحاد بين الناس.

ثم ما الذي يعنيه تنظيم القاعدة، وهل سبق له أن شارك في مظاهرة حول فلسطين فرأى بعض الناس يستغلون المناسبة ويرددون شعارات مؤيدة

لأسامة بن لادن، فما لهم وهم مغاربة يعيشون في أمان يتدخلون في هذه الأمور؟

قل يا أخي عبد الرحيم فنحن قد أصبحنا أصدقاء نتبادل الأفكار، فما الذي دهاهم حتى قاموا بتفجيرات الدار البيضاء وقتلوا المواطنين الأبرياء؟

من هم، وماذا تعرف عنهم، وما رأيك في هؤلاء الشباب الأغرار الذين يرتدون اللباس الأفغاني وهم لم يدرسوا الشريعة الإسلامية السمحة ولم يتخرجوا من القرويين فأصبحوا بجهلهم وغرورهم يفتون في أمور الدين؟

هل جاء ذلك كرد فعل على الفراغ السياسي الذي لم تملأه الأحزاب بتأطير المواطنين وتنظيم تجمعاتهم في إطار المشروعية وإعطائهم حق التعبير والنقد سواء تعلق الأمر بالحزب نفسه أم بقضايا الوطن؟

ثم قل لي، أنت مولع بسماع الموسيقى، وهل يعجبك صوت عبد الهادي بلخياط؟

طريقة لشرب الأسئلة، كما تُشرب الفودكا

أنا أفكر في طريقة شرب الفودكا، كما يفعل الروس، فهم يصبون في جوفهم كأسا من نار وبدرجة عالية من الكحول، ثم يصبون بعدها كأسا من مونادا بطعم البرتقال، ومعنى ذلك أن النار تبرد في الجوف، لتحمى من جديد، فتتوهج العروق، ولكي لا تحترق تماما فالمونادا تصب عليها شيئا من برد ولا سلام.

ومن هذه الطريقة استوحيت تقنية شرب الأسئلة، فبعضها يكون كجرعة الفودكا حارقا يشعل في الصدر نار الكحول، ثم تعقبها أسئلة مازحة هي كجرعة مونادا بطعم البرتقال.

لماذا تخليل سؤال بسؤال؟

تخليل هذه الأسئلة بتلك مع ابتسام لطيف قد يقرب عملنا من الصورة، فأنا أتعمد الخلط بين مواد ليست من طبيعة واحدة فلا تقبل أن تنسجم مع بعضها، سؤال من هنا وآخر من هناك، والقصد هو الإرباك، فالمستجوب لا يجد الوقت للتفكير في الجواب، وتحضيره، وتمويهه بعبارات غامضة، مترددة، بل إنه لا يقدم جوابا حتى يجد سؤالا آخر يفاجئه، فكأن الأسئلة، وهي تمرح معه، وتلاعبه، صفعات، صفعة من هنا وأخرى تأتي من هناك، أو هي كقوة لا مرئية ترمي الجسد بين جدار وأخر، تلطمه لطما، وهي تخدير للأعصاب، كما هي تشويش على طاقة الإنسان في الكذب، وحتى وإن كان جاهلا بالجواب فهو مضطر لأن يقدم جوابا ملفقا أو كاذبا ليداري به اللحظة، وفي تلك الأجوبة يمكن أن يتبدى لنا ما يعلم وما يجعل، وما يريد أن يخفيه وما يريد أن يعلنه، وسنجد المفتاح لشخصيته، وهو الأهم.

وهذا ليس تعذيبا، فتشبيه السؤال المباغت بالصفعة هو مجرد تشبيه، كما أن تشبيهه بالقذف بالجسد من جدار إلى جدار هو مجرد تشبيه، فلا نية لنا في تعذيب أحد، لكن الأسئلة مع كل هذا، تظل مثل الشِّباك، ونحن كالصيادين نرمي بها في البحر فقد نجد فيه أشياء ثمينة وقد لا نجد شيئا، ولكننا لا نخسر شيئا وعلينا أن نرمي بها من جديد.

قزم أم إرهابي أم مهرب للمخدرات؟

عبد الرحيم الأزرق. هذا هو الإسم. الإشاعة كلها تدور حول كونه كان رجلا عادي القامة ثم تحول إلى قزم، ولا أحد يشير إلى شيء آخر، لكن كل الافتراضات ممكنة، فقد يكون على معرفة بأحد الذين تورطوا في عمل إرهابي، أو له معلومات عن العاملين في شبكة لتهريب الدولي للمخدرات.

وربما يوجد في جعبته ما يساعدنا على الكشف عن بعض المخربين سواء من مزوري العملة أو من أعداء وحدتنا الترابية.

القزم ينضم إلى السيرك

وهو حتما سينكر كل ذلك، لكننا سوف نضحك معه قليلا أو كثيرا، فالضحك لا يُؤَدَّى عنه، وسنأخذه ليتجول في عدة أماكن، منها السيرك الدولي للألعاب حتى نجعله يرى الأقزام ويختلط بهم ويكتشف طريقتهم في النظر إلى الناس العاديين الذين يبدون لهم من فوق، وهم يرفعون وجوههم وأعناقهم ليروهم. ستكون هذه هي طريقته أيضا في النظر إلى من هم أعلى منه، ولكن عليه أن يرى الأقزام كيف ينظرون إلى من هم أعلى منهم، ليعرف أنه قزم، هذا إذا ووجدانا وكان قزما بالفعل، وفي هذه الحالة سوف نقترح عليه أن ينضم إلى السيرك، ليتدرب على عمل الأقزام، ويندمج مع أقزام آخرين من كل دول العالم، وبهذه الطريقة سنرتاح منه وسوف تنتهي المشكلة، ولكن بشكل سري، لكي لا تنشغل الجرائد بنا فتكتب مقالات مثيرة للرأي العام، تتهمنا فيها بأننا نبيع اللحم الحي للغرب، بعناه البارحة كيد عاملة واليوم نبيعه كأقزام.

ولكن ماذا سوف يحدث إذا وجدناه وكان رجلا في قامته العادية، فمدنا ببعض المعلومات عن الإرهابيين أو عن مهربي المخدرات الذين هم أيضا أصحاب مقاولات للهجرة السرية؟ ألا يجوز أن نوظفه معنا، وأن نبقي على الإشاعة، بل أن نذكي فيها نار الذيوع، حتى يتكلم الناس بما لم يستطيعوا أن يقولوه في مقرات الأحزاب والنقابات والتجمعات العمومية، فنعرف ما يقولون؟

المدافع عن حقوق الإنسان، السي عبد الجبار

هذا زمان النفاق، وحيث لم يعد بالإمكان أن تجد إنسانا بوجه واحد، وعلى صورة واحدة، يقول ما يفعل، ويفعل ما يقول. غريب أمر الناس في هذا البلد، ومن أوجه الغرابة أن تجد حقوقيين لا شغل لهم غير حقوق الإنسان، وهم حسب المعلومات التي تصل إلينا عنهم يضربون زوجاتهم ويكوون أبناءهم بالنار ويعاملون أمهاتهم بالشتم والتحقير، وأما الخادمات وما يفعلون بهن فتلك مصيبة عظمى، وزوجاتهم وأمهاتهم وأبناؤهم وخادماتهم لا يشتكون بهم إلى منظماتهم، فكيف يكون المشتكى بهم هم المشتكى إليهم؟

وأنا على سبيل المثال، تعشيت في بيت صديق عضو في واحدة من هذه المنظمات، التي أصبحت بينها منافسة على حقوق الإنسان، كما صارت لها مشارب، وكأنها أحزاب سياسية لها اتجاهات مختلفة، بينما حقوق الإنسان لا تستدعي جمعيات، بل جمعية واحدة. والحق أنها متأثرة بانتماء أطرها إلى الأحزاب، وهو الأمر الذي يخلق بينها نوعا من الصراع فلا تتكامل في مهامها، وحتى وإن أعلنت عن نفس الأهداف فهي تدخل مع بعضها في الشقاق والنفاق، تماما كما يحدث في النقابات، ولسنا نحن من نعمل بفكرة فرق تسد، بل هم المتفرقون.

ولما عبرت للسي عبد الجبار عن وجهة نظري هذه، قال لي أنت من رجال السلطة وقد كان يجب أن تأتي أفكارك من المجتمع المدني نفسه، لنقد التشتت، وحيث لا داعي لهذه التفرقة.

قلت له وما في ذلك من عيب؟ إن ما لا يخطر على بال الهيئات والمنظمات يمكن أن يخطر على بال السلطة.

وتطلعت إليَّ زوجته الجميلة، وحثتني على أن أتناول من صحن به أطاييب قالت إنها من صنع يدها، وكان الحث بنظرة فيها غمز خفيف،

واقتراب باليد من يدي كاد يصير حطا عليها ولكن يدها تراجعت. ثم سألتني وهي واقفة تنظر إلي:

ــ هل حقا تحول عبد الرحيم الأزرق إلى قزم؟

قلت لها:

ــ تلك مجرد إشاعات.

وقال لها عبد الجبار:

ــ أنت أيضا وصلتك الإشاعة؟

فعبست في وجهه ولم ترد، وأدركت من نظرتها أنهما متخاصمان.

والحقيقة أنني بدأت أتثاءب، فأردت الذهاب، ولكن مضيفي السي عبد الجبار ألح على تناول العشاء، فنهض نحو المطبخ، واقتربت مني السيدة وهي توسع من عينيها وتبتسم، وتبدو متعجلة من أمرها، وقالت هامسة إن لديها طلبا، فابتسمتُ مجاملة وتأدبا، فقالت عبد الجبار لن يقبل أن أتحدث معك في هذه الأمور، وقالت أختي معلمة في زكوطة وأنا أرجو أن تنقلها إلى مدرسة في شارع الزرقطوني في قلب فاس، ثم وضعت يدها فوق يدي، وأغمضت عينيها وابتسمت، ونهضت وكأنها تتوقع أن يظهر في تلك اللحظة عبد الجبار من الممر المؤدي من المطبخ وهو آت فيرى يدها وهي تضعها فوق يدي.

ثم لحقت به إلى المطبخ وتأخرا كثيرا وكنت أسمع همهمات وما حسبته شتائم يتبادلانها، فأردت الذهاب وأخذت أنادي عبد الجبار، وعبد الجبار لا يرد، فنهضت وسرت في الممر في اتجاه المطبخ، لأجد عبد الجبار وهو يضع السكين في مكان من قلب زوجته.

رآني ورأيته، وأنزل يده، فعدت إلى مكاني في الصالون، وجاء وهو مرتبك وعلامات الاضطراب بادية عليه، فودعته وأثناء خروجي لم تظهر السيدة لأودعها، لكني توقعت أن تحدث جريمة في ذلك البيت بعد خروجي.

البحث جار عن عبد الرحيم الأزرق

الوضع الآن يستدعي النظر في مسألة عبد الرحيم الأزرق. فإذا كان كما قيل ممرضا في مصحة سيدي بوجيدة للأمراض العقلية، فملفه الإداري، وهو متضمن لصورته، سوف يوجد هناك، وستوجد مع الملف تفاصيل أخرى ستهمنا، بل إننا سوف نستجوب الطبيب المسؤول عن المصحة، المسيو جاكار، والممرضين الآخرين، وبعض النزلاء.

سأنتقل إلى المصحة بنفسي، لكني سأبدأ من حارس للسيارات يقف قبالة المصحة، وعينه طوال النهار على من يدخلون المصحة أو يخرجون منها، وهو من سيخبرني عن عبد الرحيم الأزرق، شكله، لباسه، تأخره في المجيء إلى العمل أو انضباطه للوقت، وهل يكون حاملا شيئا في يده في أوقات الخروج، فربما يكون ما يحمله طعاما مسروقا، وأما وإن كان يدخل وشيء في يده فلعله يُدخل للنزلاء بعض الأشياء من ذويهم.

وسأعرف كيف ألتقي خفية بشابة جاءوا بها للعمل في المصحة كمنظفة، ولاشك أنها تنظف المكاتب الإدارية، كما أنها في خدمة المسيو جوكار، وستخبرني عن عبد الرحيم الأزرق بما تعرف، فماذا كانت تسمعه يقول مع زملائه الممرضين، وكيف كان يعامل النزلاء، وهل كان يتلقى مكالمات هاتفية في المصحة، وهل تغزل فيها أو غمز لها في يوم من الأيام، وهل رأته يتخاصم، أو سمعته وهو يقول شيئا للدكتور جاكار، وفي كل ذلك سوف أجد بعض المعلومات التمهيدية التي من خلالها سأوجه الأسئلة للدكتور جاكار وللممرضين وحتى لبعض النزلاء الذين خف مرضهم وهم ليسوا حمقى تماما، بل وحتى الحمقى، ولم لا، فالأحمق هو من يقول الحقيقة كما يقول المثل المعروف.

لكني أخشى من مفاجأة، وهي أن أجد عبد الرحيم الأزرق، بقامته العادية وهو يزاول عمله بصورة عادية، ففي تلك الحالة سيكون علي أن أفكر في الشائعة على نحو آخر، هل نوظفها بصورة أو بأخرى، أم نترك لها أن يطويها النسيان.

وسواء وجدته بقامته العادية، أو وقد صار قزما، فسأكون قد وجدت من أسأله تلك الأسئلة، والقبيح في الأمر هل ألا أجده، لكني لن أقف مكتوف الأيدي.

هل يختفي في قبر؟

لن يختفي حتى ولو حفر لنفسه قبرا تحت الأرض. وعلينا في أسرع وقت أن نتوصل إليه، لنرى هل الإسم ينطبق على القزم، أم أن انتحالا للشخصية قد وقع، ربما بين عبد الرحيم الأزرق وبين من كان قزما في الأصل، ومنذ ولادته وهو معروف كقزم، ثم علينا أن نعرف، إن كانت المسألة هكذا، ما الذي دفع بعبد الرحيم الأزرق الممرض لأن ينتحل شخصية قزم، أو ما الذي جعل القزم ينتحل شخصية عبد الرحيم الأزرق الممرض، وأن يجعل بذلك أمن الدولة في خطر، بسبب الفوضى التي عمت البلاد، وبسبب استغلال بعض الفوضويين وجماعات من الإرهابيين لمثل هذه الشائعات.

بدون ماض، لا يمكن أن نفهم الحاضر

علينا أن نتذكر، فهذا هو شغلنا، وإن لم نتذكر فقد نسينا كل شيء.

نعيش أحداثا يومية تغرقنا في الجري بين الشوارع والبيوت والإدارات العمومية، للوصول إلى الحقيقة، أو إلى حقيقة ممكنة تتجاوب مع واقع بلادنا هي التي نكتب حولها التقارير، ومع ذلك فنحن أناس لهم عقول كبيرة، تنظر إلى الحاضر وإلى الماضي، فلدينا في الملفات والمحاضر ما يشير إلى وقائع حدثت في الماضي ولكنها تستطيع أن تفسر لنا وقائع أخرى تقع اليوم، ومن

ذلك ما يشاع عن القزم عبد الرحيم الأزرق، الذي يقال إنه لم يكن قزما ولكنه فجأة أصبح قزما وكأنهم يحملون الدولة مسؤولية الحفاظ على قامات المواطنين. سخف. تفاهات. قزم وماله؟ يعيش مع الأقزام ويعفينا من صداع الرأس.

هي وقائع وأحداث سياسية مشهودة عرفتها البلاد، وأحداث أخرى لها عجائب وغرائب، قد لا يصدقها العقل ولكنها تحضر في ذاكرة الناس، وفي عدة مدن، ونحن وإن لم ندخل في ذاكرة الناس، ولم نستعمل حاسة الشم، فإننا نتوفر على دقة الملاحظة والانتباه لأشياء لا ينتبه إليها الآخرون، وإلا فلن نفعل شيئا، ولن نصل إلى شيء، ولذلك فنحن نقلب الموضوع على أكثر من جانب، ونعطيه أكثر من معنى، ونحتمل أكثر من احتمال، فبذلك كله يعمل الواحد منا وهو يُشغل ذكاءه، مفترضا أن الآخر له ذكاؤه أيضا.

نتذكر، ونقارن حادثة بأخرى، ونستفيد من أشياء كانت قد وقعت حتى ولو في مكان آخر وفي ظروف أخرى.

شجرة تنزف دما

لهذا وعلى سبيل مراجعة الأحداث التي يمكن أن تتشابه مع شائعة عبد الرحيم الأزرق، نتذكر تلك الواقعة التي كانت قد عاشتها مدينة الرباط، وهي التي تتعلق بتلك الشجرة التي قالوا إنها تنزف دما، بالليل والنهار، ونظرا لموقع تلك الشجرة في قلب شارع رئيس بالرباط، ولأنها توجد في الرصيف الذي يوجد عليه موقف للحافلات، فقد انتشرت الإشاعات، ووُجد من سكان الرباط عدد كثير ممن يؤكدون أنهم قد رأوا بأعينهم الشجرة وهي تنزف، وأن ما تنزف كان دما وليس صباغة كما قيل، وقد خشي بعض من قابلتهم من سكان الرباط أن يمتد النزيف بالشجرة إلى أن يسيح الدم في كل شوارع الرباط، وذلك لا قدر الله، لن يكون فألا حسنا، كما أن سيارات البلدية التي

ستغسل الشوارع لن تتمكن من دفع ذلك الدم كله إلى المجاري، ولذلك سوف يحلم الناس بالدم، وسيعانون من الكوابيس.

ولقد انقسم الناس كالعادة، فمنهم من تبرك بالشجرة، واعتبرها علامة من علامات الساعة وهم الغالبية، ومنهم من طالب باجتثاثها من الجذور لأنها تشيع الأفكار والبدع التي تعارض العقل وتعارض الدين الصحيح، ولكن لما جاءت السلطات لاجتثاث الشجرة كان هناك معارضون تشبثوا بها، وقال أحدهم: إن قطعتموها فاقطعوا عنقي، متشبها بذلك الذي قال في مناسبة لمحاكمة متطرفين دينيين: إن قتلتموهم فاقتلوني. وأما الغريب في الأمر فهو أن من تمسكوا بالشجرة كانوا يتشبهون بسكان دور صفيح والجرافة تقترب لتهد بناء الصفيح وسكانُه يتشبثون به ولا يرغبون في المغادرة إلا بعد أن تسلم لهم مفاتيح شقق للسكن الشعبي.

ومنهم من جاءوا بكاميرات الفيديو لتصوير الجموع المحيطة بالشجرة، ولما قررت إدارة النقل الحضري أن تتخلى عن تلك المحطة للوقوف بسبب كثرة الازدحام، فما كان أحد من حملة الكاميرات يستطيع أن يصور نزيف الشجرة.

ومن الصحفيين من وجدوا ما يملأون به صفحات جرائدهم فزادوا في نشر الشائعات التي تضاربت حولها الآراء.واسترزقوا الله من حوارات مع المواطنين الذين كانوا يتجمعون في المكان.

وبعد أيام تم حل لغز الشجرة.

فقد اكتشفنا من كان يقف وراء ذلك الحدث، وهو مغرض ولاشك.

ضحكت في سري، فقد جاء ليلا، وخفية عن الأنظار، من نخر تلك الشجرة حتى صارت منخوبة، وصنع في أسفلها فتحات صغيرة يمكن أن تسد بسداد، ثم ملأ جوف الشجرة بصباغة حمراء، وفي وسط النهار، وقت ازدحام

الناس أمام موقف الحافلات، فتح السداد، وذهب إلى حال سبيله، لقيم الدنيا ويفتن الناس في دينهم ودنياهم.

هذا ما وصلنا إليه، فبعد تحليل السائل وجدناه صباغة حمراء، وبعد معاينة الشجرة وجدنا أنها مجوفة، وثلاث فتحات في أسفلها، تُسَرِّبُ سائلَ الصباغة بما يشبه النزيف. ومع ذلك، فقد وجد من قال إن أوراق الشجرة وأغصانها كانت تقطر دما، وليقل من شاء ما شاء. وهاهم اليوم يتحدثون عن عبد الرحيم الأزرق، الرجل الذي كانت قامته عادية ثم تحول في لحظة إلى قزم.

بحر من دم

ومن تلك الشائعات أن بحر المحمدية قد أصبح ذات صباح وهو أحمر، فقالوا إنه الدم، وتوافد المواطنون من كل المدن، ليروا بحرا تتدافع أمواجه وهي من دم، وجاء القنوات التلفزيونية لتصوير المنظر واستجواب المواطنين، وما كان في الأمر غير طحالب حمراء صعدت من القيعان.

وإذن، فلماذا لا يكون القزم عبد الرحيم الأزرق مجرد إشاعة؟

إذا كان الأمر كذلك، فما أحوج المواطنين إلى شغل يخوضون فيه، وإن لم تقدر الدولة على توفير الشغل للعاطلين، فليتها الآن توفره حتى للعاملين، شغل يشغل الناس عن الشائعات.

الباب الثاني

[وفيه يسرد مقدم برنامج تلفزيوني،
اسمه عباس المرادي
تفاصيل استغلال اللحظة لإجراء مقابلة مع عبد الرحيم الأزرق،
ولكن خانه المصور الذي تأخر في المرحاض]

موجز الخبر، موضوع الروبرطاج:

رجل عادي تحول إلى قزم.

فجأة وجد نفسه وقد تحول إلى قزم.

هكذا يقول الناس، والإشاعة قوية وقد انتقلت من فاس إلى كل المدن المغربية.

التحقيق:

ـــ استجواب المواطنين حول هذه الظاهرة.

ـــ محاولة إجراء مقابلة مع عبد الرحيم الأزرق، سواء أكان قزما أو رجلا عاديا.

الوسائل :

ـــ كاميرا.

ـــ زيارة لفاس وخاصة للأماكن التي يعيش فيها عبد الرحيم الأزرق:

ـــ حي الأطلس.

ـــ مصحة سيدي بوجيدة للأمراض العقلية.

الهدف من التحقيق:

ـــ تفنيد الشائعات.

مدة الإنجاز:

ـــ ثلاثة أيام.

تقرير حول حصيلة اللقاءات مع المواطنين، وهو يقوم على مبدأين:

ـــ نسبية الحقيقة.

ـــ البقاء للأصلح.

وهو بمثابة تقديم، أو انطباعات، أو خواطر، عن مادة التحقيق.

لا شيء غير الحقيقة، وهي تختلف من إنسان للآخر، وكل واحد منا يرى فيما يراه حقيقة هي ما يحاول أن يفرضه على الآخرين، فإن لم يتقبلوه منه فهو يفقد أعصابه، وتحمر عيناه، وتخرج الكلمات من فمه كالقنابل، فيرمي غيره بالجهل وفوق كل عارف يوجد من يدعي أنه أعرف منه، وبذلك تضيع الحقيقة.

هذا ما حدث لنا مع كل الذين استجوبناهم في استطلاع الرأي، فقد كانوا كلهم يتجمعون حول الكاميرا، وكلما أبدى أحدهم رأيا حول شائعة عبد الرحيم الأزرق إلا وكان يجد أمامه من يدحضها ويدعي أنه هو العارف، حتى ظل الناس يمدون أذرعهم أمام الكاميرا ووجوههم تتغير ملامحها وهم يلغطون معترضين على كل من أبدى رأيا في الموضوع. والحقيقة أننا واجهنا أناسا يصرخون ويبكون ويمزقون ثيابهم وآخرين تعتريهم حالات من العنف فيبدون كالقتلة، كما واجهنا أناسا تحدثوا عن ذواتهم ولم يحدثونا عن شائعة عبد الرحيم الأزرق، ولذلك فالأشرطة في أغلبها لا تصل بنا إلى تحقيق الهدف من التحقيق، وهو دحض الإشاعة، ومع ذلك فقد فضلنا الاحتفاظ بها كما هي، لأنها تعبر عن مستوى الوعي لدى المواطنين، وعن همومهم واهتماماتهم، حتى ونحن من خلال تجربتنا في إجراء تحقيقات لم نتعود على كل هذا اللغط وهذا العنف وهذا الحديث عن الذات، فهي مناسبة فجر فيها المواطنون مكبوتاتهم أمام الكاميرا وقد يستفيد منها كتاب سيناريوهات الأفلام، أو الباحثون في مجال السوسيولوجيا، أو حتى نحن، لنعرضها في مناسبات غير المناسبة التي صورت من أجلها، فالبقاء للأصلح، والأصلح لا يعرف أحد متى يكون صالحا أو هو الأصلح إلا بعد حين.

آراء المواطنين

واحد يقول إن هذا أمر غير معقول، ولا يصدقه سوى ذوي العقول الضعيفة.

وآخر يقول إن بعض الجهات الرسمية هي التي تبث مثل هذه الإشاعات، لتشغل بها الناس عن المطالبة بحقوقهم في الشغل والتمريض والأمن.

وآخر يسخر، ويقول كلنا أقزام، كلنا على هذه الحالة، أقزام.

وآخر يرفض إبداء الرأي.

وآخر لا يصدق ولا يكذب، ويقول ربما يكون السحر وراء ذلك.

وامرأة اقتحمت الكاميرا وقالت أنا معلمة فاقتربنا منها ولما سألنها عن إشاعة الرجل الذي تحول إلى قزم ألقت علينا محاضرة في الوطن وما هو الوطن وكيف على أبناء الجيل الجديد أن يحبوا الوطن، ولما استعجلناها في الجواب ذكرت لنا أن حب الوطن يبدأ من حب الملك، سيدي محمد السادس نصره الله، ولما وافقناها على ما قالت، وطلبنا منها إبداء رأيها في الرجل الذي يشاع إنه قد تحول إلى قزم، قالت إنها ترفع آيات الولاء والإخلاص إلى جلالة الملك.

وشاب اقترب من الكاميرا وقال لنا ما من العيب أن يولد الإنسان قزما، فينشأ ويترعرع وهو على هذه الحال، ولربما يكون أهله وجيرانه وأقرانه كلهم من الأقزام، ولكن أن يصبح إنسان معروف لدى الناس بقامته العادية وبين عشية وضحاها قزما فهذا أمر يدعو إلى العجب.

عجوز قال لنا هذا آخر الزمان، يقع فيه كل شيء، وأن ترى الحفاة العراة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان. وهاك المثال، فرجل من بني تغلب سأله الإمام علي كرم الله وجهه لماذا تؤثرون معاوية فقال التغلبي ما آثرناه

ولكننا آثرنا التمر والقمح والزيت على نبقى جياعا. فطلبنا منه أن يفسر كلامه فقال الناس الجهلاء مع من يدفع لهم، وأما الناس العرفاء فمع من ليس له ما يدفع لهم. وقلنا له أوضح فقال إن تفسير الواضحات من المفضحات.

ثم اقتربنا من امرأة، ولما سألناها نظرت نحو الكاميرا وابتسمت وأخذت ترسل السلام والتحية إلى عزيز وفوزية ونهاد بالقصر الكبير وإلى كل الأعزاء بقصبة تادلة.

واقتربنا من شابة أخرى قالت أنا طالبة بكلية العلوم، فلما سألناها قالت الأقزام كما هو معروف هم قوم قصار القامة، وهم من المخلوقات عباد الله الذين يدعوهم الناس فيما بينهم بالأقزام، ولكن لا أحد يجرؤ على أن ينادي القزم بالقزم، احتراما لمشاعره وحتى لا يشعر بتنقيص بين الناس، ولكن رغم هذا فالقزم هو القزم.

وقال لنا رجل كهل إن الأقزام لا يوجدون إلا بين الرجال، فهو لم يسمع عن امرأة قزمة، وإن كانت موجودة بالفعل فسيكون الرجل هو الذي جعلها قزمة، أي أنه قد قصر من قامتها، أي أنه قد حد من أفعالها، أي أنه لا يحب أن تكون في مثل قامته، وزيرة، مستشارة للملك، قاضية، فسألناه هل تتحدث عن غبن الرجال لحقوق النساء فقال لنا أنا رجل كما ترونني أمامكم، ولكني أفضل أن أعيش في ظل امرأة، فهي شجرة، وأخت وأم وحبيبة، وسألناه عن قاسم أمين فقال كان يدعو العرب لأن يتنازلوا للنساء عن رجولتهم، وسألناه عن الإشاعة التي تحوم حول عبد الرحيم الأزرق فقال أما أن يكون الإنسان عاديا ويتحول إلى قزم، فذلك يرجع إلى خداع البصر، أو إلى حيل السينما.

وضحكت امرأة عجوز وقالت يا وليدي كاينين فالحجاية، نعاود لك شي حجاية على هدوك اللي ربي مسخهم وردهم قصار؟ كانوا ما عندهم حتى حاجة غير السلالم، بها تيطلعوا يشوفوا الدنيا، وسلالمهم قصار، فاين غدي

يطلعوا بها يا وليدي؟ ربي مسخهم وقصرهم، وما خلا لهم غير الحلامات. فالحجاية يا وليدي راهم كانوا يتحلموا بشي حلايم. نعاود لك على الحلايم ديال هدوك الناس اللي حلاماتهم قصيرة، ولكن طويلة بزاف، وراهم مطورين حتى فالحلايم تيكونوا حاضيين راسهم. نعاود؟ واحد فيهم كان حلم ب. . .

وسألنا رجلا عن عبد الرحيم الأزرق فقال شوف يا أخي، هاد الإسم سمعت به، يمكن هو رئيس المجلس البلدي.

ثم سألنا شابة نفس السؤال، فقالت عرفاه. متأكدة من الجواب. لو كنت في برنامج من سيربح المليون لأعطيت الجواب الصحيح. فقلنا لها من هو، قالت: سوبير ستار.

وقالت امرأة ترتدي جلبابا وفي يدها باقة من النعناع هو، هو هداك، اللي تيقلبوا عليه البوليس، راه قاتل سبع أرواح وهاجم على العزبات من غير شرع وهربان، ولكن أنا والله ما شفته ولا عارفاه فين هو مخبيع.

وقال لنا حارس سيارات كان يشم من حين لآخر من كرة السلسيون آخويا هاد البلاد مالها؟ آش تيوقع واحنا ما عندنا خبر؟ إيوا صافي غدا يرجع كل شي قزم، حتى أنت وأنا وهداك. وآجيوا انتموا اللي جايين من التلفزيون. ديروا شي قناة للأقزام. احتياط. يمكن تنفع فالمستقبل، منين يرجعوا العرب كلهم أقزام قدام أمريكا وإسرائيل. وعرفتوا آش غدي تديروا فالتلفزيون، ديروا شي خريطة جديدة، صاوبوا لنا فين نوقفوا، راها الأرض ما بقاتش تحت رجلينا، وعليها مسكين هداك عبد الرحيم اللي تتسوا عليه، راه مسكين بحالي، الأرض هبطت، وهو قصار. ها انتموا آخوتي شوفوا. بقات شي أرض تحت رجلينا؟ ماشي، هو بوحدوا، حتى هدوك المعنكرين، الرقبة مشحمة، والبطن خارجة، والسيارات والعمارات، راهم أقزام غير ما عارفينش.

شف آ خويا. إيوا صور هاد الشي عنداك تخوي بيا رانا نقطع لك الودن يلا ما شفتش كلامي وأنا تنقولو فالتلفزيون. واحد المعنكر جبتوه واحد النهار، صدع لنا الراس بسياسة القرب. وأنا نفهم. ياك عارف القرب راه حوت غير تنسموا به، غالي، احنا تناكلوا غير السردين. ومنين ولا القرب حتى هو عنده سياسة، أنا فهمت، زعما تيصيدوه بالسياسة، وتياكلوه بالسياسة، وبالسياسة راهم معنكرين علينا، ولكن هداك القرب غير ياكلوه، احنا عندنا السردين أحسن منه.

وأجابنا رئيس البلدية بأن عبد الرحيم الأزرق هذا اسم موجود عندنا ففاس، عائلات كثيرة تحمل أسماء الألوان، عندنا عائلة الأحمر، والأبيض، واسم الأزرق يندرج في هذا المجال. ثم سألناه هل سمع بالإشاعة فأجاب بالنفي، واعتبر زيارتنا لمكتبه مناسبة للحديث عن الإنجازات والمشاريع، فوقف أمام لوحة كبيرة عليها عدة خانات وكانت تغطي جدارا وأخذ عصا وتنحنح وابتسم، فقلنا له إننا نكتفي معه بذلك القدر.

وقال لنا معلم فران كان يخرج الخبز من الفرن هاد الأزرق سمعت به، كان وزير فعهد السلطان الأكحل، ويمكن بعثه الله باش يشوف آش تيوقع فهاد الزمان، اشكون هما الطراحة اللي كانوا عندي فهاد الفران ورجعوا وزراء. وباش ما يتخلطش عبد الرحيم الأزرق اللي كان وزير فعهد السلطان الأكحل مع الوزراء ديال اليوم بعثه الله قزم، وما يسالش، وخا قزم راه غير باش يشوف حال هاد الدنيا فين ولات. وراه كن لقاني أو لقيته، وتكلم معايا، غدي يقول لي الحل هو يجيبوا هدوك الوزراء كلهم يرجعوا طراحة عندي هنا فالفران، نعلمهم يطرحوا الخبز باش الحومة تاكل، وكل شي ياكل، ما يحرك حتى واحد، كل شي يخدم وكل شي ياكل، وما تبقاوشي فالتلفزيون تتوريوا لنا هدوك المناظر اديال اللي غرقوا فالبحر ماشيين حاركين غير باش ياكلوا

طرف د الخبز. ها الخبز. ولكن خص الدقيق، واللي يعجنه، واللي يطيبه فالفران.

وبدل أن يجيبنا أحد الشبان فضل أن يسأل: إذا كان عبد الرحيم الأزرق قد تحول بالفعل من رجل عادي إلى قزم، فكيف يمكنه أن يواجه وضعه الجديد، هل ستصبح له مواهب جديدة في فن العيش، وهل سوف لن يشعر بأية عقدة ضعف تجاه الناس الطوال، العمالقة الذين هم ليسوا عمالقة ولكن يبدون له كذلك، وهل سيتعلم من النمل؟ نعم النمل، فالنمل كائن خطير، أصغر من القزم، ولكنه يعيش، وهو موجود، وسيبقى رغم الكلام الذي تروجون له في قناتكم عن النظام العالمي الجديد، ومعاهدة الكاط.

وقال لنا شاب مسكين عبد الرحيم الأزرق له قلب ونظر، فمن ستقبل الزواج منه إلا إذا كانت قزمة مثله فيوافق شن طبقة ؟ أنا أبحث طبقة توافق شني فلن أجدها. هل عندكم طبقة لشن الذي هو أنا؟ أخبروها بأنني حق طاح ويبحث عن غطائه.

ضياع في فاس، وخطة غير معلنة للقاء بعبد الرحيم الأزرق

صورنا هذه الحوارات في إطار استطلاع الرأي مع المواطنين، في الشارع، وفي ساحة عمومية، ومع رئيس البلدية في مكتبه، وفي بعض الأحياء الشعبية.

ولأننا كباقي عباد الله نتعب، ونحتاج إلى النوم والراحة، أنا والمصور، فقد تعشينا وقبل أن ننام في نفس الغرفة في الفندق أخبرته بأن لدي خطة للقاء بعبد الرحيم الأزرق، الحقيقي، أي ذلك الممرض في المصحة العقلية، لنصور معه مقابلة مباشرة نسأله خلالها عن الحقيقة وعن الشائعة، ولنرى هل سنجد رجلا عاديا أمامنا وهو من تدور الشائعات حوله، أم سنجد قزما فنسأله هل كان قزما ومنذ ولادته، ولماذا تصور الناس أنه كان في قامته العادية ثم أصبح

قزما، ما هي دلالة. . . يعني. . . هل في ذلك ما يفيد أن . . . وإلى أي حد يمكن أن . . . وعلى اعتبار أن المسألة فيها غموض نسبي . . . ثم ما هو الحد الفاصل بين الحقيقة والشائعة؟ يعني هل هو حقيقة أم شائعة، وكيف يراه الناس ويتعاملون معه بعد أن أصبح قزما، وهل يجد صعوبات في ممارسة عمله وهو يعالج المرضى، علما بأنهم نزلاء في المصحة العقلية، وهل هو نزيل في نفس المصحة؟

والحقيقة أنني لم أنم، فقد بت ليلتي كقط على صفيح ساخن. أقول لنفسي ويعني. . . وإذا كان. . . فمن البؤس والعار أن نجد مواطنا . . . ولأن حقوق وواجبات المواطنة تقتضي. . . فالأمر يتطلب. . . وعلى سبيل الدهشة التي تحملها لحظة اكتشاف وضع غير عادي في الواقع، استثنائي، وقد يعد من قبيل الخيال، فإن . . . وهل هو مخاض جديد لولادة وطن بدون أقزام، وكيف، وما الذي يراه المواطنون أنفسهم حول هذه المسألة، وهل القزمية، أو التقزيم، هما حالة رمزية أم واقعية، فإلى أي حد تكون للشائعة اعتباراتها المنطقية، والتاريخية، والجيوسياسية، سواء في المغرب العربي أو في دول أوربا وآسيا وأمريكا، وهل القزم، هو من قزمته قوى سياسية عدوانية مغيرة، وفاشيات ما زالت توجد في عالم يبشر بالحرية، أم أنه ضرورة ليبقى العالم على ما هو عليه، يكوم على صراع بين مبادئ الحرية ومبادئ الطغيان؟

طرد مسبق لصاحب البرنامج التلفزيوني من القناة

كانوا قد ألقوا بي مباشرة إلى الشارع، أنا وأوراقي وأسئلتي الحائرة، ومعي المصور والكاميرا، فقد تخلوا عنا جميعا. ومع ذلك، وفي إطار حب البقاء، وحب الحفاظ على الرزق، فقد فكرت في بيع مادة ما سأنجزه لقناة أخرى، ولذلك حرصت على مواصلة العمل. أخوكم عليه ديون كثيرة، منها ما يرجع إلى سلفات بنكية سببها بسيط، وهو إنفاق أكثر مما أستخلصه من راتبي،

والسبب الحقيقي يرجع إلى بيت اشتريته بقرض لضمان سكن، بينما زوجتي تقول إنني مدان بسبب إنفاق مبالغ يومية في السكر مع الإعلاميين رفاق السوء، ولعل كلاهما صحيح.

ولكن وقد طردت من عملي فعلي أن أتجول في القنوات العربية، فما سدت القناة بابا إلا وفتحت أبواب في قنوات أخرى، وهذا هو حال زملائي.

وبناء عليه، فقد قررت الاستمرار في هذا الجنون الجميل، وهذه الفتنة، وهذا العمل النبيل الذي يخدم الحقيقة أولا، ويخدم الوهم ثانيا، فبدون معرفة بالوهم لا تكون هناك معرفة بالحقيقة، وكلاهما في جدل، والذين يجعلون من عملنا عملا روتينيا، خشبيا، لا يبشرون بأفق إعلامي جديد، ولا يمكنهم أن يدخلوا في المنافسة الدولية على الاكتشاف، والطراوة، والمباغتة، والجديد أينما كان.

أترك لهم الحجر. الحجر في عيون الكاميرات وفي عيون النظارة.

لكني سوف أفوز بتحقيق شامل لقضية القزم، قزمنا جميعا، القزم الرمز، الضحية، القزم المعرض لشائعة هي خيال المواطنين، القزم الذي أعرف أنه لم يوجد، لكنه أنا، وقد طردتني القناة في وقت كنت أقوم فيه بعملي، والقزم التضحية، من أجل الحقيقة أولا وأخيرا.

المصور في المرحاض:

لم أخبر المصور بأني قد تلقيت مكالمة من إدارة القناة تخبرني بالتوقيف عن العمل، وأن لا حاجة إلى إجراء التحقيق، فلو أخبرته لتساءل هل هو أيضا معني بالتوقيف، ولكف عن العمل معي، بينما أنا أرغب في إنجاز التحقيق حتى في هذه الظروف.

لكن المصور هو والكاميرا باتا ولم يصبحا معي في الغرفة، فلما فتحت عيني اتجهت بنظري نحو سريره فلم أجده، والكاميرا لم تعد في مكانها. كلمته بالهاتف المحمول فرد علي وقال:

ـــ أنا في المرحاض.

حسبته في مرحاض الفندق، ولما سألته:

ـــ أين الكاميرا؟

قال:

ـــ هي معي.

وسألته:

ـــ لماذا أخذتها معك إلى المرحاض؟

فقال:

ـــ أنت مريض بالأسئلة، لا تفعل شيئا في حياتك سوى أنك تسأل، حتى والذي تسأله يوجد في المرحاض.

وقطع الخط.

كيف يمكن أن تنجح خطتي لتصوير حوار مع عبد الرحيم الأزرق، وبكل الاحتمالات، أي بكل التوقعات، أي بما هو منتظر، ليراه الناس على شاشتهم الصغيرة في هذه القناة أو تلك، وليقول لهم بنفسه الحقيقة، ورأيه في الشائعات؟

ولكن كيف أذهب إلى المصحة العقلية في الوقت والساعة، بدون مصور وكاميرا؟

أذهب أو لا أذهب؟ هل هذا وقت للتردد؟ علي قبل أن أذهب أن أبحث عن المصور في مراحيض العالم.

بحثا عن الغائب، الذي هل هو المصور أم عبد الرحيم الأزرق:

خرجت من الغرفة وشربت قهوة سوداء في مقهى مجاور للفندق، ثم ذهبت أضرب في شوارع وطرقات وأزقة فاس، ألتقط من أفواه الناس صدفة ما يرددونه عن الشائعة، فأدرك أن انتشارها كان كالنار في الهشيم، فكيف قال رئيس المجلس البلدي إنها لم تصله؟ لاشك أنه لم يرغب في أن يورط نفسه في إعطاء تفسير أو تقديم مقاربة للشائعة.

أردت أن أكلم المصور فكان هاتفه المحمول لا يشتغل، فلم أدر أين هو الآن، ولربما يكون قد توصل بإشعار التوقيف.

وفي ذلك الطواف بالشوارع أتصور أنني قد رأيته، فيمكن، وها هو السي عبد الرحيم يمر أمامنا الآن في الشارع، قريبا من نفس المقهى الذي كان قد تعود على أن يرتاده في المساء، مقهى زاكورة، الواقع بجوار بنك الوفاء، في حي الأطلس. ها هو يجلس في المقهى. وها هو يعب من زجاجة كوكاكولا. وها هو ينظر إلى المارة، بل إنه ينظر إلي بالتحديد وكأنه عرف أنني مراسل القناة التلفزيونية. وها هو. . .

ليت المصور معي، فقد تباطأ في المرحاض ولو كان معي الآن لأسرع بالتقاط صور لعبد الرحيم الأزرق وهو يمر بالشارع، قبل أن يصعد الحافلة، ولكن المصور جعلني أبحث عنه في مرحاض الفندق وفي مراحيض المقاهي المجاورة فلما فكنت أنادي باسمه لا يرد علي غير تنحنح وأنا أسمع صبيب الماء في البالوعة، فأظنه هو من هناك، وأنتظر حتى يخرج رجل غيره يتطلع إلي بنظرات شزراء، فأذهب إلى مرحاض مقهى آخر ويتكرر نفس الشيء.

أرى الآن عبد الرحيم وهو يقف في محطة الحافلات، وها هو الآن يركب الحافلة من ساحة المقاومة، يصعد بقدميه درج الحافلة المتجهة نحو باب الفتوح، صور. خذ لقطة للوحة الحافلة التي يظهر عليها الاتجاه. كان عليك أن

يأخذ لقطة لقدم عبد الرحيم وهو يصعد درج الحافلة في طريقه إلى المصحة العقلية ليباشر عمله مع النزلاء، حاول أن تصور . . . ولكن أين أنت أيها المصور؟

كان يحاول أن يصعد درجات الحافلة فحمله شاب كصبي من تحت ذراعه ليجلسه على كرسي، والعرق يتصبب على جبينه، وبؤبؤا عينيه يدوران في محجريهما، واصفرار شديد يبدو على سحنته.

وأينك أيها المصور؟ ألم يصبك الإسهال إلا في هذا الوقت؟ كان عليك أن تلتقط صورا لعبد الرحيم وهو يصعد الحافلة، أو يصعده إليها ذلك الشاب فاعل الخير. والآن كان عليك أن تبادر بالنزول قبله لتلتقط له صورا وهو ينزل، محاذرا السقوط أو التدحرج، وها هو ينزل بسلام، وها هو يسير في اتجاه مصحة سيدي بوجيدة للأمراض العقلية.

لكنه اختفى فجأة وسط الزحام، وأعدت النظر فيما رأيت، أكان الرجل قزما أم أنه كان رجلا قصيرا من غير أن يكون قزما فحسبت أن من رأيته كان في الثلاثين بينما قيل لنا إن عبد الرحيم الأزرق يقارب الستين.

محاولة جادة لتغطية جادة، لظهور عبد الرحيم الأزرق

ومرة أخرى حسبت أنني قد رأيته، فهو كما قيل لنا يتجول في الشوارع بين الناس، ويركب الحافلة، ويجلس في المقهى، ولكن نظرا للفضول وكثرة الأسئلة فقد اختفى فلم يعد أحد يراه.

أحسبه قد عاد إلى الظهور، والآن أراه أمامي وهو يدخل العمارة التي تقيم فيها أخته ربيعة، العانس كما قيل لنا خلال بعض المعلومات التي جمعها طاقم البرنامج، وهي تقيم وحدها، تعمل في إدارة للضرائب، وعلاقتها بأخيها عبد الرحيم تكاد تكون مقطوعة، فحتى حينما كانت قامته عادية فهو لم يتعود على زيارتها، ولاشك أن زيارته لها الآن وهو قزم تكتسي أهمية خاصة،

ويمكن أن نقيم عليها بعض الافتراضات، من بينها أنه قرر الاختفاء عن الأنظار فلم يجد سوى شقة أخته زبيدة، الواقعة في أطراف المدينة، وفي الحي الذي نحن فيه الآن، وهو حي الموظفين، بالدكارات، وحيث توجد العمارات السكنية المتشابهة التي لا تميزها سوى الحروف والأرقام على مداخلها.

ومن بين تلك الافتراضات أن أمرا له علاقة باللحظة التي تحول فيها إلى قزم، وبهذا البيت بالذات، فكأنه يبحث عن مكان هو الذي وقعت فيه واقعة تحوله إلى قزم، ويحتمل أن يكون بيت أخته ربيعة هو المكان المرجح لحدوث ما حدث.

ومن بينها كذلك أنه حن إلى طفولته التي عاشها مع أخته ربيعة، فهما من سن واحدة تقريبا، إذ لا يكبرها إلا بسنتين، وهما الآن معا، على مشارف الستين، بالرغم من أن الظاهر هو صعوبة تحديد سن القزم من ملامح وجهه.

كنت أبني هذه الافتراضات على معلومات استقاها طاقم البرنامج، أي أنا، من حوارات مع المواطنين.

ولقد ظل يسير وأنا وراءه، حتى رأيته يدخل عمارة قابلتني أدراجها فأخذت أراه كيف سوف يصعد تلك الأدراج، وكم كان بودي أن أساعده على الصعود، ولكني خشيت أن يفهم قصدي خطأ، والحق أن مهمتي هي إجراء التحقيق التلفزيوني، ولذلك فتحت الهاتف المحمول للمصور، وما كان يرد، فحسبته ما يزال في المرحاض، يستأثر بالوقت كما يشاء، فماذا لو كنا فريقا إعلاميا يعمل في ظروف الحرب، أو ظروف كارثة لا قدر الله، فهل كان إسهال يصيب المصور فيمنعه من تصوير أهم الحوادث وهي تقع، ليحرم قناتنا من السبق الإعلامي؟

لا أدري كيف كان عبد الرحيم سوف يستقبل توجه كاميرا التلفزيون نحوه، ولعله كان سيضحك، ويُظهر قامته وذراعيه القصيرين أمام الكاميرا ليخبرنا بأن ملابسه القديمة ما تزال في البيت، وهو يحتفظ بها إلى أن يرجع إلى قامته الأصلية، وحينما نسأله عن سر هذه الثقة بالنفس، وبالأمل في استعادة قامته إن عاجلا أو آجلا، فسيضحك، ويقول أن هذه الملابس التي يمكن أن يلبسها طفل في العاشرة، إنما هي للوقت، وقت يعيشه قزما وهو يتمنى ألا يطول.

عودة إلى مصور القناة وهو يتأخر في المرحاض:

نفس العشاء تناولناه معا أنا والمصور ولا أظن أنه قد أصابه الإسهال، فهو مخاتل، كذاب، تطل علي نظراته من عينيه الذئبيتين وهو يتحداني كلما غاب وأضاع علي فرصة للتصوير ويقول إنه كان يمارس حقه في المرحاض، والكاميرا نفسها يأخذها معه للمرحاض، وعندما يخرج تبدو عليه الراحة ويستغرب كيف أعامله بجفاء ناسيا أنه قد أضاع فرصة لا تعوض، ففي قلب الحدث، يختفي ثم يظهر وعيناه تبسمان ليقول إنه كان في المرحاض.

ما رأيت تغطية للتلفزيون بدون صورة، ولا سمعت عنها، ولذلك فقد أفلت من يدي عبد الرحيم، والذي أفلته مني هو المصور. والمصور هذا هو حاله، يغيب عني في الأوقات التي أحتاج فيها إليه، فأرتبك ولا أدري ما أفعل.

سباق المائة متر، وراء عبد الرحيم الأزرق :

وأنا سآخذ شهادات عديدة مصورة مع أصدقاء ومعارف وجيران عبد الرحيم، ولكن هو، الحديث معه وصورته هما الأهم. فقد أحببت أن أسأل الدكتور جاكار عن الممرض عبد الرحيم الأزرق، وعن مزاجه ونظرته الحياة، أو فلسفته في الوجود، فحتى الناس الذين تكون لهم ثقافة محدودة، لا يكونون بعيدين عن التفلسف بحكم ما عاشوه من تجارب، فتصبح لهم نظرة

تأملية في الحياة، وهذا ما لا ينبغي أن نغفله، نعني، إذا كان. . . فمن المنطق، والضرورة تقتضي أن . . . وهي ضرورة إبستيمولوجية ل. . .

لكن أخذ صور لعبد الرحيم وهو في المصحة العقلية، يحقن نزيلا بحقنة تكون يد الدكتور جاكار هي التي وضعتها على اللوح المعدني، قد يجعل النظارة يتجهون نحو تقاسيم وجهه وشعره وأذنيه وشفتيه ونظرة عينيه، ونحو حركات يده، ووقفته، وملابسه، ومشيته، وحركات جلوسه على كرسي إن أراد الجلوس، فيصعب عليه ذلك ويبدو كأنه يتسلق جبلا، كما تبدو عليه نفس الصعوبة هو يصعد أدراج العمارة التي تقيم فيها أخته ويتركني واقفا بالباب أسعى إلى تكليم المصور بالهاتف والمصور لا يرد.

ها هو عبد الرحيم يقف أمام البقال، ويصعد درجات سلم العمارة، ويستلقي على الفراش لمشاهدة التلفزيون.

ها هو يمر في الشوارع والطرقات، ويصبح محط أنظار المارة وأصحاب المحلات.

وها هو يسير واثق الخطى، ناظرا إلى الأمام باعتداد بالنفس، ومن غير أي شعور باد بالنقص، ربما لأنه لا يفطن لحاله، ولما طرأ على هيئته من تغيير، أو لأنه اعتاد حالته كقزم، ومنها عاد إلى طريقته الأولى في المشي، ومخاطبة الناس، والنظر إلى واجهات المتاجر. . .

وها هو يمر الآن أمام مخبزة، ويدخل ليشتري خبزه اليومي، وها هو يخرج من المخبزة ويمر أمام مقهى الذبابة الزرقاء فيحيي ثلاثة أفراد يجلسون إلى مائدة على الرصيف، وبنظرته نحو الداخل يرسل بيده تحية إلى شخص يجلس في الداخل وحيدا. ثم ها هو يصل إلى مقهى زاكورة، ويجلس على الكرسي، والنادل يأتيه بزجاجة كوكاكولا يعب من فوهتها إذ يبدو أن ذلك من عادته ما دام النادل لم يسأله عما سيشرب ولم يأته بكأس.

وها هم وجوه المقهى، كوجوه القتلة أو المهربين، لا يعيرونه اهتماما، يشربون الشاي ويلعبون النرد. وها هو النادل يخرج ليقف عند باب المقهى. وها هو الشارع تعبره السيارات، وها هم الناس عاديون والحياة عادية في حي الأطلس، الحي الذي يقيم به عبد الرحيم الأزرق.

وها أنا ألاحقه عرقان ألهث وراءه، ومن غير أن يكون المصور معي، لكنه للأسف، فجأة اختفى وسط المارة، والمارة كلهم تحولوا إلى سراب، والسراب تحول إلى سراب، فانتبهت إلى عرقي ودقات قلبي، فكأني كنت في سباق المائة متر، لكن الواقع أصبح سرابا وأنا لا أقبض على الواقع ولا على السراب.

الباب الثالث

[وهو يشمل رواية لكل من مريم طليقة
عبد الرحيم الأزرق
وولديه عبد الغني وبديعة،
وهي رواية تفضح الكثير من أسرار العائلة].

الرواية الأولى

لمريم طليقة عبد الرحيم الأزرق،
وهي تكاد تشبهه بالكومسير ثابت الذي كان قد حكم عليه بالإعدام،
من حيث فظاعة ذلك الشيء،
تشهد بأنه كان يعاشر النساء نزيلات المصحة،
وتتشفى،
تتوعده بالحرق بالنار التي أحرقها بها يوم أن طلقها.

أمام مرآة في الحمام

تصورته يستحم معي في الحمام وأنا أستحم معه، وكان يرتعد، وذلك الشيء يظهر منتفخ العروق، يريد أن يجرحني به وأنا أبتعد وهو يتوسل بنظراته والدموع تكاد تطفر من عينيه، وأنا بين الغضب والاستسلام. قلت له:

ـــ بعد أنتهي من غسل شعري.

ووالله ما رأيت ذلك الشيء الأحمر المنتفخ العروق الذي في حجم خيارة كبيرة إلا في المرآة، والمرآة كانت مضببة ببخار الماء.

كانت عيناه زائغتان، وهو يظهر أمامي كأنه يشعر بدوار في الرأس. ولقد لاحظت أن جسده قد امتلأ وصار له كرش بعد أن انقطع عن التدخين.

أخذ يشهق وشفتاه ترتعشان، وعيناه تتسعان ثم تذبل نظراتهما فيبدو كأنه سيموت. أدفعه تحت الماء فيحاول أن يحضنني وأتراجع. يقول:

ـ حبيبتي مريم. تعالي.

أسمعه يهمهم:

ـ أنت امرأتي في الحلال. أنا لا أحب الحرام.

فأنحني وأستند إلى حافة المغطس وأبكي، وأقول:

ـ الله يا ربي على مصيبة أعطيتني.

فيتوسل، ويقول:

ـ إن لم أفعل هذا في الحلال فهل أفعله في الحرام؟

أصرخ:

ـ سر بعد مني وسر للحرام.أنت مصيبة. أنت كارثة. حتى أمرا ما تقبل عليك بهاد المصيبة اللي عندك.

فيعود للتوسل والبكاء وهو يرتعد من خوف ربما أو من حالة غريبة كانت تنتابه.

بعد ذلك الاستحمام معي صار لا يستحم، ولا يحلق لحيته، ولا يغير ثيابه، وارتسمت على شكله صورة مجنون. أظافره طالت واتسخت، وعيناه صارتا غائرتين، وعلى وجهه اصفرار. كم ترجاه عبد الغني أن يستحم ويحلق لحيته ليظهر أمام الناس بمظهر عادي، ولكنه كان لا يرد، نظراته غائبة وعندما يعود من المصحة نسمعه وهو يكلم نفسه بكلام كان يتكلم به مع الحماق. الله يبقي الستر.

فحولة تقاس بدرجة الفياغرا، أو بدرجة الكوميسير ثابت، الذي لم ينفعه تشفعه بالملك بعد أن حكم عليه بالإعدام

وبالرغم من أن عبد الرحيم كان في الخمسين وقتها، فقد كان يزداد قوة يوما عن يوم وقوته صارت أكثر من قوته يوم كان شابا، فحينما تزوجنا ما كنت أحب أن أظهر له رغبتي في المزيد حينما أراه يكسل ويرغب في أن

ينام، أما بعد ذلك، وقبل الطلاق فقد أصبح يقهرني، يعذبني عذابا ويمزق لحمي ويدميني فأقول له وأنا أتوسل:

ـــ بالشوية عافاك.

فيشهق ويقول:

ـــ ها أنا غير بالشوية.

وأتوسل إليه:

ـــ أنا تنموت. قتلتيني.

ثم أقضي أياما أعاني من الألم وهو ينتظر أن يزول عني ذلك الألم ليأتني بألم جديد.

ويبدو أنه في اللحظة كان لا يفطن بحاله، ولما أشكو له ألمي يقول إنني أبالغ، فأخذت أشكو أمري لله، وبدأت أمانع وهو يزداد رغبة وإلحاحا، حتى فكرت في أن أزور طبيبا للنساء يطلع على حالي ويعطيني شهادة طبية أطلع عليها القاضي لمنعه من إيلامي على ذلك النحو.

لكنه كان يتوسل، ويبكي، ويقبل اليدين، ويعد بأنه لن يكون عنيفا وحالما يرى ممانعتي بإصرار يعد بأنه سوف يكتفي بالقبل والعناق، لكنه لا يكتفي بذلك.

انقطاع عبد الرحيم عن شرب القهوة

قبل أن يصبح على تلك الحال، كان في بعض المرات يصاب بالارتخاء، ويكاد لا يقوى على شيء، ويبدو أنه كان يشعر بالحرج، فيرتبك، ويتعب تعبا شديدا قبل لحظة الوصول. فكنت في الصباح أسأله عما أصابه، وأقول له:

ـــ ما ذاك ؟ صغير كالإصبع، ومرتخ.

فكأني أطعنه بسكين، ولكنه يخجل، ويداري ألمه، ويقول:

ـــ سأتوقف عن شرب القهوة، فهي السبب.

قلت له:

ـ ترجع عيبك إلى القهوة. قل إنك قد انتهيت.

كنت أمازحه ولكنه يخفي وجهه بين كفيه، ثم ينهض خارجا من البيت وكأنه هارب. ثم بدأ لا يتجرأ على الاقتراب مني، حتى بعد أن توقف عن شرب القهوة كما قال، فقد بدأ يشرب الكوكاكولا في المقهى لكنه أخذ يشكو من الغازات التي أخذت تضغط على معدته وقلبه، ومع ذلك ظل يصر على شرب الكوكاكولا، إلى أن جاءت ليلة جامعني فيه فكان عاديا وبدا عليه الفرح، فأخذ بعد ذلك يغني، ووجهه متهلل، ثم نزلت علي المصيبة من السماء.

الرؤية في الظلام تساعد على بلوغ المرام:

كان على عادته لا يرى مني حتى وهو في عز لحظته، بل كان لا يرى، ورؤيته في الظلام.

في كل مرة ندخل فيها الحمام معا يطلب مني أن أغض بصري لكي لا أرى منه.

وفي الحمام الماء والظلام. اليد هي التي تتحسس موقع الصابون، أو موقع صنبور الماء.

وأما في الفراش فقد كان يحب الظلام، ويقول لي الظلام هو ما يجعلنا نرى الأشياء أجمل على ما هي، ففي الظلام تتهذب الحواس، ونرى في أجسادنا ما يضيء.

كان ينصحني بألا أرى منه، سواء في الحمام ونحن نغتسل أو في ساعة الفراش، وكان يذكر كلاما لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت فيه إنها كانت تغتسل مع الرسول صلى الله عليه وسلم فلا ترى منه ولا يرى منها.

وكنت أخشى أن يكون في الظلام يرى نفسه مع امرأة غيري، كما كان الشيطان لعنه الله يأتي إلي برجال غيره وأنا معه، ولست معه، مع ذلك

الرجل، وعبد الرحيم هو الذي معي، فمن ذلك حسبته هو أيضا، معي وليس معي، معها، وهو يتظاهر بأنه معي، لكني طردت تلك الأفكار، وقلت لنفسي أنا الشيطان، فأنا من يأتي كل ليلة برجل إلى فراشي، حتى وأنا أنام فيه مع عبد الرحيم، وعبد الرحيم هو زوجي في الحلال، وأما أولائك فأنا أضطجع معهم في الخيال، وعبد الرحيم هو من يضطجع معي.

مضى كل ذلك فمريم الآن طليقة عبد الرحيم

هو طلقني بإرادة منه، ودون إخبار، فاشتعلت في النار، وأردت أن أحرقه سواء بالسحر أو بالمس بسمعته ولو بالكذب أو بمزيد من إفساد علاقته مع عبد الغني، ولدنا البكر، أو بجعل ابنتنا بديعة تكحل عينها بالعمى ولا ترى والدها عبد الرحيم.

ولو كنت قد وصلت إله لصببت عليه قارورة بنزين وأشعلت فيه النار ليحترق كما أحرقني، وحتى وإن صار رمادا أمامي فلن أجمع ذلك الرماد، بل سأبذره لتذره الرياح فلا يبقى هناك أحد اسمه عبد الرحيم.

رائحة الجسد

وحتى بعد أن طلقني وغادر البيت فقد ظلت الآلام توجعني، كما بقيت أشم رائحته في البيت، وأراه وهو يجلس أمام التلفزيون، وأسمع صوته وهو يناديني، أو هو ينزع ملابسي الداخلية في الظلام ويأتي إلي ليمزق أحشائي، والأكثر من هذا أنني كنت أحلم به وهو يخترق أحشائي فأصرخ وأنا في المنام، ويسمع عبد الغني وبديعة صراخي فينهضان من نومهما فلما أفتح عيني من ذلك الكابوس أجدهما واقفين أمامي، فأقول:

ــ عبد الرحيم. ينعل أصله وأصل باباه. كان تي . . .

فلا أحب أن أقول للولدين ما كان يفعل بي، فأقول:

ــ كان تيضربني.

يقول عبد الغني:

ـ عمره ما ضربك آ ماما وهو معنا فالدار. دابا عاد جا يضربك فالمنام؟

وتقول له بديعة:

ـ غير تتحلم. فالمنام الواحد تيشوف حتى الحوايج اللي ما وقعوشي. باسم الله عليك آ ماما من هاد المنايم.

وتأتيني بكأس ماء فأشرب منها وأنا أرتجف، وأحس ذلك الألم في أحشائي، وأشم رائحته في كل مكان.

المسحور

لا أدري لما وصلني الخبر، لماذا تصورت أن ما وقع له كان قد وقع وهو معي في الحمام، وهو على ذلك المنظر الذي رأته منه، ناهضا وعروق ذلك الشيء نافرة، كبيرا مثل خيارة، وحسبت أن امرأة أخرى، هي التي أفلحت في السحر أكثر مما أفلحت أنا، أو هو فقيه سحار واحد، هو الذي سلط هاروت وماروت على عبد الرحيم الأزرق، وقد كنت أنا أرغب في أن يجمد ذلك الشيء فلا يتحرك ولا ينهض ولا تنفر له عروق، فيشل تماما، أو يعدم فلا يبقى له وجود في مكانه، وتعجب الفقيه فخجلت من أن أصف له ذلك الشيء وما أعانيه منه حتى وهو يستحثني على الكلام، فغيرت الموضوع وطلبت من الفقيه أن يجعل هاروت وماروت يحرقان عينيه بالنار فيصير أعمى، ولم يخطر على بالي أن أطلب من الفقيه أن يجعله قزما، ولكن يبدو أن تلك المرأة الأخرى أرادته قزما، فكان لها ما كان.

هل يمكن أن يحدث هذا ؟

لا يمكن أن أراه بعد أن طلقني في مقابلة عادية تحدث هنا أو هناك، حتى وإن كان معي عبد الغني وبديعة، فلقد قطع قلبي بسكين وهو يرسل لي

ورقة الطلاق، ولكن يمكن أن أراه دون أن يراني، لكي أنظر إلى عينيه، وتغيرات وجهه ونظرته إلي إن رآني.

أرى القزم، عبد الرحيم الأزرق، الذي كان زوجي. أضحك وأنا أراه وأحب أن يرى ضحكتي ليعرف ما تقدر النساء على فعله.

أحقا عبد الرحيم؟ هل عبد الرحيم الذي أعرف شعيرات ظاهر يديه، وابتسامه، وتقلبات مزاجه التي تنعكس على تعابير وجهه، وأعرف همسه وشخيره ورائحة جسده، هو عبد الرحيم القزم؟

هل يفلح السحر إلى هذا الحد أم أنهم قد شوهوه وقطعوه قطعا رموها في أرض خلاء ثم جاءوا بالقزم ليحل محله، وقد أجروا عليه عملية جراحية ليحاكي وجهه وجه عبد الرحيم؟

رأيت شيئا يشبه هذا في فيلم عرضته إحدى القنوات، فبعد وقوع الجريمة اختطفوا من السجن رجلا محكوما عليه بالمؤبد، وزوروا له أوراقا رسمية باسم القتيل وصورته، ثم دربوه على حركات القتيل وعاداته وطريقته في الأكل، وعرفوه بأسماء أهله وأقاربه وجيرانه وزملائه في العمل، وألبسوه نفس الملابس التي كان يرتديها القتيل، وجعلوه يسوق سيارة من نوع ولون سيارة القتيل، ثم أطلقوه ليلعب دوره في الحياة، وزوجة القتيل هي التي اكتشفت أن رائحته ليست هي رائحة زوجها. فهل حدث مثل هذا لعبد الرحيم؟

الدليل معي

إذا كان هو عبد الرحيم وقد تحول إلى قزم فهاتوه، وليردني إلى عصمته، وسأصبر على ذلك الألم لمرة واحدة بعد أن يدخل معي في الفراش، وبعدها سأقول لكم، فأنا امرأته لما يقارب العشرين عاما، خلالها ظللت أسمع دقات قلبه، ونبض عروقه، وهمهماته وهمساته، فلا يمكن أن يختلط علي مع رجل آخر، وإن كان رجلا غيره، فلن أقترب منه في الحرام، وسأقول لكم.

هل يبطل العجب ؟

ولكن عجبي لن يبطل إلا بعد أن أعرف هل القزم هو عبد الرحيم، أو هو غير عبد الرحيم، ولماذا ألصقوا صفة القزم بعبد الرحيم، وهل أفلح السحر أم أن له أعداء لا أعرفهم، هم الذين ردوه قزما أو هم لم يردوه وإنما أطلقوا عليه هذه الشائعة.

صورة الحمّام لا تفارق عيني، والماء يتدفق ساخنا على جسدينا أنا وعبد الرحيم، وعيني تزوغ لترى منه ما يمكن أن أراه على المرآة المضببة بالبخار. وفي تلك اللحظة لا أرى بجواري في ضيق الحوض غير قزم، ولد صغير، ولكنه بصورة وهيئة عبد الرحيم، ولما أنظر إلى ذلك الشيء أجده كما هو لعبد الرحيم، ناهضا نافر العروق محمرا من أثر سخونة الماء، ولكن ما الذي يفعله قزم، رغم هذا؟

الممانعة في الفراش سر التحول من رجل عادي إلى قزم:

لما غادرت الفراش وصرت أمانع في أن أعود إليه تغير حاله فهجر الطعام والشراب، وصار يخرج إلى عمله في صبيطار سيدي بوجيدة ثم لا يعود إلا وهو كواحد من أولائك الحماق مصفر الوجه سارح النظرات، لا يتكلم، وإن كلمته أنا فهو يبدو وكأنه يصعد من قاع بئر.

هل كان عبد الرحيم يضاجع نزيلات المصحة العقلية على سبيل العلاج؟

خلال ذلك الهجر، وقبل أن يطلقني، جاءت امرأة وقالت لي إنه يضاجع النساء الحمقاوات فيْ المصحة، فأصابتني الغيرة، ولم أدر كيف يمكن لرجل عاقل أن يضاجع مجنونة، تبول في حوائجها، وتخرأ في سروالها، ولا تغسل جسدها إلا في وقت معدود وبوقوف حارسة، تُعَرِّيهَا وتقذف في اتجاه جسدها تيار ماء يصيب الظهر والعنق والفخذين، ولما يتوجه الماء نحو الشعر فالمرأة

المجنونة تخلل شعرها بالماء وهي مسلسلة، وربما ترقص عارية وتضحك وتعبر عن حاجتها لرجل وهي تمر بيديها على ثدييها، وهناك من يعطيها شيئا من الشامبوان، فتخلل به شعر رأسها ووسطها، وترخي نظراتها نحو الماء، ثم ترفعها نحو من يرسل الماء، فتراه بعين حولاء، ليست حولاء في الخلقة ولكن أصابها حول من ميلان الرأس، وبتلك النظرة تراه فهو عبد الرحيم، وتراه وهو ينظر إلى صدرها، وإلى فخذيها، وإلى ذلك الشيء، فتصرخ، وتبكي، وتأتي نحوه عارية مبتلة بالماء، ثم يستدير خلفه فيرى الدكتور جاكار وهو يشجعه ثم ينسحب أو يبقى ليتفرج.

قالت لي تلك المرأة الحمقاء اسمها شمس الضحى، وهي ليست واحدة بل هناك نساء كثيرات حمقاوات، من بينهن واحدة تسمى مرضية بنت الشعط، وأخرى اسمها ميراي، وهم لغنائها لهم يسمونها الشحرورة، وهن كثيرات، وعبد الرحيم هو المكلف ب. . .

وأنا فهمت بماذا هو مكلف. هو مكلف بإشباع رغباتهن، ورغباته، حتى مع الحمقاوات.

جريمة. عبد الرحيم مجرم. وأنا أحترق من الغيرة، وسأفضح أمره وأرمي به هو والدكتور جاكار إلى ساحة الإعدام التي أعدم فيها الكومسير ثابت.

مرات دعاني للعودة إلى الفراش، وهو متغير الوجه، غائب النظرات، فأخذني لساني وبدل أن أسكت إلى حين أن أحصل عن الحجج، كنت أسأله عن الطبيب المسيو جاكار، وهل طلب منه حقا أن يعالج بعض المريضات بمضاجعتهن، وحتى حبوب منع الحمل التي كانوا يُشْرِبُونَهَا لأولائك النساء مذابة في الماء أبلغته عنها، فلو كان لا يَحُدُّون من النسل لكانت النساء قد

أصبحن أمهات لولدان ما داموا سوف يولدون في المصحة العقلية من أمهات مجنونات فلاشك أنهم كانوا سوف يكبرون مجانين.

كان يغضب، ويقول إنني أشغله بهذا الكلام عن حقه في فراش الزوجية.

ولما كنت أحاصره بالأسئلة، كان يقول هذه مجرد إشاعات، ويسألني عمن هي المرأة التي أخبرتني بهذه الأخبار، فلما رآني مشغولة بهذا الموضوع، وأسأله عن احتمالهن له، وكم عددهن، وهل منهن شابات جميلات، فقد وجد طريقة للتخلص من هذا الموضوع، وبصورة نهائية، لكي أستريح من الغيرة كما قال. وعدني مرة بأن يطلب التقاعد قبل أوانه ويجلس بجواري، ليكون لي وحدي، فلا يفارقني، وشكا لي من تعب المهنة، ومما يعانيه يوميا من النزلاء، حتى صار يخشى على نفسه من أن يصبح هو نفسه نزيلا في مصحة سيدي بوجيدة العقلية.

ولم أصدقه. ظننته يتهرب من جريمة لاشك أنه قد ارتكبها، أو أنه على الأقل، يسترضيني من أجل لقاء في الفراش، فقلت له إن كان على ذلك الشيء فلا تفكر فيه معي بعد الآن، ولكن حرام عليك تعذب النساء وهن حمقاوات. أما كفاك ما هن فيه من العذاب؟ وإن كان الدكتور جاكار يحسب أن ذلك علاجا لهن فربما هو لا يعلم أي عذاب منك يسلطه عليهن، فعاد ينكر ويحلف بالله أنه لا يفعل شيئا من ذلك، وقال إنه رجل يحترم الحرمات ولا يقرب الحرام حتى مع إغراء نساء عاديات فما بالك بنزيلات المصحة، وبدا عليه غضب شديد حتى حسبته سيضربني، ولكنه لم يفعل، وخرج من الدار.

لم يطلب التقاعد قبل أوانه، بل طلقني، وليتني تأكدت، لكنت قد أرسلت شكاية به وبالمسيو جاكار إلى وزير الصحة العمومية، أو لأرسلتها للجرائد التي تهتم بهذه الأخبار.

بكيت ولعلي قد ندمت، فقد تصورته مثل الكومسير ثابت، ما يفعله فوق إرادته لأن في وسطه ثعبانا من نار، والكومسير الذي كانوا قد قدموه للمحاكمة وجدوا لديه أشرطة يصور فيها أنواع التعذيب التي كان يمارسها على النساء بذلك الشيء، والمحامون الذين رأوا تلك الأشرطة أصيب بعضهم بالإغماء، والأطباء الذين كشفوا عن النساء ذهلوا، فكيف يمكن لرجل سلطة أن يتوفر في وسطه على آلة تعذيب يخترق بها الأحشاء والأرحام. قالوا حكموا عليه بالإعدام، فتشفع لدى الملك ليعفو عنه ولكن الملك لم يقبل الشفاعة.

وعبد الرحيم، طال الزمن أم قصر، سوف يقع في حبال المشنقة، أو سأراه وهو في ساحة الإعدام بالرصاص. سيعدم اليوم أو غدا، لأنه هو الكومسير ثابث، هو نفسه، حتى وقد صار قزما. المشنقة أو ساحة الإعدام لابد منها سواء أ صار قزما أم أن ذلك مجرد شائعات. المشنقة آتية إلى عنقه كما أتت إلى عنق الكومسير ثابث، وهذا أمر لا شك فيه، فقد شوهني، وحتى وإن تشفع بالملك فلن يقبل شفاعته، فهو كذلك الكوميسير، يحمل آلة تعذيب في جسده.

الرواية الثانية

لعبد الغني الأزرق،

ولد عبد الرحيم،

وهو لا يصدق،

لكن أمه مريم تخاف عليه من تأثير الشائعة على سمعته.

خبر من الوالدة بواسطة الهاتف

الوالدة هي التي أخبرتني بأن والدي قد تحول إلى قزم، في مكالمة هاتفية كانت خلالها تدخل وتخرج في الكلام، وتضحك فتبدو فرحانة ثم يتغير صوتها وتبدو وكأنها على وشك البكاء.

كان لدي في تلك اللحظة شغل كثير في المكتب وأنا أعكف على الأوراق، ولم يكن لدي صبر لكي أجبر بخاطرها وأسمع إلى ما تخبرني به.

قلت لها:

ـ ماما. ما هذه الخرافات ؟ماذا علي أن أفعل؟

ضحكت وقالت:

ـ خرافات ؟ ألم يصلكم الخبر إلى الدار البيضاء؟

وبدا على صوتي الانفعال، فقلت لها:

ـ ماما، هل أنت تمازحينني بهذا الشكل؟ لدي شغل كثير، وأنا سأتصل بك في الليل.

قالت:

ـ شغل ؟ أي شغل يلهيك عما وقع لأبيك عبد الرحيم؟

ـ تقولين بابا تحول إلى قزم؟

ـ الناس رأوه بأعينهم، هو، عبد الرحيم، وقد تحول إلى قزم.

ـ ماما، هل تقصين علي حلما رأيته في المنام؟

ـ ليس حلما، إنه المفاجأة التي تلقيناها.

ـ في الليل سأتصل.

ـ تبدو غير مصدق. تعال إلى فاس لتسمع بأذنيك، وربما تراه إذا لم يكن قد اختفى.

ـ سأحاول. ماما بالسلامة.

ـ اسأل الناس في الدار البيضاء هل وصلهم خبر الرجل الذي تحول إلى قزم.

ـ سأسأل. بالسلامة.

حسبتها قد وجدت صورة هي التي تتمناها له.

بقيت ذاهلا فتشتت ذهني ولم أعد قادرا على التركيز على الأوراق التي أمامي.

كيف أصدق أن والدي عبد الرحيم الأزرق، الذي عاش حياته كلها بقامته العادية يتحول فجأة إلى قزم؟ لا يمكن. يتحول إلى قزم وليس إلى شيء آخر؟ لو قالت إنه مريض ويحتاج إلى إجراء عملية جراحية لصدقت، ولو قالت إنه اختل عقليا فأصبح نزيلا في نفس المصحة العقلية التي يعمل بها لشككت في الأمر على الأقل، فعلامات الاستعداد للإصابة بمرض عقلي لم تكن تبدو على الوالد، ما عدا ما كان يظهر عليه من قلق بسبب توتر علاقته مع الوالدة، وهذا أمر طبيعي يحدث الأزواج عندما ينعدم التوافق مع زوجاتهم.

وجدت في مكالمة الوالدة توترا لم آلفه، فهي تضحك، ولكن ضحكها يختزن كثيرا من الانفعال والغضب، فضحكتها غير صافية، وصوتها مضطرب، وقد أحسست أنها تتشفى فيما تحسبه قد وقع للوالد ولكنها تشفق عليه في نفس الآن، كأنها تتمنى أن يكون ذلك قد حدث له بالفعل، وهي برغم الوثوق الذي أرادت لكلامها أن يظهر به فقد أدركت من نبرة صوتها أنها هي نفسها تشك في ذلك.

كان علي أن أحتمل، وأن أداري قلقي، حتى وأنا غير مصدق لما قالته الوالدة، فالسي عبد الرحيم والدي، ولعلها إشاعات أرادت أن تنال منه، ولعل الوالدة وراء تلك الإشاعات، سامحها الله.

لكن الإشاعة في حد ذاتها اعتداء، حرب يخوضها من يطلقها ضد من توجه إليه، فزميلنا الذي أطلقوا عليه إشاعة الارتشاء، فانتشرت إلى أن وصلته، أحس بجرح في نفسه وجفاه النوم، وبدأ ينظر إلى صورته في عيون الآخرين، ويؤول نظراتهم وكلماتهم حتى وإن كانت بريئة تأويلا يؤدي به إلى موضوع الرشوة، وكلما بدأ هو نفسه في طرح الموضوع مع الزملاء، إلا وكانوا يتبرمون من حديثه، حتى وهو يقدم لهم صورة عن نزاهة سلوكه في الإدارة ومع المواطنين، فمرة قال له أحد الموظفين أنت لم يتهمك أحد بشكل قانوني، حتى تدافع عن نفسك، فلماذا تقدم الدفاع على الاتهام؟ وارتبك فلم يدر ما يقول، فقال له زميل آخر إنها مجرد إشاعات، فدع الناس يقولون ما يشاءون، لكنه ظل لا ينام ويدمن على شرب القهوة ويدخن ثلاثة علب من السجائر في اليوم، فاصفر وجهه وأهمل هندامه، ولم يجد من يأخذ بيده ليشجعه على الصمود، فتغيب عن العمل أسبوعا وعاد ليجل مكتب المدير وهو يطلب منه فتح تحقيق في الإشاعة التي تروج حوله، وبالرغم من أن المدير كان قد وصلته الإشاعة، إلا أنه أنكر أنه يعرف شيئا عن الموضوع، وألح صاحبنا على فتح التحقيق، وظل المدير يقول له لا لزوم لأي تحقيق، فانفجر باكيا وقال أنا نزاهتي أصبحت موضوع شك، أنا أحرقوني بالشائعات، أنا كرامتي جرحت. لا أنام. لم أعد أقوى على العمل. أنا دمرت تماما. وسأله المدير هل يعرف شخصا محددا هو الذي روج هذه الإشاعة، فأجاب بالنفي، وطلب منه المدير أن يعود إلى مكتبه، لكنه قال إنه سوف يذهب إلى وكيل الملك بطلب فتح تحقيق في موضوع الإشاعات، وساعتها وقف المدير من مكتبه، واقترب منه فأمسك بذراعه، وقال له هل تريد لرجال الشرطة أن يأتوا ليطلعوا على الملفات، ويفتحوا الأدراج، ويبحثوا في معاملاتنا مع المواطنين؟

أنت ستسبب مشاكل كبيرة للإدارة، وفي هذه اللحظة أراك متعبا، فعليك أن ترتاح وتنام بما فيه الكفاية، سأعطيك رخصة تغيب، وسآخذك إلى مكان هادئ ترتاح فيه لأسبوع، ونادى على السكرتيرة فطلب منها أن تأتيه بمبلغ عشرة آلاف درهم من الخزينة، ولما أتت بها وضعها في جيبه وأخذ المفاتيح وقال لصاحبنا تعال معي، فأركبه في سيارته، وأخذ يسوق حتى خرجا من المدينة، والمدير عابس لا يتكلم، ولما سأله إلى أين سنذهب قال له ستعرف، وظل يسوق بسرعة إلى أن وصلا إلى الجديدة، فتوقفت السيارة أما مدخل أطيل مرحبا، فدخلا وحجز له المدير غرفة لأسبوع، ثم أعطاه العشرة آلاف درهم، وطلب منه أن يبقى في الفندق، فأمامه البحر، وعليه ألا يشرب القهوة، وهي فرصة للانقطاع عن التدخين، كما طلب منه ألا يتصل بالهاتف بأحد، وإن كان على أسرته فسيخبرها بأن الإدارة قد أرسلته في مهمة عاجلة، وسيعود بعد أسبوع ليرجعه إلى الدار البيضاء، فيرجو أن يكون قد نسي تلك الشائعات.

أتذكر هذه الحادثة وأنا أقول كان الله في عون الوالد، فكيف عليه أن يثبت للناس أنه لم يتحول إلى قزم، وهل هو متهم حتى يقدم دليل براءته؟

صورة الوالدة

كانت الوالدة تضحك ضحكتها الصافية الرنانة لأتفه الأسباب، وتقول قلبها عامر بالضحك، وهَمُّ الدنيا يبقى فيها، فإن لم يضحك الإنسان فماذا عليه أن يفعل، يبكي، أو يضع يده على خده من الحزن ويظل ينتظر أن يحدث شيء يرضيه؟

قلبها لا يعرف الحقد على الناس، وهي غالبا ما تنسى ما كان يوجهه الناس لها من إساءات، فحتى وإن اعتذر لها أحد عما كان قد صدر منه فهي تقول أنا نسيت، ويحسب ذلك الشخص أنها تتخلص بهذه الطريقة من أي عتاب قد يعكِّر اللحظة، ولكنها وهي أمي وأنا أعرفها جيدا، تكون قد نسيت بالفعل،

فكأن ذاكرتها لا تحتفظ إلا بالأشياء الجميلة، المفرحة، والباعثة على الضحك، وأنا لم أر في حياتي مثيلا لها بين الناس، فذاكرتها تختار ما تحفظه وما عليها أن تنساه تماما، وحتى لا تتذكره فيما بعد.

هذه هي الصورة التي أحتفظ بها للوالدة، قلب عامر بالضحك، وتسامح مع الناس، ولكنها مع كل ذلك كانت تخفي جرحا عميقا في نفسها، نشعر به، ونراه وآلامه تطفو على نظرتها ووجهها، ثم نراها وكأنها تشعر بما نراه، فتداري ما يظهر عليه وتغير من وضعها لتبدأ في الضحك ولأتفه الأسباب.

كان هذا هو حالها قبل الطلاق، لكنها بعده تحولت إلى امرأة أخرى، فصارت تحلم بالكوابيس، وفقدت ضحكتها، وفي بعض الأحيان كانت تذكره أمامنا أنا وبديعة وتحلف بالله إنها لراجعة إليه، بالرغم عنه، وحتى تنتقم، وتريه عذاب ما عذبها به وهو يطلقها.

توالت مكالماتها تؤكد لي ما تقول، وقالت لي لا تحزن يا ولدي عبد الغني، فلك أصهار وامرأتك سهام لن تقبل أن يكون والدك هو ذلك القزم، وأما حماتك فهي تصنع من الحبة قبة، فما بالك برجل عادي يتحول إلى قزم. والزملاء في عملك، والفضيحة ؟

وبصراحة فقد خفت على صحة الوالدة، فاتصلت ببديعة ووجدت أن الخبر قد وصل إلى السعودية.

صورة الوالد

ولا أدري، فهو لم يتزوج وهي لم تتزوج، ولاشك أن كل واحد منهما ما يزال يحب الآخر ويتمنى العيش معه، ولذلك فأنا لا أدري ما الذي وقع، وكل ما أدريه أن والدنا عبد الرحيم قد تغير كثيرا قبيل الطلاق، فبدأ يعاملنا بجفاء أنا وأختي بديعة، وصار وجهه مصفرا ولحيته مهملة لا يحلقها لأيام. صار لا

يتكلم، يدخل غرفة النوم في الثامنة مساء ويغلق عليه الباب، والوالدة تنام مع بديعة، فلا ندري ما وقع له، حتى ترك البيت وأخبرتنا الوالدة بالطلاق.

وإن كنا قد بقينا في الدار، وهو الذي غادر، فقد كان لا يزورنا بالرغم من أنه ظل يدفع الكراء وأجر الماء والكهرباء، وكانت بديعة كلما التقينا به وسألته كيف يعيش، وأين، فقد كان لا يرد على مثل تلك الأسئلة، وإن ألحت يقول لها لا تسأليني.

كان لا يسمح لنا بزيارته في المصحة العقلية، وكنا نلتقي به في حديقة جنان السبيل، فيأخذنا إلى مقهى نشرب فيه المشروبات، ويبقى جالسا أمامنا وهو غائب في شروده فكنا لا نعرف فيما يفكر. ومرة لما فارقناه قالت لي بديعة إنه يفكر في ماما، وإذا لم يرجعا إلى بعضهما فستحدث له مصيبة.

تساءلنا أنا وبديعة عن المكان الذي يقيم فيه، فهو براتبه الشهري لا يستطيع أن يدفع عنا كراء البيت والماء والكهرباء، والنفقة، وأن يدفع كراء بيت يسكنه في نفس الآن، ولذلك، ورجحنا أنه قد يكون مقيما في المصحة. ولما تداولنا الأمر مع ماما قالت لنا إن هذا هو الواقع، فقد انتهى عبد الرحيم للإقامة في مصحة سيدي بوجيدة للأمراض العقلية وإن لم يكن أحمق فهو قريب من الحماق، ثم ضحكت وقالت قريب من النساء الحمقاوات، وأنا أعرف لماذا، فلم نسأل، ولكننا تحيرنا في كلامها ذاك.

بقينا على ذلك الظن لسنوات، حتى عرفت بديعة من إحدى زميلاتها في الدراسة أن والدنا عبد الرحيم يقيم في شقة صغيرة، في حي الأطلس، وأنه يركب الحافلة أربع مرات في اليوم، بين الأطلس وباب الفتوح ليلتحق بعمله في المصحة.

بقيت صامتة لأيام، وعلى وجهها حزن وقد هجرت الطعام والشراب، وكانت تقول لنا مريضة، ولما نسألها عن مرضها تقول مرضي ليس له دواء.

وتركناها لحالها أياما ولكنها فجأة انفجرت فينا أنا وبديعة غاضبة وقالت لنا اذهبا وانظرا إن كان عبد الرحيم أبوكما قد صار له عشرة إخوة لكما وأنتما لا تعرفان. ولما استغربنا ما تفكر فيه قالت لنا أليس يسكن في شقة، وهل يقيم رجل في مثل سنه في شقة، وبين المتزوجين، وهو أعزب؟ وحاولت بديعة أن تهدئ هياجها، وقالت لا يمكن، فالوالد أنا أعرفه، لو كان يرغب في الزواج من جديد لكان قد تزوج ماما، وقلت لها أنا بابا يحبك يا ماما، فبكت، وضحكت، وفتحت ملفا للتحقيق في سكناه وجيرانه ورائحة طعامه التي تتصاعد من المطبخ، وهل يزوره أحد، وهل لباسه نظيف كالعادة، فمن يصبن له ثيابه، فضحكت بديعة وقالت لها تيد يا ماما، يصبن أحسن. وضحكنا من غيرة أمنا مريم، على والدنا عبد الرحيم، لكننا أنا وبديعة بقينا نطرح سؤالا، هل الوالد يتتبع خطى طليقته، الوالدة، وهل هو يغار من خروجها ودخولها، وهل لا ينتظر أن تتزوج رجلا آخر؟

كبرنا أنا وبديعة، وحصلنا على الشهادات، وتزوجنا، والوالد حضر حفلا صغيرا لعقد قراني بزوجتي سهام، فجاء بثياب مهلهلة وهو لم يحلق لحيته لأيام، وجهه مصفر ونظراته منكسرة، فخجلت من حضوره أمام أصهاري بذلك المظهر، ولو كان قد أخبرني بحاجته إلى بذلة جديدة لكنت قد اشتريتها له، ولو عرفته سوف يحضر من غير أن يغتسل ويحلق لحيته لكنت قد ذهبت إليه ودفعته إلى ذلك، لكنه فاجأني بحضوره على ذلك المظهر، فقد صافح والد سهام وعمها وهو مطأطأ الرأس، فلم يعجبني الحال، لأنه بدا بمظهر متسول، فجعلني أشعر بالدونية في الوقت الذي دفعت لهم فيه مهرا مجزيا وهدايا كانت فوق طاقتي، فما فعلوا فينا خيرا وإنما أنا وسهام اتفقنا على الزواج، فلماذا الوالد يبدي أمامهم حركات الذلة والمسكنة ويعامل نفسه بالدونية أمامهم؟

الوالدة أغضبها الحال الذي جاء إليه فأوغرت صدري عليه وهي تقول إنه قد تعمد ذلك لكي يحط من قيمتي أمام أصهاري. لكنه عندما التقيت به بعد ذلك اعتذر لي وذكر أنه لم يكن مستعدا لارتداء ثياب نظيفة ولم يكن له مزاج ليستحم ويحلق لحيته، واعتذر عن كونه لم يقدم هدية لعروسي، ثم أخذ يردد اسمها وهو يبتسم:

ـ سهام. . سهام . .

كأنه يحفظه، أو كأن الاسم يوحي له بشيء أو يذكره بشيء.

أخبرته بليلة عرسي لكنه لم يحضر، وإن ظل طوال الليلة يكلمني بالهاتف ويقول كلاما مضطربا حسبته من قبيل التعازي لا من قبيل التهاني، ولما كنت في تلك الليلة قد تلقيت طعنات قاتلة من حماتي، وقبلها كانت علاقتي بسهام قد توترت، فأصبح الزواج مجرد واجب أو التزام أردت به الوصول إلى آخر الطريق، فقد كان كلام الوالد بالهاتف يشعرني وكأنه عليم بحالي، فكنت أصغي إليه وهو ينذرني بما أنا مقبل عليه، ثم يردد الاسم:

ـ سهام. . سهام. .

وأعتذر له بأنني سوف أذهب لاستقبال بعض المدعوين، فيقول إنه سوف يتصل من جديد ثم يقطع الخط.

كنت بعد كل مكالمة أبحث عن مكان أختلي فيه بنفسي وقد داهمني الحزن إلى حد البكاء، ثم أحتمل وأعود للوقوف وسط المدعوين، متحاشيا أن ألتقي بحماتي، وكانت ماما قد ارتدت قفطانا أخضر شدت عليه وسطها بمضمة من حرير، وزينة وجهها كاملة، وقد بدت متألقة لم يذبل شبابها بعد، فكان بعضهم يسألونها عن والد العريس فترد بأنه مسافر في الخارج. وكانت الوالدة تشعر بحالي، فلما تقترب مني وتسمع الهاتف المحمول يرن تقول لي لا ترد

عليه، فأنت في ليلة عرسك وهو لم يحضر فليس عليه أن يشغلك بكلامه الفارغ.

يعود للاتصال من جديد، فأحيله على بديعة. تعتب عليه لأنه لم يحضر عرس ولده وتصف له أجواء العرس، وجمال العروس، وتجعله يسمع الموسيقى والغناء ذلك المغني، ثم تخبره بأن الجميع يسألون عنه، فيرد بأن حالته لا تسمح له بالحضور، ولما تسأله هل هو بخير، يضحك ويقول لها أنا دائما بخير، منذ أن جئت إلى هذه الدنيا وأنا بخير، فلا تقلقي علي.

عندما جاء أهل شكيب يخطبون بديعة احتارت الوالدة فاستشارة الوالد لابد منها، ولكن أي رأي سوف يبديه هو أو أنا وبديعة على وفاق تام مع شكيب وقد قررا الزواج؟ بالنسبة لي بصرتها ببعض الأمور لكي لا تندم، واكتفيت بذلك فلم أعارض، لكن موافقة الوالد ضرورية في كل زواج يتم على الطريقة الإسلامية، وبدونها لا يكتمل الزواج، فأنا لا يمكن أن أنوب عنه وهو حي يرزق.

اتصلت به وأخبرته بالموضوع فبدا ممتعضا ولم يرد علي. أطريت على شكيب وأخلاقه ومركزه في العمل، فهو مهندس في الإعلاميات، موعود بمنصب شغل كبير في السعودية، وبمجرد ما سمع الوالد ذلك نهض واقفا وقال:

ـ ستسافر معه إلى السعودية؟

قلت:

ـ هو موعود بالعمل هناك، ولكن لم . . .

قاطعني وقال:

ـ بديعة سوف تذهب للعيش في السعودية ؟

قلت:

ـــ ربما. ولكن . .

في ذلك المقهى الواقع بجوار سكناه في الأطلس، واسمه مقهى زاكورة، نهض الوالد من مكانه فالتفت نحوه الرواد وبدأ يشتمني ويشتم تربيتي والتي ربتني.

خجلت من العيون التي حاصرتنا بنظراتها، فأحنيت رأسي، وحاولت تهدئته فقال:

ـــ أنت وأمك تتآمران على بديعة.

قلت:

ـــ يا بابا الزواج برضاها، وهي ترغب في شكيب.

نظر إلي مستهزئا وقال ساخرا:

ـــ شكيب ؟ هه.

ثم انسحب وتركني جالسا وسط رواد المقهى وهم يحدجونني بنظراتهم. كانوا أشبه بالعاطلين أو بمساعدي سواق الشاحنات، وقال لي أحدهم:

ـــ السي عبد الرحيم دائما هادئ.

وقال آخر:

ـــ يجلس وحده ولا يتخاصم مع أحد.

وقال ثالث:

ـــ أنت أقلقته بشيء.

فلم أرد عليهم وانسحبت من المقهى.

بعد أيام قررت بديعة أن تراه، وألحت على أن أكون معها، فكلمته بالهاتف في المصحة العقلية ولم يقبل اللقاء بنا إلا بعد تعب. وحالما التقينا به، في المقهى نفسه، جلسنا كيتيمين، كانت يده باردة عند السلام، رخية، ونظراته كسيرة لا تلتقي مع العين، وأنا حالما أنظر إلى بديعة، وقد جاءت بلباسها

الأبيض، سروال وقميص وفولار أحمر في العنق، وبمكياج خفيف، فبدت عروسا جميلة لكنه لم يتطلع إلى جمالها، وظل ينظر إلى الأرض، مطرقا برأسه، فجاء النادل وطلبت منه ثلاثة كؤوس من الشاي، لكنه رفع نحوه نظره وقال:

ــ أنا قهوة.

فابتسمت وقلت له:

ــ عدت إلى شرب القهوة؟

قال بغضب:

ــ وهل تريدني أن أشرب الشاي بالقوة؟

ثم التفت نحو النادل وقال له:

ــ اسمع. أنا كوكاكولا كالعادة.

لم نعرفه قاسيا إلى هذا الحد، ولا غضوبا كما هو الآن. كادت الدموع أن تطفر من عيني بديعة، فشجعتها بنظراتي، لكن الوالد كان لا يأبه لجلوسنا أمامه، فلما جاء النادل بالمشروبات صب الزجاجة في الكأس حتى فاض وأترعه دفعة واحدة، ثم طلب من النادل زجاجة أخرى وقال لي:

ــ لا تدفع سوى ثمن الشاي. أنا لا يدفع علي أحد ثمن الكوكاكولا.

قالت له بديعة:

ــ بابا، حرام عليك. عبد الغني ولدك وأنا ابنتك. هل تحتاج إلى مال؟

رد من غير أن ينظر إليها:

ــ وماذا سوف أفعل به؟ ثمن شراء حبل أصنع منه مشنقة موجود معي دائما.

قالت:

ــ باسم الله عليك. بابا قل لنا مالك ؟

حرك رأسه يمينا وشمالا وقال:

ـ مالي ؟ آه يا مالي!

لم نشرب ذلك الشاي، فالمائدة غير نظيفة والمقهى كئيب قليل الضوء والوجوه التي يتطلع إلينا أصحابها بنظراتهم كوجوه القتلة. أخذت بديعة تتململ في جلستها كأنها سوف تنهض. وبالرغم من أن الوالد كان ينغلق على نفسه، ويصنع بيننا مسافة من الصمت ولا يفتح لي شيئا من نفسه لكي أقول له ما أرغب فيه من كلام الكلام، فقد قلت له:

ـ بابا بديعة جاءت . . . وهي خجولة من أن تقول لك إنها . . .

قال لي:

ـ مادمت أنت لا تخجل، فقد قلت لي إنها ترغب في الزواج.

قلت:

ـ تماما. ولكن بدون رضاك وموافقتك لا يمكن أن تتزوج من . . .

انقبض وجه بديعة وبدت عيناها كبحر هائج. قلت:

ـ والد شكيب يرغب في اللقاء بك، ليخطب منك بديعة.

فاجأنا استسلامه وهو يقول:

ـ ليأت.

انحنت بديعة على يده وقبلتها، فرفع نظره نحوها وبدأ يتأمل زينة وجهها وملابسها وهي تحمر من الخجل. قال لها:

ـ كبرت. تبارك الله.

وطفرت الدموع من عينيه، ونهض يريد الخروج من المقهى فلحقت به بديعة تمسكه من ذراعه، ودفعت ثمن المشروبات بعجل ولحقت بهما.

في الشارع، قال لنا:

ـ تعاليا معي إلى بيتي.

صعدنا أدراج العمارة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي ندخل فيها بيت الوالد السي عبد الرحيم، فأذهلتنا الأوساخ وطبقات الغبار والأشياء الموضوعة في غير أماكنها، حتى إن بديعة بسروالها الأبيض لم تجلس إلا بعد تردد على الفراش.

قالت له:

ــ بابا. هل تسمح لي في يوم الأحد أن آتي لتنظيف بيتك؟

ضحك وقال:

ــ لا تتعبي نفسك، فقد فات الأوان.

قالت:

ــ لكنك كنت لا تسمح لنا ب . . . ولو . . .

قال:

ــ لا أقصد ما فهمت، فالأوان الذي فات ليس هو أوان التنظيف، وإنما أوان . . .

قلت:

ــ لا شيء يفوت أوانه. ولو تأذن لي فسأفرش بيتك بفراش جديد، وكذلك أثاث المطبخ، وتلفزيون بالألوان.

ضحك وقال:

ــ لن تقبل سهام، ستقول لك إنك تبذر أموالك على عجوز.

قالت بديعة:

ــ نتعاون أنا وعبد الغني على تأثيث شقتك بأثاث جديد، بعد صباغتها.

ضحك وقال:

ــ هل تفعلان ذلك حتى أستقبل والد شكيب فيجد بيتي لائقا؟ بورجوازي خانز. أنا أعيش فقري وبعرق جبيني.

أكدنا له أننا نرغب في ذلك من أجله، فقال:

ــ ومريم، هل تسمح لكما بتبذير المال علي؟

أطرقنا برأسينا نفكر في الجواب فقال:

ــ لا تتعبا نفسيكما، فأنا سأرحل من هذا البيت.

قالت له بديعة:

ــ وأين ستقيم؟

قال:

ــ في المصحة، حتى أكون قريبا من المرضى.

ذهلنا، وأخذ يعد الشهور والأيام التي بقيت قبل أن يتقاعد، ولما نهضنا نريد الذهاب نظر إلى بديعة وقال لها:

ــ سلمي على مريم، وقولي لها يقول لكِ عبد الرحيم إنه لم يعرف امرأة بعد أن فارقك، وحتى خلال العشرة.

خرجنا فأخذت بديعة إلى بيت ماما، ولم أدخل، فودعتها عند الباب وهي باكية، فدمعت عيناي.

الرواية الثالثة

لبديعة الأزرق،

وهي تتصور أن الأقزام لا يوجدون في السعودية،

وإن وجدوا هناك فستعرف أن الأقزام يوجدون في كل مكان.

بديعة وعالية وحديث عن الأقزام

قالت بديعة لصاحبتها عالية التي جاءت لتزورها من الظهران:

ـــ هل يوجد لديكم في السعودية أقزام؟

ضحكت صاحبتها وقالت:

ـــ يوجدون في السيرك، والسيرك لا يأتي إلا للرياض.

ثم بعد حين قالت عالية:

ـــ لماذا تسألين هذا السؤال؟

ترددت بديعة وبدا عليها الارتباك، وقالت:

ـــ رأيت قزما في التلفزيون، وشككت هل هو قزم بالفعل أم أنهم في الأستوديو قد أتوا بطفل وصنعوا له قناعا بوجه رجل، وعودوه على حركات الأقزام، ليظهر وكأنه قزم.

لم تأبه عالية للموضوع، لكن بديعة عادت تسأل:

ـــ هل سبق لكِ يا عالية أن رأيت قزما عن قرب؟

قالت عالية وهي تضحك:

ـ في السيرك طبعا.

ـ وفي حيكم، أو من بين زملائك في الدراسة، ألم يكن هناك قزم؟

ـ لا، لم يكن.

تعجبت عالية من هذا الحديث، فقد جاءت لتتناول مع بديعة الكسكس المغربي وتتفرج على شريط غنائي، ولتتبادلا الحديث عن طبيعة المغرب وجماله، وما فيه من جبال وأنهار وغابات وصحار وبحار، وعن مدنه، فهي إن شاء الله، في عطلة زوجها القادمة، سوف تسافر معه إلى مراكش، وفاس مدينة صاحبتها بديعة، فما للحديث وما للأقزام، وهي لم تسمع بالأقزام ولم تهتم بهم منذ أن كانت تلميذة في المدرسة الابتدائية تقرأ عنهم القصص التي تحكي عن مدينة الأقزام والسلالم التي يصعدون بها إلى الأكواب ليشربوا منها الماء، وأحذيتهم التي كانت صغيرة جدا، فما الذي جعل صاحبتها بديعة المغربية تدير الحديث حول الأقزام؟

كانت بديعة في المطبخ تضع اللمسات الأخيرة على صحن الكسكس، وعالية تقف بجوارها، وبعد أن تحدثتا عن تفاصيل إعداد الوجبة، أخذت بديعة حبة حمص وقالت لعالية:

ـ كم من الأقزام يأكلون ويشبعون من هذه الحمصة؟

ضحكت عالية ثم قطبت جبينها وهي تتساءل عما أصاب بديعة حتى صارت لا تتحدث إلا عن الأقزام. وحملت بديعة طبق الكسكس إلى مائدة الطعام وقال:

ـ تركت لشكيب نصيبه، وإن كان الكسكس لا يتبقى بعد تحضيره.

أكلت بديعة وهي شاردة، فقد كانت تفكر فيما أخبرتها به أمها بالهاتف. هل بابا أصبح قزما؟ الله يسامحك يا ماما، أما كفاك ما أنا فيه هنا؟ أقضي أيامي محجوزة هنا في البيت، إن أردت الخروج فلابد أن يكون معي زوجي،

أخرج معه وأنا أرتدي لباس المحارم. في فاس كنت أخرج إلى العمل وأرى الشارع وألتقي بالناس، والرجل لم يكن غولا يخيفني ففي العمل كان لي زملاء أتبادل معهم علاقة الاحترام، أما هنا فالرجل غول، وملابسي لا أرتديها إلا في البيت أو تحت العباءة إن كنت سأخرج مع شكيب. وإلى أين سوف نخرج؟ شوارع طويلة عريضة تصفر فيها الريح، ومحلات تجارية يكثر عليها الزحام ومبيعاتها لا تغريني. يقول شكيب نصبر حتى تنتهي عقدة السنتين التي أمضاها ونعود إلى المغرب لنبني فيلا رائعة ونشتري سيارة من آخر طراز، وها أنا صابرة، لكن ماما لم تكن تمزح، فصوتها مضطرب في الهاتف، وهي تتحدث عن الوالد الذي تحول إلى قزم، وتؤكد أن الناس رأوه، بوجهه الذي نعرفه جميعا، لكنه تحول إلى قزم.

أحلام ماما

أعرف أن ماما تحلم كثيرا من الأحلام المزعجة، وليتها قالت إنها قد رأت ذلك في المنام، وربما تكون ماما تريد أن تنتقم منه بسبب الطلاق ولذلك تنشر حول هذه الإشاعة، ولكن مع من ؟ معي أنا، ابنته؟ الله يسامحك يا ماما، فحتى وإن كان الأمر مجرد مزاح فأنا لا أحتمل. مزاح غير مسل، فهو بابا، وإن كان ما قالته صحيحا فستنزل علي الصاعقة. أين أخبئ وجهي من شكيب؟ كيف أفسر له ما وقع؟ وهل سأتنكر لبابا، السي عبد الرحيم الأزرق؟

الباب الرابع

[ويشمل روايتين إضافيتين،
لكل من مصطفى التواتي ضابط الاستعلامات
وعباس المرادي معد البرنامج التلفزيوني،
وهما يتحولان إلى قزمين].

الرواية الأولى

لضابط الاستعلامات مصطفى التواتي،
وهو يبتدع نظرية جديدة لخروج المغرب من التخلف.

ما الذي نفعله بالأقزام، وما الذي هم يفعلونه بنا؟

والأقزام الحقيقيون، الذين ولدوا أقزاما، هل علينا أن نرد قاماتهم عادية وكما لم تلدهم بها أمهاتهم؟

هؤلاء مجانين، وهو الفراغ يملأ حياة الناس فيجدون الوقت لمثل هذه الشائعات، ولو كان لهم ما يشتغلون به من جد لما خاضوا في هذه الترهات. الأقزام كباقي المواطنين عليهم أن يخدموا وطنهم، وأن يبنوه كما يبنيه جميع المواطنين، وأما الإشاعات الهدامة فحتى وإن تعلقت بأفراد، فهي تمس بسمعة البلاد وتؤثر على السياحة والاقتصاد.

عبقرية ضابط في الاستعلامات، تفتقت عن كابوس سياسي:

تفتق تفكيري عن فكرة جريئة، وهي أن ندعو الاستعمار ليعود إلى المغرب. فكرة قد تبدو رجعية ولكنها في العمق تقدمية، فأنا لا أحب أن أرى بلدي مستعمرا ولكنها فكرة إن جاز تحقيقها فلسوف تعيد للمغرب وجها جديدا وسيتحقق له ما لم يتحقق لحد الآن.

الفكرة يرددها بعض العامة ممن يعلنون أن الاستقلال لم يأت بشيء، لكني أطرحها بشكل مغاير، وهو العودة إلى الماضي من أجل المستقبل، وعودة المبادئ حتى نرقى بأنفسنا وبهذا الوطن.

استعمار قد يكون هو فرنسا وإسبانيا أو هو استعمار له اسم آخر، جيشه محتل، وثكناته في كل قرية ومدينة، ورجاله يسيطرون على الإدارة والاقتصاد، وذلك ما سيعيد روح الوطنية والحماس الوطني من جديد صادقا كما كان، وحب الملك وحب الوطن يعود كما كان من الإيمان، والأناشيد والحماس والناس جميعا يعرضون صدورهم لرصاص المستعمر من أجل حرية الوطن، بدل أنهم اليوم يبيعون المبادئ والذمم، ويتاجرون بكل شيء مقابل مصالحهم الشخصية ومصالح أبنائهم.

ساعتها سوف يتخلص رجال ونساء المغرب من المصلحية والفردية والأنانية والانتهازية. فالمواطنون وزعماءهم السياسيون، إن وجدوا المستعمر يحتل وطنهم ويستبيح خيراتهم ويمنعهم من الحريات، فسوف تتقوى عزائمهم، وتشحذ هممهم، وسينسون مصالحهم الخاصة وهم يدافعون عن الحرية بدمائهم وتضحياتهم، يتساوى في ذلك الأغنياء والفقراء، العمال والفلاحون، التجار والصناع والحرفيون، فتتوحد كل فئات الشعب وتلتف حول صاحب الصولة والصولجان، الذي إن زحزحه الاستعمار عن عرشه فستقوم القيامة وسيخرج كل المواطنين يعرضون صدورهم لرصاص المستعمر فداء للملك المفدى، رمز الوحدة والحرية.

هناك إذن مبدأ بسيط، واضح، وهام جدا، إذا ضاع فقد ضاع الوطن، وهو مبدأ التضحية، فلا أحد اليوم يضحي بشيء من أجل الوطن، وإن تظاهر بالضحية فهو يخطط لوصول إلى هدف يقبض فيه ثمن تلك التضحية. فأين هم الأولون من الآخرين؟

نبدأ من محاسبة الخونة، وتجار السياسة، وكبح كل شقاق ونفاق بين أبناء الوطن، وبذلك نصل إلى تحقيق الديمقراطية وحقوق الإنسان.

لماذا علينا أن نعاود تجربة الاستعمار؟

السبب بسيط، وهو أننا لم نصل إلا إلى تراخي المواطنين في نضالهم، فقد تعبوا من النضال ومن السجون والمنافي خوض غمار الدفاع عن الحريات العامة التي وهبها لهم النظام، حتى وبعضهم يقولون إنهم قد انتزعوها منه بالتضحيات، فقد أصبح العمل السياسي لعبة سهلة يلعبها حتى بعض الشبان الصغار السن، الذين لا تجربة لهم في الحياة فما بالك بأن ينوبوا عن الشعب في مجالسه النيابية أو يتحملوا المسؤوليات؟ لذلك لم تعد السياسة تهمة، أو عملا حارقا لمن يمارسه، فأصبحنا لا نجد أناسا نعتقلهم بتهمة معارضة النظام والعمل على تقويضه، وحتى ولو كان ذلك من قبيل النوايا فقد كنا نفتش في تلك النوايا باعتقال أصحابها الذين يظن فيهم أنهم يستوردون أفكارا يسارية اشتراكية لا تصلح لبلدنا المسلم ولا يرضى عنها أمير المؤمنين.

والسياسة أصبحت تجارة، استثمار، والوصوليون يراهنون على يأخذوا أضعاف ما دفعوا في شراء الأصوات في الانتخابات، ولذلك لم يعد أحد يثق بمن يبشر بغد أفضل، وعزف الناس عن الذهاب إلى صناديق الاقتراع. فما رأوه من المرشحين الذين أعطوهم ثقتهم يكفي، فقد رأوهم وفي سرعة البرق يتحولون من موظفين صغار إلى ملاكين كبار، وبهذا بدأت علامات فشل المسلسل الديمقراطي الذي هو إرادة ملكية.

وأنا الضابط مصطفى التواتي، رأيتهم بعيني، وتابعتهم، ربما بفضول شخصي، خارج مهنتي، وعرفت ما كانوا يملكون وما هم يملكون الآن، إنهم يتاجرون بالانتخابات، والمواطن يلاحظ ويتابع ولذلك فهو اليوم يعزف عن التصويت، والدولة تنفق الملايين على الإشهار من أجل تحفيز المواطنين على ممارسة حقهم الانتخابي، ودورهم في ترسيخ الديمقراطية بالبلاد.

القزم يصبح قضية وطنية

وعجبا، اليوم يطلع لنا أمر جديد، وهو أن رجلا في فاس تحول من طوله العادي إلى قزم.

هل هذه مشكلة للبلاد والعباد؟

هي مشكلة بالفعل، فغدا سنسمع عن ذلك المواطن الذي تحول من لونه الأصلي العادي إلى لون غريب، أخضر أو أصفر، أو بنفسجي، وعبد الرحيم الأزرق نفسه قد يقال إنه أصبح هو عبد الرحيم الأسود أو الأبيض.

مواطن له رأسان بأربعة عيون وثلاثة أنوف

وغدا ستبلغ نفس الإشاعات وهي تردد أن مواطنا له رأسان بأربعة عيون وثلاثة أنوف وفمين ولسانين، وربما يتضاعف عدد الأفواه والألسنة لذلك المواطن، فيتكلم تلك الألسنة، مرة بلسان السلطة، ومرة بلسان من ينوب عن الشعب، ومرة بلسان تلك الأشياء القبيحة التي كانت قد وقعت في حق بعض المواطنين وعفا الله عما سلف، ومرة بلسان الخوف الذي ما زال يسكن بعض المواطنين فنحن نعرف أنهم لا يثقون في الإصلاحات التي تقوم لهذا الدولة ومع ذلك يلهجون بالحمد والشكر خوفا من أن يصبحوا أقزاما، ومرة بلسان ركوب الموجة، ومرة بلسان لا لسان له فهو يكتري لسانا لينطق به، فتكثر الألسنة.

وبعد غد سنسمع إشاعة عن ذلك المواطن الذي له يد طويلة وطويلة جدا يمدها من مكانه في فاس مثلا ليأخذ صحن شواء من جامع الفنا في مراكش، أو ليقرص أذن وزير، أو ليداعب خد مذيع في التلفزيون وكأنه يهم بصفع الخد ولكنه لا يفعل، واليد تمتد وتطول، يد طويلة، طويلة جدا، تصل إلى كل شيء، حتى أدراج المكاتب، والملفات السرية، يد حمقـــاء لا عقل لها، ولذلك يحسب

صاحبها أنه بها يرى ما يمكن أن تصل إليه، يد مبراصة، يد خطيرة جدا، لأنها يمكن أن تهرب الأسلحة، وأن تهرب المخدرات، وأن تهدد أمن الدولة، والأمر خطير في حد ذاته، فقد تطول تلك اليد لتسرق من مكتب رئيس لإحدى الدول وثائق سرية، أو تنزع عن عينيه النظارة وهو يلقي خطابا مكتوبا فلا يرى شيئا ويضطر إلى ارتجال الخطبة وفيها يقول حقائق غير تلك المكتوبة أمامه في الأوراق.

وبعد ذلك الغد، يمكن أن نقرأ الإشاعات من الصحف، فالجرائد يصبح لها عيون، وبعيوننا نحن نقرأ ما تراه تلك العيون، عيون من ورق ولكنها ترى ما في أوراق المالكين الحقيقيين لثروات البلاد، ومن أين جاءتهم تلك الثروات، وكيف استثمروها، ومن أغمض عينه على ذلك، فهي عين ترى ما تراه العين، والناس لهم عيون ولكنها لا ترى شيئا غير الطرقات التي تكثر فيها الحفر، والبطاطا في السوق، فعيون الدهماء يمكن أن ترى تلك الثروات التي لا تعرف كيف تقدرها، ولكن يمكن أن تقوم بثورة، وأن ترفع ذلك الشعار القديم الذي أصبح اليوم باليا، وهو شعار: من أين لك هذا؟ وبجواره يبرز شعار قديم بال آخر، هو شعار: الأرض لمن يحرثها. شعارات بالية، ولكن العين الخبيثة، التي لا تحمد الله على نعمه، يمكن أن تراها وهي ترى من تحت الخباء، فينكشف الغطاء بسبب عيون الجرائد وبسبب تلك العين التي هي عين الحسود، وعين الحسود فيها عود.

وبعد ذلك الغد وغده، يأتي أناس على سبيل الشائعات التي يمكن أن تحدث، فينافسوننا في حاسة الشم، حاستنا التي نختص بها، ونحن كباقي البشر لنا أنف واحد به نشم، ولكن تصوروا رجلا بثلاثة أنوف، فهو سيشم بدرجة أفضل، وإذا كان من يشتموننا يقولون عنا إننا نمتلك حاسة الكلاب، فما بالك بأن تضيع منا هذه الخاصية، فيصبح المواطنون جميعا شمامين فلا نستطيع

بأنفنا الواحد أن نشم مثلهم، وللواحد منهم ثلاثة أنوف، ساعتها سوف نفقد مهمتنا، وسنعيرهم بأنهم يمتلكون حاسة ثلاثة كلاب في مواطن واحد، فالواحد منهم يساوي ثلاثة منا، أي ثلاثة كلاب، وسنصبح نحن المواطنين الصلحاء، نؤسس لحزبنا الديمقراطي، ونذكرهم بأننا قافلة، والقافلة تسير والكلاب تنبح.

هو خلل في الوضع العام، وحيث المواقع أصبحت تتغير، فمن كان صاحب أنف من أنوفنا أصبح زعيما لحرب ديمقراطي، ومن كان مع تلك الأحزاب الديمقراطية أصبح له أنوف لا يشم بها رائحته، بل رائحة الآخرين.

عجبا، فأنا مختل، أجد نفسي في هذا الصباح غير طبيعي، وأرجو من الله ألا يكون رؤسائي قد اطلعوا على ما أفكر فيه، لكني أرجو من الله أن أطلع على ما يفكرون فيه، ليتأكد لي أن حالهم من حالي، بل أفظع.

ضابط الاستعلامات يتحول إلى قزم

ومنذ البدء، فالقزم عبد الرحيم الأزرق، أو من يفترض فيه أنه قزم، أو من تقول عنه الإشاعات بأنه قزم، هو الذي جعلني أفكر في سياسة جديدة للبلاد، أخشى أن تفهم بشكل سيئ وأن تصل أخبارها إلى السيد وزير الداخلية، الذي قد يستغرب أن مجرد ضابط في قسم الاستعلامات، يفكر في سياسة جديدة للبلاد تبدأ من وجود استعماري ووجود لجيش للتحرير والتفاف لكل مكونات الشعب المغربي حول العرش، وإن تعجب السيد وزير الداخلية من الفكرة ولم ترقه فلا شك أنه سوف يأمر، مترددا، بإحالتي على التقاعد المبكر، ثم سيعيد النظر في الأمر، ويقرر تسريب معلومات للجرائد عن ممارساتي التي كانت معادية لدولة الحق والقانون، ليتم التشنيع بي، وتوريطي في ملفات كنت قد أمرت بأن أنفذ فيها بعض الأوامر، ولم يتمكن من محاكمتي، علنيا، لأن المحاكمة سوف تفتح المجال لمحاكمات، وسأصبح قضية وطنية، لكنه سيفكر مليا، وسيجد الحل، وهو أن تنزل بي أقصى العقوبات، وبدون محاكمة،

وهي عقوبة بسيطة، سهلة، لا يحتاج السيد الوزير إلى أن يأمر بها، وهي أن يجعلني شائعة من الشائعات، فينتشر خبر عني، بين المواطنين، يورطني مع زوجتي وأبنائي وأصهاري، وهو أنني قد تحولت بين عشية وضحاها إلى قزم.

وللأسف، فلو علمت بما يطبخ لي في مطبخ وزارة الداخلية، لكنت قد أكلت كثيرين قبل أن أوكل، ووالله لصيرت بالشائعات أسماء معروفة في الحياة السياسية كأقزام، وبعدها وإن صيروني قزما فالكل في واحد، ولكنهم لم يفهموا أننا نعيش في وطن واحد، يضيق ويتسع، وأن شرب كأس مع رجال خطيرين، يمكن أن يحول الإنسان العادي إلى قزم.

والقزم نفسه يتذكر تاريخ طول قامته، وتواريخ الأقزام. كلهم أقزام. كلنا أقزام، والقزم للأسف، لا يعرف أنه قزم.

الرواية الثانية

لعباس المرادي مقدم البرنامج التلفزيوني،
جمع فيها روايات متعددة،
للمسيو جاكار،
ولبعض الممرضين في المصحة العقلية،
ولرواد مقهى زاكورة الذي يرتاده عبد الرحيم الأزرق،
ولبعض الجارات والجيران، ومنهم رجل يدعى شارل برانسون
ولمرشح الحي للانتخابات البلدية،
وهو أيضا يتحول إلى قزم.

المسيو جاكار يتحدث عن المنفى

في البدء وجدت صعوبة كبيرة في أن أجعل الناس يتحدثون عن عبد الرحيم الأزرق، فقد كانوا يتحدثون عن أنفسهم، أو كانوا يتحدثون عنه فيما بينهم ولا يرغبون في أن يتحدثوا عنه أمام الكاميرا.

المسيو جاكار ألقى علينا محاضرة طويلة حول وضعية المصحات العقلية، وصرح وهو ينفث الدخان من غليونه بأن أمرا ما قد حدث للناس، فصار مرضاهم العقليين أكثر من أصحائهم.

ويتساءل: ما هو هذا الأمر؟

هو انتشار نظرتين متناقضين:

نظرة استعلائية، تجعل من الذات اعتبارا فوقيا، وفوق ذوات الآخرين، فهي عقدة الاستعلاء، وهي نوع من النرجسية، بل هي إحساس بالتفوق والعظمة، فواحد جاهل يصبح رئيس بلدية، وجاهل آخر يصبح رئيس حزب،

وجاهل ثالث يكتب في الجرائد ويعجبه اسمه، إنهم جهلة، ولكنهم يقارنون أنفسهم بعظماء التاريخ، أو على الأقل، برؤساء بلديات في فرنسا، وبرؤساء الأحزاب في بعض البلدان الديمقراطية الأوربية، أو بكتاب جرائد مشهورة في العالم، وعلى صغرهم فهم لا يكبرون إلا على مواطنيهم، بينما التجربة تثبت أنهم صغار لا يعرفون أو يتناسون قدرهم الحقيقي، فماذا سوف يحدث لو التقى عمدة مدينة مغربية مع عمدة مدينة من بلد أوربي، وما هي الثقافة التي يمتلكها كل واحد منهما ليتحدث بها مع الآخر؟ ناهيك عن رئيس بلدية، من بلدياتكم، يلتقي مع واحد كألان جيبي الذي كان عمدة لمدينة بوردو، أو مع جاك شيراك الذي كان عمدة لمدينة باريس. بلدكم متخلف، وحتى تجربتكم الديمقراطية متخلفة، وجرائدكم متخلفة، وكتابكم لا يتقدم منهم ليصبح معروفا إلا من يترجم إلى لغتنا، ولكن هذا التخلف مصحوب بعقدة تفوق، وهي حالة مرضية لست المتخصص في علاجها، لأنها مرض دقيق ويحتاج إلى علاج دقيق، ويمكن لمقولات فرويد أن تنفع، ولكنها متجاوزة، وليست هي كل شيء في خطوات العلاج.

وقلنا له الدكتور جاكار من فضلك، جئنا نسألك عن الممرض عبد الرحيم الأزرق.

فقال آه. لم أتحدث بعد عن النظرة الثانية، وعلى سبيل المجاملة سألناه ما هي، منتظرين لحظة استدراجه لموضوع عبد الرحيم الأزرق.

فقال هي نظرة تحقيرية بين الناس، فكل فرد في المجتمع يستعلي بنفسه عن الآخرين، والحالة هنا ليست تكبرا كما هو معروف، بل احتقار للآخرين، فالمرء المصاب بهذه النزعة التحقيرية ينظر إلى الناس حواليه، وكأنهم ذباب، أو حشرات صغيرة، وهو مركز العالم، وصاحبها يرى أن الناس لكي يترقوا عليهم أن يصبحوا مثله، فهو المثال، والنموذج، وإن لم يصبحوا مثله فهم

ذباب، حشرات. هذه الحالة أصبحت معروفة اليوم، والدليل على انتشارها هو أن لا أحد يتواصل مع الآخر، أو يقتسم معه ما لديه، أو يتبادل معه المشاعر. كل فرد أصبح قارة قائمة بذاتها، بما فيها وحولها من مجهول، واكتشاف هذه القارة لا يتم إلا بعلم النفس السريري. ولكن من يعترف بأنه مريض حتى يعالج؟ من يذهب بخطواته نحو الطبيب النفساني ليجلس أمامه ويقول كل شيء عن طفولته وأحلامه وعلاقته بالآخرين؟ إن ذلك المريض، المفترض فيه أن يفعل هذا، يظل مريضا تحت طائلة الفقر والجهل، فهو لا يملك ما يدفع به للطبيب حق الجلسات، وحتى وإن كانت مصحتنا هذه مجانية فمن القليل أن تأتي أسرة برجل مكبل اليدين وهي ترغب في أن تودعه لدينا لتستريح من شتائمه وبصاقه على الوجوه وتكسيره لأثاث البيت. ولاحظ الهدف، فمن لا يأتون به للعلاج، من يفترض فيهم أن يساعدونا عليه، وإنما ينفون مريضهم في المصحة التي يتصورونها كالمنفى، فهم يرغبون في التخلص منه، وهذه مصحة وليست منفى، فالمفروض أن يعالج المريض ويخرج منها ليعود إلى حياته الطبيعية، لا أن يقضي حياته كلها هنا، كما أقضيها أنا، والممرضين.

وعدنا نسأل الدكتور جاكار عن عبد الرحيم الأزرق، فقال إنه لم يكمل كلامه ووعد بأنه سوف يصل، واستمر يتحدث عن الفصام والذهان والأبيسية والأميسية والنرجسية وغيرها من العقد النفسية.

وبالرغم من أننا قد سجلنا كلامه بالفرنسية، واستعنا بمترجم متخصص لترجمته، فهو لم يقل كلمة واحدة عن عبد الرحيم الأزرق، أو عن إثبات وجوده كممرض في المصحة أو نفي ذلك، بل كان في كل مرة نطرح فيها عليه سؤالا دقيقا كهذا إلا ويبدأ في الحديث عن قلة الأسرة في المصحات العقلية وأن المصحة لا تتوفر إلا على خمسين سريرا في مدينة تعرفون عدد سكانها وأن. . .

عاهة مستديمة

قابلنا بعض الممرضين، فقال لنا أحدهم الله أعلم، سمعنا أن ما وقع لعبد الرحيم، ولعله يعاني من عاهة مستديمة، وربما كان ذلك بسبب ما يشاع في المصحة عنا جميعا، وهي إشاعات كل من له لسان يطلقها، فها نحن أمامكم نمارس عملنا بشكل عادي، والناس يخلطون بين المرضى وبين من يعالجونهم، بين الصحيح والمريض، وهم يخلطون بين رئيس دولة ومواطن عادي، فلدينا هنا مريض يحسب نفسه رئيسا لدولة جزر الموز والبطاطا، يزعم أن له جيش ونحن أفراده فنجاريه ونؤدي له التحية العسكرية، وهو يعقد المؤتمرات هنا في المصحة، وينتدب منا من يكون الرئيس جورج والكر بوش، ومن يكونون منا رؤساء دول تقع في كل القارات الخمس، والبارحة أنا كنت رئيس دولة البانكلادش، لأرفق بحاله وأجبر بخاطره، حتى لا يغضب ويرسل على المصحة صواريخ سام 7 وسام 12، وحتى لا يقطع أيام عطلته في ضيعته التي يربي فيها الضباع كما يقول ليعلن حربا على العالم بعد أن أعلنها عن دولته انقساميون تسلحوا بالمال الذي جنوه من تجارة المخدرات.

فاس عاصمة علمية

وانبرى ممرض آخر ليقول لنا إن هذه العاصمة العلمية، فاس، تضم كثيرا من العلماء ورجال الدين والمؤقتين والبارعين في الرياضيات و الطب والفلك، ولكنها عاصمة توجد هنا، فمن قبل كان المارستان، في سيدي فرج، وأما اليوم فالعاصمة توجد في مصحة عصرية، يديرها فرنسي خبير بالعلاج النفسي هو الدكتور جاكار، وهذا نوع من الترقي للعاصمة العلمية، وآه ! من سيدي فرج إلى مصحة سيدي بوجيدة؟ المغرب كله في تقدم مستمر.

قناة تلفزيونية في المصحة

وابتسم لنا ممرض وقال إن الناس يبالغون، فالمسألة بسيطة، لدينا هنا في هذه المصحة قناة تلفزيونية أحسن من قناة أبيك وأمك، وأجدادك الذين لم يكن لهم تلفزيون. قناة ممتازة، كل برامجها للتسلية، وحتى الثقافة تسلية، ومن لم يعجبه الحال فليضرب رأسه مع الحائط، مديرها معين من قبل وزير الداخلية، وهو مريض هنا، ها هو، تحدثوا معه، شخصية معروفة في الإعلام، شرويط بن درويط. ثم حدثونا عن شخصية كبيرة في مقام العلم والمعرفة، وهو السي هدي، ودعونا إلى أن نستمع إلى شمس الضحى، فهي مهندسة معمارية مختصة في هندسة المدن، ثم حدثونا عن أهمية شخصية كبيرة توجد في المصحة، وهي شخصية الضابط السابق مصطفى التوالي، ودعونا إلى مقابلة المذيع، مقدم البرامج، الذي لم يذكروا اسمه، ولكنهم وصفوه بأنه يلمع شعره ووجهه دوما مطلي بالمساحيق، وهو لا عنق له، فرأسه توا يستقر على كتفيه، وهو تأتاء فأفاء، مقفقف، قافز، لا يسكت ليسمع، فهو يتكلم مع ضيوفه حتى وهو وحده، وغالبا ما يجري معهم حوارات وهو لا يجري تلك الحوارات إلا مع نفسه، منتج إعلامي عظيم، يمكنكم أن تروه في السهرات الخصوصية، مع زعماء الأحزاب، وهم لا يتخاصمون في تلك السهرات، بل يتخاصمون أمامنا على شاشة التلفزيون.

مرضية بنت الشعط

لكن الأعظم من هؤلاء، هي مرضية بنت الشعط، عجيبة، ما كانت لتصاب بالحمق لولا الخطة، فصارت تشتم الرجال من أولهم إلى آخرهم، تعترض سبيلهم لكي تشتمهم، وتذهب إلى الندوات لتشتمهم، وتقول إنه مارسوا قهرا تاريخيا على المرأة، من عهود الإماء والجواري إلى عهود السخرة وتحميل الأثقال، إلى عهود جعل جسد المرأة لسلعة تصدر في بلدان هي في

حاجة إلى البغايا وما كفاها ما عندها. ثم يصيبها الزهو وتقول إن واقع المرأة قد تغير، رغم أنوفكم، وبعد ذلك تضحك وتقول لنا أعطوني سيجارة.

نعطيها السيجار، فتعود إلى غضبها، فتشتم الرجال وتاريخ الرجال، ولكي نرفق بها نتظاهر أمامها بأننا نساء، فتصدق تظاهرنا وتعقد معنا مؤتمرا صحفيا يبث التلفزيون وقائعه. مسكينة ينشف من فمها الريق، ولكنها حينما تتعقل، تقول إن إصلاح مدونة الأحوال الشخصية لصالح الأسرة، بما فيها الرجل والمرأة، ثم لا تلبث أن تقول إن إصلاح المدونة هو نضال رجالي ونسائي، وهو خطوة شجاعة في طريق إرساء المرساة، رضي عنها جورج بوش فبعث بتهنئة لجلالة الملك على هذا العمق الاجتماعي للحداثة والتحديث.

بنت الشعط لم تتزوج، ولكنها يمكن أن تقول لكم، وأمام الكاميرا، إنها إكراهات المرحلة، وأعطوها شيئا من الريق لتبلل به ما تحت لسانها، وإلا فهي ناشفة الريق، عابسة مكشرة، ولقد أعلمناكم، فهي تغضب بسرعة، لأنها تقول إنها تنتقم من الرجال من عهد آدم وإلى اليوم، فخشينا عليكم من أن تنتقم منكم، وانتقامها لا حاجة لوصفه، فهي تفتك بالرجال. ولكن وحتى ومرضية بنت الشعط حمقاء فنحن معها جميعا، نضم أصواتنا إلى صوتها، لكي نسير بالأسرة إلى الأمام.

الإعلامية النحريرة

وتقدم نحونا رجل أصلع، يسدل ما تبقى من شعيرات رأسه على كتفيه، وكان ذاهلا فلم نسأله عن شيء ولكنه قال لنا بصوت خفيض، عندنا في البرامج الافتتاح بالسلام الملكي، ونشرة الأخبار التي تبث الأنشطة الملكية، وأنشطة الوزراء وعمال الأقاليم، وبعدها لدينا الضحك، ضحك عصري لا نأتي به من نوادر جحا وعجائب بخلاء الجاحظ ولكننا شكلنا له مدرسة حديثة تجريبية تدرس المُشاهد لتقدم له ما يحتاج إليه من مشاهد مضحكة، حتى

يضحك، ولكن لدينا هذه الحمقاء، وفي تلك اللحظة ظهرت امرأة مطلية بالأصباغ، وقال لنا هذه هي الصحفية النحريرة، والإعلامية القديرة، التي تحاور الوزراء حول قضايا الساعة، وأحيانا تحاورهم مع ما يأتون به من جيش جرار من رجال السياسة وكلهم نائمون، وأحيانا تنجح في أن توقظ فيهم الهمم والتواريخ والصراعات السياسية، وهي تتجرأ، في إطار حمايتها بقانون القناة، فتعريهم تعرية لطيفة أمام النظارة، لكنها المسكينة تستضيف أحيانا بعض الخبثاء فيظهرون وكأن لهم أنياب ذئاب ينهشون بها من عداهم من الذئاب. وانظر، فها هو جمهور النظارة.

أرض زرقاء

وسألنا عن عبد الرحيم الأزرق من جديد، فقال لنا رجل كان يقبع في زاوية معنا هنا عبد الرحيم، وهو أزرق، ازرقت شفتاه وازرق وجهه، فقلنا له هل هو قزم، فضحك وقال لنا هو أزرق، أزرق العينين، ويرى الزرقة في كل شيء، هو أزرق القدمين، وكلما خطا خطوة على أرض المصحة إلا ويترك أثرا لها على الأرض، وبلون أزرق. عندما نتبع خطاه لا نجده، ولكن نجد أنفسنا في أرض زرقاء.

رأيت أمامي حشدا هائلا من الناس ينظرون إلى شاشة التلفزيون، ومنهم العراة في إطار تلك التعرية، ومنهم الضاحكون في إطار ذلك الضحك، ومنهم المصابون بالذهان.

أنا وهؤلاء

ولأني أعمل في قناة تلفزيونية، فقد خشيت أن يكون جمهوري هو هذا الجمهور، ومن حيث إن. . . فالتحولات . . . ويمكن أن نكشف عن . . . وفي نهاية المطاف فإن . . . ولكن يمكن أن . . . ومع ذلك ف. . .

لذلك غادرت المصحة بدون نتيجة، ودون أن أظفر بشيء عن عبد الرحيم الأزرق.

ولكن قبل أن أغادرها، نسيت أن أقول لكم إن الدكتور قد برز أمامي وهو يدعوني للإقامة في المصحة، وقال لي تعال ومعك التلفزيون، بمديره ومنتجيه وبرامجه. ليست عندنا أسرة كافية، ولكننا سنقيم لكم خيمة في العراء، وسأبدأ الجلسات معكم، واحدا بعد الآخر.

بدا لي هو الآخر مريضا فقلت له إن شاء الله، سنأتي. وقبل أن أذهب كدت أقول له إنني مفصول من العمل في التلفزيون، لكني أشرت له بإشارة وداع، فأشار إلي والغليون في يده مودعا، وقال أنا في الانتظار.

كاميرا عمياء، وقناة تلفزيونية خاصة بالعميان

وفي مقهى زاكورة الذي يقع بحي الأطلس، قريبا من سكن عبد الرحيم الأزرق، قبلوا بدخولنا إلى المقهى ورفضوا أن تدخل الكاميرا، وقالوا إن احتجنا إلى الكاميرا فعندهم داخل المقهى كاميرات عديدة تصلح للتصوير، بل عندهم قناة تلفزيونية خاصة بالمقهى، وهي قناة تبث برامجها للعميان، 24 ساعة على 24 ساعة، وسبعة أيام في الأسبوع.

مقهى أم خمارة أم ناد للقمار؟

سمعنا كثيرا عن المقهى الذي يقع على رأس الزنقة، ويظل سهران حتى ما بعد منتصف الليل، فإضافة إلى رواج المخدرات، فالمقهى يغلق الأبواب والنوافذ في الساعة العاشرة ليلا، ليتحول الموائد إلى طاولات للقمار، والمقهى إلى خمارة يباع فيها النبيذ المهرب في علب الكرطون من سبتة بالكأس، ولا شك أن أجل تداوله قد فات.

دراكولا وصاحب الحنكين الغليظين وسالف الشعر

وسألنا لماذا يختار عبد الرحيم هذا المقهى فانبرى لنا رجل كالمرأة، بحنكين غليظين وسالف مرتخ على كتفيه، بدا أمامنا قويا كهرقل ولكنه كان ضعيفا كريشة في الهواء، هشا كجدار آيل للسقوط، واضطررنا إلى أن نسأله هل هو من الغلمان أو الغلاميات، فاحمرت وجنتاه وبدا كحيل العينين فقال لنا إنها الظروف، وبحسب الأحوال، وحسب الزبناء. ثم أشار إلى زبون جالس في كرسي، فرأينا أنيابه تقطر دما، وقال لنا هذا هو دراكولا، وحسبنا في الدم الذي يقطر من نابيه خدعة، فلم نر أية ضحية يمتص منها الدم بنابيه ليقطر منهما من جديد، وما كان المنظر مفزعا، فأعرضنا عن دراكولا وسألنا صاحب الحنكين الغليظين وسالف الشعر هل عبد الرحيم الأزرق من الزبناء فقال هم كثيرون، من منهم دراكولا، وبعضهم من الحي وبعضهم يأتون من أحياء أخرى، وكل ما يريدونه موجود، حشيش، خمر، أنا، وضحك ثم غمز فضحك رواد المقهى.

تاريخ المقهى

وقال لنا أحدهم هذا المقهى قديم يرجع إلى أيام الاستعمار، وأشار إلى الكونتوار وإلى رسوم ملونة على صفائح من حديد معلقة على الحيطان، وكلها تمثل أنواعا من قوارير الخمور، ثم قال لنا لم يبق شيء من ذلك الزمان في المقهى غير هذه، ولكن بقينا نحن، وأخرج أحدهم سكينا أظهرها أمامنا وقال هذا المكان له حرمته، وقد دخلتموه من غير كاميرا، ولكن إذا قلتم شيئا لا يعجبنا في قناتكم فـ . . . وأشار بالسكين إلى عنقه بما يعني الذبح. قلنا له نحن نجري تحقيقا حول عبد الرحيم الأزرق، ولا يهمنا شيء من أمر المقهى، فغضب آخر ونهض يصرخ في وجوهنا وقال لماذا لا يهمكم، ألا نهمكم نحن؟

ونحن نهم من؟ ألسنا مغاربة؟ أليس لنا تاريخ هو تاريخ هذا المقهى؟ لكن أحدهم ابتسم لنا وطلب أن تعيد قناتنا عرض أحد المسلسلات.

حديث لالة خيرة

ولا يجوز ذلك على ذي عقل، ففكر وأنت تعرف.

هكذا قالت لنا لالة خيرة الساكنة في الطابق الرابع في نفس العمارة التي يسكنها عبد الرحيم.

قالت رجل درويش، يخرج بالوقت ويدخل بالوقت، ولم نره يُدخل امرأة أو يُجْمع عليه الصعاليك. وفكر وأنت تعرف. في العيد الكبير لم يذبح فأعطيته قضيب كبد مشوي ليذوق من لحم العيد. قلت لكم رجل درويش. آش كان به الله أعلم. شفته واحد المرة داخل مع ولد وبنت الله أعلم أولاده، فالأيام الأخيرة حتى صباح الخير ما بقاش تيردها. ولكن لا يمكن. يمكن ماشي هو. ما نعرف. هداك واحد آخر اللي تتكلموا عليه. هذاك أنا ما شفته ما ريته. غير سمعت بحال الناس. شف أنا امرا كبيرة وراهم تيتكلموا في بكلام العار. ها أنت شف، واش أنا عاد بقا لي ما نقحب؟ راها لالة خيرة معروفة وسر سول.

ولما سألناها هل عبد الرحيم الأزرق كان يسكن هنا في العمارة قالت ها انتوما ها التلفزيون ديالكم، صوروا هاد الشبان مساكن ديما مدوخين بالسلسيون، وهاد البطالة، وهاد الغلا فالمارشي. سيروا صوروا الحومة هاك يا ظلام فالليل وهاك يا حفاري تيزيدوا غير ما يكبروا فأيام الشتا، ويلا مشيتوا عند هداك اللي صوتنا عليه وعمرنا ما شفناه اديوني معكم ننتف له لحيته قدام التلفزيون، راه كذاب غدي يقول لكم العام زين، إيوا سيروا ما لكم ما عارفين ما تديروا؟

شارل برانسون

وذكر لنا رجل التقينا به وهو يعود مخمورا إلى بيته أنه جائع وهو متسرع ليجلس أمام ما سوف تضعه زوجته أمامه من طعام، ولكن لا بأس، مرحبا بالتلفزيون، إيوا صوروني وأنا تنقولها عاد نتفاهموا. صورتوني تنقولها؟ مزيان. دابا آش خصكم؟ أنا شارل برانسون. صوروني تنقولها هكذا. شارل برانسون. أنا قصتي قصة طويلة. دابا رانا فيا الجوع وما في ما يحكيها ويطول عليكم، قلتوا قزم؟ آه ! هذاك اللي كانوا تيعاودوا عليه فالبار؟ لا أنا ما سمعت والوا. القزم أنا غير ننفخ عليه يطير. أنا شارل برانسون. إذا تجولتم في البارات فاسألوا عن شارل برانسون وسيقولون لكم نعرفه، ولا شأن له بالناس الخطرين من أمثالكم، الناس ديال التلفزيون. آصاحبي تتصدعوا لنا راسنا بالسياسة. السياسة بزاف. هاد الشي بزاف علينا. هذا وزير تيعاود على صداع الراس، هذا برلماني مرفح ترفيحة د العداو تيشرب غير التشيفاس ما مساليش ولكن تيتخلص على باش يصدع لنا راسنا. ما كاين والوا. ما تبدل والوا. زدنا غير بصداع الراس. وهادوا شي وحدين حركوا، وما مالي؟ كن لقيت نحرك والله ما تلقاوني هنا، نغرق فالبحر واش فيها؟ اسبانيا ما عجبهاش الحال يغرقوا المغاربة فالبحر تنطح راسها مع الحيط. هما بغاو. اسبانيا نسات أيام العسكر بورقعة، وأيام الخيطانات اللي كانوا تيجيوا هنا للمغرب تيبيعوا الثوب؟ صورتوني تنتكلم؟ غدي تدوزوا هاد الكلام؟ أنا شارل برانسون. مالكم مصمكين بحال يلا محششين أو سكرانيين؟ آرا أنت هديك الكاميرا. أنا نصوركم باش يشوفوكم الناس فالتلفزيون جايين تخدموا وأنتوما بحال يلا مضبعين. أنا شارل برانسون.

كسرى أنو شروان يفرح فرحة عاجلة بالصبوح والغبوق

واقتربنا من رجل يرتدي جلبابا أبيض وعلى رأسه طربوش أحمر، يبدو عليه التقوى والورع، فسألناه عن عبد الرحيم الأزرق فقال لنا ما أصابكم فمن أنفسكم. الفساد عم البلاد والعباد، والزرع والنسل والسائمة، وعم الحكام والمحكومين. وأن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة يتطاولون في البنيان، فلما تقلد كسرى أنو شروان مملكته عكف على الصبوح والغبوق، فكتب إليه وزيره رقعة يقول فيها إن في إدمان كسرى ضررا على الرعية، ورد كسرى على الوزير برقعة كتب فيها بالفارسية يا هذا إذا كانت طرقنا آمنة وسيرتنا في الحكم عادلة والدنيا بالخيرات عامرة وعمالنا على الأقاليم بالحق عاملة فلماذا نُمنع من فرحة عاجلة؟ وقالوا اعترض الوزير فقال أخطأ كسرى في عدة وجوه أحدها أن الإدمان إفراط والإفراط مذموم، والثاني أنه جهل أن دوام النظام لا يوكل به للطرْفِ الساهر، والثالث أن الزمان أعز من أن يبذل في الأكل والشراب والتلذذ والمتع، فكيف إذا كان العمر قصيرا وكان ما يدعو إليه الهوى كبيرا؟ ثم أطرق صاحب الطربوش والجلباب برأسه وقال لنا إن هذه المحاجة أهديها لقناتكم لتنتشر من خلالها روح المسؤولية لدي المسؤولين، من عمال وولاة وكبراء ووزراء. فسألناه مرة أخرى عن عبد الرحيم الأزرق فبدا ساخرا وهز طرف جلبابه بحركة نزقة وقال لنا إن المدن تُبني على الماء والمرعى والمحتطب والحصانة فعلى ماذا تُبنى هذه المدن؟

مرشح مدى الدهر للانتخابات

ثم عرّفنا بعض سكان الحي على رجل قالوا لنا إنه مرشح للانتخابات البلدية، وأطلعونا على صورته في الوسط كبيرة وهي محاطة بصور المرشحين الآخرين ووزعوا علينا عدة أوراق انتخابية مما هو معروف في الحملات ثم أجلسونا في مجلس حسن وسألونا عما نشرب وعما نأكل وقال لنا

أحدهم لقد وصلتم في الوقت المناسب، وحبذا لو تُجري قناتكم حوارا مع مرشحنا هذا، فهو كما ترون كالواسطة في العِقد وهو رب هؤلاء الذين بهم يريد أن يحصل على عضوية المجلس بكامل أعضائه أو أغلبيته على الأقل، وقلنا لهم نحن لا نذيع في القناة دعاية لمرشح وإنما وزارة الداخلية وزعت حصصا إعلامية للأحزاب لتعبر من خلالها عن برامجها، ونحن جئنا من أجل تحقيق حول عبد الرحيم الأزرق، وفي تلك اللحظة قال لنا أحد سكان الحي:

ـ ها هو عبد الرحيم الأزرق.

وقال آخر:

ـ هو مرشحنا، ومعه من رشحهم.

وهتفوا:

ـ حزبنا واحد، لوننا واحد، ملكنا واحد.

وكانوا قد أحاطوا جباههم بخرق ملونة بألوان صفراء أو خضراء أو حمراء، فبدوا كالهنود الحمر، ورقصوا من حولنا وهم يصرخون بنفس الشعار.

بدوا متهيجين فلو ناقشناهم لقتلونا، وانتظرنا حتى هدأت الزيزعة قلنا لهم نحن نسألكم عن واحد من سكان الحي، ممرض في مصحة سيدي بوجيدة للأمراض العقلية، اسمه عبد الرحيم الأزرق، كان في طول قامته العادي ثم تحول إلى قزم. هل تعرفونه؟ هل سمعتم بالإشاعة؟ ما رأيكم؟

اقترب منا المرشح ووقف أمام الكاميرا ثم تنحنح وابتسم وعدل ياقة قميصه، وقال إن من واجبي، وفي برنامج حزبنا الانتخابي، أن ندافع عن حقوق الأقزام، وأن نوفر لهم مطاعم خاصة، ومراقص خاصة بهم، وكذلك الحافلات ووسائل النقل، فضلا عن المدارس والمآوي والحدائق التي تتوفر على الألعاب. ودخولهم في حزبنا هو الخطوة التي سوف تعيد لهم الكرامة وتحررهم من نظرة الناس الجائرة لهم.

صفق سكان الحي ولكن أحدهم همس لنا بأن لديه خبرا عاجلا يريد أن تبثه قناتنا وهو أن المتحدث مرشح أبدي لكل الانتخابات، وهو يفوز دائما، ولقد أجبر خاطرنا في هذه المرة وهو يُدخل تعديلا على برنامجه الحزبي ليستقطب له الأقزام.

ثم نظروا جميعا نحوي نظرة استغراب، وصاحوا:

ــ قزم. صار قزما.

وقالوا:

ــ استقطبه.

فقال المرشح:

ــ عرفناك مطرودا من القناة. وعرفناك أنت هو القزم. على من تدوخ؟

أخليت الحي بسرعة وأنا أنظر إلى نفسي، لكني رأيت الناس من حولي كلهم أقزام، وما كان حالي يختلف عن حالهم، فقلت:

ــ اللهم لك الحمد، سيف واحد يقطع الرؤوس جميعا.

وقلت وأنا أمشي كالهائم في الطريق:

ــ الشكر لله، فسيف قاطع الرؤوس واحد. صوتنا واحد. رأسنا واحد، لساننا واحد. حزبنا واحد.

بببغاوية سكان حي الأطلس رددت الجملة الأخيرة، ثم استدركت وقلت:

ــ حزبنا واحد رغم تعدد الأحزاب، متعدد ولكنه لا يختلف من حيث البرامج والخطط، ولكن الحمد لله، فنحن في زمن الديمقراطية وفي عهد التناوب.

ثم ضحكت كما كان الأقزام يضحكون ونظرت إلى حالي فقلت:

ــ طاح الفاس فالراس.

وقلت:

ــ غير ما تجيش فالراس وتجي فين بغات.

الباب الخامس

[باب في ما يسميه عبد الرحيم الأزرق
بحكايته البسيطة،
لكنها تشبه حكاية الطاق وطرطلاق
والكبش المشوي عالأوراق.]

عمر طويل أطول مما كان ينبغي

تقلص مجال عيشي بين المصحة والبيت، وما في المصحة غير المجانين، وأما البيت فقد صار فارغا بعد أن انفض جمع العائلة وذهب كل إلى حال سبيله، فمريم بعد الطلاق صار لها عالمها الذي لا أعرفه، وعبد الغني رحل إلى الدار البيضاء، وبديعة مع زوجها شكيب في السعودية. فصارت حياتي إلى كل هذا الفراغ الذي لا يمكن أن تملأه الجريدة أو شاشة التلفزيون، أو جلسة في المقهى مع رواد هم غير أصحابي الذين عادوا غير موجودين، فكان ما يملأ فراغ العالم، هو المرضى، معهم أضحك، وأقضي أوقات النهار، وحتى أوقات الليل التي لا أجد ما أفعله فيها أقضيها معهم وأنا في البيت.

طالما طلبت من الله أن يقصر هذا العمر فيأخذه مأخذ رفق إلى الدار الآخرة، فما بقي لي شيء أفعله هنا في هذه الدنيا.

تزوجت وعشت مع مريم أزيد من الخمسة عشر عاما مضت كلها في الهم والغم والسقام. اتهمتني بما ليس في ولو كان الدكتور جاكار قد سمع تلك التهم لكان قد هب من مكانه واقفا وقال سيرفع عليها دعوى قضائية، فهي تسيء إلى الطب النفسي وإلى سمعة المصحة، وإلى فرنسا وشارل دوكول وفرانسوا ميتيران وجاك شيراك وألان جيبي، إساءة بلغة لتاريخ البلدين المشترك، فعلى الدولة الفرنسية أن تقيم دعوى قضائية على الدولة المغربية، لوجود مواطنة مغربية تسيء إلى سمعة العلاقة بين البلدين، فيمكن أن تتوتر العلاقة بسبب هذه التهمة الخطيرة التي توجهها المواطنة المغربية لمواطن فرنسي، يحمل في الصحة العمومية، ويشفي المرضى من أمراضهم النفسانية.

- وربما كان سيتخلى عن فكرة الدعوة القضائية بعد أن تواتيه فكرة، وهي أن يطلب مني أن أحضرها للمصحة للعلاج، فهي مريضة ولاشك، وعلي أن أساعدها حتى تُشفى.

لكني لم أخبر الدكتور جاكار بما كانت تقوله عن مضاجعتي للنساء المريضات نزيلات المصحة، وأنني أفعل ذلك بأمر من الدكتور نفسه. ثم إنني رجل عادي كباقي عباد الله وهي كانت دائمة الشكوى مني في الفراش، تبالغ في وصف عضو من أعضائي، فكيف يكون عضو لي على تلك الحال وأنا ليس لي به علم؟

خطط للطلاق

كنت أجلس في المقهى، في أوقات الغروب، وبعد أن أغادر المستشفى، شاردا، مكدر الذهن، أرسم خططا للطلاق ثم أعدل عنها، أقيم حوارات مع القاضي وأنا أبرر له رغبتي في الطلاق ثم أكف عن تلك الحوارات وأكتفي بعبارة استحالة المعاشرة، والقاضي فاهم وعليه أن يفهم. ثم كنت أفكر في مصاريف الطلاق، وضرورة مغادرتي للبيت لأكتري شقة أخرى أعيش فيها فيكون علي أن أدفع كل راتبي في كراء بيتين، بكهربائهما ومائهما، كما علي أن أنفق على الولدين بما يقدره القاضي، فلا يبقى لي ما أقتات به وما أشتري به السجائر، فقد كنت وقتها مدمنا على التدخين، ولذلك كنت أعدل عن فكرة الطلاق.

حدث ذلك بعد الطلاق مباشرة. تحول كل الناس من حولي إلى حالة من التجهم والعبوس، والنفور من أي تجمع سواء أكان عرسا أو جنازة، واختيار العزلة، كل واحد يختار المكان الذي ينعزل فيه، ومن عجب أن بعضهم قد اختاروا المراحيض، لا لقضاء الحاجة، ولكن لقضاء ساعات هناك وقد أغلقوا عليهم الباب وصموا آذانهم عن أي طرق يأتي من الخارج، وبعضهم حبسوا أنفسهم بين الجدران، وبعضهم عاشوا بين الباب والنافذة، الباب لا يخرجون أو يدخلون منه والنافذة وحدها هي منفذهم إلى الخارج، وحتى الأطفال صاروا لا يبكون ولا يضحكون، والناس يبدون ساهمين كأنهم ينتظرون الساعة، وقد

فقدوا شهية الطعام والقدرة على العمل والرغبة في السفر، وفي تلك الحالة، كنت أرجح أن حالهم كحالي، يكثرون من الكلام مع أنفسهم، كما كنت أتكلم مع نفسي، وقال الدكتور جار إنه مرض الذهان، لكنه كان يقول ذلك لنفسه أيضا، فإن كان هو الذهان فأكبر مصاب به هو الدكتور جار.

مناظر مؤذية

هل يمكن أن نعتبر التلفزيون كان سببا في ذلك؟

التلفزيون كان ينقل المشاهد والصور، وليس هو من يصنع الأحداث، وإنما نحن نراها تقع دون أن ندري من هم صانعوها، أو أننا ندري بهم، ولا نقدر على مواجهتهم.

كلما جلس الإنسان في بيته ليتناول طعام الغذاء أو العشاء وفتح جهاز التلفزيون ليعرف الأخبار إلا وعذبته مشاهد الحروب والاغتيالات وأنواع الهجوم التي تمزق اللحم وتحول الجسد إلى أشلاء، ومنهم من أظهر على شاشة التلفزيون بؤبؤ عين على راحة يده وهي عين لقتيل أو شهيد هو أخوه أو أبوه، ومنهم من أخرج شلوا من داخل سيارة ليظهره أمام الكاميرا وكأنه يخرج فخذ خروف من الثلاجة، ومنهم من يشير إلى لحم آدمي معجون وإلى الدبابات القادمة، أو إلى قنابل وهي تنفجر وسط الأطفال.

ولما كانت كل القنوات التلفزيونية تبث تلك المناظر المؤذية للنفس في أوقات الغذاء والعشاء، فقد أخذ الناس يلعقون الدم من الإسفلت ومن سطوح المكاتب فيمزجونه بما في أفواههم من طعام، كما صاروا يأكلون من لحوم القتلى ممزوجة مع ما يتناولونه من لحوم، وبعضهم حكى عن تفجيرات هدت بناء كما كان يشاهد على الشاشة، ولكنه وجد فمه مليئا بشظايا الزجاج، وبقطع من لحم آدمي.

فمن يأكل الطعام وهو في القيامة، بين الحرائق وتدمير المباني ونسف البيوت؟

كل الأطعمة صار لها طعم الدم، والناس فقدوا شهيتهم للطعام، وأصبحوا يفضلون أن يواروا وجوههم عن بعضهم، ولو بذلك الاختفاء لساعات في المراحيض، ربما للبكاء أو للحديث مع أنفسهم، ومنهم من كانوا ينظرون إلى السماء ويضحكون، أو يجثون على الأرض وهم يقبلون التراب.

ولما صار وضع الناس خطِرا إلى هذا الحد، فقد أخذت قرارا من تلقاء نفسي، وهو إبعاد جهاز التلفزيون عن قاعة تناول الطعام، حتى لا يرى النزلاء تلك المشاهد، فتحدث لهم مضاعفات قد تكون أشد وأمَرَّ من تلك التي بدأوا يعانون منها، سيما وقد رأيت بنفسي نزيلا وهو يُخْرِج من بطنه دبابة وهي تحترق، كما رأيت نزيلا آخر يأكل خبزا مغموسا في الدم، ورأيت آخر يحمل بين ذراعيه طفلة جريحة وهو يصرخ أين الإسعاف؟

الآن لا يمكن أن يصدق أحد أن ما يحدث إنما هو يحدث على شاشة التلفزيون، فقد يتجمع النزلاء حول أرض محروقة تظهر عليه بقع دم وأشلاء متناثرة، وهم يصرخون صرخات موجعة، والدكتور جاكار يقول إن الذهان قد تحول إلى عصاب، فهم عصابيون، وسيأمر بالحقن، والحقن نفسها، المعروفة لدينا ولدى النزلاء.

الجيران

لا يمر زمن في حياة الناس دون أن يكون هناك جيران، تساكنا معهم في الطفولة، أو ونحن متزوجون، أو ونحن عزاب أو مطلقون.

هؤلاء الجيران عشت معهم في العمارة الكائنة بحي الأطلس، التي سكنت في إحدى شققها قبل أن أنتقل للإقامة في المصحة، حتى أكون قريبا من المرضى. تحاشيت كثيرا أن أتقابل معهم على أدراج العمارة، لكني كنت أسمع

من شققهم ضحكات وشتائم ومكالمات تجرى عبر الهاتف، وما كنت أتجسس عليهم ولكن الصمت الذي كنت أحيا فيه هو ما كان يأتيني بتلك الأصوات ليجعلها قريبة مني، ولقد عجبت لكونهم يمارسون تلك الحياة العادية حتى مع تلك المناظر المؤذية التي كان يُظهرها التلفزيون، ففي الليل كنت أطفئ ضوء الشقة وأبقى جالسا في الظلام، فكانت الأخبار تأتيني من تلفزيون الجيران، وحتى في الظلام كنت أرى الصور.

سمعتهم مرة، وأنا أتظاهر بأنني غير موجود، يتحدثون على الأدراج عن قزم يسكن إحدى الشقق، ولما خاصمت امرأة زوجها سمعتها تدعو عليه بمصيبة كتلك التي حلت بالجار. قالت له الله يعطيك ما أعطى لجارنا، ترجع قد الصبيع الصغير، ونحطك فوق كف يدي ونتفرج عليك، عنداك تطيح، عنداك تضيح، وما نعرف ما ندير بك، آ ش غدي ندير بك؟

ومرة سمعت أحد الجيران يعظ أولاده وهو يحدثهم عن قوم لوط وما جرى لهم، وعن قوم عاد وتمود وما جرى لهم، وينصحهم بفعل الخير وتجنب الشر لكي لا يقع لهم ما وقع للجار الذي يسكن في العمارة، وقد جعله الله قزما، فما كان ذلك إلا من غضب الله عليه.

أختي ربيعة

ضقت من حبس النفس في الشقة، ومرة زاغت بي قدمي فقلت أزور أختي ربيعة لأدفع عني ما أشعر به من قنوط وضيق وعزلة، فمشيت مسافة الطريق متجنبا ركوب الحافلة، وأنا أقول لنفسي كم هو بعيد حي الدكارات، ولكني وجدت العذر لأختي وهي تقيم فيه، فهي لم تتزوج، وعملها في إدارة الضرائب يتعبها، ولذلك فهي تخفي وجهها عن الناس في تلك الشقة بحي الموظفين، التي اشترتها بالأقساط الشهرية، حتى لا يطرق باب بيتها طالب أجر.

تصبب عرق بارد من جبيني وأصابني دوار خفيف. دخلت بوابة العمارة وصعدت الأدراج. تصادف صعودي مع هبوط ثلاثة أو أربعة من الأطفال، وبمجرد ما رأوني توقفوا لحظة عن النزول فتوقفت عن الصعود، ولكنهم قذفوا بأجسادهم فوق جسدي وأخذوا يتشبثون بحاجز السلم، فتدحرجت على الأدراج، وتكومت في جانب وقد أغمضت عيني حتى لا أرى ما أنا فيه، فلما بقيت هناك سمعت الأطفال يضحكون وصوت أختي ربيعة وهي تنهرهم على كثرة الضجيج في الأدراج، فالواحد لا ينام في القيلولة مع صخب الأطفال في أدراج هذه العمارة.

لكن الأطفال اقتربوا مني فقلت لهم أنا أخ ربيعة، فعادوا يصعدون الأدراج وسمعتهم يطرقون باب شقتها، وقالوا لها القزم هو أخوك، فنزلت، ورأتني، ورأيتها، ثم رفعت يديها في الفراغ وعادت إلى شقتها وأغلقت عليها الباب.

سمعت لغطا من حولي ونساء ينبهن أولادهن إلى التأخر عن وقت المدرسة، والأولاد يقولون عندنا قزم في الأدراج يقول هو أخ ربيعة، والنساء يأتين إلي متعجبات، وسبحان الله، ومالك يا أخي، وتعال، وهل تشعر بألم، وبعضهن يطرقن باب أختي ربيعة طرقا شديدا وهي لا تفتح، وبعد اشتداد الطرق فتحت الباب، وقالت لهن ليس لي أخ قزم، ولكن مسكين إذا حسب أنه أخي فقد أراد الله لي ألا أرتاح في هذه القيلولة من تعب العمل، ونزلت، فنظرت إليها ونظرت إلي، وساعدتني على الصعود حتى دخلت شقتها فأجلستني على الفراش وجلست أمامي وقالت:

ـــ هل انكسر فيك عظم؟

قلت:

ـــ هل عرفتني؟ أنا عبد الرحيم أخوك.

نظرت إلي باستغراب وقالت:

ـ كلنا إخوة في الملة والدين. ولكن أنت سببت لي فضيحة مع الجيران.

قلت:

ـ ألا تحبين أن أزورك؟

قالت:

ـ ولماذا تزورني ؟

قلت:

ـ أنا عبد الرحيم أخوك.

قالت:

ـ ولكن ليس لي أخ . . .

قلت:

ـ والدنا هو السي قاسم الذي كان جزارا في حي الصاغة، وأنا. . . مريم تسلم عليك. . . وبديعة كبرت وتزوجت. و . . .

أطرقت برأسها ولم تقل شيئا، وبدت لي شفتها موحشة باردة، كما بدا لي وجهها وقد نضب منه ماء الرواء فتغضن وصارت أقرب إلى عجوز من أولائك العجائز الماكرات اللواتي نراهن في أفلام الرعب، فأصابني الخوف، وقلت لها:

ـ سأذهب، ولكن أرجو أن تساعديني على الذهاب.

قالت:

ـ ماذا علي أن أفعل؟

قلت:

ـ لا أريد وقت هبوطي الأدراج أن يكون هناك أطفال يصعدون.

مرآى فاس

كبرت فاس في عيني، ورأيت الصوامع كأنها تقترب من بعضها وأصوات المؤذنين تختلط وتتداخل فما عاد في فاس غير صوت واحد هو صوت الأذان.

ثم رأيتها في عصور وحقب وتجولت في أحيائها وعرصاتها ودروبها حتى وصلت إلى دار الباشا بلبغدادي فسمعت صراخ المعذَّبين والسياط تلهب ضلوعهم، ومشيت حتى وصلت إلى باب المحروق، ثم نزلت حتى وجدت نفسي في سيدي فرج، وهو مارستان قديم كان المخزن يتخلص من الثائرين عليه من علماء القرويين بالرمي بهم في غرفة مظلمة من غرفه حتى ينسوا أنفسهم وينساهم الناس.

ولقد رأيت أعضاء جوق قادمين ليشنفوا أسماع المرضى في سيدي فرج بتواش من طرب الآلة، ومنهم من كان يحمل طرًّا أو عودا أو كمنجة، فعلمت أن ذلك الزمان قد مضى وفيه كان نزلاء المارستان يحظون بعناية في العلاج بالموسيقى وفي الطعام والنظافة، وأما اليوم فقد صار مكانا وسخا يقيد فيه الحمقى بالسلاسل الثقيلة المثبتة أطرافها في الأرض، وهم يفعلون كل شيء من حولهم، يكثر صراخهم بالليل والنهار، وقد طالت شعورهم وأظافرهم فأصبحوا يفزعون كل من يأتي لزيارتهم، وتوقفت الزيارات، وما عاد من أحد يسهر على راحة النزلاء غير رجل يأتي مرة في اليوم ليرمي لكل واحد منهم بما يبقي على أوده من الطعام، وهو يرمي به خوفا من أن تصل يدا أحدهم إلى عنقه فيخنقه بهما حتى وهما مغلولتان، فقد كان يرى الحقد في عيونهم ويسمع الشتائم التي يكيلون له، ولم يكن المخزن وحده يرسل العلماء ومن أعدائه، بل كانت المرأة إذا رغب زوجها في الزواج من امرأة أخرى فبدت

غير راضية تهدده بأنها سوف ترسل به إلى سيدي فرج، أي أنها ستفعل كل ما يؤدي به إلى الحمق.

ومقارنة مع المصحة التي أعمل بها فقد تأخر الوقت عما كان يوم كان الجوق يعزف للمرضى، ولكنه تقدم أيضا فلنا مراحيض ونحن لا نكبل أيدي أو أرجل النزلاء بسلاسل ولكننا نكبلهم بحقنات المورفين.

وجع الذاكرة

كل إنسان يقيس طوله ويعرفه بحكم العادة، فهو مثلا يعرف متى يحني رأسه عند الدخول من باب إن كان الباب واطئا ومتى لا يحتاج إلى ذلك، كما أنه يشعر بنتوء شعرة في الحاجب فيقصها ويرتاح، فما بالك بألم ضرس أو خفقان القلب أو الحمى، فالإنسان يشعر بجسده، فكيف بي لا أشعر وقد أصبح الناس يتحدثون عني كما لو كنت قزما، أو هم يرونني قزما، فلا أدري من أين جاءتهم هذه الفكرة، أمن عندهم أم من حلم مزعج رأوني فيه أتحول إلى قزم فخافوا على أنفسهم من أن يصبحوا أقزاما.

ولكن، أليس هذا احتقارا؟ أليس هذا استصغارا؟ ذاكرتي وهي تستحضر ما عشت وما سمعت وما حلمت به توجعني.

الرجل المسمار

حلمت أن قامتي قصرت على ذلك النحو المذهل، فعدت إلى جسدي أعيش داخله بعد أن كنت أعيش خارجه، ولم يعد يهمني أكانت السراويل طويلة أم قصيرة، وهل من القميص تدخله اليد فتبدو ملفوفة فيه، وهل الحذاء نفسه مثل زورق لا يمكن أن تلبسه القدم، ولذلك عدت إلى طفولتي الأولى فوجدت ملابس تلك المرحلة واسعة فضفاضة والسراويل طويلة فأخذت أقص منها بمقص وأعيد خياطة حواشيها.

كانت القامات تطول أحيانا، على قصر أصحابها، كما كانت تقصر على طول أصحابها، فالطول والقصر ليسا بمقياس و إن كان لابد من المقياس فهو للمسمار، ولكن أن يعيرني رجل بأنني مسمار، وهو نعت يختص به البخلاء، ليعني به شيئا آخر هو قصر قامتي، فهذا هو منتهى السفالة التي يمكن أن يصل إليها إنسان.

جسد طائر

في ذلك الحلم تراءت لي الزهور مقطوفة للتو من الحدائق ولكنها مبعثرة على الأرض، وأقدام همجية ترفسها. كنت سأسرع إلى حقنة المورفين ولكني لم أر من قطفها ولا من بعثرها ولا من رفسها بقدميه، وما كان من عادة أحد من أقارب النزلاء أن يأتوهم بالورد، ولكني رأيت الورود تقطفها يد وتزيل عنها الأشواك ويد أخرى تبعثرها على الأرض وقدم ترفسها. لماذا؟ الورد يشم عادة ويهدى في المناسبات وتفرح العين بالنظر إليه، فلماذا هذا الاعتداء على الورد؟

ظهرت أمامي امرأة متأبية، تنظر بعجب وتسير بخيلاء، ثم انحنت فحملت من الأرض وردة مداسة بالقدم، وقدمتها إلي، فأخذتها منها مفترضا أن من يهدي الورد للآخرين لا يمكن أن يكون هو نفسه من يدوسه على الأرض. وابتسمت لي المرأة فابتسمت لها، ومشينا وهي تنحني علي وأنا أحاول أن أعلو لأصل إليها، فكأني كنت أتسلقها، وقبلتني في انحنائها على خدي، ولكن كانت كجبل من الشحم، وشفتاها في التقبيل كصفعات من غليظة ما خلقها الله إلا للصفع، ولكني تحملت، ثم صارت يدها دافئة وهي تمسك بيدي، وبعد حين انحنت علي، فتهاويت على الأرض، وتعرت لي فبدا نهداها من فوقي كجبلين من لحم، وتأوهت، وتلذذت بلمس ملمسها الناعم، ثم كدت أشخر وأنام، لكني واتتني الفرصة، فأخذت أضغط على جسدي وهو يحمل جسدها إلى أعلى،

وجسدها ملتصق بجسدي، وجسدي يعلو وجسدها يعلو، ونحن معا نعلو، حتى صار جسدي الصغير طائرا ولكنه يحمل من فوقه جسدا ثقيلا يطير معه، حتى استنفذت طاقتي في ذلك الطيران، فرقع جسدانا فجأة فوق تلك الورود المدعوكة التي كانت قد داستها الأقدام، فلم نشعر بأذى، لكن ضحكاتها صمت أذني، ومنذ ذلك اليوم، وحتى وقد رأيت ذلك في المنام، وأنا أصم.

لعبة شد الحبل

حلم صغير حلمته تدور أحداثه في زنزانة، وأول ما بدا لي هو الكوة الصغيرة التي يدخل منها الضوء، فكنت أراها مرة وأنا في الداخل وأخرى وأنا في الخارج.

في الداخل كان هناك جلاد، وفي الخارج كان هناك ضحية، وكانت المشكلة، هي كيف يدخل الضحية وكيف يخرج الجلاد، بل المشكلة هي كيف يتواجهان، ليمارس الجلاد دور الجلاد والضحية دور الضحية، والحقيقة أن كل واحد منهما كان يخاف من ممارسة دوره، وربما يرغب في ممارسة دور الآخر.

فجأة انفتح الباب فالتقى الجلاد مع الضحية، وخفت أنا مما سوف يحدث، لكنهما في لحظة اللقاء، قررا أن يبدآ لعبة جديدة وهي لعبة شد الحبل، فسلم أحدهما طرف الحبل إلى الآخر، وجذبه بينما أمسك به الآخر، وظلا يجذبان كل من جهته، والنتيجة أن الجلاد بقي في مكانه، والضحية أمضى وقتا طويلا في الدفاع عن وضعه كضحية، ثم جاء من أعلن نهاية المقابلة بالتعادل.

صرخت وقلت نهاية جائرة. لم يكن هناك تعادل، بل انتصار للضحية، وأحسست يد مريم تهز ذراعي وتقول لي بل انتصر الجلاد، أيها الجلاد.

أيام بيضاء

مرة تساقط الثلج ندفا بيضاء فغطى مدينة فاس وغطى سطح البيت وطريق المدرسة الذي كنت أسلكه بالبياض. تصوروا أن الوالد كان يربي ديكا في خم في سطح البيت، وكان عرفه أحمر وذيله ملون كما ريشه ملون، ولكن الديك صار أبيض، ولم يعد يهاجم، بل وقف على تلك العصا التي تعود أن يقف عليها وهو نائم، وقوف محارب قدم، فلكي أنقذه من التجمد فتحت باب الخم وأمسكت به وهو مستسلم كأنه يعرف أنني جئت لأساعده، فأنزلته إلى مكان في البيت فيه دفء فأخذ ينفض جناحيه.

وعجبا، فهو نفس الديك الذي كان والدي إذا ما أدخل يده إلى الخم فالديك بمنقاره يعض ويقطع، فيجرح يد الوالد، وكم قالت له الوالدة اذبحه فكان لا يريد.

وليس الديك هو ما صار أبيض في تلك الأيام، بل الصوامع، وأخطر ما فيها أن المؤذنين كفوا عن الأذان.

وليست الصوامع وحدها، بل جلابيب كانت حمراء أو صفراء أو سوداء يرتديها أناس فأصبحت بيضاء.

وليس الديك أو الصوامع أو الجلابيب، بل إن علم الوطن، الأحمر الذي تتوسطه نجمة خماسية خضراء، قد ابيض، كما ابيض الشرطي الواقف في وسط الميدان لتسيير حركة السير، وابيضت الإدارات والبنوك، وسمعت الناس يقولون ليتها القلوب تبيض، فهي سوداء، والثلج لا يبيض القلوب.

شجرة وحيدة

رأيتها تبنت وحدها في الفراغ، دون سقيا أو مطر، لكنها تدل من ضاع في الصحراء على أن طريقه من هنا أو من هناك، وحيث هي التي تصنع له الجهة بعد أن كان قد فقدها.

ثم ها هو البحر يظهر وبواخر لنقل البترول تسير في عرضه وكأنها لا تسير من فرط ثقل حركة سيرها، ومع ذلك فالبحر يظهر في الصحراء، ولا بوصلة للجهات غير تلك الشجرة التي تنبت وحدها في الفراغ.

في الجحيم

كم من مرة رأت عيناي ذلك المشهد الذي كان جسدي يدخل فيه النار فيحرق ويصير رمادا ثم يبعث من جديد ليرمى به في النار ليعذب بحرق جديد؟

وبين حرق وأخر كنت آكل ولا أبالي، وإن كنت أعرف أن ما آكله هو مزيج من البارود والشظايا ونثار القنابل، ولكن ذلك الذي يفتح لي باب الجحيم يكل أو يمل، أو يشعر أنه هو نفسه سوف يحرق معنا ذات في ذلك الجحيم، بل كان يفتح الباب وهو يغني، أو يشرب من برادة ماء ليطفئ عطشه بينما حلوقنا تجف من العطش، ولما كنا قد تعودنا على منظره، كما تعود هو الآخر على وجوهنا وصرخاتنا، فقد تآلفنا وأصبحنا نحن وإياه أصدقاء، هو يفتح لنا الباب فندخل، وهو يعود فيفتح الباب ويُخرج رمادنا فنسوى كما كنا ونحييه أو نمازحه ببعض الكلمات، وأما ما كنا نراه فقد كان رؤية للرماد.

شمس الضحى

اسمها شمس، أو شمس الضحى، وهي نفسها تلك المرأة التي كانت قد ضغطت على روحي من فرط ضغط جسدها السمين على جسدي فما تخلصت منها إلا وقد أصبحت جسدا طائرا.

وهي نفسها جاءت هذه المرة من غير أن ترفس الورد بقدميها ولا أن تحمله من الأرض لتهديه إلي، ولكنها في هذه المرة جاءت في مدينة خراب، أو هي مدينة في طور التشكل، ولم تأخذ أي شكل بعد، فمواد البناء مبعثرة على الأرض، وشاحنات تحمل الحديد والحجر تثير من خلفها الغبار، وعمال

بناء يخفون رؤوسهم في أكياس الإسمنت الفارغة وقد صنعوا منها ما يشبه القبعات، والطرقات مليئة بسوائل ملونة هي خليط من إسمنت وصباغة وجبس ومواد للتبليط، ولم تجد شمس الضحى مكانا تأخذني إليه ما عدا هذه المدينة الغريبة، التي ربما هي مدينة للمستقبل، فأخذنا نتجول بين الفيلات والعمارات التي هي في طور الإنجاز، وكان كلما مررنا ببنائين إلا وحيتهم وحيوها، وابتسمت لهم فابتسموا لها، فلما سألتها عن سر معرفتها بهم قالت لي أنا المهندسة المعمارية، ونحن في طريقنا الآن لأطلعك على مشروع المصحة العقلية، لدي في الموقع التصاميم، وحالما ينتهي البناء سيدشنها وزير الصحة العمومية، ومع المحسن الخليجي الذي تبرع بنفقات المشروع.

خاصرتني وهي تنحني تبحث عن خصري، وقبلتني فشممت من فمها رائحة الثوم، ولما تضايقت فكرت في أن أصبح جسدا طائرا لكني رغبت في أن أرى المصحة العقلية التي في طور البناء، حتى أعقد مقارنة جديدة لها مع سيدي فرج وحيث كان المارستان القديم، ومع مصحة سيدي بوجيدة العصرية، ووجدت مناسبة لكي أغلق فم الدكتور جاكار وهو يتحدث عن قلة عدد الأسرة، وقلة عدد الممرضين، وتضاعف عدد المرضى كل يوم، فما سأغلق به فمه هو حجرة من أحجار بناء المصحة الجديدة، في المدينة الجديدة، في الأرض الجديدة التي هي أرضنا جميعا، ووجدت ما أتبجح به عليه من معرفة بأشياء هامة تتعلق بسياسة الوزراء وبرامجهم وتدشيناتهم، وبالحديث عن المهندسة المعمارية بانية المدن، والشوارع، والعمارات، والمصحات العقلية، وبمعدل مصحة عقلية لكل مواطن، فادخل سوق رأسك آ الدكتور جاكار وإياك أن تظن أن المغرب سيبقى متخلفا إلى الأبد، فحالما أعرفك على السيدة شمس الضحى، بانية المدن، والمصحات العقلية، فتكتشف أنك أمام مغرب جديد، مغرب العقل، والنباهة، وكثرة الأسرة، وكثرة الممرضين، فكلما تضاعف عدد المرضى مرة

أو مرتين إلا وتضاعف عدد الأسرة مرات ومرات، تعرف لماذا؟ هذا سر أخبرتني به شمس الضحى، لكي تستخدم تلك الأسرة للراحة، كما هو الحال في الفنادق، أليست قيمة السياحة في بلد من البلدان تعد بعدد ما يتوفر عليه من الأسرة؟ إذن، يا دكتور، فقيمة الصحة تعد في ميداننا، بعدد ما نتوفر عليه من الأسرة، حتى وإن اتسعت فصار السرير الواحد ينام فيه عشرة، ولا تصدق يا دكتور، فهم لا ينامون، ينامون تحت الأشجار، وفي كل مكان.

دجاجة أم رخ أم نعامة

ضحكت.

أنا ضحكت، فأحدهم قال لي وهو يضحك إنه باض بيضة، وقال إنه لم يتعود على أن يبيض كما تبيض الدواجن، ولذلك فقد سقطت منه البيضة وانكسرت قشرتها، وقال إن جميع النزلاء في صباح هذا اليوم قد أصبحوا وهم يبيضون كالدجاج، وقال لي أنت آالسي عبد الرحيم ياك ممرض هنا؟ إيوا ها أنا أخبرتك. هنا راه كل شي دجاج، دجاج بياض تبارك الله دابا غير شف اللي يشري البيض، نبيعوه، لا أنت بعه، خذ الفلوس، واشر لنا غير شي طر وتعريجة وبندير وكمنجة، واحنا راه نديروا لك شي جوق راه يبدا تيخدم فالعراسات، وشوف ما تنساش راه كل شي من البيض، ولكن احضي راسك آ خويا عبد الرحيم، راه كاين البيض ديال الحيات، وديال الفكارن. لا هذا راه بيض ديال الدجاج. الدجاج الرمي. احنا. راهم هدوك الإبرات التي تتحشيوا فينا ردونا دجاج رومي، وها البيض، ها البيض، وبدا أمامي مثل بائع بيض يحمل سلة في يده بها بيض، لكني خشيت أن يكون بيض رخ، فمن يأكله يصير رخا، ولكنه إن كان بيض نعام فكل من سيأكله سيصبح نعاما فكيف يعيش الرخ أو يعيش النعام في المدينة؟

جاءني ببيضة وقربها من نظري فقد كان يعرف أنني لا أرى غير الرماد، ثم جعلني أتحسسها بيدي لأعرف حجمها، وقال لي آلسي عبد الرحيم أين هي حقنات المورفين، فلاشك أنك سوف تهتدي إلى الأشياء كما هي، لا كما تراها، بعد أن أحقنك بتلك الحقنة.

غضبت منه وقلت له أنت مريض ولا يمكنك أن تمارس دوري فأنا ممرض معالج، والأشياء التي أراها تعجبني كما أراها أنا لا كما تراها أنت، فانظر إلى بيضك الفاسد ولكن لا تتوهم أن الناس لا يميزون بين البيضة الصالحة والفاسدة، إذا كنت تستغفل الناس، فسيفضحونك ذات يوم، هنا، أمام الجميع، والبيض الفاسد ستأكله وحدك، وهذا هو العقاب.

قال لي أنا عندي بيض نسر، أما أنت فلا تبيض غير كما يبيض الدجاج الرومي.

كنت سأضربه، فلا يعقل أن يكون هو نسر وأنا دجاج رومي، فمعنى ذلك أنه سوف يصبح قادرا على افتراسي، وما بيضه غير بيضتين، هما خصيتاه، أما بيضتي أنا فهي بيضة واحدة هي بيضة الديك.

عودة إلى أيام الشباب

ندمت على معرفتهم، وعلى اليوم الذي أصبحت فيه ممرضا لمرضى هم على أتم الاستعداد للقتل في أية لحظة، لكنهم في نفس اللحظة يبكون ويتحسرون على ألا سكاكين لهم ليطعنوا بها، ويحزنون كثيرا وهم يستعيدون ماضيهم الممزق، وحياتهم التي تتساقط كأوراق الخريف، فتنهمر دموعهم ليستدروا العاطفة، وبعد ذلك يضحكون على أنفسهم وعلى الآخرين، ولذلك كنت لا أندم على معرفتهم، وأقول إن صبري قليل فلو كنت صبورا معهم وهم يعودون إلى أيام شبابهم، وكل واحد منهم يحكي حكايات وذكريات، لكنت قد عشت شبابي في شبابهم، فأغلبهم أقران لي، وقد عاشوا نفس المرحلة.

ميراي

في أوقات الفراغ التي كانت تملأ كل ليلي ونهاري بدأت أسترجع حياتي، ولما كان فراشي هو فراش للوحدة، فقد تذكرت أيام الشباب وحضرت أمامي ميراي، اليهودية الجميلة، الفاتنة التي فتنتني، عشقتها فما فرقت بيننا غير السياسة، ولولا حرب يونيه التي شحنتها بالعداء ضد العرب، لكانت حياتي قد تغيرت، ولكنت أعيش في باريس حياة أخرى، ولكانت ميراي معي الآن، لكنها أحبتني قبل تلك الحرب، وكرهتني بعدها فأحسست بالخيبة مرتين، مرة لأن إسرائيل احتلت مزيدا من الأراضي العربية، ومرة لأني فقدت ميراي.

هي التي كانت تقول لي ما ذنبنا وقد خلقنا أنا يهودية وأنت مسلم، أصبحت تشتم جنس العرب وتفخر بقوة إسرائيل.

وإحساسي بالخسارة هو الذي قادني إلى مريم، فأحسست أن حياتي كانت منذورة لحرف الميم، ميم ميراي وميم مريم.

عبد الرحيم الأزرق عاصر ثلاثة ملوك

وواتتني فكرة، وهي أنني أنا عبد الرحيم الأزرق، عاصرت ثلاثة ملوك، وفكرت في الأمر مليا، فوجدت أن المسألة تستحق التأمل، ففي طفولتي عشت أيام نفي الملك محمد الخامس مع أسرته الشريفة إلى جزيرة كرسيكا، ولقد رأيته في القمر كما رآه جميع المغاربة، وبكيته يوم وفاته كما بكاه كل الناس، وهم يرددون تلك الأغنية الجارحة لنياط القلوب:

آ ويوم عشرة في رمضان

يا الإخوان

يوم عشرة في رمضان يا الإخوان

شي يبكي وينوح

ومع ترديدها كانت الدموع تملأ كل الأرض.

ثم جاءنا التلفزيون ليبث صوره لأول مرة مع بداية الستينات، فلم نعد نرى الملك وهو يزور مدينتنا فنخرج لتحيته وهو على صهوة فرسه والأرض مفروشة بالرمل، والناس يطلون من سطوح المنازل لتحيته والهتاف بحياته، بل صرنا نرى ملكنا على شاشة التلفزيون وهو يزور كل المدن والقرى، والتلفزيون نفسه هو الذي نقل لنا أخبار الانقلاب على الملك، مرة وأخرى، مرة في حادثة الصخيرات، وأخرى في حادثة مطار الرباط ـــ سلا، ولكن صوت الملك الذي جاء مع صورته على شاشة التلفزيون كان مطمئنا لنفسه ولنا، فقد كنا سنقع في حفرة ولكن الله سلم.

معلوم أن الله هو الذي سلم، وهو صانع هذه التواريخ، وإلا لكان عرش المملكة في خبر كان، ولما كنت أنا قد عاصرت غير ملكين، أولهما نفته فرنسا إلى مدغشقر ثم عاد إلى عرشه والثاني لا قدر الله هو الذي كاد أن يقع في الحفرة. لكن الله أطال في عمري حتى عاصرت ملك الحداثة، الشاب الهمام، المحب للفقراء والمعاقين، الطيب القلب.

قلت لكم إنني قد صرت أحب أن أضاحك الناس وأضحك معهم فلا أجد غير عابس ومكشر، وكأنهم يكيلون لي بذلك المكيال الذي كنت أكيل به يوم كنت لا أميل إلى سخافات ضحك مجاني أو تنكيت خليع أو سخافات أقابلها عادة بالتكشير الذي يعيد الجدية للموقع ويعيد لي الحزم في النظر والموقف واتخاذ القرار.

فأنا ممرض لأناس غير عاديين، ولذلك يجب أن أكون جادا كل الجد، فلا أستسلم إلى الهراء والسخف والتفاهات.

ولكن الأمر انقلب إلى وضع آخر، فها أنا اليوم أسخر من عمري الجميل، الذي طال واستطال، حتى عاصرت خلاله ثلاثة ملوك.

عبد الرحيم الأزرق يعشق الأميرة

والدي كان جزارا، فكيف يمكن لابن جزار أن يعشق الأميرة الجليلة ابنة الملك المفدى صاحب الصولة والصولجان؟

أخبركم من الآن بأنني بذلك العشق، ومن جانبي وحدي، لم أكن أسعى إلى نيل منصب أو حصول على جاه. فقد كنت أعرف أنني قزم أمام الأميرة، وهي نفسها سوف تسخر من عشقي لها، ولن تقبل حتى بأن تهديني ابتسامة إشفاق.

أعرف كل هذا وأؤكده لكم، ولكن أليس من حق مواطن تربى على المواطنة، وحب الوطن وحب الملك، أن يعشق الأميرة؟

من يقول منكم إنه ليس حبا متكافئا فهو لا يدري لوعة العشق، وعذاب الأرق، ورؤيتها في المنام، والحديث معها، والإمساك بيدها الطاهرة كما يمسك الواحد بيد ملاك سماوي. فأنتم أناس خشنو الطباع، تحسبون العواطف بحسابات المال وبحسابات أخرى تسمونها توافقا في المكانة الاجتماعية، فأنتم زائفون، لا يمكن لأحدكم أن يشعر بأنني أطير، وأدخل القصر الملكي، فأسير في الحدائق، مرة معتدا بنفسي ومرة خائفا من الحراس، فاقترب مسترشدا بنورها الملكي، حتى أطل من نافذة القصر فأراها، وأبكي فأعود وأنا أفكر في حيلة للخروج، فقد ظفرت بالمطلوب وهو أن أراها، ولقد رأيتها.

صورتها كانت معي على الدوام، تحت الوسادة مبللة بالدمع، دمعي الحائر في عينيها الملائكيتين، وأنا أتخيلها في المنفى، مع والدها الملك، والصورة لم تكن لها وحدها بل للأسرة المالكة، يتوسطها جلالته، يحيط به الأميران الجليلان، والأميرتان الجليلتان، وهي، نوارة قلبي ومرتع أحلامي،

فكنت أعتب على نفسي لماذا أنا في الوطن وهي في المنفى، وكنت أحب أن أكون معها في ذلك المنفى، ولكن فرنسا لا تعرفني حتى تنفيني، والملك المفدى نفسه لا يعرفني، لكني أعرفه وأعرف الأميرة الجليلة، بل أراها في المنام، وأقبل أعتابها الشريفة.

كنت أحييها وهي في الصورة براية المغرب وهي ترفرف في يدي، ولما كانت الوالدة تباغتني وأنا أنظر إلى الصورة وفي يدي راية الوطن فقد كانت تجلس بجواري على حافة الفراش وتبكي، وتقول ولدي عبد الرحيم ذهب عقله، ولكنه وطني، وتواسيني وتقول لي كفاك يا وليدي فقد خرج عقلك. وعقلي لم يطر إلا وهو مع الأسرة المالكة في المنفى، ولكنه طار مع رجوع الملك إلى عرشه ورجوعها إلى أرض الوطن.

كتبت لها رسائل لم أبعثها وكنت أنيمها بين رموشي فلا أنام وأنا أرى طيفها وأراها تبتسم لي.

معطفها الشتائي الرمادي، وشعرها المسدل على الكتفين، ونظرتها، والوطن كله، كل ذلك كان يهز روحي ويلهب جسدي بالحمى ويجعلني لا أرى غير ابتسامتها لي ووجهها يظهر في الفراغ، فكنت أهذي بكلمات الحب التي لا تسمعها غير أمي، وأنا أنظر إلى الفراغ وفيه أرى الأميرة الجليلة وهي تظهر أمامي في الفراغ.

غضب والدي الجزار السي قاسم من تصرفاتي، واهتدى إلى حل، وهو أن يرسلني إلى المارستان، سيدي بوجيدة، فذلك أفضل من أن يأتي من رجال المخزن من يأخذونني إليه، وأن يفعل ذلك بنفسه فهو أهون من أن يراهم يطوقون يدي بالسلاسل ويرمون بي في الظلام.

وكان يصيبه الغيظ من حالي فيقول لي:

ـ ما بقا لنا غير القصر ديال سيدنا؟ إيوا صافي.

ثم يضرب كفا بكف ويقول وهو يتنهد:

ـ إيوا آ عبد الرحيم راه بحال بحال. سر آ وليدي، من القصر الملكي لسيدي بوجيدة. راه عندك بحال بحال من النهار اللي خف عقلك.

ثم بعد سنوات من ذلك شفيت واستأنفت دراستي إلى أن وظفت ممرضا في المصحة العقلية بسيدي بوجيدة، وهناك بدأت قصتي مع ميراي.

ميراي تعشق عبد الرحيم الأزرق

كانت ميراي تخرج من حقيبتها طاقية أخيها عزرا وتضعها فوق رأسي، وأنا مستسلم، وكانت تفعل ذلك ونحن عند السور، قريبا من باب الميعرة التي هي المقبرة اليهودية، وفي الميعرة كانت تُجْلسني على قبر، وتقبل فمي، فأذوق من فمها الحلو، وتداعب خصلة من شعري كانت ترقص عادة على جبيني تسويها ثم تعيدها مبعثرة الشعيرات لتسويها من جديد. كانت عيناها العسليتان تنظران إلى عيني، وكانت تبدو والهة وأنا واله بالنظر إليها، وكانت تدخل في حناياي وهي تنظر جهة القبور خوفا من أن يأتي حارس المقبرة، وتبكي، وتقول:

ـ لماذا؟ لماذا يا عبد الرحيم؟

ثم تنظر إلي وتقول لي:

ـ حبيبي، إن عرف أبي أنني أحبك وأنت مسلم، فسيقتلني، أو سيرسلني إلى إسرائيل إن وجد لذلك طريقة.

وكنت أقول لها:

ـ يا حبيبتي يا ميراي وأنا لا يمكن أن أجعلك تدخلين دارنا وتأكلين معنا الكسكس أو تشاركيننا في لحم العيد الكبير، أو تصومين معنا رمضان وترين هلال العيد وهو يظهر في السماء كما نراه من سطح المنزل، وترين أمي وأريك ذلك القفص الذي أربى فيه طائرا مغنيا.

تتنهد، وتقول:

ــ انس ذلك يا عبد الرحيم. فأنا أيضا لا أستطيع أن أدخلك إلى دارنا في الملاح لتشاركنا في أعياد البيساح والكيبور وعيد الدجاجة وعيد الرقاقة. انس.

أقول لها:

ــ لقد نسيت.

تقول:

ــ أريد اليوم أن أنام في حضنك، وفي فراشك. أتخيل بيتكم. هل لديكم نافذة يمكن أن أرى منها القمر والسماء وأنا نشوى بحبك؟

أقول لها:

ــ حبيبتي ميراي. يمكن أن نتزوج ونعيش حب العمر كله إذا وجدنا طريقة.

تقول لي متلهفة:

ــ ماهي؟ نهرب؟

وأقول لها :

ــ نهرب إلى باريس. ولكن علينا أن نخطط بسرية عن أهلك، وعن أهلي.

يزداد تلهفها وتتطلع عيناها إلي وتقول:

ــ حبيبي. كيف سنخطط؟

أقول لها:

ــ علينا أن نحصل على جوازات السفر، وأما المال الذي يكفي لسفرنا فأنا أتدبره.

وتغيم عيناها، وتبدو كطائر محلق في الفراغ، فآخذها وأنيمها فوق ركبتي، وأنحني عليها بالقبل وأنا أمسكها بذراعي وهي تتحلل وتكاد تتهاوى، وأنا أسبح في سماء الله التي جاءت بكل الأديان.

ثم تستقر نظراتها ويعود إليها شيء من رشدها فتقول لي:

ـ حبيبي. ماذا كان الله سيخسر لو أنه خلقنا نحن البشر جميعا على دين واحد؟

وأنظر إلى قرار عينيها، فهذا السؤال لم يخطر على بالي. ولكن يخطر على بالي سؤال:

ـ حبيبتي. لماذا لا تتعايش الديانات، وتتصالح؟

ضحكت، وقالت:

ـ هذا أمر غير ممكن.

قلت:

ـ لماذا؟

قالت:

ـ والحروب من يقوم بها؟ والأسلحة ماذا يفعل بها الناس؟

قلت لها:

ـ وإذن، فحتى لو خلق الله الديانات لتصلح أمور الناس، فالحروب ستبقى والأسلحة ستبقى.

أغمضت عينيها، وبدت كالمتأملة، ثم قالت:

ـ الكراهية هي التي تولد الحقد بين الناس، والحروب، وهل تعرف؟ الكراهية تبدأ بين الأخ وأخيه، وتنتشر حتى بين شعب وآخر، وبين دولة وأخرى. لماذا؟

حين لم يكن لدي جواب أقدمه لها فقد فتحت أصابعي وخللتها في خصلات شعرها فنفشته، ثم لملمته بين أصابعي وشممت رائحته وقبلت خصلاته فعادت ميراي ترتخي وتتحلل وتنام في حضني فأحضنها وأعري صدرها وأنحني فوقه ونار أنفاسي تلتهب وأنا أرى ثدييها الراعشين فأرتعش.

مرات التقينا في الميعرة. ومرة عدت إلى دارنا فوجدت في جيبي تلك الطاقية التي هي لعزرا أخ ميراي، ولما وضعتها مرة في مكان فقد رأتها أمي، وتفحصتها، ثم قالت لي:

ـ عبد الرحيم. من أدخل رائحة اليهود إلى بيتنا؟ الرائحة هي التي جعلتني أجد هذه القريعية في هذا المكان.

وسألتها:

ـ آ الوالدة. الله يهديك. واحد يهودي نزل من الملاح ونحن رميناه بالحجارة، وأخذناها منه.

بدت غاضبة وقالت:

ـ عبد الرحيم وأنت العاقل. لماذا أولاد الحومات يضربون اليهود بالحجارة؟ اليهودي إنسان، ونحن نعيش مع اليهود منذ مئات من السنين.

ولكني لما سألتها عن رائحة اليهودي التي تكرهها دونما سبب لم تجب. ومع إلحاحي فقد قالت إنها قد سمعت أن لليهود رائحة الجيف يفيحونها من ثيابهم حول ما حواليهم كما لا يفيحها بشر، فاتجهت نحو غرفتي، وشممت ثيابي، وبالفعل، فقد شممت فيها رائحة ميراي، ولكنها رائحة عطرها لا رائحة الجيف.

خططنا بسرية تامة للهجرة إلى باريس. فهناك أردنا أن نعيش وحيث لا ينكر علينا أحد أن نعيش الحب . وضحكت ميراي ثم قالت لي

ـ هو حب العمر كله أو يجب أن نفترق.

وقلت لها:

ـ أهذا هو الحب اليهودي؟

فقالت:

ـ هذا هو حب اليهوديات لغير اليهود.

ولكن وقبل أن ننجح في السفر، جاءت حرب يونيه 67، وتأجج شعور المغاربة بانتصار العرب على إسرائيل، التي بدت في أول خطاب لجمال عبد الناصر ليست سوى دويلة صغيرة يمكن محوها والرمي باليهود إلى البحر. وأردنا للأراضي الفلسطينية أن تتحرر، وفرحنا، وهللنا وكبرنا، ثم جاءنا أخبار عن انتصار إسرائيل، وأن الطائرات الحربية المصرية لم تقلع من مطاراتها، بينما قيل لنا إن ربابنة عسكريين أمريكان هم الذين كانوا يرمون بقنابل النابالم في نهر الأردن، ولما عرفنا أن احتلالا لأراض جديدة قد وقع وأن أرض فلسطينية قد توحدت في الاحتلال، فقد بكينا، ولم أدر كيف ألتقي بميراي، فأجلت اللقاء حتى جاء يوم ركبت فيه الحافلة من باب بوجلود إلى ساحة المقاومة، وفي محطة الملاح صعدت ميراي. تهيأت لتقبيلها لكني أخذت حذري من الركاب، فأردت أن أهمس لها مغافلا الأنظار نحوها ونحو كل اليهود الصاعدين إلى الحافلة من محطة الملاح.

انطلقت الحافلة فاقتربت من ميراي، وحاولت أن أقرأ ما في عينيها، فرأيتها تتجاهل نظراتي، ولما نزلنا في ساحة المقاومة سارت بخطوات سريعة وجادة وهي لا تلتفت نحوي، فحسبت ذلك تسترا على علاقتنا، وأنها لا تريد أن يفتضح الحب، بعد حرب أدمت قلوب العرب والمسلمين.

ومشيت وراءها حتى أحست بخطواتي، فالتفتت نحوي وقالت:

- sale race (جنس قذر).

عرفت أنها سبة ولكني حسبت ميراي تتمادى في تمثيل دور الإنكار لعلاقتنا أمام من يكون قد لاحظ لقاءنا. لكن نظراتها لي كانت قد تغيرت.

واقتربت منها فأمسكت بذراعها وأنا أتودد لها بنظراتي رغم جراح الحرب، لكنها وقفت وبدت متنمرة تصرف ذراعها من يدي وقالت:

ـ اسمع. إياك أن تقول إنك كنت تعرفني. فمن كان يعرفني هو عبد الرحيم اليهودي الذي بيدي كنت أضع فوق رأسه طاقية عزرا أخي اليهودي وكان يستسلم لها.

صرخت:

ـ ميراي. أنا مسلم لا يهودي. هل حسبتني سأدخل دينكم؟

ابتسمت ابتساما ساخرا فقلت لها:

ـ هل كنت مخادعة إلى هذا الحد؟

وصرخت:

ـ عبد الرحيم. ضممنا القدس، والجولان في يدنا، وقطاع غزة، وقنال السويس، وغدا سوف تكون الرباط وفاس في يدنا، وساعتها تعال.

بصقت على وجهها. سارت، ولم أتبعها، فقد صعد الدم إلى رأسي وخفت من أن أقتلها، وكيف أقتلها والإسرائيلي في ذلك الوقت صار يساوي عشرات من العرب، أما اليوم فهو يساوي المئات أو الآلاف.

بكيت. كيف أمكن لميراي أن تصبح إسرائيلية؟ كم كنت مخدوعا بأن يكون هنا حب نقي وخالص بيني وبينها. فكرت في الذهاب وحيدا لباريس للبحث عن عمل هناك والعيش مدى الحياة، فقد كانت أوربا كلها في حاجة إلى اليد العاملة، وكان جواز السفر بيدي، أفتحه فأرى بدل صورتي صورة ميراي، ولذلك كنت أغلقه وأبكي وضعي الإنساني، ووضعنا نحن العرب، وقد رأيت في نفسي عبد الناصر المخدوع بحرب كانت قد باعتها المخابرات، فكما خدعوا عبد الناصر، خدعتني ميراي، فماذا لو سارت معي في لعبة الحب الزائفة وذهبنا إلى باريس معا لأصبح عميلا لإسرائيل من غير أن أتفطن إلى عمالتي إلا بعد سنوات فأقتلها وأنتحر؟

النوم بين بابين

تطورت قضية طاقية عزرا إلى ما هو أفظع، فقد منا وقتها نسكن في حي الصاغة، وهو الحي العريق الذي ما تزال دور السلعة القديمة تشهد على كونه كان مركزا تجاريا كبيرا به مواد كثيرة بعضها مستورد والآخر للتصدير.

كان والدي قاسم الأزرق جزارا محله يلاصق لبّانًا منه كنت أشتري الحليب كل صباح، وفي أيام الربيع كان ذلك اللبان يعلق بمخطاف جبنات كثيرة من حليب رائب وهي تقطر، وقطراتها تسقط على الأرض، فكان الوالد يصيح من محله:

ـ آ السي إدريس. أعط لولدي عبد الرحيم شي جبينة، تكون مهيمنة.

فآخذ الجبنة الموضوعة في خرقة من ثوب الحياتي حاملا إياها من مكان العُقَد التي عقدها السي إدريس اللبان من أطراف الثوب حتى سوى منها ما تحمل منه، وأسير إلى الدار القريبة في درب مظلمة بابها واطئة وهي باردة في الشتاء شديدة الحرارة في الصيف.

وفي ليلة من الليالي، عاد الوالد السي قاسم إلى البيت مغتاظا فما فطنت إلا وقد صفعني عدة صفعات ودفعني نحو باب الدار بركلات حتى فتح الباب ورمى بي إلى ظلمة الدرب، وقال:

ـ سر آ الكلب. سر للملاح عند اليهود.

ثم رمى نحوي بطاقية عزرا وأغلق الباب من دوني. كان الوقت ليلا وكنت جائعا وأرتعش من البرد، ولا مكان لي أنام فيه.

مشيت بين الدروب والطاقية في جيبي وأنا أبحث عن مكان أتخلص منها فيه. وهي طاقية عزرا التي كانت ميراي قد وضعتها فوق رأسي حتى تضلل حارس المقبرة. لكني لم أر عزرا إلا مرتين أو ثلاثا و أنا في طريقي إلى

الملاح لأخلو بميراي. رميت بها في سطل قمامة وسرت بين الدروب الموحشة حتى سمعت الحارس يغلق الباب من ورائي بمعراض كبير، وبعد أن سرت كان الباب الموالي قد أغلق في وجهي فما عاد لي منفذ أذهب منه إلى مكان، فلا ذهاب ولا رجوع.

ولا يمكن أن يصدق أحد أنني قد نمت بين جفون ميراي، رغم أنف إسرائيل، وأن دمعي قد امتزج بدمعها، فنمنا معا بين الباب والباب.

في سوق النخاسة

قال النخاس هذا ولد وهذه بنت سليمان من العيوب، فلا هو آبق ولا هي رتقاء أو بخراء أو قرناء. رفع ذراعي متباهيا وجذب ميراي من أذنها ثم فتح شفتيها ليكشف عن أسنانها الناصعة البيضاء. عرى صدها فبرز نهداها الصغيران. صفع حنكها صفعة صغيرة فلما ارتدت إلى الوراء قال كل حواسها سليمة، فمن يدفع، بكم نبدأ؟ ثمانين، تسعين، مائة، ألف، ألف وخمسمائة، ألفان. حلال عليك. ها هو البائع يكتب معك عقد البيع، فقد وجدهما يناما بين بابين، وهما لم يكونا عبدين ليكونا آبقين. نظرت إلى المشتري وهو يختال بقفطانه الأسود وبلغته الزيوانية وشكارة المال تميل على طرف من جانبه. عجوز في السبعين، اشترانا أنا وميراي لنكون له هي جارية يجدد بها فراشه وأنا لأشغال البيت. هل يمكن أن أرى ميراي تبيت في حضن ذلك العجوز؟

تساقط على سوق النخاسة ثلج أسود، فاسودت الدنيا وما عاد أحد يرى أحدا، وقررنا أنا وميراي أن نهرب، لكنها اختفت فلم أعد أراها.

سمعت مصراع الباب يفتحه الحارس ورأيت على ضوء قنديل والدي قاسم وهو يركلني في ظهري ويقول لي:

ـ تعال أيها الكلب. سأعود بك إلى الدار لأذبحك. أين هي الطاقية؟

قلت:

ـ رميتها في سطل للقمامة.

ابتسم وقال لي:

ـ وهل تبت إلى الله؟ هل عدت إلى دين آبائك الأولين؟

قلت:

ـ كنت مسلما وما أزال.

فقال وهو ينظر إلى الحارس؟

ـ والطاقية؟

قلت:

ـ تلك طاقية عزرا.

قال:

ـ ومن هو عزرا ؟

ـ قلت:

ـ هو أخ ميراي.

قال:

ـ من هي ميراي؟

قلت:

ـ يهودية كانت صديقة.

نظر إلي الحارس بإشفاق وقال لوالدي:

ـ ارفق به، فكل الفاسيين كانوا يصاحبون اليهوديات، بل كانوا يلدون منهم الأولاد والبنات ويتنكرون لهم لأنهم يهود.

وما بدا الاطمئنان على الوالد حتى رأى المزبلة، ومنها حمل الطاقية فتفحصها تحت ضوء قنديل، ثم أعادها إلى مكانها في المزبلة وأعادني إلى الدار.

الباب السادس

[باب في ما يسميه عبد الرحيم الأزرق بالنازلة،
وهي حادثة تراوحت بين الهزل والجد،
فهي على ما يعتقد عبد الرحيم سفر في صحراء،
كأنها صحراء عمره،
ولكن هي الصحراء نفسها،
التي لا يحدها غير الصحراء.]

حفل ساهر في صحراء، كصحراء العمر

هي الصحراء وأنا رأيتها لا تحدها حدود غير الصحراء، لكني رأيتها وأنا داخل تلك الفيلا الواقعة وسط خضرة وماء وتلألىء أضواء، فقد كان الوقت ليلا، وكانت الصحراء بكل عطش الجمال وعطش الناس توجد فيما حولي وفي حلقي الناشف وتحت لساني.

ومخافة أن يقع لي ما هو أفظع، فقد لذت بالصمت بينما هم كانوا يضحكون ويتناولون مما في الصحون التي أمامهم، ويعبون كأسا بعد أخرى، ويثرثرون في كل شيء.

ولكن أحدهم اتجه نحوي فجأة وقال لي:

ــ أراك تشرب الكوكاكولا زجاجة بعد أخرى.

فقلت:

ــ عطشان.

قال:

ــ كل هذا العطش؟

قلت:

ــ لو كانت الجمال تشرب الكوكاكولا لأوردناها منها، ولكنها لا تشرب غير الماء، والماء غير موجود في هذه الصحراء.

ضحكوا وحاولوا أن يركزوا نظرهم علي، وقال أحدهم:

ــ إنه يرى الصحراء الآن، فماذا سيرى بعد أن تبدأ السهرة؟

وقال آخر:

ــ يقول نورد الجمال الكوكاكولا، فأين هي الجمال؟

حسبتهم محششون، وقد حششوني من غير أن أدري، فربما كانوا قد وضعوا شيئا من الكوكايين في زجاجات الكوكاكولا التي كان خادمهم يقدمها

لي واحدة بعد أخرى وهي مفتوحة. وتذكرت أنني لا أعرف واحدا منهم، وأنهم قد جاءوا بي إلى هنا بطريقة غريبة تشبه الاختطاف، حينما وقعت تلك النازلة.

وقبل أن أعود إلى النازلة في الفيلا الوقعة وسط الخضرة والماء وتلألؤ الأضواء التي أنا فيها الآن، رأيت أحدهم ينهض من مكانه، ويقترب مني ويحدق في عيني تحديقا فاحصا، ثم يعود إلى مكان جلوسه.

كانوا سبعة أو ثمانية، بعضهم يجلسون على البسط والآخرون يجلسون على كراس من خيزران، والثريات تتدلى من السقوف باهرة بالأضواء الخلابة، وأغراس خضراء طافحة في القاعة والممرات وتماثيل بحجم الرجال تمد أياديها بأطباق بها فواكه استوائية، ولا شيء يسمع غير همسات الرجال وضحكاتهم.

وكانوا يرتدون ملابس صيفية، وصدورهم عارية وأذرعهم مشعرة وبعضهم يضعون نظارات شمسية حتى ونحن في الليل في هذه القاعة الباهرة الأضواء.

أصابني القنوط وانتفخت بالغازات وأحسست برغبة في الضراط فقلت أنهض وأسرح قدمي في الحديقة، فرأوني أنهض وأغادر القاعة فلم يعترض علي أحد، وبذلك عرفت أنهم أناس طيبون، لا يمكن أن يعتقلوني هنا لغير ذنب جنيته في حقهم، ولاشك أنهم سوف يعيدونني في آخر الليل إن تأخرت السهرة إلى بيتي في حي الأطلس مع نفس السيارة التي جاءت بي، ظنا منهم أنني مازلت أقيم في تلك الشقة، بينما سأنبههم ليأخذوني إلى سيدي بوجيدة، إلى المصحة، لأنني أصبحت أقيم هناك مع النزلاء، ولاشك أن سائق السيارة سوف يمتثل، وقد يسأل بعض أسئلة الفضول عن سبب إقامتي في مصحة سيدي بوجيدة، نفس المكان الذي أعمل فيه.

فلأنم، ولأعِدّ مع نفسي ما يمكن أن أحكيه عن الناس أين يعيشون، وماذا يأكلون، وأية لياقة ولباقة بها يتصرفون.

خلال خروجي من القاعة اتجهت نحو الحديقة، وهي متاهة خفت أن أضيع فيها، فسرت الهوينا أتجشأ تلك الغازات وأضرط حاشاكم، ضراطا طويلا بما أصاب معدتي من الغازات. لكني رأيت فيما يشبه الظلام، وفي طرف الحديقة، جمالا تنوخ، وهي تخرج ألسنتها التي بدت لي وكأن الشوك ينبت فيها، وقد بدت وهي تلوك ألسنتها، كأنها منها تقتات، فلم تكن تجتر، بل كانت تأكل من ألسنتها، أو منها تحلب ريقا بعد عطش في هذه الصحراء.

تذكرت ذلك المثل الذي ظللت أسمعه ومنذ طفولتي عن الجمل، فهو بلسانه يرضع من الأشواك. لكني رأيت الأشواك تنبت في ألسنة الجمال، لا وهي تقتات منها.

صرخت وقلت:

ــ الجمال ستموت من العطش.

وفي الحين وجدت أمامي عددا من الرجال الظرفاء اللطفاء، المبتسمين، فسألني أحدهم:

ــ مولاي. هل نسقيها من الكوكاكولا؟ لقد أوردناها فوردت من الماء ولكن يبدو أنها تريد الكوكاكولا.

وأعجبتني كلمة مولاي التي لم يسبق أن ناداني بها أحد. لكني خجلت من نفسي، وحسبت أن الرجال قد خلطوا بيني أنا عبد الرحيم الأزرق الممرض في المصحة العقلية بحي سيدي بوجيدة بفاس وبين أمير أو ملك يأتي من زمان غير الزمان، من كل الزمان، وأصابتني الرهبة وحيث حسبت نفسي قد تشبهت لهم بملك أو أمير قد تكون لهم معه عداوة فيفعلونها بي على حين غرة، وأردت أن أوضح أنني. . . أنني أنا. . . وقبل أن أوضح قال أحد

أولائك الخدم الذين يرتدون السموكين والبابيون وكأنهم عرسان في ليلة عرسهم:

ــ مولاي. الجمال لا تشكو من عطش حقيقي، ولكنها تحتاج إلى النشوة.

قلت له:

ــ أنا مولاك؟ لماذا تنادونني مولاي؟

فضحك وقال:

ــ مولاي عبد الرحيم. قلت لك آ مولاي عبد الرحيم الجمال تحتاج إلى النشوة.

قلت:

ــ أعطوها ما ننتشي به.

ووردت على ذهني الأغنية، فغنيت منها:

مولاي وروحي في يده

قد ضيعها سلمت يده

فصفقوا تصفيقا حارا، وجاء منهم من وضع على رأسي طربوشا أحمر كذلك الذي كان محمد عبد الوهاب يضعه على رأسه في الأيام الخوالي، ولكني تخلصت من الموقف بالتظاهر برغبة في التجول في الحديقة، فابتعدوا، ولما مشيت سرت أتجشأ وأضرط، أضرط ضراطا طويلا، فخشيت أن يكون هناك من يراقبني، وبعد تجول وسط الأغراس والأضواء المنبثة من بينها قررت العودة إلى القاعة التي تعقد فيها السهرة، لكني خفت أن تكون تلك السهرة تعقد في الصحراء.

قلت لنفسي وأنا في الطريق إلى تلك القاعة هي الحياة كما هي أو كما نراها، كما نتخيلها أو كما نحياها، وفي الحالتين فهي قصيرة إذا ما عددناها بأعمار الأفراد، طويلة وطويلة جدا إذا ما عددناها بأعمار الأماكن والتواريخ،

فلا يحسبن أحد أنه هو أول من جاء إلى هذه الدنيا ولا عليه أن يظن أنه آخر من أتى، فذلك غرور، وحتى من امتلكوا مال قارون، أو تاجروا في الأخشاب والسفن والأسلحة، فهم يعيشون وقتا ويذهبون، وأهل الكهف، أليسوا معجزة تؤدي بنا إلى حكمة حول حياة وموت الإنسان، فالموت هو ما تنتهي به الأعمار، ورغم الموت في الحياة، وموت الإنسان، فالأشجار تنمو في الصحراء بخضرتها وحيث لا ماء إلا ماء هو الدليل على البقاء، وحيث الجمال نفسها تصبر حتى تستدل على الواحات ومنابع الماء.

مسحت حذائي في طنفس عند مدخل القاعة حتى لا أوسخ الزرابي بتراب الحديقة أو ببلل من ماء السقي قد يكون عالقا بحذائي.

ولما دخلت القاعة تجاهلوني تماما وكانوا يخوضون في أحاديث هامسة ووجوههم حالمة مستبشرة، يمسحون بأيديهم على رؤوسهم الحليقة الشعر، ويبتسمون للفراغ.

بتجاهلهم لي أحسست أنهم يعاملونني وكأني ضيف موقر، أو وكأنهم يمنحونني من الحرية ما أتصرف به في المكان، وحيث أخرج من القاعة، وأجول في الحديقة، ومنها أذهب إلى الصحراء، ثم أعود من الصحراء إلى الحديقة متى شئت للجلوس وفي المكان الذي يريحني، ولأشرب مزيدا من زجاجات الكوكاكولا الموضوعة فوق مائدة خاصة هي مائدتي.

قلت أنا عبد الرحيم، الرجل التقليدي، المحافظ، الآن يتحرر، ويغني أغنية نبعت من القلب هي أغنية لمحمد عبد الوهاب، ويعيش حياة جديدة، أو على الأقل، يرى الناس وهم يعيشونها، باللباس، وطريقة قص الشعر أو حلقه تماما لتظهر الرؤوس كبطيخات كبيرة، وبما يتناولونه من تلك الصحون، من فواكه لا أعرفها ولم يسبق لي أن رأيتها، ومن لحوم وأسماك غريبة علي، ومن أجبان وسلاطات.

تذوقت من أذواق تلك الأطعمة، وعببت من الكوكاكولا. وبعد أن استقر بي الجلوس اتجه أحدهم نحوي وقال لي:

ـ هل اطمأن خاطرك على الجمال؟

ارتبكت وأحسست وكأنهم كانوا يراقبون تصرفاتي. وقال أحدهم:

ـ الجمال بخير يا مولاي، وخاطركم هو الذي ينبغي أن نجعله يطمئن.

ضحكوا. وقلت له:

ـ لا تعد إلى مناداتي بمولاي، فهذا النداء لا يليق إلا بالملوك المبجلين، فلا تحرجني بنداء لا أستحقه.

قال لي واحد منهم:

ـ غناؤك كان رقيقا.

وقال آخر:

ـ مولاي عبد الرحيم، أنت تصلح لأن تكون وزيرا. فأية وزارة تناسبك لتخدم بها البلاد والعباد؟

قلت:

ـ وزير ؟ أنا ؟ في أية حكومة؟

قال أحدهم:

ـ لا يهم ذلك. قل لنا أية وزارة تناسبك؟

قلت:

ـ وزارة الصيد. الصيد البحري والبري والجوي.

قال أحدهم:

ـ ولماذا اخترت هذه الوزارة؟

قلت:

ـ هي قصبة، وفخ، نصطاد بهما من البحر والبر والجو.

ـ مجرد قصبة، ونصطاد بها من البحر؟

قلت بثقة عمياء:

ـ هي قصبة، ولكن يربط بها خيط، والخط فيه شص، والشص به طعم، والطعم هو المهم، فبه نصطاد.

ـ والفخاخ؟

ـ نضعها في كل البر، لنسيطر على حركة الطيور الطائرة في الجو.

بدا أحدهم غاضبا وقال:

ـ لا. لا. الأسماك والطيور ليست غافلة إلى هذا الحد. أنت لا تصلح لهذه الوزارة.

تغيرت سحناتهم فحسبتهم من تجار المخدرات، وأنهم يقلدون جلسات ملوكية أو يصنعونها بأنفسهم ليقلدوا بها جلسات ملوك ألف ليلة وليلة، أو ليلة في ألف ليلة، أو ألف ليلة في ليلة واحدة، ولكنهم بدوا لي خائفين من الليلة التي تأتي بعد الألف، فهي التي سوف يقع فيها ما سيقع. هم الأباطرة إذن، ربما، أو هم يشبهون الأباطرة حتى وإن لم يكونوا، فخفت على نفسي، فقلت:

ـ أنا خادم البلاد والعباد. أما كفاكم أنني أخدم المرضى في المصحة العقلية؟

وابتسموا فأحسست أن تواضعي قد أعجبهم.

وقال لي أحدهم:

ـ وزير الجِمال. تكون حاملا لشعار الجمل، وتدافع عنه في المعمور، في كل الأرض. الجمل صبور والصبر مفتاح الفرج، وأنت آمولاي عبد الرحيم عطوف على الجمال، فعليك أن تتدبر أمر وزارة تعنى بالجمل، وتدعو الباحثين العالميين والخبراء بشؤون البيئة ومربي الجمال لندوات حول شؤون الجمل.

قلت:

ـ لكنني لم أر جملا يشرب الكوكاكولا.

قال أحدهم:

ـ تراه. فهو سيشربها. وهذا أمر ممكن. وإن أردت أن تراه يشرب الفودكا على الطريقة الروسية، كأس منها غير ممزوجة، وكأس بعدها من مونادا بطعم البرتقال فسيشربها.

وأحنيت رأسي وأنا أتذكر مصطفى التواتي، النزيل عندنا في المصحة، فقد كان يقول كلاما مثل هذا الكلام، ولكنه كان يتحدث عن شرب الأسئلة. مسكين. هل الأسئلة تُشرب؟

تناسوني أو نسوني فغرقوا في ذلك التهامس، وفي الرشف من تلك الأكواب الكبيرة.

منصور الرياحي

لكني تذكرت ميراي، والأميرة، وسوق النخاسة والنوم بين بابين، ثم تذكرت أيضا لالة شمس الضحى، وسيدي هدي، ومرضية بنت الشعط، وتذكرت منصور الرياحي، وهو مريض عندنا في المصحة، قسا عليه أهله، وكتفوه بالحبال على سلم خشبي أوقفوه في باحة الدار، فكان الرجل ينام ويأكل ويبول حاشاكم، ويفعل ذلك الشيء الكبير، وهو مكتوف اليدين والرجلين مع سلم، واقف ولذلك سميته من قليل المزاح منصور الواقف، وكل ما كان يفعله أهله هو أنهم من حين لأخر يرشون الماء على وسطه بواسطة خرطوم للمياه، ويرشون عليه من مبيدات للحشرات من قبيل فليطوكس، فكان يكاد يختنق، وأما الأكل فكانوا يطعمونه وهم يصعدون معه السلم، ويضعون الطعام في فمه، فأحيانا يأكل من أيديهم وأحيانا كان يبصق الطعام من فمه في وجوههم، فلا يد له يمكن أن يتناول بها الطعام، لأنه مكتوف اليدين.

تذكرته الآن، وسأراه فهو ما يزال في المصحة، لأنه يقول لا يمكن أن أمد يدي ليد قاتلي.

والدكتور جاكار عرض على منصور عدة أشرطة في قاعة خاصة، وما كان العرض ينتهي قبل أن يأمر الدكتور جاكار بحقنة المورفين.

الدماء ما تزال تنزف.

قلتها في ذهني وأنا شارد فقال لي ذلك الذي عينني وزيرا على الجمال:

ـ آ السي عبد الرحيم، أية دماء؟

فقلت:

ـ هل يمد الإنسان يده ليد قاتله، حتى في مؤتمر للسلام؟

وابتسم وقال لي:

ـ حتى الآخر يفكر بنفس الطريقة. الدماء ما تزال تنزف، ولكن كيف توقف النزيف؟

قال أحدهم:

ـ بالمصالحة والتطبيع مع إسرائيل.

وقال آخر:

ـ بمحو إسرائيل من خريطة الشرق الأوسط.

وقال ثالث:

ـ بالعمليات الإستشهادية، وحيث لا يرتاح إسرائيلي واحد في ليلته على فراش النوم، وحتى يركعوا للحوار، وبشروطنا.

وقال رابع:

ـ إنهم يمارسون الحصار علينا.

وقال خامس:

ـ ونحن سوف نخترق الحصار.

رأيت أولائك الشباب وقد تحولوا إلى فصائل فلسطينية متناحرة، وحتى ملابسهم تغيرت، كما تغير المكان فوجدت نفسي في قاعة فسيحة كتبت الشعارات بالأحمر على جدرانها وعلقت على الجدران صور لعرفات وأخرى للشيخ ياسين ومريد البرغوثي وشهداء صبرا وشاتيلا وشهداء كل المراحل، وعجبت أين أنا، وماذا علي أن أفعل، فهل أنا في فلسطين المحتلة، أم في أرضي السلطة الفلسطينية التي تحتلها إسرائيل يوما بعد آخر ثم تعود لتخرج منها، وهل اتسعت تلك الفيلا لتشمل الصحراء، وهل أنا في جزيرة العرب، أم في بلاد الرافدين، أم في الهلال الخصيب؟

ساعتها قال لي أحد الشبان:

ـ وزير لا. خطتك لتسيير وزارة الصيد في البر والبحر والجو تتعارض مع وزارات أخرى.

وقال آخر:

ـ أنا أيضا لا أرى فيه وزيرا للجمال، وزارة يمكن أن نستحدثها ولكن هل مولاي عبد الرحيم قدم لنا من البرامج ما تدافع به الحكومة عن استحداث هذه الوزارة؟ وهل نضحي بمشروع وزير المالية الذي يعترض، من أجل زرقة عيون مولاي عبد الرحيم الأزرق؟

وقال آخر:

ـ واتتني فكرة. البارحة كنت مع ميراي. واتتني فكرة.

وقال لي:

ـ أنت تصلح لأن تكون سفيرا للمغرب لدى دولة إسرائيل.

ميراي؟ أنا نسيتها ولكني لم أنس إسرائيل. ميراي؟ كان معها البارحة؟ أين؟حسبت أن عنقي الآن سوف يقطعه حبل بتار وأن الأوردة والشرايين سوف تنزف.

قال لي نفس ذلك الصفيق الذي قال إنه كان البارحة مع ميراي:

ـ هل ترفض؟لماذا؟

عرفت أنه يعرف ما أفكر فيه، وقلت:

ـ لا أبدا. لا أقبل ولا أرفض. خذ ميراي يا حبيبي لتدخل معها إلى المقبرة اليهودية، وعلى رأسك طاقية أخيها عزرا.

قال:

ـ هل تغار عليها؟ أنت آ مولاي عبد الرحيم لم تتخلص من الذكريات بعد.

قلت:

ـ أنا سفير؟ سفير لدى دولة إسرائيل؟ أبدا.

قال:

ـ ومالك أبوك؟ قواد. يلعن دينك.السفراء كلهم يعينون.

قلت:

ـ أنا لا أعرف دينك، ودين أبيك، ومن أين جئت إلى هذا البلد. أعرف مكر اليهود واحتلال النصارى ولكني لا أعرف مسلمين مثلك.

ضحك وقال:

ـ نعرف أنك تصلي الأوقات الخمس في جامع الأندلس، ولكنك تشرب الكثير من زجاجات الكوكاكولا، ووضوءك ينتقض من لحظة لأخرى بسبب الضراط.

ارتبكت ولذت بالصمت، فقال آخر:

ـ قلنا لك سفير للمغرب في دولة إسرائيل.

قلت:

ـ يا كلاب. يا أوغاد. من أنتم؟

ضحكوا وقال أحدهم:

ـ ألم تعرفنا بعد:

قلت:

ـ حشاشون أباطرة؟ مخابرات؟ تجار سياسة؟ عندنا من كل هذه الأصناف في المصحة العقلية نزلاء يبزونكم في كل هذا؟

ضحكوا وقال أحدهم:

ـ وأين نحن الآن؟

قلت:

ـ بل أين أنا ؟ أنا معتقل لديكم، وأريد أن أذهب إلى حال سبيلي.

قال أحدهم:

ـ وقبل أن تبدأ السهرة؟

قلت:

ـ هل السهرة لم تبدأ بعد؟

ضحك أحدهم وقال:

ـ أنت لا تفطن للوقت، وكفاك من الضراط وشرب زجاجات الكوكاكولا، لأن هذا لا يليق بسفير.

قلت:

ـ سفير؟إنني لا أجد مانعا في مصافحة إسرائيلي، ولكن تحت راية الأمم المتحدة. وإن كان على السفارة فأنا أحب أن أكون سفيرا للمغرب لدى دولة فلسطين.

ضحكوا جميعا. وقال أعلاهم صوتا في الضحك:

ـ لا. الجمال لا. وزير الصيد البحري والبري والجوي لا. لقد أثبت جدارته لأن يكون هو السفير.

قال آخر:

ـ سفير ولكن أين ؟

وقال ثالث:

ـ أين ؟ تلك هي المشكلة.

الأعداء

شربت زجاجة كوكاكولا أخرى ونظرت إلى السقوف والثريات بأضوائها الساطعة، وقلت لهم في سري لو صبرتم علي وقتا للتأمل لعرفت من أنتم، ولو عرفت من أنتم لعرفت كيف أخاطبكم، وعلى الأقل لحصلت على اطمئنان منكم بأنني سوف أقضي معكم هذه السهرة وسأعود إلى بيتي.

وقال لي واحد منهم:

ـ حدثنا آ مولاي عبد الرحيم عن أعدائك.

وقال آخر:

ـ نعرف أنك لم تختر أن يكون لك أعداء، ولكن وقد صار لك أعداء فلاشك أنك قد أخطأت في أمر ما.

وقال آخر:

ـ هل تستطيع أن تقدر هذا الخطأ؟

فذهبت نحو حياتي كلها، من الطفولة والأتراب في المدرسة، وإلى زواجي من مريم، وإلى الأصهار والجيران والزملاء في المصحة، ثم قلت:

ـ لا أستطيع. وأحيانا يختار الأعداء أن يكونوا لنا أعداء لأسباب نجهلها، ولو أوضحوها لنا لكنا قد دافعنا عن أنفسنا لتظهر أسبابهم الواهية.

فقال لي أحدهم:

ـ نريد مثالا على ذلك.

قلت:

ـــ خذ مثال الحلاقين والجزارين مثلا، فأنت تكون قد تعودت على الحلاقة عند حلاق يرتاح إليه شعرك، وعندما تغيره إما لكثرة الزحام عليه، أو لأن محله بدأ يرتاده أناس لا ترتاح إلى ثرثراتهم، فهو يصبح عدوا لك، وإذا تكرر ذلك في حياتك مع حلاقين كثيرين فتجد أن لك جيشا من الأعداء.

ضحكوا.

ـــ جيش من الحلاقين كلهم أعداء؟

أكدت ذلك بثقة. وقال أحدهم:

ـــ والجزارون؟

قلت:

ـــ يكون الإنسان قد تعود على التعامل مع جزار معين، وربما يكون على محله الإقبال، بينما الجزارون الآخرون يشحذون سكاكينهم ولا أحد يقف أمام محلاتهم، فهم كلهم أعداء لأولائك الزبناء.

ـــ لديك تجربة. لكنهم أعداء اختاروك ولم تختر عداوتهم.

ـــ هذا أكيد. فأنا لا أحب أن يكون لي أعداء.

ـــ وإسرائيل؟ هل تعني أن هذا هو وضعك الشخصي، أم أنه وضع العرب مع إسرائيل؟

قلت:

ـــ أنا لا أحب أحشر علاقة العداء بين العرب وإسرائيل في هذا الحديث.

قال أحدهم:

ـــ أعرف، فأنت تميز بين الدين والعرق وبين حروب السياسة.

عببت من كوب الكوكاكولا، وقلت:

ـــ المسألة ليست دينية أو طائفية، بل هي إسرائيل، كلها، شوكة زرعها الغرب في حلوقنا نحن العرب، كما هي حلوق وألسنة تلك الجمال.

ضحك أحدهم وقال:

ـ الجمال. أنت مشغول بالجمال. ولكن في صميم الموضوع، وأنا في سن ابنك عبد الغني، أحب أن ترفع الكلفة بيننا، وتحدثنا عن حياتك كلها، من البداية وإلى الآن. هل تبدأ؟ إذا لم نبدأ الآن فنحن سنبدأ.

الشريط المصور يظهر كل اللحظات

قال لي أحد الشبان الجالسين في تلك السهرة نفسها:

ـ مولاي. مولاي عبد الرحيم. أنت شارد منذ نصف ساعة.

قلت:

ـ وهل يحاسب أحد على شروده؟

قال:

ـ لكنك يا مولاي شردت منذ أن سألناك عن ميراي.

ـ هي ذكريات موجعة.

ـ وهل ذهبت معها إلى باريس فأصبحت هناك عميلا لإسرائيل، حتى وأنت لا تدري كما تقول؟

أصابني الذهول. قلت إنه محشش أو سكران ولكن كيف عرف ما كنت أفكر فيه؟

عدت أعب من زجاجات الكوكاكولا حتى إنني شربت ثلاثا منها في وقت وجيز وهم يتابعون حركاتي الملهوفة في الشرب، وظلوا هم أنفسهم يشربون من كؤوسهم، ويأكلون بنهم مما يوضع أمامهم من أطعمة، هي التي كنت قد أشرت للخادم بألا يقدم لي شيئا منها. كيف عرف؟ هل حياتي وأفكاري صارت مكشوفة أمامهم؟ أهؤلاء هم من حسبتهم من تجار المخدرات، أباطرتها أقصد، أم هو المرضى في المصحة العقلية، وقد نقصت حاجتهم إلى المورفين؟

إذا كانوا ذئابا فأنا كلب، وإن كانوا أسودا فأنا نمر، وإن كانوا خفافيش فأنا قط، وإن كانوا عناكب فأنا من لا يترك لهم خيوطا غير خيط واحد عليه يتحركون.

في تلك اللحظة، ضحكوا، وقال لي أحدهم أنا ثعبان، وقال الآخر أنا ابن آوي، وقال ثالث أنا. . .

قررت أن آخذ كل ذلك على سبيل المزاح، ولمت نفسي لكوني كنت جادا عندما اقترحوا علي منصب سفير للمغرب في إسرائيل فاعترضت وطلبت منصب سفير في دولة فلسطين. وأنا دائما هكذا. سبحان الله. طبعي جاد وعندما يمازحني أحد آخذ مزاحه بجد. هل كان علي أن أتحدث مع شبان سكارى محششين في أمور جادة سواء أكانت تخص حياتي أو تخص حياة الشعوب والدول؟

قال لي أحدهم:

ـــ لا تلم نفسك على شيء يا مولاي. مولاي عبد الرحيم الأزرق.

قلت:

ـــ وحتى لو لمتها، فماذا سيتغير؟

قال آخر:

ـــ لن يتغير شيء. الشريط موجود وهو يثبت كل الحقائق.

قلت:

ـــ أي شريط ؟

قال:

ـــ الشريط الذي يصور حياتك. هل ترغب في أن ترى ميراي. وهل تريد أن ترى عبد الغني ولدك وهو صبي وأنت ترضعه من القارورة، وتُجَشِّئه؟

قال آخر:

ــ فيه يظهر عبد الرحيم الصغير وهو أقرع.

ضحكوا. وقال آخر:

ــ يداوي رأسه من القرع، وأمه تأخذه إلى السبيطار، والممرض الفرنسي يمسك بتلك الخشيبة ويكشط بها من ذهن أصفر يوجد في سطل معدني ثم يمرر المرهم بالخُشَيْبَة على رأسه، ويلقي بالخشيبة في طست.

تذكرت اللحظة. ولكن أين هو الشريط؟ ومتى رأوه؟ وهل رأوه وأنا أجول في الحديقة وأرى الجمال؟

وقال لي أحدهم:

ــ رأيناك تباع في سوق النخاسة، ولو كان بإمكاننا أن نحضر إلى هناك لكنا قد اشتريناك بشنطة من الدولار، ولكن ميراي هي التي اشترينا بعشرين شنطة من الدولار.

قلت:

ــ اشترتكم؟ في سوق نخاسة؟ عبيد؟ أنجاس؟ مناكيد؟

قال:

ــ لم نكن نعلم، ولكن الموساد. . .

أشار إليه أحدهم ليتوقف عن الكلام، ونهض من مكانه وأدخل الشريط في جهاز الفيديو، وضغط على الزر.

ما الذي سأراه؟ أحقا سأرى حياتي كلها في الشريط؟ رجال خطرون يتوفرون على كل لحظات حياتي كما يقولون، فهم ليسوا أباطرة مخدرات، ولكنهم المحققون، والضابط مصطفى التواتي موجود، على رأسهم. إذن سيبدأ التعذيب، ولو بالصور، ومقابلتها مع ما أنا عليه الآن.

لكن أحدهم نهض من مكانه وعاد يضغط على الزر فأخرج الشريط وقال لصاحبه:

ـ لا ليس الآن. عبد الرحيم سيجن، وساعتها سيصبح واحدا من المجانين في مصحة سيدي بوجيدة.

وقال آخر وهو يتدخل:

ـ لا. الشريط وثيقة سرية، فميراي الآن هي مديرة مكتب الاتصال الإسرائيلي بالرباط. وجعجع بن خعخع، مولاي الخرا والبول، مولاي عبد الرحيم لا يدري.

وقال آخر:

ـ بداية الحفل قريبة، ولا وقت لرؤية الشريط من جديد.

شتائم عبد الرحيم

نهضت وسط تلك القاعة الباهرة بالأضواء، وفي يدي زجاجة كوكاكولا نصف ممتلئة، وقلت لهم يا كلاب، يا أوغاد، يا عبيد يا أنجاس يا مناكيد. ولكن لا. أنتم هررة صغيرة سوف تأكلهن أمهاتهن القطط. أنا سأنادي الدكتور جاكار ليأمرني بأن أحقنكم جميعا بالمورفين، ثعابين. بنات آوى. حقنة لكل ثعبان، وأخرى لكل ابن آوى، وثالثة ل . . . لحيوان يختار أي حيوان يكون، وساعتها سترتاحون، وتصبحون هادئين طيعين، وأنا سأفتح الشريط في جهاز الفيديو لأرى عصاباتكم وهي تهرب المخدرات، وأنتم يا كلاب تذهبون بالكيف وتعودون بالكوكايين، مقايضة يا كلاب، وحقائب الدولار تغطي من الأرض إلى السقف، فحتى خزائن الدولة لا تتوفر على هذا المال. بعوض وتفعلون كل هذا؟ البعوض يصير إمبراطورا؟ سحقا لآبائكم وأمهاتكم والذين أغمضوا عيونهم عليكم حتى تحكمتم في الدرك والقضاء وفي الديوانة وفي البر والبحر.

صفقوا جميعا، ونهضوا واقفين يقتربون مني لمعانقتي واحدا بعد الآخر.

وقال لي أحدهم:

ـ والله أنت ابن الشعب الغيور.

وقال آخر:

ـ الغيور الوحيد.

وقال ثالث:

ـ غيور ولكن تلزمنا مكافأته على هذه الغيرة بشنطة دولار.

وقال رابع وهو يعانقني ويقبلني على مضض:

ـ السهرة نبدأ الآن.

راقصات لا حصر لهن

فجأةً دخلتِ القاعةَ بنات كثيرات غلاميات، دخلت بعدهن بنات يرتدين القفاطين المشدودة في الوسط بمضمات من ذهب عرضها عشرون سنتيمترا وشعورهن مصبوغة بصباغة شقراء أو سوداء أو صفراء، وكانت من بينهن الرشيقات وذوات الأرداف الثقيلة، المبالغات في الماكياج اللواتي ظهرت شفاههن زرقاء كأظلاف التين الشوكي والخفيفات التجميل اللواتي بدت عليهن الشيخوخة وهن في الشباب،.

ومع ظهورهن فاحت روائح العطور، وذاعت الموسيقى في القاعة من غير جوق فاهتزت أركانها وبدأت الراقصات يرسلن شعورهن إلى أمام وخلف، ويعرين أثداءهن ليرقصنها ترقيصا، ويحركن عجائزهن تحريكا ثم يتوقفن عن ذلك التحريك مبتسمات للفراغ، وحيث تتوقف الموسيقى فهن يبتسمن لي جميعا، ويغمزن، فلما أنظر ناحية الشبان أجدهم متجهمين، وأردت أن أذهب، فهذا الجو لم يعجبني.نهضت وقلت:

ـ تصبحون على خير. أنا ذاهب.

فقال لي أحدهم:

ــ إلى أين؟

فقلت:

ــ إلى حال سبيلي.

وضحك أحدهم وقال:

ــ ألا تقبل أن تعيش معنا السهرة؟

قلت:

ــ أعيشها ولكن بدون عرب ولا إسرائيل.

ــ لماذا؟

ــ لأن الحسين بن علي لما صالح معاوية جاء من قال له: يا عار المسلمين. فقال العار خير من النار.

ــ لكن معاوية قتل الحسين.

ــ قتله فمات شهيدا.

ــ أنت تدافع عن أنور السادات.

ــ أنا ضعيف ولا يمكن أن أستمد القوة من حمقى يقيمون في المصحة العقلية.

ــ لكنك قوي بزجاجات الكوكاكولا.

ــ لو لم أجدها لما شربتها.

تجشأت تلك الغازات التي كنت قد شربتها مع العشرات من زجاجات الكوكاكولا، وضرطت ضراطا طويلا حتى معه ومع صوته ظل بطني منتفخا، وقلت لهم:

ــ يا أوغاد يا كلاب هؤلاء عاهرات مكتريات للرقص ولكل شيء. يا أوغاد يا كلاب لدينا في المصحة العقلية أناس أفضل منكم.

فقاطعني أحدهم وقال:

ــ أفضل منا ؟ أنت تفاضل بين الناس؟

واحتد وآخر وقال:

ــ إن لم أجعل دين أمك قزما فأنا لست . . .

فنهضت غاضبا واقتربت منه وقلت:

ــ وأنا إن لم أجعل دين أمك تنام بين بابين، طوال عمرك، فلا أب لك سوف ينقذك، فأنا لست عبد الرحيم.

وتحداني للمبارزة، وفي تلك اللحظة أخرج من وسطه مسدسا ألقاه على الأرض ثم قال لي:

ــ لا تخف. لن أضربك بالرصاص. المسدس هاهو. تعال لضربة على اليمين، وأخرى على الشمال.

فنهضت لمبارزته لكنه ابتسم وفتح ذراعيه وعانقني وقال:

ــ برافو السي عبد الرحيم. لقد غلبتني قبل أن نبدأ.

ثم كان هناك منهم من أعطى الإشارة للموسيقى، وللراقصات، فبدأ الرقص، وجاءت الراقصات فحملنني ورقصنني فوق أصابعهن، ترقيصا خف فيه الفراغ فأصبحت أنا الفراغ، وبين أصابعهن وأنا مرفوع في الأعلى أغشت عيني الأضواء فطلبت زجاجة كوكاكولا شربتها دفعة واحدة ثم ضرطت طراطا طويلا توالى لوقت طويل فاسترحت لذلك بعض الشيء، ولما نظرت إلى الراقصات كن في تحت وأنا في فوق محمولا فوق أصابعهن، ولما خفضنني رأيت نفسي وقد صرت أنا عبد الرحيم الأزرق ذلك القزم.

الفصل السابع

[باب في الأيام البيضاء والأيام السوداء
التي عاشتها المصحة العقلية،
وفيه نعرف هل عبد الرحيم الأزرق قزم
أم أن المصحة كلها حومة للأقزام]

أسد يضاجع غزالا

مرة قال لي نزيل في المصحة اسمه السي هدي انظر، ألا تراه؟ أنا أرى أسدا يضاجع غزالة بدل أن يفترسها، وستلد الغزالة غزالا على هيئة أسد، يكبر ويسير في الغابة بين الحيوانات، والأسد ابن الغزالة يتذكر اللحظة التي التقى فيها والده الأسد بأمه الغزالة، والحيوانات كلها تنظر إليه نظرة شك، تختبر طباعه فهل سيكون وديعا كأمه الغزالة أم سيكون متوحشا كأبيه.

السي هدي هو الذي كان يحدثني عن الغابة، وهو يضحك، ويقول إنها غابة كبيرة، فيها أسود وغزلان، وفيها ضباع وذئاب، وفيها الصيادون.

قلت له:

ـ آ السي هدي ماذا يصطاد الصيادون في الغابة؟

فضحك وقال:

ـ يصطادوننا أنا وأنت آ السي عبد الرحيم.

فضحكت وقلت له:

ـ ولكن أنا وأنت لسنا حيوانات.

قال وقد بدا عليه الغضب:

ـ قلت لك يصطادوننا.

قلت وأنا أصطنع الهدوء:

ـ كيف يصطادوننا ونحن لسنا حيوانات، ولسنا في غابة؟

فزاد غضبه وقال:

ـ لسنا حيوانات؟ ألست أنت هو الذئب الأكبر؟ وهذه الغابة ألا ترى ما يحدث فيها بالليل والنهار؟ أنا خائف.

وانكمش، وبدت عليه رعشة خوف، وأخذ يحاول أن يحتمي بمكان تحت السور، فاقتربت منه وقلت له:

ـ إذا كنت أنا هو الذئب الأكبر، فما أنت ؟

قال وهو يرتعد من الخوف:

ـ أنا القنفذ. قنفذ ولكن أشواكي ملساء.

قلت:

ـ وذلك الأسد هل صار غزالا أم ذلك الغزال صار أسدا؟

قال:

ـ هما شيء واحد. وكلاهما لم يصر شيئا.

رأيت نفسي وقد صرت ذئبا، فأخذت أعوي، وأحسست بضراوة الذئب وخبثه ساعة يستبد به الجوع، فلا دجاج ولا زرائب، ولا معزة يمكن أن أفتك بها، وظلت عيناي ذئبيتان، حتى جاء الدكتور جاكار فقال لي:

ـ مسيو عبد الرحيم، ماذا يقع؟

قلت له:

ـ حقنة مورفين للمسيو هدي.

فقال لي:

ـ هل صار أسدا؟

قلت:

ـ لا. ولكنه جعلني ذئبا.

قال الدكتور جاكار:

ـ الحقنة لك أنت في هذه المرة، أيها الذئب.

ضحكت وقلت له:

ـ هاتها أيها القرد العجوز.

فقال:

ـ أنت من سيحقن بها نفسه.

ثم في يوم آخر وجدت السي هدي في الساحة وهو يبتعد عن المرضى وينزوي في مكان بعيد لوحده، فقبلت وجنتيه وتبادل معي نفس القبل، فجلست على الأرض الغبراء بجواره، ولما نظرنا إلى عيون بعضنا بكينا بكاء حارقا وبعد أن كفكفنا دموعنا قال لي:

ـ هل تتذكر ذلك الأسد؟ إنه اليوم يفترس الغزال، ولكنه في الغد سيكون أسيرا داخل قفص قضبانه من حديد، والدمع يتهاوى من عينيه، لكن منظره مضحك.

وأخذ يضحك حتى دمعت عيناه، فضحكت، وجاء المسيو جاكار يطلب منا أن نخبره عن سبب ضحكنا.

أسير في الطريق وحيدا وأنا أضحك

حالما رآني النزلاء أضحك فقد شاركوني في الضحك، من غير أن يعرف أحد لماذا أضحك، وما الذي أراه مضحكا، فقد كان كل منا يضحك لما يراه، ولكن المشاركة في الضحك كانت تستعدي مجيء الصور المتناقضة الغريبة، الداعية إلى الضحك وحتى القهقهة، فقد كنت أقهقه وأنا في الطريق أسير وحيدا فأرى في نظرات الناس شيئا من الاستغراب، وأحسبهم يقولون لأنفسهم ذاك هو عبد الرحيم الأزرق وقد خف عقله من طول معاشرته للمجانين في المارستان.

السيدة شمس الضحى المهندسة المعمارية

هؤلاء مجانين. قلت لهم إنها هي المسؤولة عن بناء مصحة عقلية كبيرة تتسع لكل هؤلاء المرضى فسخروا مني وقالوا هي مجنونة مثلنا، وتوجد معنا في نفس المصحة، والبارحة رأيناها تأكل من خرائها.

تلطفت معهم وقلت لهم يمكن، فهي شمس ضحى أخرى، شمس الضحى المريضة التي تقيم هنا منذ عشر سنوات أعرفها، وأنا كنت دائما أحقنها

بالمورفين لترتاح، أنا أتحدث عن شمس ضحى أخرى، وأنا نفسي زرت معها الورشة، ورشة مدينة كبيرة، دولة، قارة، أرض كبيرة يحب الجغرافيون أن يسموها اليابسة، في مقابل البحر، وقد اكتشفوها حديثا، والمهندسة شمس الضحى التي أحدثكم عنها هي التي تبني فوق تلك اليابسة، شيئا عجيبا وغريبا، صحيح أنها بنت الحرام في عينها حول فخدعتني ولم أتأكد من أنها كانت تغمز لي أم لا، ولكنها سوف تبني بناء عجيبا.

قال لي أحدهم:

ــ تلك التي تأكل من خرائها؟

فعدت أهدئ من ثورة نفسي وقلت له:

ــ لا. المهندسة المعمارية.

حق الكلام للجميع

كنا في جلسة في برنامج تلفزيوني، وأنا الضيف، وهم يحيطون بي، والمذيع المسكين السي عباس المرادي يقول كلاما غريبا، من قبيل، وحتى إذا ما . . . وإن . . . وفي نهاية التحليل ما هي الآفاق الممكنة ل . . . وعلينا أن نمحص في . . . لأن النظرة الواسعة للأمور ت . . . وعموما ف . . .

ولقد ضحكت وضحك أحد ضيوفي وهو السي هدي، وضحكت مريم، كما ضحك الضابط مصطفى التواتي، ورغم الضحك، والقهقهة، فمعد البرنامج السي المرادي شفاه الله ألح علي بالسؤال:

ــ السي عبد الرحيم الأزرق، هل أنت قزم؟ ما رأيك في الشائعة؟

لكزتني شمس الضحى بمرفقها وهي تنظر إلى مريم، ولكن مريم رأتها، فشمرت على ساعديها وقالت لعباس:

ــ هو زوجي السابق، وأنا أعرفه، فأنا أحق منه بالجواب.

وتأدب عباس وابتسم للكاميرا وللنظارة الكرام، وقال لها:

ـ تفضلي يا سيدتي.

قالت:

ـ هل تتذكرون الكومسير ثابت وما كان يفعله بالنساء؟

ارتبك السي عباس وقال لها بحدة:

ـ لا نريد أن نخرج عن الموضوع. مرة أخرى أعيد طرح السؤال: هل السي عبد الرحيم قزم؟

قالت:

ـ ليست هناك حرية للكلام في هذا البرنامج.

وبدا مصطفى التواتي وهو يهدئ العاملين معه في التحقيق بعد أن استشاط غضبهم، وطلب الكلمة، فأبدى نحوه السي عباس ابتسامة لطيفة، وقال:

ـ في الحقيقة أنا هو القزم.

اتجهت كل الأنظار نحوه، وبدا وكأنه يرمي بقنبلة إعلامية في البرنامج.

قال له السي عباس المرادي:

ـ تابع. تابع.

قال:

ـ لماذا أنا في مصحة عقلية؟

هتف الحاضرون:

ـ إنه يسيء إلى صحتنا العقلية، يعترف بأنه في مصحة عقلية، إذن، فنحن جميعا في المصحة. هذا الاعتراف يعنيه وحده، فنحن عقلاء، ومسؤولون، لكننا سننسحب من البرنامج.

وقال شارل برانسون:

ـ أنا هنا في هذه الحومة ومنذ أن ولدت. الضلوع أكسرها بقوة من الله.

وقال دراكولا:

ــ أنا لا أحب الدم. الضحايا هم من يأتون إلي.

وقال أحد الشبان الذين كانوا في تلك السهرة:

ــ قزم؟ يقول إننا من جعلناه قزما؟ نحن عيناه سفيرا لبدنا في دولة إسرائيل وهو لم يرغب في ذلك وقال يرغب في أن يكون سفيرا لبلدنا لدى دولة فلسطين.

وقال السي عبد الجبار:

ــ احترموا حقوق الإنسان، فأنا هنا في هذا البرنامج، ممثل لجمعية حقوقية تهتم ب . . . وترى أن . . . وتعمل من أجل . . .

فقاطعهم جميعا معد البرنامج السي عباس، وقال:

ــ لا بأس. نحن الآن نحفر في ذاكرة، نبحث في أركيولوجية. . . الشائعة لها دلالتها، وعلينا أن نحللها على ضوء العقل، وضوء الحقيقة.

وضحكت لالة خيرة وقالت بصوت عال:

ــ عنداك توصل لي. أنا شارفه. ما بقا لي قحوب. عنداك تقول قوادة. رانا نهرس السنان اديال يماك، أو نصغرك حتى ترجع قزم وندخلك فهاد الحفرة اللي فوسطي عمر يماك ما تخرج، ثمة نقج عليك.

وبعد لغط حاول السي عباس أن يسيطر على الموقف، وقال:

ــ الكلمة لضيف البرنامج السي عبد الرحيم. أعود مرة أخرى لأسال السي عبد الرحيم الأزرق، يعني، وإذا كان، فالمسألة تتطلب. . . وما هو الوجه الذي . . .

فانبرت له السيدة شمس الضحى وقالت:

ــ قل إنه ببساطة شائعة. شائعة على ألسنة الناس، والذي يجب أن يحاكم في هذا البرنامج، وأمام النظارة، هو القزم الحقيقي، الذي اعترف بأنه قزم، عميل السلطة في العهد البائد، عهد الاختطافات والتعذيب.

توجهت الأنظار نحو مصطفى التواتي، فبدا كأنه نائم، ورأسه يرتخي على كتفه، وكأنه قد استفاق من نومته، فقال:

ــ ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. بهذا القول الجميل المأثور كنت أرحم بالناس. لكنهم لم يرحموا بي.

قال شارل برانسون:

ــ الرحمة ! من في السماء ! من في الأرض! أنت كنت تجعل ضحاياك يعيشون في الظلام، وتمنعهم من البول وقضاء حاجتهم في المرحاض، كنت تبصق عليهم وتصف أمهاتهم بالقحاب، يا ولد القح . . .

وقال السي عبد الجبار:

ــ هو الآن تحت رحمة حقه كإنسان، فبالرغم من اعتقاله، فهو يتمتع بوضعية معتقل.

وصرخ أحد الشبان الذين كانوا في السهرة:

ــ وهل تمتعت أنا بتلك الوضعية، يوم لم يكن هناك تحقيق، بل كان هناك ابتزاز للاعترافات بواسطة التعذيب؟

نظر إليه السي عبد الجبار وقال:

ــ الأخ مناضل؟ أعني مناضل سابق؟

فرد عليه الشاب:

ــ مخدرات. مخدرات. ولكن أين هي الآن حتى أدوخ؟

وصرخت مريم:

ـ ولو كان عبد الرحيم قد رحم بي هل كنت سأهجره في الفراش؟ ولو كان الكومسير ثابت قد رحم بضحاياه من النساء هل كان سيعدم، ولو كانت الرحمة بفروج النساء هل كانت ستكون هناك عاهرة واحدة من مثل هؤلاء؟

وأشارت ببنانها إلى السيدات المحترمات الجالسات في البلاطوه. فعلا اللغط والاحتجاج، والضحك، فقالت:

ـ أنا سيدة محترمة، ولدي عبد الغني إطار للدولة، وابنتي بديعة في السعودية مع زوجها وهو إطار كبير، فماذا أنا أفعل هنا؟ أين هو عبد الرحيم.

وأمام الوجوم فقد قال لها عبد الرحيم:

ـ ها أنا.

نظرت إليه وإلى الكاميرا وقالت:

ـ لا. لا يمكن. ليس هو. إنه سوف يأتي ليحقنني بحقنة المورفين.

غصب المخبرون رجال مصطفى التواتي، وأخرجوا من تحت ثيابهم عصيا وأخذوا يضربون الحاضرين حتى فرقوهم.

أطباء مرضى

ظهرت في الصورة جماعة من الأطباء، كلهم على هيأة الدكتور جاكار، في أيديهم الغليون وعبق طابة الهولندية يفوح من حواليهم، وكانوا لم يرتدوا مريلاتهم البيضاء بعد، فهم يحملونها على أذرعهم.

تقدموا نحوي وأخذوا يفحصون جيوبي، فلم يجدوا فيها شيئا، وابتسموا لي فابتسمت لهم، وضحكوا فضحكت، وقهقهوا فقهقهت، ثم قال لي أحدهم:

ـ على ماذا تضحك وتقهقه؟

قلت:

ـ وأنتم على ماذا تضحكون وتقهقون؟

قال أحدهم:

ـ نضحك من منظر الأقزام.

قلت:

ـ أنتم ؟

قال أحدهم:

ـ نحن وأنت.

وقال لي آخر:

ـ جرب أن تتسلق ذلك السور.

قلت:

ـ نتسلقه جميعا.

قال أحدهم:

ـ نحن نأمرك بأن نفعل، فنحن أطباء في هذه المصحة وأنت مريض.

قلت لهم:

ـ أنا الطبيب وأنتم المرضى.

أصابهم الرعب، وانكمشوا وهم يدخلون في بعضهم حتى صاروا جسدا واحد بعدة رؤوس وأرجل، ولم تظهر لهم أياد أو أذرع، وأخذ ذلك الجسد يتراجع أمامي وأنا أتقدم، وفي العيون رعبها، وفي نظراتي من صرامة ما يجب أن يكون عليه الطبيب، حتى ابتسموا لي، فابتسمت لهم، وضحكوا، فضحكت، وقهقهوا، فقهقهت.

قال أحدهم:

ـ لسنا مرضى ولا أطباء.

قلت له:

ـ ومن أنتم؟

قال:

ــ نحن . . . نحن . . .

قلت:

ــ وماذا تفعلون هنا ؟

قال أحدهم:

ــ نشم الهواء. هل شم الهواء ممنوع؟

وقال آخر:

ــ ننتظر موعدا مع ميراي.

وقال ثالث:

ــ مريم هي التي أتت بنا إلى هنا.

وقال رابع:

ــ وأين كنت أنت عندما جاء رجال المطافئ بعباس المرادي؟

قلت:

ــ كنت هنا، وأنا من أزلت عنه ذلك اللباس الذي كان يكتف يديه. لم أزله عنه إلا بعد أن حقنته بحقنة المورفين.

قال خامس:

ــ لكنه يقول إنك أنت من أتى بك رجال المطافئ على تلك الحال، وهو من حقنك بالمورفين.

قلت:

ــ لم أعرف بعد من أنتم.

قال سادس:

ــ أنت أحمق. كيف ستعرف وأنت أحمق؟

قلت له:

ــ الحمق أنواع. هل أذكرها لك لتعرف أي نوع منها أنت مصاب به؟

قال:

ـ قل لنا فقط، أيها القزم، أي حمق جعلك ترانا أقزاما؟

قلت:

ـ هو حمق الأقزام الذين رأوني قزما مثلهم.

لقاء بين عبد الرحيم الأزرق وضابط الاستعلامات مصطفى التواتي في الساحة وجدت السي مصطفى ممددا على هيئة ميت، ولقد حسبته قد مات، فحركت يده ولم يتحرك، ثم رفست بطنه بقدمي فلم يترك، لكنه كان يتنفس، وحسبت أن ضربة شمس قد ضربته، فوجهه صار أحمر كالدم، وقررت إسعافه لكي لا يموت، لكن وأنا أفكر في الطريقة رأيته ينهض واقفا كما تقف الثعابين على أذنابها في الصحراء، فصار وجهه أزرق، وقال لي:

ـ السي عبد الرحيم، لمن سأوجه كل تلك الأسئلة؟

قلت له:

ـ وجهها لنفسك.

قال:

ـ وهل أشربها كما يشرب الروس الفودكا نارا في العروق فيبردونها بالموندادا؟

قلت له:

ـ اشربها كما تريد.

قال:

ـ هل تشربها معي؟

قلت له:

ـ أنا أحب الأجوبة بدون أسئلة.

صار له ذنب يقف عليه في وسط الساحة، لكن وجهه لم يكن لثعبان، بل لقنفذ، وكم كان جميلا وجهه، قرنفليا صار، ذا أنف رفيع ولكنه محاط بالأشواك. اقتربت منه وسألته عن الشائعات فقال هي الشائعات، وسحبت الأرض من تحت ذنبه الذي يقف عليه، فصار قزما، وبكى واستبكاني، وقال لي آ خويا آ السي عبد الرحيم علاش هاد الفتنة واقعة فالبلاد، فقلت هاك سؤالا وأعطني الجواب، تعلم مرة واحدة أ، تجيب عن سؤال واحد، فضحك وقال أنا أعرف سؤالك، لماذا نحن هنا في المصحة العقلية، هل نحن حمقى؟ وإذا كنا أقزاما بالفعل فيجب أن نكون في السيرك، قلت له أنت ما تزال مريضا بالأسئلة، ثم أعد الأرض إلى تحته فانتصب في الساحة واقفا على ذنبه كما يقف الثعبان في الصحراء.

تركته وذهبت إلى مراقبة النزلاء.

لقاء آخر بين عباس المرادي وعبد الرحيم الأزرق

عندما سألني عن المصور كنت له إنه هو والكاميرا في المرحاض. ثم سألني عن عدد الأيام التي استغرقها منه التحقيق حول الشائعة فقلت له إنها أيام طويلة، أيام سوداء أو بيضاء، لكنك لم تقضها في التحقيق بل قضيتها هنا في المصحة العقلية، قال والمصور؟ قلت له لا تخف عليه فهو هنا في المرحاض. قال والكاميرا؟ قلت هي معه في المرحاض فلا تخف عليها. وبدا وكأنه يشك في الموضوع، فقال لي اسمح لي آ السي عبد الرحيم، أنا أشعر بالدواخ، ولعلي في مكان غير مقر القناة التلفزيونية التي أعمل بها، فهل توضح لي هل أنا ما أزال في فاس، أقوم بذلك التحقيق، أم أنني ... إنني أشعر أنني... ومن حيث المكان فهو مكان للجميع، فمن الناحية الإبستيمولوجية، يعني، وإذا كان، فهناك منطق، ويجب أن ننظر إلى هذه المسائل بنظرة شمولية، و... يعني، السؤال ينبع من الواقع، فهل أنا قزم؟

أردت أن أجيب ولكنه قال لي أرجو ألا يكون جوابك هو حقنة المورفين، أريد جوابا واضحا، لا مواربة فيه، يعني، وإذا كان، فـ... وهل هناك بعد نظر ل... وهل تجليات الواقع هي التي تسمح لنا ب... ثم بكى فانهمرت الدموع من عينيه، وقال هل هناك اغتصاب، يعني، هل الواقع عنيف إلى هذا الحد، حتى يجعل من حالة القزم حالة اغتصاب، لا يمكن أن ينظر فيها القانون، وكيف يمكن أن نشرحها، ونحللها، بما يضيء، أو يفسر، أو يحلل، أو يجعلنا نفهم، يعني ما هي الميكانيزمات... وما هو ... أقصد، ما هي الأوضاع الاجتماعية التي ...

نظرت إلى دموعه فأحسست نحوه بالشفقة، لكنه عانقني وبكى وقال لي يا أخي عبد الرحيم أنت مرآة، أنت أداة كاشفة للواقع، أنت من جعل الشائعة والحقيقة موضوع سؤال، سؤال كبير، تنويري لعصرنا، ولكن أنا، أنا... قزم.

في تلك اللحظة ظهر المصور وهو يحمل على كتفه الكاميرا، فتحول عباس المرادي إلى شخص آخر، واتجه نحو المصور وهو يقول له صَوِّرْ، صَوِّرْ. ها هو يظهر الآن في مخبزة يشتري خبزه اليومي، وها هو يجلس في مقهى زاكورة بحي الأطلس، وها هو يزور أخته ربيعة في حي الموظفين، وها هو. . .

قلت له ها أنا أمامك، هنا في الصحة، فيا عباس، إما أن تعقل، وإما أن آتي بحقنة المورفين.

لقاء بين عبد الرحيم الأزرق ومريم طليقته

قالت لي أنا غلطت، غلطت غلطة كبيرة، فما سمعناه عن الكومسير ثابت أثر في كثيرا حتى إنك وأنت زوجي عبد الرحيم كنت تأتي لتضاجعني في الحلال فما كنت أرى غير الكومسير ثابت وهو الذي يضاجعني بذلك الشيء الذي يدمي الرحم، ويصعد القيء إلى البلعوم، وأنا امرأة، لي رحم، ورحمي

مزقه الكومسير ثابت حتى وهو لم يصل إلي، يلعن دين باباه ودين يماه، كان عندما تضاجعني أنت فهو كان يخرق أمعائي ويمزق أحشائي ليجعلها تنزف بالدم، ولأيام كنت أتحسس الدم النازف مني، الذي هو ليس دم الحيض، وإنما دم ذلك الاختراق.

وأنا أعرف أنك لم تكن هو، ولكنه كان هو من يخترق المهبل ويدميه.

لكني عرفت أنك كنت في المصحة على صلة بحمقاء اسمها شمس الضحى. الناس قالوا لي. قالوا لي رأوك معها وهي عارية وأنت تغسل جسدها، وهي تدعوك إليها، لكنهم لم يقولوا هل ضاجعتها أم لا، فتركوا لي الشك، وشك المرأة هو اليقين، قل، هل ضاجعتها أم لا. أنت وأنت طليقان، ولنا أحفاد، ولدنا عبد الغني له بنتان وابنتنا بديعة لها ولد من زوجها شكيب. صرنا أجدادا، ولكن قل، رغم الطلاق، واحلف بالله العلي العظيم أنك لم تضاجع الحمقاء شمس الضحى. احلف. إذا لم تحلف فأنت كاذب، وحتى وإن حلفت فأنت كاذب. عبد الرحيم. أنا أنظر إلى عينيك فأعرف ما فيها، وما فيهما غير الكذب. ولد الحرام. تغتصب الحمقاوات في المصحة العقلية. رجل قحباني، قحوب، صاحب القحاب ومصاب لو كانوا بعقلهم، قحاب بالدرع منهم، مسكينات حمقات. الله ياخذ فيك الحق. الله يردك قزم يا ولد الحرام كيف ردني ها أنت شف، قزمة، وأنت باقي صحيح.

قلت لها:

ـ وأنت يا مريم ماذا تفعلين هنا؟

قالت:

ـ جئت لكي أراقب ما تفعل.

قلت لها:

ـ وماذا وجدت ؟

قالت:

ـ وجدت أنك قزم، مع الأقزام، في حومة الأقزام.

قلت:

ـ أرجو أن نتصارح. فهل سبق لك أن خنتني مع قزم من هؤلاء الأقزام؟

قالت:

ـ لم أخنك إلا مع الكومسير ثابت.

سألتها:

ـ وأين هو الآن ؟

قالت:

ـ حتى وهو في قبره، بعد أن حكم عليه بالإعدام، فهو هنا، وأنا أرى كثيرا من أمثاله، معهم أخونك كل يوم. ولكن ليست هناك خيانة، فأنا طالق منك.

لقاء بين عبد الرحيم الأزرق، والشحرورة ميراي

قالت له غَنِّ فقال لها صوتي في قاع بئر، لا يسمعه أحد رغم مكبرات الصوت، لأني مغن لقيعان الآبار، وقيعان البحار. وقال لها ما اسمك فقالت له ما هذا السؤال آ السي عبد الرحيم، هل نسيت زهرة الفاسية المغنية اليهودية التي من صوتها تعلمت الغناء؟

آه يانا.

على داك الزين كيموتوا الأولاد.

آه يانا.

وملاح فاس؟ قالت لي أين هو الملاح الآن؟ قلت لها ملاح فاس هنا، عندنا في المصحة. وأنت يا ميراي خنت العهد، عهد المحبة الإنسانية

الصادقة، التي لم تحسب حساب الدين والعرق، فانتصرت لنفسك مع انتصار إسرائيل، في نكستنا نحن العرب، ونسيت أن حبا بيننا كان بين مسلم ويهودية.

ضحكت غنت:

آه يانا.

على داك الزين كيموتوا الأولاد.

آه يانا.

بدت لي عجوزا شمطاء، تشبه كولدا مايير، فشممت منها تلك الرائحة التي كانت والدتي تقول إنها لليهود وحدهم. قالت لي:

ـ أما زلت تحتفظ بطاقية أخي عزرا؟

قلت لها:

ـ هل لكولدا مايير أخ اسمه عزرا؟

قالت:

ـ هو قزم مثلك، كما هي كولدا مايير قزمة مثلي.

وأخذت تغني:

آه يانا.

على داك الزين كيموتوا الأولاد.

آه يانا.

• لكن مصطفى التواتي جاء في تلك اللحظة يخبرني بأن السي هدي هائج، وهو في حاجة إلى الحقنة، فتركتها تغني وذهبت مع مصطفى.

قائمة بأسماء نزلاء المصحة، تشمل جورج والكر بوش والكوميسير ثابث، والدكتور جاكار وحمقى آخرين.

لدي القائمة، وحتى وإن كان اسمي يتردد فيها مرة كممرض، ومرة كمريض، فهذا من قبيل الخطأ، وهو نفس الخطإ الذي طال الدكتور جاكار

فانضم اسمه إلى لائحة المرضى وهو طبيب، فلا بأس، الكاتبة التي كتبت اللائحة أخطأت في التصنيف، وهي نفسها أخطأت في اسمها فضمته إلى لائحة النزلاء، وكان بالأمارة، في الترتيب، بعد اسم السي هدي، صاحب الأسد الذي ضاجع غزالة فولدت منه قطعانا من حيوانات لا هي أسود ولا هي غزلان.والله يستر، ففي اللائحة أسماء أناس مشهورين، منهم كبراء وبرلمانيون ووزراء، وعمال أقاليم، وباشوات، ومذيعون يراهم الناس كل يوم على شاشة التلفزيون، واسمحوا لي أن أبوح لكم بسر من أسرار اللائحة المخصصة لضبط النزلاء وعددهم وأرقام الغرف التي يحتلونها، فقد وجدت اسم جورج والكر بوش مسجلا عليها، فما أردت أن أبوح بهذا السر لأنه سر سياسي، فهو يقيم في نفس الغرفة مع صدام حسين، وهناك كثيرون يقول كل واحد منهم أنا صدام، وآخرون كثيرون يقول كل واحد منهم أنا جورج بوش، فما العمل مع أناس لم ينتبهوا إلى حالهم كأقزام، وهو حالهم الحقيقي، فبدأوا يروجون عنهم الإشاعات؟

ولكن أين هو الكومسير ثابت؟ اسمه موجود في اللائحة وهو غير موجود. موجود أو غير موجود فهناك من يحسب أنه موجود، لكنهم يريدون أن يلعبوا معه، وأن يروا تلك الأفلام التي تنطوي على مناظر جنسية في غاية الفظاعة، حتى إن عرضها في المحكمة قد جعل المحامين يقيئون قيئا أبيض، والقضاة يصابون بدوار كدوار البحر. مادام اسمه في اللائحة فهو موجود، ,أنا أخشى أن يكون قد استخدم نفوذه ككومسير فأوقع بالكاتبة في فراشه الوحشي ذات، الواقع تحت أعين الكاميرات المنبثة في السقوف، ليعريها، ويمزق أحشائها بذلك الشيء الذي في وسطه. أخشى ذلك، وعلي أن أذهب للبحث عنه بين الأقزام.

وكسرى أنو شروان نفسه ألا يمرض، ألا يصيبه مرض الأقزام فينسيه الصبوح والغبوق؟ من حسن حظ وزيره أنه لم يقطع رأسه، بل جادله في صبوحه وغبوقه وفي توفر العدل والطعام للرعية، ولاشك أنه الآن يشرب الصبوح، فهذا وقت الصباح.

لكن المسيو جاكار، لم يطق أن يصبح قزما بين الأقزام، فهو الطبيب المعالج، المسؤول عن مصحة سيدي بوجيدة، وهو يمسك بغليونه الذي يتثبت به بروحه، يدخن منه بغير تبغ، فمن يأتيه بالتبغ إلى هنا، والناس يأكلون من قشور البطاطا ومن الطماطم الفاسدة التي ترمى عند مداخل أسواق الخضر؟

الخبز! آه! ذلك المعلم الفران الذي كان قد أراد أن يجعل من الوزراء طراحة في فرنه حتى يعلمهم كيف يطرحون الخبز في بيت النار، هو المسكين، وجازاه الله خيرا، من يبعث لنا بمائتي خبزة في اليوم، هدية ليست للبيع ولا للمبادلة، فهو يعرف أنه الجوع، وأن الأفواه كثيرة، وأننا إن لم نجد الخبز سنحرك، نذهب إلى أقرب شاطئ ونرمي بأنفسنا في البحر، ونعوم، حتى نصل إلى الشاطئ الآخر، إسبانيا. آه ! عرفتموها.

لكن الرجل الطيب، المعلم الفران يقول لنا ها هو فكلوه هنا ولا داعي لأن تذهبوا للبحث عنه عند الآخرين، فننصاع لكلامه، وإن كان بعض الخبثاء من الأقزام يغمز لي بأن أحقنه بحقنة المورفين، حتى لا يرانا ونحن نحرك.

كوكاكولا أم كوكايين؟

الأمر سواء، فالسهرة لم تكن تتم إلا في المصحة العقلية، وما كان هناك من كوكاكولا أو كوكايين، ومع ذلك فقد كان هناك انتفاخ في البطن، وضراط كثير، طويل طويل، وأنا صاحبه، فكلما انتفخ بطني إلا وأخرج إلى ساحة المصحة لأضرط، وأضرط، وأضرط، فلا أعرف هل أستريح أم أن ضراطا آخر يهدد، وكأن بطني سوف تنفجر.

لكنهم أولائك الشبان أنفسهم، يتوهمون أنهم أقزام، حتى وهم يعينونني وزيرا للجمال ثم يتراجعون عن ذلك، ويعينونني سفيرا لبلدي في دولة إسرائيل.

أنا لا آخذ عليهم، فالمسألة كلها مسألة مزاح، مزاح في سهرة لطيفة، وها هي السهرة تنتهي بخير وعلى خير، ما عدا إفراطي في شرب الكوكاكولا من تلك الزجاجات الكثيرة، وهو ما سبب لي انتفاخا في البطن، وضراطا هو هذا الضراط الذي أعاني منه الآن.

فهم جزاهم الله خيرا، أعادوني إلى بيتي، هنا في المصحة، وللأسف، فقد بقوا معي هنا، هم والراقصات، والخدم، ومولاي الذي كان يناديني مولاي، والحديقة، والجِمال.

فليسترح المسؤول الأمني الكبير السي مصطفى التواتي، ولتعد القناة التي في مقهى زاكورة، والأخرى التي عندنا هنا، إلى بث برامجهما العادية، فلاشيء يحدث، سوى أن من أسماؤهم في لائحة المصحة يتزايد يوما بعد آخر، والكاتبة المسكينة حمقاء، أحيانا تحضرها بعض الأسماء فتضيفها إلى اللائحة، والدكتور جاكار، أين هو الآن؟ إنه في السهرة، مع أولائك الشبان، ولا أحد يدري هل في الأمر كوكا كولا أم كوكايين.

عَـيـُّوشَـة
امرأة الشمس والقمر

دفاتر المدرسة العليا للأساتذة بتطوان
العدد 7، نوفمبر 1996

مقدمة

عيوشة:

أسطورة امرأة واقع

وواقع أسطورة

شمس امرأة

وقمر رجل

وبينهما شقاء عيش وتجدد في الحياة

وحلم وتذكر ومقاومة من أجل البقاء

حالما فكرت في كتابة أعمال سردية تخييلية للأطفال، كنت أفكر في استراتيجية للأشكال، من حيث إن الشكل التعبيري، الجمالي، يكون هو رهان الكتابة قبل أن تذهب نحو خطاب تيماتيكي له أهداف تربوية.

وببساطة، فقد أردت أن أحتفل بالتعبيري والجمالي دون أن ينقص ذلك من احتفائي بخطاب مُبَطَّن، يقول ما لا يُقال، بشكل لا ينصاع لأي خطاب وِصَائِيٍّ وَعْظِيٍّ إرشادي، يمارس سلطة التَّعَالُمِ على الأطفال، وتوجيه معارفهم من فوق، وهو ما لا أومن به، ومن حيث جربتُ أنا نفسي أن الأخلاق وإن كانت مكتسبة فهي مرهونةٌ بدرجة تمثلها والامتثال لها بعد قبولها أو التمرد عليها، فالقيم تكتسب بمرونة تلقائية لكي تتحول إلى فعل أو سلوك أو ممارسة،

بل إنها قيم وأخلاق متجددة، منها المتوارث الذي نحافظ عليه ومنها ما نجدده بتجدد العصر.

وعلى سبيل المثال، فالكذب، كمفهوم لا أخلاقي، يتدرج من كذب صديق على صديقه، إلى كذب أب على ابنه، إلى كذب زعيم سياسي على من يحكمهم أو من يتجمعون حوله، ومن هنا ففداحة الكذب، تتجه نحو خطورة أكبر، ولكن من تعود الكذب فهو كذاب، وهو مستعد، إن أصبح زعيما سياسيا، لأن يكذب على أمة بكاملها، بعد أن كان يكذب على نفسه وعلى الآخرين.

ومثال آخر من السرقة، فالولد يسرق درهما من أبيه، ثم كتابا من زميله في الدراسة، وسيسرق خزينة الدولة أن أصبح وزيرا للمالية، أو رئيس دولة.

لا أحد يدعي البراءة، لكي لا يكذب على نفسه قبل أن يكذب على الآخرين، لأن نقاء كاملا وطهرانية كاملة وبراءة كاملة هي قيم ليست سوى مُثُلٍ علينا أن نغير من وجودها في عالم المثل إلى عالم الواقع، وهذا أمر صعب، وقد تساعد عليه محاولات تقترب من وعي تربوي جديد، يعي بالخطيئة، وبوسائل تجاوزها، ودون قسر أو إكراه، فالسجون نفسها ما كانت إلا لإصلاح أحوال السجناء، لا لتخريج خبراء في الجرائم الأفدح والأكبر، من السجناء أنفسهم، وحيث يتعلم سارق بيضة كيف يسرق بنكا، وسارق بنك كيف يسرق بيت مال الدولة بأكمله.

وعلى مستوى أعم وأشمل، فإن مظاهر الخراب التي تغزو العالم، سواء أكانت راجعة إلى قسوة الطبيعة أو إلى قسوة الإنسان على أخيه الإنسان، فإن جدلا قائما بين الخراب والعمران، فلا عمران بدون خراب، ولا خراب بدون عمران. مع وجود حضور الإنسان في الحالتين، فهو صانع الخراب وهو صانع العمران، تحكمه النزعات الإجرامية التي قد يحاكم أو لا يحاكم عليها، كما تحكمه الرغاب في تحويل الحرائق إلى حدائق، والخرائب إلى عمران،

والبيوت إلى مأو آمنة كما هي المدن والدول والحدود بينها والقارات، حتى وإن كان السلام وهما والحرب هي دموية الإنسان.

ثمة فرق جوهري بين الخطابة، من حيث هي بلاغة إقناعية، وبين الخطاب، من حيث هو شكل تعبيري جمالي له موضوع ولكن هذا الموضوع يختص بطريقة خاصة لتسريبه أو تمريره بما يجعل من التسريب والتمرير ذهابا من الواقع إلى الرمز.

وعموما فلا يمكن لثقافة عالمة أن تبقى مسيطرة على وعي الطفل المغربي، سيما وهو يتلقى ثقافة شعبية، من مهده وإلى مراحل تعلمه في المؤسسة التعليمية، فالثقافة الشعبية، القائمة على تمثل غير عالِمٍ بالعالم، هي تمثلُ أكثر علما بالعالم، لأنها مكْمنٌ للرموز.

أحسب أن عيوشة هي أم مشتهاة لأي طفل مغربي، وهي أيضا، امرأة يرغب أي رجل في أن ينال من خصالها الإنسانية إذا ما تزوجها ووجِد أنه عاقر. وهي نموذج إنساني متفرد لامرأة تقاوم جبروت الطبيعة لتصنع لها حياة أفضل، بل هي تصنع حياة أفضل للآخرين.

وليس في هذا الوضع أي تعالم فوقي، بل هو تجربة معيش، نابعة من حياة ممهورة بطابع الواقع، ولكن، وهذا هو المهم، فلها أبعاد رمزية.

وإن كان على أن تكون هناك علاقة بين السرد المكتوب عبر اللغة والسرد المرئي عبر الصورة، فمن فرط حبي لعيوشة، ولتجربة عيوشة في الحياة، فقد أردت أن أراها في السينما، أو في شريط تلفزيوني، ولذلك فقد كتبت سيناريو تجربة عيوشة، منتظراً أن يتحمس له منتج أو مخرج مغربي حتى نرى عالم حكاية عيوشة وهو يتحول من حكي سردي إلى حكي عبر الصورة، وحتى وإن لم يكن، فتجربة عيوشة تختزن تجربة الإنسان، ولأن الإنسان لا يتعلم إلا بحاجة له في التعلم، فهو لا يفعل شيئا غير استعادة تجربة

عيوشة في الحياة، وبما هي إيجابية للتعلم، وأما الحرب، والدمار، والخراب، فلا شأن لها بِعالم عيوشة، لأنه عالم بناء لا عالم هدم، وهو أيضا، عالم لا يوجد في مثال واقعنا، بل في واقع ما نراه مثالا لواقعنا، ولذلك، تبقى عيوشة مُحِبَّةً للحياة، كما هي محبة للإنسان، مقاومةٌ للدمار والخراب، كما يقاومه الإنسان، بناء ة لما خربه الخراب، ومؤمنة بأن أهم ما في حياة الإنسان هو أن يصنع لحياته تفاصيل يومية، صغيرة أو كبيرة، ولكنها تفاصيل تنبني على الطموح بأن يكون ثمة دائما تجاوز ما، لماض سيئ بحاضر أفضل، أو بمستقبل أفضل.

رمز الأمل ليس رمزا مثاليا أو طوباويا، بل هو رمز نابع من الطاقات الخفية في الإنسان، وهي طاقات إيجابية تجعله يبني نفسه من جديد، وعلى أنقاض ما تهدم فيه، دافعا باتجاه نجمة السعد، وهي النجمة التي أرشدت عيوشة إلى أهمية الأمل في حياة الإنسان.

عيوشة.

نضال امرأة بدوية، في اتجاه عيش أفضل.

عيوشة لم تبك ماضيها بل صنعت حاضرها ومستقبلها.

عيوشة كأنها الأرض، أو اخضرار العشب. وكأنها أسطورة امرأة، أو امرأة أسطورة.

(1)

بيتٌ في سفح الجبل

وقفت عيوشة بقامتها المديدة عند باب البيت.

كان بيتا مَبْنِيًّا من الطوب الأصفر، وقد غُطِّيَتْ بعض جدرانه بأقراص من رَوْثِ البقر التي كانت تَجِفُّ هناك تحت أشعة الشمس، حتى تصلح لِتَسْمِيد الأرض.

بيتٌ صغيرٌ يتكون من غرفة واحدة وحضيرة للماعز وخُمٌّ للدجاج. لكن قلب عيوشة كان أكبر من بيتها الصغير، فقد كانت تَفْلَحُ الأرضَ مع زوجها حمودة، وتَجْلُبُ الماء لسقي الأغراس، وتُرَبِّي الدجاج. بل إنها كانت تقوم بكل ما تحتاج إليه الأرض وما يحتاج إليه البيت، فهي تَجْنِي الخضرَ من الحقل في الصباح الباكر ليبيعها حمودةُ في السوق، وهي ترعى المعزات وتقدم لها العلَف، وتقدم الحَبَّ للدجاج، كما أنها تُعِدُّ الشايَ وتُنْضِجُ الخبزَ في الفرن، وتَطْهُو العدسَ والفولَ والجُلُبَّانَ في قدر تفوح رائحتها فَتُحَلِّبُ رِيقَ حمودة عندما يكون جائعا.

خَيَّمَ المساء، وكانت عيوشة تقف في وسط الحقل، فرفعت عينيها نحو الجبل، ورأت المعزات تنحدرُ هابطةً، فهي تعرف طريقها إلى البيت حتى تعود إليه، ولم تشعر عيوشة معها بالحاجة إلى راع، كما أنها تنتظر حصتها المسائية من العلَف، وتنتظر أن تَحْلُبَهَا عيوشةُ حتى يتخفف ضَرْعُهَا من ثِقْلِ ما به من حليب.

نظرت عيوشة حواليها، ورمت بالشادوف الذي كان في يدها إلى الأرض. كانت الدجاجات قد عادت إلى الخُمِّ، وهي في حاجة إلى ما يُشبع

جوعها من حبّ، كما كانت في حاجة إلى أن تتدفأ ببعضها، في ليل بارد رغم أن التبن مفروش لها في الخم.

أخذ الكلب ينبح من غير أن يكون هناك داع لنباحه، وكان يتجه نحو عيوشة وينبح نباحا شديداً حتى وهو كلبها الأمين، وهي التي ربته منذ أن كان صغيرا، فلم تعرف لماذا كان الكلب ينبح في وجهها، بينما كان من قبل، وفي كل مساء، إذا اقترب منها يحرك ذيله ويتمسح بحذائها المطاطي فتنحني عليه وتمرر يدها على رأسه، فيهدأ، وتقدم له خبزا مبللا بالمرق، أو بقايا سمك إن كان حمودة قد جلبه في ذلك اليوم من السوق. لكن الكلب في هذا المساء، وعلى غير عادته، قد أخذ يتجه نحوها وينبح نباحا شديدا، وكأنه سوف يهاجمها، يدور حولها وهي تَهُشُّ عليه، ينحني بساقيه نحو الأرض، يَنْتَصِبُ واقفا على قَوَائمِهِ الأربع، ثم يشْتَدُّ نباحه، فلم تعرف عيوشة ما به، وحسبت أنه قد أصيب بالسُّعَارِ، ولما تفحصت حركاته بنظرتها الخبيرة فهي لم تتأكد من شيء، فلو كان مسعورا فيكفيها أن تصب عليه ماء من إناء وسيموت في الحال، لكنها حسبت أن ما به ليس سُعَارًا، ولا هو مَغْصٌ بسبب شيء أكله. دفعته لأن يبتعد عنها فتراجع وكف عن النباح، ولكنها رأت أنه كان ينظر إليها بعينين متوهجتين.

مَدَّتْ بصرها نحو الحقل الصغير، ورأت الجزر ينمو مع بعض الخضراوات، ورأت زوجها حمودة ينحني وسط النباتات وهو يَقْتَلِعُ الأعشابَ الضارة.

دخلتِ الفِنَاءَ وأشعلتِ النارَ في الموقد. نَارٌ من حطب حَطَبَتْهُ من هنا وهناك، واختارته جَافًا أو إذا كان لم يَجِفَّ بعدُ فقد تركته ليجف في ركن قصي من الفناء، وبعضه فوقَ بعض، وهي ترجو الله ألا يرسل مطرا من غير وقت الحاجة إليه حتى لا يَبْتَلَّ الحطبُ وتَبْتَلَّ المعزاتُ والدجاج وكل ما في الفناء،

بل وحتى المزروعات إذا ما أتى مطر من غير وقته فقد يُفْسِدُهَا. أشعلت النار من ذلك الحطب الجاف، ليكون دخانه أقل، وحتى تَدِبَّ فيه النارْ بسهولة، وإن كانت تعرف أن النار لا تكون بدون دخان.

عَلاَ خيطٌ من دخان أزرقَ وأخذ يرتفع قليلا قليلا، من باحة الدار، وبارتفاعه أصبح بإمكان حمودةَ أن يراه من الحقل إذا ما مَدَّ بصره ناحية البيت، وساعتها سوف يعلم أن عيوشة تُنْضِجُ الخبز في الفرن وهي على وشك أن تُعِدَّ الشاي، ولذلك فالعشاء سيكون جاهزا بعد وقت قريب، ولا يدري لماذا كان يحب البيض، فيطلب من عيوشة أن تهيئ له منه الكثير، ولأنها كانت هي التي تتدبر أمور المؤونة، وتدير شؤون البيت، فقد كانت لا تقدم له أكثر من بيضة واحدة في الليل، بينما هو كان يغضب، ويقول لها إن الدجاج يبيض كثيرا، وكانت هي ترد عليه بأن بعضا من ذلك البيض سوف يُتْرَكُ لأن تَحْضُنَهُ الدجاجات، حتى تصير عندنا فراخ دجاج، وديكة ودجاجات، نبيعها في السوق وبثمنها نشتري أشياء أخرى نحتاج إليها. وبالرغم من أن حمودة كان يَنْصَاعُ لكلام زوجته عيوشة، فقد كان يشعر دوما بالجوع، ويتمنى أن يأتي يوم الجمعة الذي تُعِدُّ فيه عيوشة كسكسا بخضر كثيرة، وفوقه ديك بكامله، فيأكل حمودة حتى الشبع، ويستريح قليلا ليعاود الأكل، وعيوشة تنظر إليه باستغراب وتقول له إنك يا حمودة كذلك الديك الذي لا يشبع، يأكل الحب كله ولا يشبع.

تركتِ الخبزَ يَنْضُجُ في الفرن، وملأت حفناتٍ من يديها من مسحوق الفول والشعير وقدمتها للمعزات،. قالت عيوشة سوف تَسْمَنْ هذه المعزات، وتَتَوَالَدُ، فيصير لنا قطيع كبير من الماعز، وكل شيء بأجل. ودَعَتِ الله لأن يزيد من الخير ويرزقها الوقت والصحة حتى تُوَسِّعَ الحقل بأن تُزِيحَ الأحجارَ من أرض تجاوره وتفلحها لتصبح صالحة للزراعة.

قَلّبتِ الخبز في الفرن، ثم رمت للدجاجات حفنة من الذرة، تسابق الديك إليها، فرمت بحفنة أخرى في مكان آخر ذهبت نحوها الدجاجات.

أضافت بعض العيدان الجافة للفرن، وقالت تحدث نفسها بصوت مسموع:

[سأستيقظ في الصبح الباكر، وسأقتلع الجزر من الحقل، وأغسله عند جانب النهر، ثم أُعِدُّهُ حزمات أضعها في العربة، بعد أن أربط إليها الحمار، والحمار نفسه سوف أعطيه شيئا من أوراق الجزر لكي لا يبقى جائعا، يدير عنقه إلى ما وراءه، حيث الجزر فوق العربة. وحمودة سيأخذ الجزر ليبيعه في السوق، ولكن قبل أن يذهب، علي أن أُعِدَّ له الشاي، ولذلك يجب أن أشعل النار. يجب أن أستيقظ باكرا، باكرا، قبل أن تشرق الشمس، وقبل أن تزقزق الطيور زقزقاتها الأولى وهي على الأشجار، وأن أعد كل شيء في أوانه حتى يصل حمودة إلى السوق باكرا، وقبل غيره من الفلاحين، ليبيع الجزر. سأوصيه بألا ينسى السكر والملح والزيت، وإذا وجد سمكا طريا ورخيصا فعليه أن يشتري لنا منه نصف كيلو. السمكات إن أتى بها حمودة فسأنظفها وأعد لها من التوابل ما يُتَبِّلُهَا، وسأقليها في المقلاة. إن كان السمك سردينا فنصف الكيلو يوفر لنا اثني عشر سمكة. ستة لي وستة لحمودة، وإن كانت أحد عشر آخذ لنا خمسة وأعطي لحمودة ستة، أليس زوجي وحلالي، رجلي وكل ما لدي في هذه الدنيا؟ ولكن أين هو الآن؟]

تنظر جهة الحقل. ترى حمودة ينحني وهو يزرع بعض الشتائل، أو يقلع الأعشاب الضارة من بين المزروعات. تقول بصوت مسموع:

[متى يكبر هذا الحقل ويتسع؟ ولكن أنا وحمودة نقضي كل نهارنا في العمل، فلا نلتقي إلا في وقت الغذاء، أو في الليل وقد أرهقنا ما قمنا به من أشغال. حمودة يحدثني عن السوق، ويحكي لي عن خبث بعض المشترين،

ومنافسات باعة آخرين، ثم يتناول عشاءه وهو يتثاءب، وبمجرد أن يفرغ من طعامه يطلب مني أن أطفئ الضوء وينام. أحيانا أسهر وحيدة وأنا أفكر فيما أراده الله، وحيث لم يرزقنا بولد أو بنت، وأخشى أن يرغب حمودة في امرأة يأتي بها ضرة لي لتنجب له الأولاد والبنات، ولكن من أدراني، فربما يكون هو العاقر، ثم إنه لا يمكن أن يعيش مع امرأة غيري، هو حمودة وأنا عيوشة، وقد خلقنا لبعضنا. هاك أيتها النار حطبات أخرى، فأنا أرى الآن حمودةَ عائدٌ من الحقل، والشمس تغرب الآن، ولاشك أنه جائع].

(2)

إحساس غريب

قَلَّبَتِ الخبزَ داخل الفرن، ونظرت إلى النار وهي تتأجج في جانب منه، ثم رفعتْ رأسَها عاليا ونظرت إلى البعيد، حيث الجبل، ورأت خيط الدخان يتصاعد من فرنها ويرتفع نحو السماء.

لكنها تنهدت، فقد خامرها إحساس غريب، فيه من الحزن ومن الفرح، إحساس غامض لم تدرك له معنى، فقد كان صدرها ينشرح فتشعر بالفرح، ثم كانت بعد ذلك تصيبها كآبة، ومن غير أن تعرف سببا لهذه التقلبات.

امتلأ صدرها بالشجن، ولم تعرف أهي فرحة أم حزينة، وكادت دمعة تَذْرِفُ من عينيها من غير أن تعرف أهي دمعة فرح أو حزن.

حسبت أن ذلك يرجع لكونها لم تنجب من زوجها حمودة ولدا أو بنتا، ولكنها عرفت أنها كانت تحمد الله على ذلك، وحمودة لم يظهر منه ما يعني

أنه ليس راضيا بقضاء الله، وإذن فهو إحساس ببشير أو بنذير. شيء ما سوف يحدث، وقد يكون مفرحا أو محزنا، لكنها لم تعرف.

قالت قلبي يخبرني، وسيحدث شيء ما، واللهم اجعله خيرا.

خرجت من الغرفة ونظرت إلى السماء فامتلأ صدرها بالأشجان بأكثر مما كان. تذكرت موت والدها الحاج عبد الله زارو، الذي كان رئيسا للجماعة، ومدخل بيته كان كل مساء مكانا لاستقبال رجال القرية، ورواة الحكايات، وكانت وهي صغيرة تحضر هذه الجلسات، وخاصة في الربيع والصيف، ولكن عندما بلغت سن البلوغ منعها والدها من حضور تلك المجالس، ثم مات والدها وشيَّعَهُ سكانُ القريةِ إلى المقبرة، أما هي فلم يسمح لها أحد بأن تذهب وراء نعش والدها، إلى المقبرة لتودعه، فقد كانت أمها شديدة الحزن، وتبدو وكأنها فاقدة لوعيها، وكانت نساء القرية يقمن بكل شيء في البيت، يوزعن الخبز والتين المجفف على القادمات لتقديم العزاء، كما كان رجال القرية يقومون بكل شيء خارج البيت وداخله، فقد أعدوا القبر كما أعدوا والدها للدفن، فغسلوه وكفنوه في كفن ناصع أبيض، ثم خرجوا به من البيت محمولا على الأكتاف. ومن سطح المنزل كانت تشيع والدها بالدموع والأسى.

كفكفت دموعها بظاهر يدها، وعجبت كيف تتذكر في هذه الليلة بالذات كل هذه الأشياء المحزنة. حاولت أن تُرِيح نفسَها بأن تتنفست كثيرا من الهواء النقي الذي هو هواء السفح والجبل. ثم نظرت إلى الجبل فرأته في غَبَشِ المساء مُخْضَرَّ الأشجار النابتة عليه، فلم يكن جبلا بادي الصخر عاريا من النبات، بل كان جبلا أخضر.

الجبل تعرفه صخرة صخرة، حجرا بحجر، شجرة بشجرة، فقد كانت تتسلقه وهي صغيرة، تَحْتَشُّ منه الحشائشَ أو تجمع الحلزن أو تقطف البقول والزهور الجميلة، أو تقف مبهورة أمام صخرة عالية ترى فيها وجها آدميا

ولكنها لا تصدق أن الصخور تحمل وجوه أناس آدميين، ولذلك كانت عيوشة الصغيرة تهبطُ الجبلَ سالكةً كل مسْلَكٍ للهبوط، وهي كانت تعرف مسالك الصعود ومسالك الهبوط.

كانت من صعودها وهبوطها تجني أشياء كثيرة تفيد البيت والعائلة، فمن حطب إلى بقول إلى حلزون إلى قنافذ إلى ثمار فواكه برية كالتوت البري، إلى زهور كانت تزين بها مائدة غرفة الضيوف.

ولكن، هي الآن لم تعد صغيرة، بل هي امرأة، وهي تدرك أن ليل الجبل رهيب، لا يقترب منه أحد، ففيه تخرج الذئاب من مخابئها باحثة عن فرائس، وفيه تخرج الأرانب لتقتات من الأعشاب، وهناك يتم اللقاء المحزن بين الذئاب والأرانب.

عواء ذئاب في الجبل. شخير حمودة. لا يمكن للذئاب أن تقترب من معزاتي ودجاجاتي، فقد سورت البناء بسور لا يمكن أن تقفز من خلاله الذئاب، ولكن، عندما تهتاج الذئاب من جوعها فهي تفعل كل شيء، بل إنها تفعل أشياء لا نتوقعها.

وتذكرت الكلبَ، كلبها. فما الذي يفعله هنا إذا كان لا يستطيع حراسة البيت وصد غارات الذئاب؟

عاودها ذلك الإحساسُ الغريب، المتراوحُ بين الحزن والفرح، فلم تدر ما الذي سوف يحدث، وكفكفت دموعها، ثم نظرت جهة الحقل، ونادت بأعلى صوتها:

ـ حمودة. آ حمودة.

فلم يَرُدَّ عليها، وإن رأته يَنْتَصِبُ واقفا بعد انحناءٍ وينظر جهتها، فعادت تناديه:

ـ حمودة. آ حمودة.

ورد عليها:

ـ أهاو.

ولما نظرت ناحيته فقد رأته واقفا ينتظر منها كلاما، ولو على بعد، فلما لم تقل له شيئا فقد رأى الدخان يتصاعد من الفرن، وعرف أن موعد العشاء قريب، لكنه لم يعرف لماذا نادته عيوشة، فقد يكون هناك ضيف آتٍ من القرية، أو قد تكون حية قد خرجت من جحرها فأرعبت عيوشة وعليه هو أن يقتلها بضربة من فأسه، وجاء مسرعا، بعد أن رمى بالشادوف من يده، منتظرا أن تقول له شيئا جديدا أو مفاجئا، فما كان من عادته أن تناديه دون أن يكون لندائها سبب، لكنها لم يكن في هذه المرة تعرف هي نفسها لماذا نادته، فربما هو إحساس غامض بخطر أرادت من خلاله أن تحتمي بحمودة، وربما هو هروب من ذلك الإحساس الغريب الذي داهمها، وربما هو نداء حب.

(3)

سماء تتغير

في وسط الحقل وقفتْ عيوشة بجسدها الفارع وبِنْيتِهَا القوية وبشرتها السمراء التي لوحتها الشمس.

كانت تلف شعرها بمنديل أحمر، وقد فتحت ذراعيها ومدتهما مفتوحتين للسماء، تتضرع لخالقها.

عيناها كحيلتان بتراب الأرض، وخداها مُشْبَعَانِ بشمسِ النهارِ الذي مضى، والنهارات التي مضت.

ألوان السماء بدأت تتغير، وصفاء النهار وشمسه الحارقة تحولا مع هذا المساء إلى دمدمة وسواد تتكاثف فيه السحب وهي قادمة من جهة الشرق.

أهو المطر؟ لو تحركت الرياح لنزل المطر. وأي مطر هذا؟ مطر الصيف؟ لعلها ليلة سوف يسقط فيها المطر.

رأى حمودة في طريق عودته من الحقل إلى البيت ألوان السماء وهي تتغير، واخترق بنظرته الخبيرة تَدرُّجَ تلك الألوان نحو دَمْدَمَةٍ وسحبٍ سوداءَ تلوح قادمة من بعيد، ففكر في أن عيوشة ربما لن تتمكن في صباح الغد من اقتلاع الجزر إذا ابتلت الأرض بعد سقوط المطر، كما تذكر حاجتهما إلى بعض الأشياء من السوق.

إذا لم أذهب إلى السوق غدا لبيع الجزر فمن أين أشتري زيت الغاز للمصباح؟

عيوشة تحب المصباح ممتلئا دائما. تقول إنها تكره الظلام، والزيت في المصباح يجعلها تشعر بأن الإضاءة ممكنة إذا ما حدث شيء في ظلام الليل، فربما تمرض معزة، أو يزورنا زائر غريب.

(4)

زائر غريب

كانت تحلم دائما بذلك الغريب الذي يزورنا في الليل، وتستيقظ من حلمها فتحكيه لي، تقول رأت رجلا غريبا، طويل القامة يرتدي البياض، ولحيته غزيرة الشعر الأشيب، وتقول يشبه والدها الحاج عبد الله زارو فأقول لها الله يرحمه، ثم تقول إن ذلك الزائر الغريب قد أتاها بلفافة كبيرة وطلب منها ألا

تفتحها إلا بعد أن يذهب. تفرح وتقول خير. رِزْقٌ آتٍ من عند الله. البياضُ في المنام يُبَشِّرُ برزق آتٍ. تستبشر ملامحها، وتعود لنومها وهي مطمئنة النفس.

مسكينة عيوشة!

ما الذي عليها أن تفعله إذا لم تحلم؟

هي تحلم بأناس كثيرين، وتحلم بالرجل الغريب وتراه في المنام وهو يزورنا، لأننا نسكن هنا في سفح هذا الجبل بعيدا عن الناس، فليس من حولنا جيران، وإن كنت أنا ألتقي بالناس في السوق فعيوشة لا تلتقي بنساء أخريات إلا حينما نذهب في أيام الأعياد للقرية المجاورة، من أجل أن نزور بيت السي سعيد أو بيت المعطاوي أو بيوتا أخرى، لنبارك العيد، وهي تجلس مع ميلودة أو حادة أو هنية وأنا أجلس مع الرجال، وفي طريق ذهابنا تكون مستبشرة تسير بجواري وكأنها تَنِطُّ أو تقفزُ يدفعها الفرح لرؤية نساء القرية والحديث معهن، لكنها تعود مُغْتَمَّةَ الخاطرِ وتصارحني بأن نساء القرية قد طلبن لها من الله ولدا أو بنتا ولكنهن سألنها عن أي منا هو العاقر، أنا أم هي، ثم تقول لي شف آ حمودة هذا حديث الشيطان، والشيطان دائما يفرق بين الناس، وسواء أكنت أنت العاقر أم أنا فلا فرق، والحمد لله.

(5)
خيرٌ وشر

كنت أعود من السوق مغتاظا من تصرفات المعطاوي معي، فهو يشتمني دون سبب، ويأخذ مني الزيناء، ويعيرني بأنني أسكن في الثلث الخالي

من الدنيا، بل كان يهُمُّ بضربي على وجهي بقبضة يده، لولا أن بعض الفلاحين كانوا يمنعونه من ذلك.

تخاصمنا مرات كثيرة كان هو من يبدأ فيها بالشر، حتى صرت أفكر في أن أطعنه بسكين، في مكان القلب تماما، ولكني كنت لا أستطيع أن أفعل، فيدي لم تلطخ بدم، ولساني لم ينطق بشتائم خطيرة تمس عرض أحد، وإن كنت أشتم الحمار إذا تَلَكَّأَ في صعود طريق وهو يجر العربة، وإن قتلته فلمن أترك عيوشة وأنا حتما سوف أدخل السجن؟

في البداية ما كنت أقبل زيارته في بيته بعد أن تخاصمت معه في السوق، وقد كنت أتمنى مصالحة معه، تدفع عني المخاوف وتُشْعِرُنِي بالأمان، وكنت أنتظر لها مناسبة، فلما جاء تدخل السي سعيد وولد عبد الله والريحاني وهم جميعا من سكان القرية، فقد فرحت بوساطة خير. وهم أحضروه إلى بيت السي سعيد، وأصلحوا بيننا، فنسيت الحقد، وأصبحنا نتعاون في السوق، بل لقد صرت أزوره أنا وعيوشة في بيته مباركا له ولأهله العيد.

(6)
يد المحبة

في طريق العودة من تلك الزيارات لبيوت سكان القرية، كنا أنا وعيوشة نتحدث عن بيتنا الذي يقع في سفح الجبل، بعيدا عن الناس.

كنت أنا أقول لها يا عيوشة الناس أشرار بطبعهم، ونظرا لضرورة المعاملة فلا يقترب منهم الإنسان إلا ليبيع أو يشتري معهم، والسوق يوفر لنا ذلك، ونحن نحاول أن نتقي شر الخلق، حتى لا يصيبنا شرهم.

وكانت تقول لي يا حمودة اللقاء بين الناس هو لقاء الإنسان مع الإنسان، ومن حيث خلقنا لنلتقي، ونفهم بعضنا، ونحب بعضنا، وإن كان هناك حقد أو بغضاء، أو عداوات قديمة، فهي تُحلُّ بمد اليد لليد. ولابد من نسيانِ الحقدِ وتذكرِ أنَّ المحبةَ هي ما يوصي به الخالق سبحانه وتعالى.

وكنت أسألها أين تعلمت هذه الأفكار، فكانت ترد بأن والدها الحاج عبد الله زارو الله يرحمه كان يقيم سهرات في البيت وكانت طفلة تحضر تلك السهرات وهي في حجر والدها، وتصغي إلى ما يقوله سكان القرية من الحاقدين، أصحاب الثأر، وهم يحبون القتل، والدم، وما يقوله سكان آخرون يكرهون الدم، ولذلك فهم يَرُشّونَ جدرانَ بيوتهم بالجير، فالبياض هو بياض المحبة والتسامح، والسواد هو سواد الحقد الكراهية.

ثم ضحكت وقالت لي: قلب أبيض، وقلب أسود، يمكن أن يلتقيا، إذا ما كف القلبُ الأسْوَد عن الحقد، وقرر أن يتسامح، وأن يصبح قلبا أبيض، والله يُعِينُ على أن تصبح القلوب السوداء بيضاء.

وسألتها من أين جاءت بهذه الأفكار، فقالت إن ليالي السمر في بيت والدها الحاج عبد الله زارو كانت تَرُوجُ فيها أفكار كهذه، فقد كان رجال القرية يتحدثون، خيرا أو شرا، وكانت هي تسمع، وتتعلم، وتتعرف، ولكنها لم تكن تشارك في الحديث.

(7)
أحوال الطقس

في هذه الأرض النائية، كانت عيوشة تؤمن بالعمل، وتحب الخير للناس، كما كانت تؤمن بالتضحية من أجل الآخرين.

وأنا حمودة، زوجها، أعمل مثلها، ولكني أجد في الناس كثيرا من الشر، ولذلك ابتعدت عنهم، وبنيت بيتي بعيدا عنهم، في سفح الجبل.

واليوم، وفي هذا المساء، يظهر احمرار خفيف في السماء، وقديما قالوا:

ايْلاَ احْمَّرَتْ فالعَشِي

انوّضْ حْمَارِكْ يْمْشِي

وايْلاَ احْمّرت فالصباح

خلي حمارك يرتـــــاح

وكان حمودة ينظر إلا السماء ويؤكد لنفسه ما تعلمه من معرفة بأحوال الطقس، وبالتغيرات التي يعرفها في مختلف الفصول، فتوقع نزول مطر صيفي، بعد مجيء عاصفة مصحوبة بالرعود والبروق، وقال اللهم اجعله خيرا.

أطرق حمودة برأسه ومشى بجسده القصير وخطواته السريعة نحو البيت. وكان يتوقع أن يجد عيوشة واقفة عند باب البيت، تنتظره، ولكنه لم يجدها، فظنها تنضج الخبز في الفرن، أو تطعم الدجاج، ولكنه لما دخل وسط الدار وجدها أمامه، واقفة تنظر إليه، وفي عينيها دموع على وشك أن تنفجر، فلم يعرف ما بها، وغلبتها دموعها، فقال لها:

ـ مالك؟ عيوشة مالك؟ هل وقع شيء؟

ترددت ، ثم قالت له:

ـ لا. لم يقع أي شيء، ولكن، انظر يا حمودة إلى السماء، فربما يقع شيء في هذه الليلة.

بدا حمودة غاضبا من توقعها لِنَذِيرِ شُؤْمٍ فَرَقَتْ له وأخذت تهدئه وتعتذر له عن مزاجها الذي يَتَقَلَّبُ بين وقت وحين، وتظاهرت بالفرح، ثم بدأت في إعداد الشاي.

(8)

الرعد.. الرعد.. الرعد..

تناول حمودة عشاءه بِنَهَم، ولم تأكل عيوشة شيئا مما أمامها على المائدة من بيض وزيتون وخبز ولم تشرب من كأس الشاي الذي صبته لنفسها، فقد بدت شاردة، وسرعان ما رفعت ما بقي على المائدة من طعام، ونظرات حمودة تُتَابِعُ تَسَرُّعَ حركاتها، ثم رآها تُنْقِصُ من درجة إضاءة المصباح فعرف أنها إشارة إلى أنها تريد أن تنام، فغسل يديه وفمه وصعد الفراش العالي الوثير.

أطفأتِ المصباحَ، وسَبَحَ البيتُ كله في ظلام دامس، فما كان ثمة من ضوء للقمر يتسلل إلى البيت من الخارج، بعد إطفاء المصباح، بل إن الليلة كانت ظلماء، غاب فيها القمر، واستسلما للنوم.

لم تنم عيوشة إلا قليلا من الوقت حتى بدأت تتململ في فراشها، وتتنهد، وتزفر بزفرات. وبالرغم من عياء حمودة بسبب تعب الأشغال التي قضاها طوال اليوم في الحقل فقد شعر بها تَتَمَلْمَلُ في الفراش، وسمع دَوِيَّ رعد، ثم غَطَّ في نومه، ولكنه أحسها تَلْكَزُهُ بِمَرْفِقِهَا لَكْزاً خفيفاً وتناديه بصوت خفيض:

ـــ حمودة. آ حمودة.

فلم يرد عليها وغط في نومه.

وعادت تناديه:

ـــ أ حمودة !

ولما تململ في فراشه فقد رأى بَرْقا خُلَّبًا يدخل من شقوق باب البيت، فعرف أنه هو بَرْقٌ يبْرَقُ في فصل الصيف، كما سمع رعدا، ولكزته عيوشة، فالتفت نحوها وقال لها وهو بين نوم ويقظة:

ـــ ألم تنامي بعد؟

فقالت له:

ـــ حمودة. كيف أنام والرعود تدوي بهذه القوة.

وقال لها:

ـــ الرعود تُرْعِدُ دائما، وحتى في الصيف، فإن لم ننم فسنخسر طاقتنا على العمل في الغد، عندما سنصبح وأجسادُنا مُنْهَكَةٌ وغيرُ قادرةٍ على العمل.

وقالت له:

ـــ لكن ما يحدث في هذه الليلة أمر مرعب فعلا.

وقال لها:

ـــ ليلة ككل الليالي. ماذا بإمكاننا أن نفعل؟ اهدئي يا عيوشة ونامي، حتى تقدري على عمل الغد.

وقالت له:

ـــ سأحاول.

(9)

حمودة يفكر في عيوشة

تأرق حمودة فظل يسمع أصوات انتظام تَنَفُّسِ زوجته عيوشة، ليعرف هل نامت، والحقيقة أنه لم تنم، وشعر بها وهي لم تنم بعد، ولكنه لم يرد أن

يحدثها حتى لا يزيد من أرقها، ولذلك فقد أخذ يتَسمّعُ صوت أنفاسها، فعرف أنها يقظي، ولاَمها لأنها قد أزعجته في نومه وأرّقَتْهُ، حتى وإن كان السبب هو الرعود والبروق.

سرح حمودة في أفكاره، وقال:

[مسكينة عيوشة، تكدح طوال النهار، تشُقُّ للماء طريقا من النهر القريب حتى يروي البصل وهي تغلقه في الميعاد، ثم تنتزع الشتائل وتزرعها في مكان آخر. بذرات الجزر واللفت والملفوف تزرعها وترعاها وتسقيها بمقدار، وهي التي قسَّمَتِ الحقلَ على أقسامٍ لزراعات يناسب كل منها كل موقع.

هي تزرع النبات في الأرض، وتحطب الحطب وتعد لي الطعام والشاي وتساعدني على حمل ما أذهب به إلى السوق من خضر، وهي أيضا تقوم بأشغال البيت، فتعد الطعام، وتعد الشاي، وتسخن لنا الماء لنغتسل، وتريد أن تصلي من ورائي إذا ما قمنا للصلاة، فتقول لي أنت الإمام وأنا أصلي وراءك، فأقول لها يا عيوشة صل لله بجانبي، فلا تقبل، ولا تصلي إلا من ورائي، وهي تؤكد أن النساء يصلين من وراء الرجال.

والحقيقة أنها أكثر من رجل، فهي امرأة ولكنها تساوي عَشَرَةً من الرجال. أنا أخاف من الجن ليلا وهي تخرج لمواجهتهم ليلا وتقول لي الجني هو ابن آدم، وحتى وإن كان الجن موجودا كما ذُكر في القرآن الكريم فقد جعل الله سبحانه وتعالي بيننا وبينهم سُدًّا فهم لا يأتون إلينا ونحن لا نذهب إليهم. الجن يحيون في عالمهم ونحن نحيا في عالمنا، وهم طيبون لا يؤذوننا إلا إذا أذيناهم، أما البشر فهم في أغلبهم أشرار، وقليلون منهم من هم أخيار، يتسامحون، ويمدون أياديهم بالخير.

لكن المشكلة أنها لم تنجب لي أطفالا، ومع ذلك فقد كنت أجد فيها أمي وأختي وامرأتي وابنتي، فهي كل شيء في حياتي، ويكفيني أن والدها الله يرحمه، الحاج عبد الله زارو، قد قبِلَ زواجي منها على سنة الله ورسوله، وأوصاني بها خيرا .

كانت تحب الأطفال، وتتمنى أن تنجب مني ولدا أو بنتا، حتى إنها كانت قد وقعت على دفتر مدرسي، فأخذت تنظر إلى حروفه، ثم بللت الحروف بدموعها، وهي تقول إنها كانت تتمنى أن يكون لها ولد أو بنت حتى يدخل المدرسة. وكنتُ أُمَنِّيها بالخير، وأقول لها إن ما عند الله ليس ببعيد.

تقول هو خالقنا جميعا، وهو يعرف عيوشة ويعرف حمودة، ويعرف القَطْرَةَ التي تتجمعُ مع القطرةِ فتصير سحابةً والسحابةُ تتكاثف مع سحابة أخرى، فيرسلُ عليها الرياح، ويسقط المطر ليروي الأرض العطشى. وهو يعرف الحيتان التي في البحر، ويعرف النجوم التي في السماء، ويعرف ما في الأرض وما في الجبل، فهو خالقنا جميعا.

صلت لله بعد وضوء، وكانت طاهرة، ونامت بجواري في الفراش ثم أخذت تتقلب على جانبها الأيمن وتتنهد وتزفر بعض الزفرات، فشعرت أنها تشعر بالضيق ولكن رغم رغبتي في أن أطمئنها باغتني نوم عميق فبدأت أتثاءب].

(10)

عيوشة الأنام

الرُّعُودُ تُرْعِدُ وعيوشة تتذكر.

اشتد دوي الرعد، وفكرت عيوشة في أن هذا الرعد سوف يأتي بالعواصف، فخافت على بعض الشجيرات القصيرة من أن تعصف بها العاصفة فتكسرها. ولكن ماذا سوف تفعل؟ لاشيء في طاقتها تستطيع أن تفعله لدفع الرعود والعواصف.

استدارت نحو حمودة في الظلام، وكان يغط في نومه، وحاولت أن تنام فلم تستطع.

كانت هي وحمودة بحكم المعاشرة الطويلة قد صارا مثل روحين في جسد واحد، يريان نفس الأشياء بنفس النظرة، ويستخدمان نفس الكلمات للتعبير عن نفس الأحداث أو المواقف، حتى أصبح الواحد منهما يفعل الشيء الذي يفكر الآخر في أن يطلبه منه وقبل أن يطلبه، وقد عاشا يعملان ويتعاونان، فمن غير أن يقسما العمل بينهما كان كل منهما يفعل ما في طاقته، وفيما يراه مناسبا له من أعمال. لم يتخاصما أبدا، وقد كان ذلك اليوم الذي جاء فيه حمودة إلى بيت الحاج عبد الله زارو ليخطب عيوشة يوم سعادة للقرية كلها، فعلى صغر سنها، كانت تشعر بالحاجة إلى رجل تخدمه وتسعده كما كانت ترى أمها تفعل مع أبيها. ولذلك فلما استعادتْ شريطَ حياتها مع حمودة، لم تجد فيه ما يجعلها تغضب منه، أو ما يذكرها بسوء.

(11)

حيوانات ثائرة

أخذ الكلب ينبح، وكان نباحه حادا وكأنه يستشعر هجوما للذئاب، وهو مُكَبَّلٌ لا يستطيع أن يفعل شيئا. ولقد نبح الكلب حتى بُحَّ صوته، كما نَقَّتِ الدجاجات نقيقا ليس له أي معنى في هذا الهزيع الأخير من الليل، وثَغَتِ المعزات.

كانت العواصف والرعود والبروق تقلق ليل الحيوانات في الحظيرة، فكيف تنام عيوشة والحيوانات نفسها لا تنام؟

كما كانت عيوشة تتقلب في نومها، من جَنْبٍ إلى جَنْبٍ، فقد كانت الحيوانات في الحضيرة لا تنام.

يا ربي! ما الذي جعل الحيوانات في هذه الليلة تصرخ كلها وكأنها تستغيث؟

كيف أنام يا ربي وحيواناتي لا ترتاح ولا تنام؟

لو كانت ثمة ذئاب تهاجم البيت لخرجت إليها مع الكلب، وفي يدي نار، حتى أطردها.

من أين يا ربي آتي بالطمأنينة لهذه الحيونات وهي مذعورة بما جاءت به الليلة من رعود وبروق؟

والحيوانات، لعلها تثور، وتغضب، ولا تنام، لأنها تَستَشْعِرُ أمرا قادما بحواس سمعها التي تفوق حواس سمعنا نحن البشر.

اشتد نباح الكلب، وتخيلته يرفع وجهه نحو السماء لينظر إلى البروق وهي تشع، وربما كان بنباحه يتوسل، طالبا أن تكف السماء عن بروقها، أو كأنه كان يسأل عما سوف تأتي به السماء.

تسللت من الفراش وخرجت إلى باحة الدار، وهي الفاصلة بين الغرفة الوحيدة وبين الحظيرة، ثم وقفت هناك، فجاء الكلب يتمسح بقدميها، ونهرته:

ـــ هس. هس..

وبدا مذعورا كأنه يستغيث، لكنها لم تدر ما عليها أن تفعل.

(12)
مطرٌ مباغِت

فجأة تدفق المطر غزيرا حتى ابْتَلَّ جسدها وشعرها، وكان مطرا لم تشاهد مثله من قبل، في غزارته وتدفقه وانهماره، وكأنَّ بحارا تتهاوى من السماء لتُغرق الأرض، أو كأنه الطوفان.

ظلت واقفة وهي تَبْتَلُّ، فلم تفكر في أن تعود إلى الغرفة حيث ينام حمودة، لتحتمي بالسقف، ولا تدري لماذا لم تفعل، فربما كانت تريد أن تبقى قريبة من السماء، والمطر الدافئ يبلل ثيابها وشعرها وينحدر مع عنقها ويديها.

سمعت حمودة يناديها، ولم تجبه، فقد كانت تعرف أنه لا يحتاج إلى أن يحذرها من شيء، هي العارفة بما يجب عليها أن تفعل. وكانت تعرف أنها سترد على نداء حمودة إن هو كرر النداء، لكنه لم يكرر نداءه.

كم بقيت هناك من الوقت؟

لعلها دقائق معدودة، وكانت بوقوفها بجانب الحيوانات تمنحها شيئا من الشجاعة حتى تواجه اللحظة المرعبة.

دقائق معدودة غَيَّرَتْ كل شيء في حياة عيوشة.

(13)

السيول.. السيول

تدفقت السيول منحدرة من أعلى الجبل، وغرقَ العالَمُ في الماء.

في لحظات قصيرة رأت عيوشة السيول تجرف الدجاج والماعز، ورأت الكلب يرفع عينيه اللامعتين وهو يغرق، محاولا أن يسبح فوق الماء، ورأت حيطان البيت تتهدم، كما رأت السقف يتهاوى.

صرخت:

ـــ حمودة!

فلم يرد عليها. لم تدر أهو قريب منها أم بعيد وقد جرفته السيول، ولو كان قريبا منها لرد على ندائها المذعور. عادت تصرخ:

ـــ حمودة. آ حمودة.

رأت السيول تجرف كل شيء، وأحست الأرض من تحت قدميها تتدفع بفعل قوة التيار، فلم تجد ما تتشبث به من حولها، لتظل واقفة تبحث وسط الظلام عن حمودة وعن المكان الذي كان فيه بيتها، ووقعت فجرفها السيل مسافة حتى ارتَطَمَ جسدُها بجذع شجرة فتمسّكت بالجذع، وكأنها قد صارت عمياء وسط الظلام لا تحس بوجود الأشياء من حولها إلى من خلال اللمس،

ولذلك فعندما وجدت نفسها غارقة في الماء والظلام، ووجدت فرع شجرة، فقد تمسكت به، وحاولت أن تتسلقه نحو الأعلى.

حسبت وكأنها تسمع صوت حمودة يناديها:

ـ عيوشة ! وا عيوشة!

لكنها أدركت أنها كانت تَتَوَهَّم، فما كان لحمودة من نداء.

الحقل غارق في الماء، وقد اتسع حتى أصبح العالم كله من حولها غارقا في الماء والظلام، والسيول تجرف كل شيء، فقد رأت البطانية التي كانت هي وحمودة يجعلان منها غطاء لهما في ليالي الشتاء الباردة وهي تندفع مع الماء، كما رأت أواني المطبخ وأثاث البيت: إبريق الشاي، ومصباح الغاز، والملابس، وأشياء أخرى تمر حولها يدفعها السيل، كما كانت الحجارةُ التي كانت هي وحمودة قد بَنَيَا بها بيتهما وهي تَنْدَفِعُ مع الماء، فلم يبق شيء، وكانت تتمنى أن ترى حمودة يقاوم تَدَافُعَ المياه، لينهض واقفا أمامها، لكنها لم تره.

هل مات؟ هل مات حمودة؟

ذراعاه كانتا قويتين، وقد كان كل ما لدي في الحياة بعد موت أهلي، فمن يسندني في هذه اللحظة، وقد انْهَارَ البيت، والمياه تدفعني لِتَجْرِفَنِي نحو مُنْحَدَرِهَا، وأنا أَتَمَسَّكُ بالشجرة، والشجرةُ كأنها تتخلخل، أو إنها سوف تُقْتَلَعُ من الجذور.

(14)
عيوشة تبيتُ في أعلى شجرة

تمسكت عيوشة بالشجرة، فقد أحاطت فرعها بذراعيها والماءُ يدفع ساقيها وهي تحاول أن تخرجَ من الماء لِتَتَسلَّقَ الفرع.

أحست أنها قد عادت إلى طفولتها أيامَ كانت تَتَسلَّقُ الأشجارَ في حقل والدها الحاج عبد الله زارو، فتسلقتِ الفرعَ، وتمسكتْ بأغصان حسبت في الظلام أنها قويةٌ وعلى صلابتها يمكن أن تحمل جسد عيوشة من غير أن تتكسر فتعود عيوشة لتسقط في الماء.

وكأنه حُبٌّ بين الشجرةِ والمرأة، فقد أنقذت الشجرةُ عيوشةَ من الغرق.

استوت عيوشة فوق الشجرة، وحاولت أن تتذكر أين تقع هذه الشجرة، فلا أشجار في حقل عيوشة، بل مزروعات، كالبصل والجزر والملفوف وبعض البقول، فلاشك أنها قد ذهبت بعيدا مع السيل، فالأشجار لا توجد إلا على طريق السوق، ومعنى هذا أنها بعيدة الآن عن حمودة، وعن بيتها.

كانت تحدس المكان، وتفكر في هذه الأشياء، وتخاف من أن يكون حمودة قد أصيب بمكروه.

وهي تقضي ليلتها فوق الشجرة، والعالم ماء وظلام، فقد رأت السماءَ مظلمةً والأرضَ ما تزالُ مغمورةً بالماء، بل إن ذلك الماء كان يتدافع من تحتها جارفا معه كل ما يجده في طريقه.

انتظرت الصباح فوق الشجرة، انتظارَ شوقٍ، وقالت الصباح رباح، لكنها وقبل أن يشرق الصباح قضت ليلتها فوق شجرة، باكية وخائفة ومحتاجة إلى حمودة، الذي ربما كان الآن هو الآخر يحتاج إليها، ومن غير شك

فالسيول قد فرقت بينهما، ومع طلوع النهار وبدايات التباشير الأولى للضوء، ستعرف أين هي، وستنزل الشجرة للبحث عن حمودة.

ورغم كل تلك المصائب، فالجسد عندما يتعبُ يقْهَرُ الإنسانَ ويُضنْعِفُهُ.

(15)

حلمٌ بطائرٍ عجيب

أغفت عيوشة فوق الشجرة غفوة قصيرة، رأت فيها طائرا أخضر ضخم الجنة يحط على تلك الشجرة، ويدعوها لأن تركب ظهره، وهي تسأله عن حمودة وهو يدعوها لأن تركب ظهره، فحالما سألته إلى أين سوف يطير بها، قال لها سوف يطير بها إلى لالة مكة أعزها الله، وسوف تَحُجُّ، وتطوفُ وتُلَبِّي، فقالت له: الحج أشهر معدودات، ونحن لسنا في أشهر الحج، فلو أردتَ أيها الطائر، وأنا أتوسلْ إليك، أن تجعل طريق سفرك بي قريبا، وقريبا جدا، وهو أن أرْكَبَ ظهرك، فتطوفُ بي في المكان حتى أجد حمودة، وساعتها تضعني على الأرض، لأرى هل هو جريح، هل هو جائع، هل هو ممزق الثياب.

أو إذا أردت أن تفعل خيرا أيها الطائر، فاذهب إلى مكانه وأرْكِبْهُ فوق ظهرك ثم آتِني به إلى هنا، لِنَبِيتَ معا فوق هذه الشجرة، فأنا ومنذ زواجي من حمودة لم أنم إلا في فراشي معه، في بيتنا، فأرجوك أيها الطائر، إما أن تأخذني فوق ظهرك لأبحث عن حمودة في كل مكان، أو أن تطير أنت فتبحث عنه، وتأتيني به.

زعق الطائر زعقة عظيمة، وطار، فبقيت عيوشة تنتظر، ولكن الطائر لم يعد، بل إن إشراق النهار بخيوط الشمس الأولى قد فتح عيني عيوشة، فوجدت نفسها فوق فرع شجرة.

(16)

صباح وتشرق الشمس

توقفت السيول، ولكن عيوشة ظلت فوق الشجرة، ترقب شمس الصباح وهي تشرق على الأرض وقد غمرتها المياه.

قالت:

[أنا الآن فوق شجرة، وبيتي ضاع، هدمته السيول، والطائر كان قد أتاني في الحلم، ولكن أين هو حمودة؟

علي الآن أن أنزل من فوق هذه الشجرة لكي أبحث عن حمودة].

نزلت الشجرة وسارت وسط الأوحال، فرأت قدميها مُضَمَّخَتَيْنِ بالوَحَل، وتذكرت تَضْمِيخَ قدميها بالحِنَّاءِ في ليلة عرسها.

حِنَّاءُ العرسِ أم طَمْيُ الأرضِ الذي جاءت به السيول؟

بدأت تبحث عن مكان البيت، وأخذت تنادي:

ـــ حمودة ! وا حمودة!

لكنه لم يرد عليها، وظلت ساقاها تَغُوصَانِ في الترابِ الأَعْفَرِ، وهي تحاول أن تهتدي إلى مكان البيت، حتى وقد رأتِ الحجارةَ التي بُنِيَ بها البيت والسيول تجرفها، فهي لم تصدق أن يكون البيت قد تَهَدَّمَ وأن يكون حمودة قد وقع له شيء.

اهتدت إلى المكان الذي كان فيه البيت باتجاهها نحو الجبل الذي يلوح من بعيد، شَرْقًا، وهو الجبل الذي انحدرت منها السيول، لكنها لم تجدِ البيت، وكانت تسير وهي تختبرُ عمقَ الحفرِ المائية بأغصان الشجر حتى لا تسير فيها فتغرق، فأصابها إِعْيَاءٌ شديدٌ، وجوعٌ وعطشٌ، وكادت الدموعُ أن تطفر من عينيها، لكنها تَجَلَّدَتْ، وقالت:

[ليس هذا هو وقت البكاء، بل علي أن أجد حمودة وأن أجد البيت].

صعدت مع الأرض وهبطت، انحدرت مع بعض المنحدرات، وكانت تنادي:

ـ حمودة. وا حمودة.

فما كان يرد عليها. وأحست بالوحدة، فالقرية بعيدة والناس بعيدون، ومن كان سيساعدها في وحدتها؟ الله سبحانه وتعالى هو من اعتمدت عليه، وانتظرت منه الفرج، فإن مع العسر يسرا.

(17)

حَوَّاءُ تبحثُ عن آدم

في طريق سيرها وبحثها عن حمودة تذكرت والدها الحاج عبد الله زارو وهو يحكي لمن كان يَسْمَرُ معهم من الفلاحين قصة سيدنا آدم عليه السلام، وأُمِّنَا حواء، يوم طردهما الله من الجنة، فضاعا في الأرض، وآدم يبحث عن حواء وحواء تبحث عن آدم، لكن الأرض اتسعت، بما عليها من جبال وبحار وأنهار وسهول وهضاب وغابات، وربما كانت حَوَّاءُ قريبةً من آدم ومع ذلك فهو لم يجدها وهي لم تجده، ولكنهما التقيا في الأخير، وأنجبا قابيل وهابيل.

كانت عيوشة تتذكر قصة آدم عليه السلام، وترى في نفسها حواء وهي تبحث عن آدم، فهو رجلها، ولولا الشيطان لما خرجا من الجنة. كما تذكرت ليلة البارحة، وما أحسته من مشاعر غريبة، وجفاء النوم لجفنيها، وكأن قلبها قد أخبرها بأن كارثة سوف تقع.

ولكن ها قد توسط النهار وهي لم تجد حمودة، وهي مرهقة وجائعة وثيابها تمزقت عليها بسبب تدافعها مع السيول ونومها متمسكة بأغصان الشجرة، فإذا لم تجد حمودة ولم تجد بيتها فهل ستبقى هنا في هذه الأرض المغمورة بالمياه؟ هل ستذهب إلى القرية لتطلب العون من أناس كانت هي وحمودة يزورانهم في أيام الأعياد؟ وهل ستكون القرية قد بقيت في مكانها أم أن السيول قد جرفتها؟

صبرت عيوشة وانتظرت، كما صبرت حواء وانتظرت.

(18)

وحيدة في العراء

اتسع الخلاء حولها، وما كان ثمة غير الماء، وقد رأت حيوانات ميتة وهي تطفو فوق الماء، وخُيِّلَ إليها أن أحد تلك الحيوانات هو كلبها، كلبها ذاك الذي اشتد نباحه في ليلة البارحة وهو يَرْتَعِبُ من البروق والرعود، لكنها تأكدت من أنه كلب ولم تتأكد من أنه هو كلبها. كما رأت حمارا منتفخا يرفع قوائمه فحسبته حمارها، ولكنها لم تصدق، فإن كان هو حمارها فأين هي العربة التي كان يجرها وهي محملة بالجزر إلى سوق القرية، وأين هو

حمودة، الذي كان يسوق العربة نحو السوق في تلك الأصباح الباكرة، ليصل قبل الفلاحين الآخرين؟

وجدت شجرة تِينٍ تتدلى من أغصانها تِينَاتٌ ناضجةٌ فأكلت منها. وذَكَّرَتْهَا الشجرةُ بشجرة تِينٍ وحيدةٍ كانت في طرف حقلها، وأن ذلك التين كان ينفع في بعض الليالي التي لا يوجد فيها زيتون أو زيت، وتساءلت أين هي تِينَتُهَا التي أصبحت عجوزا لا تُثْمِرُ، وأين هو حقلها، بل أين هو حمودة؟

خيم الليل فنامت عيوشة فوق شجرة، خوفا من الوحوش والذئاب التي ربما تكون قد سلمت من اجتياح السيول، والتي تبحث عن فرائس.

وجاء الغد وما بعده، ومرت أيام. وفي ليالي عيوشة وهي تنام فوق أغصان الأشجار كانت تبكي بكاء حارقا، حزنا على حمودة الذي لم تعثر له على أثر، كما بدأت تتأكد من أن السقف قد انهد فوق رأسه في تلك اللحظة التي ظلت هي واقفة فيها في باحة الدار. قالت:

[صرت أرملة. وأنا لم أنجب ولدا أو بنتا ولو كان لي أبناء لَجَرَفَتْهُمُ السيولُ أو لأبقى الله منهم من يقف بجانبي في هذه الأيام العصيبة، وعلى الأقل فأنا في حاجة إلى إنسان أكلمه، أو إلى حيوان أليف أتآلف معه، ولكني أضيع في هذه الأرض الواسعة التي يغمرها الماء، ولا أعرف طريقا للقرية].

(19)
ذِكْرُ الوالد الحاج عبد الله زارو

والدي الحاج عبد الله زارو كان فلاحا فقيرا، ولكنه سَوَّى الأرضَ ونزع منها الأحجار التي هي نفسها تصلح للبناء، ومَهَّدَ الأرضَ للزراعة، فزرع

الفول والعدس والقمح والشعر، والبصل، وربَّى الدجاجَ والماعز والغنم والبقر، والأرض أعطت من خيراتها والماشية تكاثرت، فتزوج أمي ووَسَّعَ اللهُ عليه الرزق فبات مِضْيَافًا لسكان القرية كريما، يُوَاسِي المكْرُوبَ ويُهَنِّيءُ بالعيد ويُعَزِّي في الموت ويسير وراء الجنائز، وكان يَسْمَرُ في ليالي الصيف ويُحْسِنُ قَصَّ القِصَصِ على الفلاحين، ومنها ما كان ينسبه إلى القرآن الكريم ومنها ما كان يعتبره خياليا، يرويه الرواة في الحلقة، كسيرة عنترة والزير سالم وأبي زيد الهلالي.

كانت نظرة من عينيه تكفي لفض أيِّ نزاع بين الفلاحين حول توزيع المياه، أو حول خصومات نسائهم وقد أوْغَرْنَ صدور الرجال بالحقد على بعضهم.

وكان يوم الجمعة بعد أن يعود من الصلاة في الجامع لا يعود وحده، بل يَسْتَضِيفُ ثلاثةً أو أربعةً من رجال القرية للغذاء معه مما كانت والدتي تُعِدُّهُ من كسكس، وبِوَفْرَةٍ، تَحَسُّبًا لمن قد يدعوهم والدي للغذاء معه.

وكنت صغيرة، يُقربني والدي منه، ويسمح لي بمجالسة رفقائه سواء في البيت أو في مدخله. ففي البداية، كان يعجب لكوني أُسْتَرِقُ السمعَ لأحاديث الرجال. صار يقربني منه ويُجلسني في حِجْرِهِ، ثم بجواره إلى أن حَجَّ إلى بيت الله الحرام رُفْقَةَ والدتي، وبعد عودتهما من الحج جاء حمودة فخطبني، وإلى أن توفي الوالد والوالدة، فما بقي لي أحد في الدنيا غير حمودة.

(20)

ذِكْرُ حمودة

يوم جاء حمودة ليخطبني كنتُ فرحة، وسمعت والدي الله يرحمه، الحاج عبد الله زارو، يقول لحمودة عيوشة جوهرة، ونحن لا نهدي الجواهر للدجاجات، بل كُنْ ديكا ولنا أن نهديك هذه الجوهرة.

يومها أحسست أنني أنا الدجاجة، وأن حمودة هو الديك، لكني عرفت فيما بعد أن والدي كان يقصد أنني أمانة في عنق حمودة، ليحسن إلي، ويحافظ علي كما يحافظ الإنسان على جوهرة يملكها.

وكذلك كان، فقد بدأ حمودة، كما كان قد بدأ والدي، وكما هو شأن البدو الذين يَرُومُونَ فلاحةَ الأرض، فقد سَوّاهَا حمودةُ ومَهّدَهَا وبَنَى فيها بيتا في سفح الجبل بنفس الحجارة التي أخرجها من الأرض. ووالدي الله يرحمه قال له إن العقلاء يبنون بيوتهم في العلاء، وأعطاه مثلا بالطيور التي تبني أعشاشها فوق الأشجار، وبالنسور التي تجعل أوكارها في أعالي الجبال، ولكن حمودة كان قد بنى ذلك البيت ومهد ذلك الحقل، فَرُحْتُ أعيش معه، بعد عرسنا، وتشاركنا في كل شيء، إلى أن مات والدي، وماتت أمي، وسافرت أخواتي الثلاث ميلودة وخديجة والسعدية للعيش في المدينة مع أزواجهن، فانقطع عنا خبرهن، وجاء من قال لنا إن كل من يذهب إلى المدينة ينسى حياته وأهله في القرية، فحزنت لكون أخواتي قد نَسِينَ عِشْرَتِي معهن، كما تألمت لكون موت الوالد والوالدة قد فرق بيننا.

وها أنا أَفْقِدُ حمودة، وأفقد بيتي وفراشي ومعزاتي التي كنت أحلب من ضُرُوعِهَا الحليب، ودجاجاتي التي كنت أجمع البيض من حولها أو أجعلها

تَحْضُنُ بيضا ليفقس فراخا والفراخُ ينْبُتُ لها الريش ويكبر عظمها ولحمها فتصير ديكةً أو دجاجات.

حتى الحمار والكلب فقدتهما، وحتى السقف الذي كنا نحتمي به أنا وحمودة من المطر فقدته، بل إنني فقدت حمودة.

هل أيأس؟ الله خلق لنا من رحمته ما يجعل الحياة تستمر. ولكن كيف ستستمر الحياة وأنا هنا وحيدة، أنام فوق الشجر ومن تحتي الماء؟

علي أن أفكر لأفعل شيئا.

(21)

حَجَرٌ. فوقه حجر. فوقه حجر

كيف أبني بيتا؟ أبنيه من الحجر. والحجر موجود في الأرض.

قالت عيوشة هذا الكلام وبدأت تنحني على الأحجار فتجمعها وتجعلها تتراكم في مكان فوق بعضها. لكنها توقفت، ونظرت إلى الجبل، وقالت يجب أن يكون بيتي عاليا لكي لا تجرفه السيول. ثم تراجعت عن تلك الفكرة، فبجوار البيت يجب أن يكون هناك حقل، والحقل لن يُسَوَّى إلا في أرض واطئة، قريبة من الماء لمد الجداول للسقي.

عادت تجمع الأحجار وتضعها فوق بعضها في المكان الذي اختارته لبناء البيت، ثم أخذت تبني منها سورا، وهي تعجن الطين وتملأ به الفراغات التي بين الأحجار. سور بعده سور، وبعد أن يكتمل بناء الأسوار الأربعة ستفكر في السقف.

(22)

أحلام عيّوشة

أخذت تحلم:

[ربما يكون لي بيت، وحقل صغير، وحظيرة وماعز ودجاج. ربما. وربما أشتري حمارا، وعربة يجرها الحمار، فأعيد كل ما أضاعته مني السيول إلى مكانه كما كان، وهذه الأمور لن تتحقق لي إلا بالعمل والجهد الشاق والصبر والاحتمال، وأنا امرأة صبور، علمتني الحياة أن أكافح في العيش، دون كلل، ولذلك فسيوفقني الله وسأصل إلى مبتغاي. ولكن يجب أن أبدأ من البيت، حتى لا أظل كل مساء أتسلق شجرة وأنام فوقها.

سأعيد كل شيء كما كان. أما حمودة فرحمة الله عليه، لن يعود إلى الحياة بعد أن اختاره الله.

أبدأ من البيت، وحبذا لو وجدت سبيلاً لأبنيَ سقفا من القرميد الأخضر لبيتي، حبذا.

حينما يصبح لي بيت، سأكون قد بدأت في تحقيق أحلامي، فلاشك أن أصعبها هو بناء البيت].

(23)

الناسُ أخيارٌ وأشرار

وقالت:

[كان حمودة قد أخبرني بأنه اختار مكان بناء البيت الذي هدمته السيول بعيدا عن الناس، حتى لا نصاب بأذاهم. وقال العيش بعيدا عن الناس يريح الإنسان ويجعله بعيدا عن المعاصي والذنوب، ويدفع إلى الاعتماد على النفس بمزيد من العمل، بينما معاشرة الناس تؤدي إلى الحديث معهم، والحديث يؤدي إلى النميمة، والنميمة تؤدي إلى الحقد والكراهية، والحقد يؤدي إلى الجريمة، فما لنا وما للناس؟

لم أقتنع بكلامه، وسألته: ألا يمكن أن يعيش الإنسان بين الناس، ويمنع نفسه من الكذب والسرقة والخيانة؟ إذا ربى الإنسان نفسه على الطهارة فذلك ممكن، فضلا عن أن معاشرة الناس تخلق للنفسِ الأُلْفَةَ والأُنْس، وتؤدي إلى روح التعاون، وتُشعر الإنسانَ بالأمان وهو بين الناس].

وتذكرتْ بيتَ والدها الذي وُلدت وكبرت فيه، فقد كان في مدشر صغير، قريب من القرية، والمدشر تسكنه سبع أسر كلها من نفس الأصل والنسب، أبناء عمومة قريبة أو بعيدة، ولكنهم كلهم، على استقلال حياتهم الخاصة بين بيوتهم وحقولهم، يتزاورون في الأعياد والمناسبات، ويتضامنون في أوقات الشدة، وبالرغم من محاولات بعض النساء إفساد العلاقة بين الرجال، فقد كانوا يلتقون في المسجد وفي السوق وفي الساحة التي كانت تتوسط المدشر،

فالمدشر كان به مسجد له صومعة يطوف المؤذن بأركانها الأربعة، كما كانت به مقبرة عند أطراف الحقول، تظهر منها شواهد القبور.

ومع كل ذلك، فقد بَنَتْ عيوشةُ بيتَها في السهل، قريبا من النهر، وحتى تكون قريبة من الماء الذي منه سوف تشرب هي وحيواناتها، كما سوف تسقي منه نباتات ومزروعات الحقل الذي تَنْوِي تمهيده على قرب من البيت.

وقالت الناس سوف ألتقي بهم في السوق، وسأعاملهم بالحسنى، كما سوف أتقي شر الأشرار منهم، وأما الأخيار فسأزداد قربا منهم، ومحبة لهم.

(24)
عملٌ شاق

قضت أياما في نقل الحجارة، وسورٌ يلتقي مع سور، وهي تُعْلِي أحدَ الأسوار قليلا، ثم تُعْلِي الذي يتصل به، حتى تَتَسَانَدَ الأسوار، وتتقوى بما كانت تَلْحَمُهَا به من طينٍ معجون بالماء.

كانت تَقْتَاتُ من بعض الثمار التي تنتزعها من أشجار بَرِّيَّة، أو من بُقُولٍ تعرف أنها ليست سامة.

وكانت شمس النهار، في هذا الصيف الحارق، تجعلها تعرق وتعطش، ولكنها تستمر في جمع الأحجار، وبناء أسوار البيت. كما كان الليل يجعلها تشعر ببرد شديد وهي تنام فوق شجرة، لكنها في نومها كانت تحلم بأن أصبح لها بيت، وتراه في المنام كالبيت الذي هدمه السيل، وترى نفسها وهي تتحدث مع حمودة، أو تناديه وهو في طرف الحقل، وحينما لا يرد عليها تستيقظ مذعورة، وتعرف أنها قد فَقَدَتْ حمودة، وفَقَدَتْ بيتها.

يُوقِظُها أولُ شعاعٍ من شمس الصباح، فتنزل من الشجرة، وتذهب إلى النبع، فتشرب وتتوضأ وتصلي، ثم تبحث عن بعض الأشجار المثمرة لتأكل من ثمارها، وبعد ذلك تبدأ في أشغال البناء.

أربعة أسوار صارت عالية، ولكنها لكي تعلو أكثر، فلابد من سُلّم، أو ألواح من خشب تُعْلِيهَا فتصعد عليها لِيَعْلُوَ البناء، ولابد من مساعد، ولا أحد هنا معها ليساعدها، ولذلك قنعت بذلك العلو الذي وصلت إليه الأسوار.

(25)

بابٌ ونافذة

غرفةٌ لها بابٌ ونافذة.

شعرت عيوشة بالسعادة، وجلبت عيدانا من أغصان الشجر، وشَبَكَتْهَا حتى جعلت منها بابا، كما شَبَكَتْ عيدانا أخرى حول النافذة، وأخذت تفكر.

فيم تفكر الآن؟ تفكر في تَبْلِيطِ الحيطانِ من الداخل والخارج بالطين، ولَطْمِ قليلٍ من الطين على تلك العيدان حتى لا تسمح للحيوانات بدخول الباب أو النافذة، والباب جعلته متحركا، يُفتح ويُغلق، لكنها ما تزال تفكر فيما عليها أن تفعل.

(26)

صار لي بيت وسيصير لي حقل

أخذت عيوشة من فرط فرحتها تدخل الباب وتخرج منه، بحركات طفولية، وتقف في وسط البيت فتنظر إلى السماء من أعلاه، وكان أول ما فعلته، هو أن ذهبت إلى النبع، وتوضأت، ثم عادت إلى وسط البيت، فبحث عن القِبْلَة، واستقبلتْ خَالِقَهَا وهي تصلي له.

في الليل باتت ليلتها الأولى بين أسوار الحجارة،، فأحست بأنها تحتمي بتلك الأسوار من البرد ومن الذئاب التي كانت تعوي طوال الليل، وكانت تُوثِقُ البابَ بعيدان متينة انتزعتها من أغصان الشجر. وعلى علو تلك الأسوار فما كانت الذئاب تستطيع أن تقفز عليها، ولذلك كانت عيوشة تنام على الأرض، وهي تشعر بالاطمئنان من غارات الذئاب، وإذا جفَاهَا النومُ فقد كانت تتذكر حمودةَ، وبيتَها القديم، كما كانت تتذكر أهلَها وطفولتَها في بيت والدها.

وبالطبع، فقد كانت تفكر في أشياء كثيرة عليها أن تفعلها، ولانشغال بالها بتلك الأشياء كان يجفوها النوم، فتنظر إلى النجوم من فتحة البيت، كما ترى القمر كيف يُطِلُّ على بيتها ثم يَمِيلُ ويَتَحَوَّل، وكانت قُبَّةُ السماءِ هي مَلاَذُهَا في الليل، وهي تَسْرَحُ بأفكارها تَرَقُّبُ النجوم، فهذه هي الثُّرَيَّا، وهذه نجمةُ السَّعْد، وتلك شُهُبٌ تَرْجُمُ الشياطينَ كما كان يقول والدها، مؤكدا أن ذلك قد ذُكِرَ في القرآن الكريم.

وكانت حينما ترى القمر يُطِلُّ من فوق بيتها تسأله عن حمودة، هل رآه، ولما كان القمر لا يرد، ولا يُشِيرُ بإشارة، فقد كانت تُغْمِضُ عينيها وتَذْرِفُ الدموع.

مع كل هذا فقد كانت تفكر في أن تُعْلِي من حيطان البيت، وأن تَبْتِيَ له سقفا، وأن تُعِدَّ بجواره الأرض لتصبح حقلا، فقد كان طموحها كبيرا، ولم تكن لتتوقف عند إنجاز ما أنجزته، وكانت تقول:

[أحتاج إلى أشياء كثيرة، أوَّلُها سُلَّمُ أعْتَليهِ لِأُعْلِي من حيطان البيت، وحتى أتمكن من مَدِّ العيدان فوقه، مُتَعَامِدَةً، لأصنعَ منها سقفا. ثم إنني أحتاج إلى فراش، فهل سأظل أنام على الأرض؟ وأحتاج إلى غطاء فليالي الشتاء قريبة، وأحتاج إلى مِعْوَلٍ ومِكْشَطٍ وشَادُوفٍ حتى أمَهِّدَ الأرضِ وأُسَوِّيَهَا، وبعد ذلك سأحتاج إلى البذور حتى أزرع الذرة والجزر والبصل، فمن أين آتي بكل هذا ؟ كما أحتاج إلى بناء فرن من الطين عند مدخل البيت، حتى أُنضِجَ فيه الخبز، فأنا لم أذق طعم الخبز منذ تلك الليلة المشؤومة التي داهمت بيتنا فيها السيول. ولكن من أين آتي بالقمح حتى أعجن الخبز؟ الحطب موجود من حوالي، وكذلك الطين الذي أبني به الفرن، ولكن ما أحوجني إلى أشياء كثيرة].

سرحت قليلا وهي تتأمل اتساع السماء وتلألؤها بالنجوم، وقالت:

[صار لي بيت. انظر يا حمودة، ها عيناك سهرتان معي. هل تراني؟ لقد صار لي بيت، وأنا بنيت أسواره من الحجارة وحدي، وسيكون لي حقل، ولكن، فكر معي من أين سوف آتي بالأشياء التي أحتاج إليها. فكر معي يا حمودة. سلم لإعلاء الحيطان، وعيدان للسقف، ثم شادوف وفأس لتسوية الأرض، وبذور بعد ذلك. وهل أطمع في دجاجة حتى آكل من بيضها؟ بل هل أطمع في ديك ودجاجة، حتى تبيض الدجاجة، وتحضن بيضها، فيفقس البيض وتخرج منه الفراخ، والفراخ تكبر، وتصير ديكة ودجاجات، وساعتها يمكنني أن آكل من البيض؟].

(27)

وصار لي كلب أيضا

في تلك الليلة لم تَعْوِ الذئاب، ولما أصبح الصباحُ وجدتْ عيوشة كلبا عند باب بيتها، فانحنت عليه وداعبت رأسه وعنقه، فحرك ذيله. ولم يكن لها ما تعطيه من طعام، ومع ذلك فقد رأت في عينيه نظرة فرح واستئناس بها.

تذكرت كلبها الذي أغرقته السيول، فَحَنَّتْ على ذلك الكلب وداعبته بيدها وهي تمر بها على رأسه وهو يحرك ذيله تعبيرا عن الفرح. ولم يذهب، رغم أنها قَدَّرَتْ أنه جائع ويبحث عن طعام، بل ظل قريبا من الدار، هي تعمل، وهو يَمُدُّ ساقيه ويحرك ذيله وينظر إليها.

قالت:

[صار لي بيت، وصار لي كلب أيضا].

وحمدت الله على ما أعطاها.

(28)

طهارة الثياب وطهارة البدن

ذهبت إلى النهر، وأخفت جسدها بين الأشجار تحسبا لأن يظهر أحد. فخلعت ثيابها، ونظفتها في ماء النهر ثم عَرَّضَتْهَا للشمس، وفي انتظار أن تَجِفَّ ثيابها، استحمت، وغسلت شعرها وسرحته، وقالت:

ـ الله نقي، ويحب الأنقياء.

ثم فكرت وقالت:

ـ لكن طهارة النفس، أهم من طهارة الجسد.

ثم قالت:

ـ لا. لا يمكن لجسد غير طاهر أن يحمل نفسا طاهرة، ولا يمكن لنفس طاهرة أن تحل في جسد وسخ.

وقالت:

ـ تتسخ أجسادنا، حتى نطهرها، وأوساخها بادية للعيان. أما أوساخ النفس فلا يراها أحد .

وقالت:

ـ إن كان الإنسان مراقبا لأوساخ نفسه، ولأوساخ جسده، مطهرا لها بين وقت وحين، فالله يجعله قريبا منه. ولكن ما أقبح أوساخ النفس، لأن تطهيرها من الصعوبة بمكان، أما أوساخ الجسد، فيمكن للماء أن يطهرها.

(29)

تَعارُف

مر أحد الرعاة بجوار بيت عيوشة، فتطلع إلي البيت وإليها، وبدا من نظراته أنه يريد أن يعرف صاحبة البيت الجديد، وكيف بني هذا البيت في أيام قليلة، فلاشك أنه كان يمر من هناك، وهو يَهُشُّ على غنمه، فما كان يلاحظ وجودا لذلك البيت.

وعيوشة نفسها، فرحت برؤية ذلك الراعي، فقد أحست أن الحياة قريبة منها، بعد موت بالغرق بسبب السيول، فقد مات حمودة، وماتت الماعز،

والدجاجات، والكلب، كما ماتت النباتات، وامحى مكان البيت، وغرق الحقل في الماء.

كلاهما استبشر برؤية الآخر، وكان الراعي فتى يرتدي جلبابا صوفيا وفي يده عصا، كما كانت عيوشة ملطخة اليدين بالطين وهي تلبس حيطان بيتها. وكلاهما انشغل بالآخر.

بادرها الراعي بالتحية، فردت على تحيته، وسألته عن المدشر القريب من هنا، والذي جاء منه، فتعجب لسؤالها، وحسبها لا تعرف أين هي، لكنه سمى لها اسم المدشر، وأسماء القرى القريبة، والقرى البعيدة، والأيام التي تعقد فيها الأسواق، وسمى رجالا بأسمائهم، أمثال السي سعيد وولد عبد الله والمعطاوي. فسألته هل يعرف ميلودة وحادة وهنية زوجات هؤلاء. فارتبك الراعي، وقال لها كيف تعرف نساء هؤلاء الرجال وهي لا تعرف أين هي، فردت عليه بأن السيول قد هدمت بيتها، وهي وإن بنت هذا البيت لا تعرف أين هي الآن، فوق الأرض، ولا تعرف ما حولها. وساعتها ضحك الراعي. وقال لها هذه غنم المعطاوي، فأين كان بيتك، وما اسمك؟ قالت له أنا عيوشة. فطفرت الدموع من عينيه، وقال لها هل أنت زوجة عمي حمودة؟ فقالت له أنا هي، ولكن من أنت؟ فقال لها أنا راعي غنم المعطاوي، وكل المداشر تحسب أنك قد غرقت مع زوجك في السيول، فقد جاء كل السكان يبحثون عنكما، فلم يجدوا لكما أي أثر، بل وجدوا آثارا تدل على تهدم البيت، وعلى غرق الماشية، وضياع كل شيء.

في ذلك اليوم توقفت عيوشة عن العمل، وفضل الفتى الراعي أن يبقى قريبا منها بغنمه، عينه على مرعاه وأذنه على ما تقوله عيوشة، التي أصبح يناديها:

ــ خالتي عيوشة.

وفي المساء وهو ذاهب، ذكر لها أنه سوف يخبر المعطاوي بأنها حية ترزق، وسيأتي أهل المدشر لزيارتها، ومساعدتها، فترجته بألا يفعل، ولو إلى حين، وأن يأتي كل يوم للرعي حول بيتها، فوعدها بما تريد، وأخبرها بأنه كان تلميذا في المدرسة، ولكن لبعد المدرسة عن المدشر، وقضائها لساعات في الطريق تفوق ساعات الدراسة في الفصل، فقد اختار البقاء في المدشر. ولأنه يتيم الأب، فقد قدمته أمه راعيا لغنم المعطاوي.

في الغد انتظرته، وجاء بغنمه، فاقترب منها وقبل يدها وكأنها أمه، وقدم لها ما جاء به معه من خبز وزيتون للفطور والغداء، لكنها رفضت لكونها لم تقبل أن يجوع الفتي الراعي، أو يشبع نصف شبع، مقابل أن تأكل هي. وألح الفتى الراعي على أن تقاسمه فطوره، وهو يظهر لها جرابا به خبز كثير، وزيتون كثير، وقال لها لقد جئت بطعام كثير لأتقاسمه معك، وأنا حسن، الراعي حسن، فأنت خالتي عيوشة، وقد رفضت أن أخبر المعطاوي وزوجته وسكان المدشر بوجودك هنا، وببيتك الجديد، فلنتقاسم هذا الطعام الكثير علي وحدي.

أكلت عيوشة خبزا وزيتونا لم تأكلهما قبل مدة طويلة. وفرحت بأن الله أرسل لها الفتي الراعي، الذي قال إن اسمه حسن.

وصار الراعي حسن يأتي كل يوم لرعي غنمه بجوار بيت عيوشة، فظلا يتحدثان، ومن الحديث معه تأكدت من أن حمودة قد مات في السيل، وأن سكان المدشر قد عثروا على جثته فدفنوه في المقبرة، وأن سرا بقي لديهم، وهو:

أين هي عيوشة، ولماذا لم يعثروا عليها ميتة، وهل ماتت بالفعل، أم أنها تحيا في مكان قريب ؟

نشأت المحبة الكبيرة بين عيوشة وبين الراعي حسن، فكلاهما أحب الآخر، وكلاهما وجد في الآخر مؤنسا، ومصدرا للأخبار، وتقاسما للخبز والزيتون، وحيث كان الراعي حسن لا يحب الأكل وحده، بينما كانت عيوشة لا تجد الخبز والزيتون.

بعد أيام جاء الراعي حسن بسلم وساعد خالته عيوشة على إعلاء جدران البيت، وتبليطها، وعلى بناء السقف.

(30)
جَنْيُ الشَّهْد

حَدَّثَ الراعي حسن خالتهُ عيوشةَ عن مكان توجد به أقراص الشهد، وهي أقراص صنعها نحل بَرِّيٍّ، فهناك بَنَى خلاياه، ولكن لا أحد يعرف مكان تلك الأقراص من سكان المدشر، فلأنه راع، فقد كان يعرف ما يوجد في الأرض أفضلَ من معرفة من يقعدون في المدشر فلا يجولون فيما حوله من مراع.

وعجبتْ عيوشةُ لوجود أقراص الشهد، فلم تدر سوى أن عَصْرَهَا يمنحُ عسلا، ولكن هل هي في حاجة إلى العسل؟ هل يأتي إليها العسل بعد أيام من الجوع؟ فما الذي يعنيه الراعي حسن؟

قال لها:

ـ يا خالتي عيوشة، سأطلعكِ على المكان الذي توجد فيه أقراص النحل، وسأُرِيكِ كيف يمكننا أن نَطْرُدَ النحلَ حتى لا يَلْسَعَنَا، وذلك بإشعالِ النارِ وجعلِ الدخانِ كثيفا، فالنحل لا يحتمل ذلك الدخان. وأنا سوف آتي بأعواد الكبريت

التي بها نشعل النار في أعشابٍ يابسةٍ، أو في حطب يابس، وساعتها سوف نحصل على الشهد.

قالت له:

ـ وماذا سوف نفعل بالشهد، حتى بعد حصولنا عليه، هل نستخرج منه عسلا لنأكله؟

قال لها:

ـ العسل سيكون كثيرا، وفوق ما يمكن أن نأكل، ولذلك فعليكِ أن تبيعيه في السوق، سوق القرية.

وقالت له:

ـ وأين هو الطريق إلى السوق؟

قال لها:

ـ أنا أدلك عليه.

وفعلا، ففي الغد ذهب الفتى حسن مع عيوشة إلى مكان الشهد، وحطبا حطبا أشعلا فيه النار، فَعَلاَ الدخان، وقَرَّبَا الدخانَ من مكان الشهد فتطاير النحل هاربا، وجَنَيَا شهدا كثيرا.

(31)

عيوشة في سوق القرية

قال لها الفتى حسن يا خالتي عيوشة الشهد كثير وهو مليء بالعسل، ويمكننا أن نجني منه كل يوم، فعليكِ أن تبيعي ما جنيناه في السوق، لتشتري بثمنه بعض حاجياتك.

وقالت له لا أعرف طريق السوق يا ولدي. لكنه أرشدها إلى الطريق، وهو طريق قصير حتى وإن كان يمر ملتويا بين الهضاب والصخور الكبيرة. ومشت في طريقها تحمل أقراص الشهد بين يديها، وكانت ترسخ في ذهنها علامات الطريق، حتى تعرف طريقها للرجوع.

أقبلت على سوق القرية، وأذهلها الزحام الشديد، ولغط الباعة، وكثرة خيرات الله من خضر وفواكه ودجاج وبط وأرانب.

تذكرت حمودة، فطفرت الدموع من عينيها. قالت هنا كان حمودة يبيع الجزر لما كان يخرج من بيتنا في الصباح الباكر وهو يسوق العربة التي كان يجرها الحمار. كل الخضر التي كنا نفلحها كان حمودة يبيعها هنا، ولاشك أن هؤلاء الباعة يعرفونه، لكنهم لا يعرفونني، ولو عرفوا أنني كنت زوجة له وقد صرت أرملة بعد موته ربما لكانوا قد جاءوا يعزونني في وفاته، ولكن هكذا أحسن، فلا أحد يعرفني.

جلست في ركن من السوق وهي تَعْرِضُ أقراصَ الشهد، فَسَاوَمَهَا رجلٌ عن الثمن ولكنها لم تعرف كيف ترد عليه، فهي لا تعرف ثمنا لما تبيع، والفتى حسن لم يحدد لها ثمنا للبيع، فربما هو الآخر لا يعرف، ولذلك فقد بدا عليها الارتباك، ولأنها امرأة قنوع، فقد ابتسمت للرجل وقالت له هذا عسل نحل، عسل حر، فخذه بالثمن الذي تريد.

تفحصها الرجل بنظراته، فرأى فيها بدوية ساذجة، وانحنى على أقراص النحل فأدخل في أحدها سبابته وتذوق طعم العسل، ثم نهض وأخرج من جيبه أوراقا نقدية وقال لعيوشة هاك. هل تكفي هذه النقود؟

ولأنها لم تكن تعرف قيمة تلك النقود، كما لم ترد أن تخسر أول مشترٍ، فقد قبلت البيع، ودفعت بأقراص النحل في يدي الرجل وهي تقول له :

ـ الله يخلف عليك.

وبمجرد أن مضى الرجل تجولت عيوشة في السوق، ورأت وجوها كثيرة حسبت أنها تعرف أصحابها، ولكنها كانت تشعر بالغربة، والوحدة، فلم تتجرأ على أن تكلم أحدا من الرجال أو من النساء، ومضت تبحث بعينيها عما يمكن أن تشتريه، فاشترت خبزا وزيتونا وشموعا وإبريقا وشايا ونعناعا وسكرا. كما أرادت أن تشتري كأسا، لكن البائع أخبرها بأنه لا يبيع كأسا واحدة بل ستة، فاشترت ستة كؤوس، وإن ظلت تفكر بأنها لن تحتاج إلا إلى كأس واحدة، أو كأسين إن أرادت أن تستضيف الفتى حسن، ولكن أربعة كؤوس ستبقى وهي تنتظر من سيشرب فيها الشاي.

صادفت رجلا يبيع بطانيات صوفية فترددت بنظراتها لتلك البطانيات، لأنها لم تكن تعرف هل يكفي ما تبقى معها من المال لشراء بطانية، ولذلك فقد تقدمت نحو البائع، وعرضت عليه ما معها من نقود، وقالت له هل يمكنني بهذا المال أن أشتري بطانية؟

ضحك البائع فحسبته يسخر منها، وأحست بالخجل، لكنه سحب من يدها ورقة مالية واحدة وقال لها خذي البطانية التي تعجبك. فاحتارت، ولكنها اشترت بطانية لتتدفأ بها عندما يبرد الليل.

كانت عيوشة مبتهجة، تكاد تطير من الفرح، فقد اشترت أشياء مهمة تبدأ بها حياتها، وأخذت طريق العودة إلى بيتها الجديد، ولكنها في الطريق اغتمت، وأصابها حزن شديد، فقد كانت تنظر على وقع الخطى على الأرض، فترى فيها خطى لأناس كانوا قد عبروا من نفس الطريق، وهو الأمر الذي ذكرها بحمودة من جديد، فبالرغم من أن حمودة كان يأتي إلى السوق راكبا العربة، فلاشك أن أثرا قد بقي لعبوره لهذا الطريق.

عادت عيوشة إلى البيت ومعها الأشياء التي اشترتها، وبقية من النقود، وكانت مضطربة الحركات، قلقة، مرة تبدو فرحة ومرة تبدو وقد تحول فرحها

إلى حزن. لكنها حطبت حطبا وأشعلت فيه النار، وملأت الإبريق بالماء فلما غلي أعدت فيه الشاي، وعبقت رائحة الشاي في بيت عيوشة، لأول مرة، فأكلت من الخبز والزيتون وشربت الشاي، وعاد إلى ذهنها لغط السوق، ووجوه من رأيتهم، وعاد إليها وجه حمودة من خلال وجوه أولائك الرجال، وحيث تصورت أنه كان بينهم، ولما كانت قد رأت بائعا للسمك فقد حسبت أنه هو السَّمَّاكُ الذي كان يشتري منه حمودة تلك السمكات التي كانت تعدها هي في البيت، وتقدمها له.

(32)

أغنية للفتى حسن

في الغد جاء الفتي حسن واطَّلَعَ على ما اشترته عيوشة من السوق، فبدا فَرِحًا.

وقال لها يا خالتي عيوشة علينا أن نجني شهدا آخر لكي تذهبي به إلى السوق، لتبيعيه، وتشتري أشياء أخرى أنت في حاجة إليها.

تحدثا فيما تنوي عيوشةُ أن تفعله، بينما اقترح عليها الفتى حسن ما عليها أن تفعله، ولم يختلفا، فقد كانت اقتراحات الفتى حسن تعني أن تعيش عيوشة وهي تتوفر على الضروريات، بينما كانت عيوشة تنظر إلى البعيد، إلى أبعد من ذاتها، بل إلى أشياء بعيدة، ولكنها قالت كل بعيد يبدأ من القريب، ولذلك وافقت الفتي حسن على خططه لبيع مزيد من الشهد، وشراء مزيد من الحاجيات، ولكنها كانت تفكر في مزيد من أشياء أخرى، أكبر من ذلك.

حالَ ذهابِ الفتى حسن من باب بيتها، وحينما أخذ يهش على غنمه ليرجعها إلى بيت المعطاوي، فقد ارتَدَّ عائدا نحو عيوشة وقال لها يا خالتي

عيوشة غدا سنجني الشهد ولكن سنصطاد الأرانب أيضا، وبعد بيع ذلك في السوق لا تنسي أن تشتري ديكا ودجاجة.

ثم مضى وهو يهش على غنمه، فسمعته يغني:

أرضٌ وزهور
وفراشاتٌ وحبور
فيحاءٌ وعطور

أنا شهدٌ
أصلي وردٌ
أمي نحلة
يا أمي الأرض
هاكي قبلة
خد الأرض كبير
قبلات الحب كبيرة

أنا نحلة
ها إني أطير
في سماء الحب

أنا نحلة
ها لوني يصير
كألوان القلب

أرض وزهور
نحل وحبور
وفراشات

فيحاء وعطور.

(33)

صيد الأرانب

الأرانب تنط فوق السهل على مرآي من أنظار عيوشة، وهي لا تهرب ولا تشعر بخطر. ولقد عرفت عيوشة أنها أرانب برية، شبعت كثيرا من أعشاب الطبيعة، وارتوت من مياه المنابع، وأمنت على نفسها من الذئاب، معتدة بسرعة سيقانها في الهروب إذا ما داهمها خطر. ذكورها تتوثب، وإناثها تخرج مخالبها الحادة وتصرخ بأصوات غريبة. ولقد تذكرت عيوشة يوم كان حمودة يهم بذبح أرنب فأخذت تصرخ بصوت يقطع نياط القلب، ولكن حمودة رغم الجرح الغائر في ظاهر يده، الذي أحدثته مخالب الأرنب، فقد كان يمسك بعنقها، ولقد ذبحها، حتى ودمه يمتزج بدمها، هو ذابح وهي مذبوحة، ثم سلخ جلدها وعيوشة ترى ذلك المنظر، فعالجت جرح حمودة بأعشاب تمنع الالتهاب، ولكنها، وحينما لم تمنعه من ذبح تلك الأرنب، لم تأكل منها، وقد طبختها وهي حزينة، ورأته وهو يلتهما وحده.

جاء الفتى حسن وقال لها نضع فخاخا للأرانب البرية، وعلاوة عن جني الشهد، نصطاد الأرانب البرية لتبيعيها في السوق مع الشهد، وليصبح مالك وفيرا به تشتري ما تحتاجين إليه.

نظرت عيوشة إلى البعيد، فقد كانت تحتاج إلى أشياء أكثر من حياتها الشخصية، بل كانت تشعر بحاجة الفتى حسن، إلى مدرسة قريبة منه، لكي لا

يبقى مجرد راع وهو على هذا الذكاء، بل ليدرس، ويتعلم، ويصير معلما في القرية، أو طبيبا، أو رئيسا للجماعة.

أجلت تفكيرها في هذه الأشياء، ولما جاء الفتى حسن في غد ذلك اليوم فقد أبدت أمامه إشفاقا على الأرانب البرية من صيد يؤدي بها إلى الذبح، ولكن الفتى حسن، أقنعها بأن الله تعالى قد جعل للإنسان في الصيد رزقا حلالا يسترزق به، وتعاون معها على نصب الفخاخ في سفح الجبل للأرانب، وهي شباك لا تكسر سيقانها، بل تسجنها ليتم القبض عليها من آذانها الكبيرة، وقال الفتى حسن لعيوشة إن الله لم يخلق للأرانب آذانا كبيرة إلا لكي نمسكها منها. فقالت له أين تعلمت هذا؟ فقال لها في المدرسة. وتحسرت لأنه لم يعد يذهب إلى المدرسة.

وما جاء الغد حتى كانت عيوشة تبيع شهد النحل في السوق، كما هي تبيع أرانب برية، ولما حصلت على مال كثير فقد اشترت به أشياء كثيرة تحتاج إليها، ولما رأى الفتى حسن كيف تتطور أحوالها فقد قال لها يا خالتي عيوشة أنت امرأة طيبة، وتستحقين كل خير، فبارك الله فيك.

وطفرت الدموع من عينيها، فقد تذكرت مأساة السيول، ولكنها ابتسمت، لأنها بفضل الذكاء والعمل قد أرادت أن تحول ما أصابها من خراب إلى بناء، وما أصابها من تَرَمُّلٍ بسبب موت زوجها إلى حب للناس، فقد فكرت، في أن العالم حينما يضمحل، فهو يبدأ وجوده من جديد، وبصورة أفضل، لكي يستمر العالم يتجدد.

(34)

رائحة الطبيخ

أشعلت النار في الفرن الذي كانت قد بنته من طين وحمته بالنار حميا خفيفا حتى يتقوى بناؤه، ولكنها في هذه المرة وهي توقد فيه نارا، فقد كانت واثقة من أنه يمكن أن يُنضج خبرا، وقد تمتن بناؤه، حتى وناره تشتعل، ودخان أزرق يعلو منه في المساء، في سماء صافية تقترب من الغروب، وكأن ذلك الدخان يشير إلى فرن، والفرن يشير إلى وجود طعام.

أنضجت عيوشة الخبز في الفرن. ثم تفرغت لإعداد قدر طينية تحتوي على خضر كثيرة، لكنها عندما اقتربت من الطعام لم تجد لها شهية للأكل، فهي لم تتعود على أن تتناول الطعام وحدها، بل كان حمودة هو البادئ، لتتبعه، وهما يأخذان من الصحن، وحمودة يأكل حتى الشبع، أما هي فكانت ترفع يدها من الطعام قبله، فتترك له ما يصل به إلى الشبع.

فكرت في أن تذبح أرنبا سمينا من تلك الأرانب البرية، لكنها قالت لن تفعل ذلك قبل أن تشتري من السوق بعض التوابل، والثوم والبصل، وتذكرت أنها تأكل طعامها على الأرض، ففكرت في شراء مائدة، وفراش، وصحون، وأشياء أخرى.

وجاء يوم ذبحت فيه عيوشة أرنبا ذكرا كبيرا، وسلخت جلده، وأخرجت أحشاءه، ثم نظفته بشيء من الملح، وأنضجته مع البصل والثوم والتوابل وزيت الزيتون، فعبقت رائحة الطبيخ تُحلِّب الريق، وانتشرت فيما حول الدار، كما كان خيط من دخان أزرق يرتفع من بيت عيوشة ويتصاعد مع السماء حتى يتبدد.

وضعت الأرنب في صحن ووضعته على المائدة، وأتت بالخبز من الفرن، ولما جلست أمام المائدة تعكر صفو مزاجها، فتنهدت، وما وجدت بها شهية لتناول الطعام.

حلَّ الليل، وحاولت أن تأكل لكي لا تبيت على جوع، فما أكلت إلا قليلا، ودخلت فراشها، ثم تذكرت الكلب الذي أصبح يلازم باب بيتها، وهو يحميه من غارات الذئاب، فنهضت، وقدمت له ما كان قد بقي في الصحن من طعام.

بادر إلى الأكل، وكان يحرك ذيله من حين لآخر، ويرفع رأسه لينظر إلى عيوشة نظرة شكر ووفاء.

(35)

فلاحة الأرض

مع تباشير الفجر الأولى كانت عيوشة قد نهضت من فراشها فحملت الفأس والشادوف وبدأت تمهد الأرض للزراعة، أرض خططت لها بجوار البيت، وأرادتها حقلا للمزروعات، فالماء يمكن أن يفتح له قناة للري من النهر القريب، والبذور تباع في سوق القرية، وما يبقى هو الساعد القوي، والعزيمة الكبيرة، فالأرض لا تعطي غلالها إلا لمن يحبها، ويبذل طاقته من أجلها، وحتى وإن كانت قاحلة فيمكن بجهد الإنسان أن تتحول إلى جنة.

ظلت عيوشة تمهد أرض الحقل للزراعة طوال النهار، وفي المساء كل ساعدها، وأصابها ألم في الظهر، كما أحست بالجوع، فعادت إلى بيتها، وأعدت طعاما، فأكلت وتوضأت وصلت لله، ثم نامت وهي تعد نفسها بما سوف تفعله في الغد.

هكذا قضت أياما كثيرة في إعداد الأرض للزراعة، حتى بذرت البذور، وفتحت فتحة من جانب النهر، على شكل جدول صغير، ولما تدفق الماء كانت قد أعدت كيف ينبغي له أن يتوزع في المناطق التي قسمت عليها أرض الحقل، فالماء يدخل من منطقة ومنها يسير نحو أخرى، وإن رأت أن الري قد تم على أحسن حال فقد كانت تغلق بالتراب والحجارة المكان الذي يتدفق منه الماء، حتى لا تتعفن البذور.

وكان الفتى حسن يأتي إليها بين يوم وآخر، ويرقب ما كانت تفعل، وهو معجب بقوتها على العمل، وحبها للحياة، حتى وقد مات زوجها في حادثة السيول. وكم كان إعجابه بها شديدا عندما رأى طريقة تنظيمها للحقل، وحيث قسمته إلى أقسام كل قسم منها يختص بزراعة معينة، كما كانت قد سيجته بسياج من أشجار هي في طور النمو، وحيث إذا ما نمت فسوف تتكاثف أغصانها، وتصبح سدا منيعا أمام من يريد اقتحام الحقل، سواء المواشي التي ترعى أو من غيرها. والعجيب أن خضرة قد حلت محل قحولة الأرض، وأن الماء قد روى عطش الأرض، فبشرت بالعطاء.

قال لها الفتى حسن أنا سعيد بأن أرى لك حقلا يا خالتي عيوشة.

وقالت له يا حسن يا ولدي أنا لن أكون سعيدة إلا حينما أراك وقد عدت إلى المدرسة، لتدرس، وتتعلم، وتحصل على الشهادة الكبيرة، لتكون معلما في القرية، أو طبيبا، أو رئيسا للجماعة.

وقال لها وهو يضحك، ولمن أترك غنم المعطاوي يا خالتي عيوشة؟

فقالت له تتركها لراع لا طموح له، نفسه ميتة ولا قدرة له على فعل شيء يفيده ويفيد الناس.

وقال لها أنت تحتقرين الرعاة يا خالتي عيوشة، فبفضلهم يتم رعي الماشية.

وتذكرت قطيع ماعزها الذي كانت تطلقه في أرض الله للرعي في الصباح وهو يعرف طريق عودته في المساء. ولما رأت حزنا في عيني الفتى حسن فقد اعتذرت له، وقالت له والدي الحاج عبد الله زارو كان قد حدثني عن نبي من الأنبياء كان راعيا، وعن نبي آخر كان خياطا، فأنا لا أقصد احتقار الرعاة، والصناع، والفلاحين، فهم عُمُدٌ في حياة الإنسان، وما أقصده هو حاجة الناس إلى معلم، وطبيب، ورئيس للجماعة.

ابتسم لها الفتي حسن، وقد أراد بابتسامته أن يشعرها بأنه يصالحها، ولكنها على محبتها له، وعلى اعترافها له بالجميل، فقد نصحته بألا يجعل غنمه ترعى في حقلها، فأكد لها أنه سوف يرسل غنمه بعيدا عن الحقل، لكنه أخبرها بأن زوجة المعطاوي تسأل عنها، وهو وفى بوعده بألا يخبر عنها أحدا، لم يخبر زوجة المعطاوي بشيء، ولكنها تسقطت الأخبار، وعرفت أن عيوشة حية ترزق، وأنها قد بنت بيتا في مكان قريب من بيتها الذي هدمته السيول.

وقال لها كل الناس في القرية يعرفون أن حمودة قد مات، وهم يعرفون أن عيوشة لم تمت، فهي قريبة منهم، ولكن أين هي؟ وهو لم يرغب في أن يدلهم على مكانها، بناء على طلب منها، ولكنهم كانوا يرغبون في مساعدتها، وكل واحد منهم يتمنى أن يقدم لها شيئا، ولكن أين هي عيوشة؟

(36)

دجاجة تأتي ببقرة

تاهت عيناها في مطالع النجوم، وكانت مؤرقة، جفاها النوم وهي تنظر إلى السماء.

تذكرت أن والدها الحاج عبد الله زارو كان يجمع حول مدخل بيته عددا من أهل القرية، وكان يحكي لهم بعض الحكايات. وتذكرت أن والدها كان يسمح لها بحضور تلك الجلسات التي يسمر فيها السُّمَّار.

حكاية كانٍ يحكيها الحاج عبد الله زارو لمن يسمرون معه، وكان السمار يضحكون في نهايتها، ولكنهم كانوا يتعجبون في بدايتها، وكان يقول:

[اسمعوا يا سادة يا كرام.

النبي المصطفى عليه أفضل الصلوات والسلام.

كان حتى كان.

كان الطَّاقْ وطرطلاق،

والكبش المشوي عالأوراق.

وكانت يا سيدي يا مولاي أنت والسامعين معنا فالصلاة على النبي العدنان امرأة بدوية حملت قلُــَّةَ السمن فوق رأسها، ومضت بها إلى السوق، وفي طريقها أخذت تفكر، وقالت سأبيع السمن وأشتري ديكا ودجاجة، والدجاجة ستبيض، وستحضن بيضها، والبيض سيفقس فتخرج منه الفراخ، والفراخ ستكبر وتصير ديكة ودجاجات، وفي ذلك الوقت، سوف لن أبيع الدجاجات، بل سأتركها لتحضن البيض، وسأذهب إلى السوق، وأبيع الديكة، وأكنز مالا، فأبيع ديكة أخرى، وأكنز مالا، وبعد جمع للمال سوف

أشتري معزة حاملا بعد وقت سوف تلد لي معزتين، وستتكاثر الماعز، إلى أن يتيسر لي من المال ما أشتري به بقرة حاملا، فتلد لي عجلا، والعجل يكبر، والعجول تتكاثر بعد أن تتكاثر الأبقار، وسأصبح صاحبة قطيع كبير من العجول والأبقار.

ولكن المرأة نسيت الدجاجات، ونسيت المعزات، فطمعت في قطيع البقر والعجول، وبنسيانها نسيت أنها تحمل فوق رأسها جرة مليئة بالسمن ترغب في أن تبيعها في السوق، ولذلك سقطت الجرة من فوق رأسها، فتهشمت، وامتزج السمن بالتراب، فبكت الفلاحة سوء حظها، وقررت أن تعود أدراجها قبل أن تصل إلى السوق، وفي طريق العودة، قالت ليتني ذهبت إلى السوق وبعت السمن فاشتريت بثمنه ديكا ودجاجة، وليتني رأيت الدجاجة تبيض، قبل أن أصل إلى قطيع من البقر والعجول، فأنا طماعة، وهذه هي عاقبة الطمع].

قالت عيوشة بين الدجاجة والبقرة وقت، وقت طويل. ولابد من الصبر والانتظار. فالطَّمَّاع هو من يريد أن يصل بسرعة، ودون جهد أو عرق أو انتظار. ولكن يمكن ببيض دجاجة أن يصل الإنسان إلى بقرة، وذلك ليس سهلا، بل هو يحتاج إلى وقت، وجهد، وكد واجتهاد. وعلى الإنسان ألا ينسى أن خالقه هو من يكافئه على حسن عمله، كما على الإنسان ألا ينسى أن فعل الخير يجلب له الخير. لكن الطمع لا يجلب للإنسان غير الأنانية، وحب النفس، والتخلي عن مساعدة الآخرين.

(37)

امرأة الشمس والقمر

كان الفتى حسن قد جلس تحت ظل بيت عيوشة، في وقت الهجير، وقد أخذ نايه بين يديه، فنظر إلى ثقوب الناي كما نظر إلى أصابعه، وأرسل لحنا جميلا أعجبت به عيوشة، ثم أنشد نشيدا:

في علائي

في فضائي

أسير.

في ظلام الليل

أُنَير.

في مصيفي

في شتائي

وربيعي

وخريفي

أستنيرُ

وأُنير.

ها سمائي في ازرقاق

هو ليلي في ائتلاق.

نجمة.

نجمة.

أنا نجمة

وحياتي رحلة

في سماء وسماء.

في البحر أرى الموجة

في الجبل أرى القمة

في السفح أرى الوردة

في الحقل أرى. . .

في النهر أرى . . .

وأرى . . .

وأرى . . .

وأرى . . .

أنا نجمة

في علائي

في سمائي.

كانت عيوشة تسمع نشيد الفتى حسن، فتركت ما كان في يدها من أدوات العمل في الحقل، وجاءت لتقترب منه وهي تبتسم ابتسامة تهليل وفرح، وقالت مكان هذا الولد ليس في المرعى، ولكن في أقسام المدارس.

لما رآها اقترب منها وقبل يدها وهو فرح بما رأى في عينيها من فرح، وقال الحمد لله الذي أزال الحزن والكدر من عيني خالتي عيوشة.

أخرج من جيبه كتابا وأطلعها على ما فيه فلم تر غير خطوط مدادية سوداء على أوراق بيضاء، لكنه وقد عرف ما يجول في خاطرها من إحساس بمرارة الجهل بما في الكتاب، فتحه وأخذ ينظر إلى أوراقه وإلى خالته عيوشة، وقال لها:

[خالتي عيوشة. البارحة قرأت في هذا الكتاب حكاية أعجبتني، هي حكاية امرأة الشمس والقمر. والحكاية هي حكاية حب الإنسان للإنسان، أينما وجدا، وهما لا يوجدان إلا فوق هذه الأرض.

امرأة الشمس والقمر امرأة عجيبة وغريبة، فقد خطبتها الشمس وأغرتها بالزواج بحرارتها التي بها تغذي الحقول، فأخذتها الشمس إلى دورتها في العالم، وجعلتها ترى القارات الخمس، والبحار والجبال، كما رأت الأنهار وهي تصب في البحار، ورأت في الأنهار تماسيح تفتك بالإنسان، كما رأت في البحار أقراشا مفترسة، وفي الجبال رأت نسورا كما رأت أسودا ونمورا فارتعبت، وطلبت من الشمس أن تحمي البشر من أذى هذه الحيوانات الضارية، ولكن الشمس لم تعدها بأنها قادرة على ذلك، فغضبت امرأة الشمس والقمر، وأرادت أن تذهب إلى حال سبيلها، لكن الشمس أخذتها إلى القطبين المتجمدين في شمال الكرة الأرضية وجنوبها، وجعلتها ترى كيف يصطاد الناس ما يقتاتون به من حيوانات وأسماك ليحفظوها تحت الثلج فتبقى هناك لمدة طويلة دون أن تتعفن. لكن امرأة الشمس والقمر لم تجد في ذلك ما يغريها، ولما جاء القمر يخطبها فقد سألته عما عنده، ورحل بها إلى مداره حيث بدت الأرض ملونة بلون الفضة، وقال لها هذا هو لوني، وها هي النجوم من حولي، وأنا أدور في سماء الله الواسعة، وانظري كيف كيف تتكلم النباتات مع بعضها الليل بلغة لا يفهمها الناس ولا أحد سواي يسمعها، وانظري كيف أسمع أصوات الحيتان في قاع البحر وهي تتزاوج وتبيض وتسافر عبر المحيطات، وانظري كيف تصير أشعتي منارا ينير الطريق للناس في ظلام الليل.

لكن امرأة الشمس والقمر، اكتشفت حقيقة بها لم تقبل خطبة الشمس ولا القمر، فهما سماويان، وهي أرضية، ولا يمكن أن يخطبها سوى رجل.

من الأرض. ثم عادت وفكرت في هل يمكن أن يكون هناك زواج بين الأرض والسماء، وبمشيئة الخالق، ما دامت الشمس وما دام القمر لا يوجدان بدون الأرض، كما لا توجد الأرض بدون شمس وقمر] .

توقف الفتى حسن عن الحكي، ولما رفع نظره عن الكتاب رأى عيوشة تتطلع إليه وهي تبتسم، وسألته:

ــ امرأة ؟ أهي امرأة؟ امرأة وتتزوج الشمس أو القمر؟

فقال لها:

ــ نعم هي امرأة، تنتمي إلى الأرض، وأما الشمس والقمر فهما في السماء.

وبدت :يوشة وكأنها لا تفهم، فقد وجدت أن هذه الحكاية ليست سهلة كالحكايات التي كان يحكيها والدها الحاج عبد الله زارو لمن يسمر معهم في ليالي السمر.

ولما رأى الفتى حسن أن عيوشة لم تصدق أن تلتقي امرأة بالشمس والقمر وأن تتحدث معهما، فقد سألها:

ــ وأنت يا خالتي عيوشة، ألا تتحدثين مع النجوم في ليالي الصحو؟ ألا تتحدثين مع القمر؟ ألا تتحدثين مع الشمس؟ ألا تجدين في الأرض جذورا للإنسان ولكنه مشدود إلى السماء؟

وقالت:

ــ أنا نفسي كنت أسمع النباتات تتكلم مع بعضها. وقد حسبت أنني أفهم لغة الطيور، ولغة الماء.

ضحك الفتى حسن وقال لها:

ــ خالتي عيوشة، أنت امرأة الشمس والقمر.

فضحكت، واحمر وجهها من الخجل، فبدت وكأنها عذراء في ريعان تفتح شبابها الأول، وكأن الله قد أعادها إلى صورة شبابها، فقام الفتى حسن ناهضا من تحت ظل بيتها ليهش على غنمه، لكنه أخبرها بأن في الكتاب حكايات أخرى قد تعجبها، وأنه في الغد سوف يقرأها لها.

(38)

حمار وعربة

بعد أن كانت عيوشة قد بَلَّطَتِ الجدران، ووضعت سقفا لبيتها، وبعد أن استمرت في جَنْيِ الشهد، وصيد الأرانب، وبيعهما في سوق القرية، فقد جمعت مالا كثيرا.

اشترت دجاجا ومعزتين، وكل ما يحتاج إليه البيت من أثاث بسيط وضروري.

وفكرت في شراء عربة لتحمل عليها الخضر إلى السوق، فالخضر بدأت تنضج في الحقل، وعليها أن تفكر في كيف ستنقلها إلى السوق، لذلك فكرت في العربة، والعربة لابد أن يجرها حمار.

أخرجت عدة أوراق مالية وأخذت تَعُدُّهَا، ثم عَدَّتْ على رؤوس أصابعها، ولم تعرف هل ما معها من المال يمكن أن يشتري لها عربة وحمارا، أم أن عليها أن تتمهل لبعض الوقت، حتى تجمع مالا أكثر. لكنها غامرت ذات ويوم، وخلال وجودها في سوق القرية، بأن سألت أحد الباعة هل يوجد صانع عربات في القرية، فَدَلَّهَا الرجلُ عليه، ورأت عربات كثيرة

مصنوعة من الخشب، في انتظار أن تضاف إليها العجلات، وهي مُسْنَدَةٌ إلى حائط بجوار المحل، واقتربت تبحث بعينيها عن المعلم.

اقترب منها وقال لها أنا هو المعلم، هل تريدين عربة؟ وابتسمت، فرأى صانع العربات في وجهها طيبة وسماحة، مع براءة وعزم وطموح في النظرات، فأطلعها على العربات التي كان قد صنعها، ولما وصل الحديث بينهما إلى الثمن، فقد أخرجت عيوشة حزمة النقود التي كانت تُخْفِيهَا في ثيابها، وأظهرتها له، ومن حسن حظها أن الرجل لم يكن جَشِعا، أو مُحْتَالا، أو عديمَ الضمير، فقد نظر إلى أوراق النقود وقال لعيوشة:

ــ أظن أنها تكفي، ولكن عُدِّيها.

فبدت مرتبكة وقدمت له حزمة النقود وقالت له:

ــ عُدَّهَا أنت.

عرف صانع العربات أنها لا تعرف عَدَّ النقود، ولا تعرف ما معها من مال، فأخذ النقود وعَدَّها، وفصل أوراقا عن بعضها، فقال لعيوشة هذا ثمن صنع العربة، وهذا ما يتبقى لك.

بدت فرحة، وتسرعت يدها في أخذ الأوراق الباقية، وكأنها تخطفها من الرجل. لكنه أشفق على جهلها، ووعدها بأن تحضر بعد أسبوعين لتجد العربة جاهزة، وأوصاها بأن تُحْضِرَ دَابَّةً لتجر العربة.

مضى الأسبوعان وعيوشة تحلم بالعربة، لكنها وبعد مضي أسبوع واحد كانت قد ذهبت إلى سوق القرية، واتجهت نحو الناحية المخصصة للماشية والحيوانات، وسرعان ما اشترت عنزة وجديا صغيرين، ولكنهما تجاوزا مرحلة الرضاع، فقد وضع البائع أمامهما علفا فتناولاه.

فرحت بالعنزة والجدي، وقالت بعد مدة سوف تكبر العنزة وتلد كل عام مرتين، وسأحلب منها الحليب، وسأصنع منه أقراص الجبن.

ومضت في سوق الماشية فرأت قطعانا من الغنم وهي معروضة للبيع، وكانت تحمل العنزة والجدي بين يديها، فهما صغيران ولا يقويان على المشي. وفي السوق رأت أبقارا وعجولا وحميرا وبغالا وخيلا، فاتجهت نحو حمار لكنها وجدته عجوزا، أعجف، فتجاوزته، ورأت حمارا آخر يرفع أذنيه ويكشف عن أسنانه فقالت لاشك أنه حَرُون، ورأت أتانا فعرفت بخبرتها أنها قد ولدت عدة مرات، فلا فائدة فيها.

بحثت في سوق الماشية عن الحمار الذي تريد، وقد أرادت أن تكون من صفاته أنه ليس كبير السن، وليس حرونا، ولا مصابا بمرض جلدي يظهر على باطن أذنيه أو على ظهره. وما كانت تريد جَحْشا، فالجحش لا يقوى على جر العربة، وما دام جحشا والإنسان يحمله ما لا يطيق فلن يتقوى مهما تناول من علف، لأنه يتحمل تعبا فوق طاقته.

ثم وجدت الحمار الذي تريد. ومن حسن حظها أنه حمار أبيض، رأت فيه بياض الأيام القادمة، فساومت البائع، وانتهى الأمر إلى شرائها لذلك الحمار الأبيض، اللطيف، الذي امتطته لأول مرة فلم يحرن، بل كان يدير رأسه وينظر إليها وهي تسوقه نحو بيتها، وفي نفس الآن تحمل بين يديها العنزة والجدي الصغيرين، وسمته مسعود.

لكنها بعد أسبوع من ذلك، عادت تركب الحمار الأبيض، مسعودا كما سمته، واتجهت نحو صانع العربات، فأطلعها على عربتها وهي جاهزة، مصبوغة بالأحمر والأزرق، ولها ما يمكن أن توصل به مع حمار. فأوصل العربة بالحمار، وأخبرها بأن الحمار لن يَتَعَوَّدَ من أول لحظة جَرِّ العربة، لكنه سوف يتعود.

وفي مساء ذلك اليوم، عادت عيوشة إلى بيتها ففصلت الحمار مسعودا عن العربة، وقدمت له العلف، وألقت بالحَبِّ للدجاج، وقدمت علفا للجدي

والعنزة، وأحست أنها تملك حيوانات كثيرة هي المسؤولة عن تغذيتها، لكي تتكاثر، وتزداد الخيرات بإذن الله وعونه وبركته.

(39)
أسف شديد

لكن عيوشة قبل أن تنام، فكرت في اقتلاع الجَزَرِ واللفت من الأرض، وغسلهما في ماء الجدول الذي يصل إلى أرضها من النهر، وحزمهما حزمات متساويةً هي التي ستباع في السوق، بعد أن تحملها على ظهر العربة.

ومع سعادتها بما حققت، وأنجزت، فقد كانت تشعر بأسف شديد، فهي لا تعرف الحساب، لكي تَعُدَّ ما معها من مال، وهي لا تقرأ، ولا تكتب، وبذلك فهي تشعر بنقص كبير، وقالت حبذا لو فكر أناس في أن يعلمونا الحروف والأرقام، وأن يجعلونا نقرأ ونكتب.

ثم قالت ما علاقة هذا بالعربة، وبالسوق؟

هل لأنني أعرض على من أتعامل معهم ما معي من مال من غير أن أعرف قيمته؟

هل لأنني أرى أشياء مكتوبة أمامي في الأوراق أو في لافتات معلقة على جدران القرية، فلا أعرف كيف أقرأها؟

وهل ألوم والدي الحاج عبد الله زاروا، لأنه أخرجني من الكُتَّابِ حينما بدأت مظاهر الأنوثة تظهر على جسدي، ودون أن أتعلم شيئا؟

والمرأة ألا تتعلم؟ أليست مساوية للرجل في كل شيء؟ بل إن والدي نفسه كان يحدث أصدقاءه في ليالي السمر عن نساء عَالِمَات، فما الذي دهاه

حتى منعني من الدراسة والتَّعلُّم؟ سامحه الله، فهو والدي، ولعله كان غير مُدْرِكٍ لعاقبة ما فعل. سامحه الله.

وحمودة، هل ألومه؟ كان جاهلا مثلي، بالقراءة والكتابة، ولكنه كان يعرف العدَّ على أصابعه، ولم يكن يعرف غير عَدِّ عدد الدجاجات التي نملكها، أو عدد السمكات التي كان يأتي بها من سوق القرية، لا لن ألومه.

ثم ما الذي يوجد بعد القرية، حولها، وما هي المدن التي سمعنا عنها وأين توجد، وكيف يعيش سكانها، وما الذي يوجد وراء البحر، وهل كل الناس يربون الغنم والبقر والماعز ويزرعون الأرض مثلنا أم أن هناك أناسا آخرين يقومون بالحرف والصنائع ويتاجرون بتجارة لا نعرفها هنا نحن؟

لاشك أن ذهابي إلى السوق، لكي ألتقي بالناس، هو ما كشف عن جهلي، فلو بقيت في الدار، ولو بقي بيتي الذي هده السيل، لما كنت قد عرفت أنني أجهل أشياء كثيرة، هي التي يجب علي أن أتعلمها، فكل تجربة، هي درس للإنسان.

(40)
عيوشة تتعلم أحرف الهجاء

جاء الفتى حسن الراعي ورأى العربة والحمار والجدي والعنزة، فبارك لخالته عيوشة ما أصبحت تملكه، ودعا لها بالخير.

لكنها وبعد أن قدمت له شايا وخبزا وزيتونا قد بدتْ حزينةً وغيرَ سعيدةٍ بما أنجزته.

فعجب الفتى حسن لحالها. قال الإنسان شكاء من حاله كيفما كان الحال. ثم قال الإنسان لا يقنع بما في يده بل يريد أن يصير في يده ما ليس فيها.

ثم فكر وقال لم لا؟ إذا كان الإنسان طموحا، فهو يسعى دائما إلى تحقيق أفضل مما يكون قد حققه، والطموح هو ما يدفع الإنسان للاكتشاف، ومعرفة الأشياء المجهولة، فبه اكتشف النار، كما قال لنا المعلم، كما اكتشف قانون الجاذبية، فلماذا لا يكتشف كل ما يخدم سعادته ورفاهيته وحبه ومساعدته للآخرين؟ لم لا؟

واستعاد حياة خالته عيوشة، وكيف خرجت من الموت والدمار والخراب، ثم بنت حياة جديدة بعرقها، وبحبها للعيش، وبعزيمتها على أن يبقى الإنسان، رغم الخراب الذي يَعُمُّ العالم، فلعلها لم تسمع عن الحروب، وما تفعله بالإنسان، ولكنها قد سمعت بزيارة والدها للحج، والحج طهارة، وحب للإنسان يلتقي مع الإنسان، هكذا كان قد قال لنا المعلم.

وفي تلك الزيارة وجد الفتى حسن خالته عيوشة وهي ليست بمنتهى السعادة والفرح، فقد وجدها شاردة، غائبة النظرات، فسألها عما بها، فطلبت منه أن يعلمها كتابة الحروف والأرقام.

ألف باء.

1، 2، 3.

ومرت أيام والفتى حسن يعلم خالته عيوشة الحروف والأرقام، حتى صارت تحسن كتابة الحروف:

ألف

باء

تاء ثاء حاء جيم خاء

وسرعان ما تعلمت عيوشة كتابة الأرقام، والجمع والطرح، في انتظار أن يعلمها الفتى حسن الضرب والقسمة.

(41)
زائرات من القرية

جاء يوم كانت فيه عيوشة تنحني على فلاحة الأرض، ولما رفعت رأسه لترى نحو البعيد فقد رأت الراعي الفتى حسن وهو آت نحوها، يلهث من جريه، فعجبت كيف ترك غنمه في المرعى وجاء بدونها، وهو يجري ويلهث، فلاشك أن حدثا قد حدث.

وما وصل الفتى حسن وهو يلهث إلى مكان عيوشة في الحقل حتى أخبرها بأن نساء القرية آتيات نحو بيتها لزيارتها، لتقديم العزاء في حمودة زوجها، وللتعبير عن مواساتهن لها، ولتقديم أشياء هي من قبيل التضامن، بها أردن أن يساعدنها.

فكرت عيوشة في أن المصاب قد مضى عليه حين من الدهر، فلماذا لم ينتبه أحد من سكان القرية لحالها قبل هذا الوقت؟

وتذكرت ميلودة وهنية وحادة، وأزواجهن السي سعيد والمعطاوي وولد عبد الله، وحيث كانت في أيام الأعياد تزور مع زوجها حمودة بيوتهم.

سرعان ما خرجت من هذه الأفكار، فتركت ما كانت تقوم به من أشغال وبدأت في إشعال النار، لتعد الرغيف والشاي لمن سيزرنها من النساء. وبسرعة نظفت غرفتها ورتبت الأشياء في أماكنها، ثم أخرجت صَحْنَيْنِ وملأت أحدهما بالعسل والآخر بالزبدة، وبدأت تعجن العجين لإعداد الرغيف.

وصلت النسوة الثلاث إلى باب بيت عيوشة، فخرجت لاستقبالهن، ورحبت بهن، داعيةً إياهن للدخول، فقد تعرفت عليهن، فهن ميلودة وهنية وحادة.

ظلت ميلودة تتطلع إلى الحظيرة، وترسل نظرها إلى الحقل، وقد وَشَتْ نظراتها بأنها تتعجب لما صار عليه حال عيوشة، فقد كانت النساء يعتقدن أنها تعيش في حفرة، وأن ليس لها شيء من متاع الدنيا.

وظلت هنية تتطلع إلى عيوشة، تتفحص وجهها وقامتها وما عليها من لباس بنظراتها.

وأما حادة فقدمت الهدية لعيوشة، وهي أربع دجاجات وديك، وقوالب من السكر.

بعد دخولهن إلى البيت عادت عيوشة ترحب بهن، وتشكر لهن زيارتهن لها، فما بَرِحَتْ ميلودةُ تتطلع بنظراتها إلى ما رزق الله عيوشة، والعجب بَادٍ على نظراتها، فلما خرجت عيوشة لإعداد الشاي سمعت ميلودة تُبْدي للنساء عجبها مما صارت عليه حال عيوشة. كما سمعت هنية تطري على شباب عيوشة، وتعبر عن مخاوفها من أن تنال من قلب أحد أزواجهن، فيتزوجها، وتصبح ضرة لإحداهن. وسمعت حادة تَنْهَاهُنَّ عن هذا الكلام، وتَعْتِبُ عليهن، لكنها رغم ذلك قد تألمت لما سمعته من ميلودة وهنية، حتى ندمت على استقبالها لهن، لكنها عادت لتقدم لهن الشاي، وهي تنظر بامتنان إلى حادة، ولسان حالها يقول: الناس أخيار وأشرار.

نادت الفتى حسن ليشرب الشاي، وقالت للنسوة هذا حسن وهو كولد لي، فهو ليس غريبا عن البيت. وقَبَّل حسن يدها بامتنان.

دعت النساء لحمودة بالرحمة والمغفرة، وطَفَرَتِ الدموع من عيني عيوشة، كما دعونها لزيارتهن في القرية، فبدت موافقة، ولكنها قالت لنفسها إن كنت سأزور القرية فلن أزورَ غير بيت هنية، لأنها هي من أوقفت كلام الشر والنميمة، وذكرتني في غَيْبَتِي بالخير.

(42)

ألفُ قلبٍ تحب آلاف الأطفال

اشترت عيوشة للفتى حسن دراجة، وزارت بيتهم وهي تلح على أمه في أنِ تعيده إلى المدرسة، والتزمت أمامها بأنها هي التي سوف تتكلفُ بشراء حاجياته المدرسة، من كتب ودفاتر، كما أنها سوف تكسوه مرتين في السنة، كِسْوَةً للشتاء وكِسْوَةً للصيف.

فرحت أم حسنٍ بما اقترحته عيوشة، وعاد إلى المدرسة مع بداية العام الدراسي، لكنه لم ينقطع عن زيارة عيوشة في أيام الأحد، وحيث كان يقضي النهار كله معها، يعلمها القراءة والكتابة، ويحدثها عن أخبار القرية وعن أحوال الناس.

أصبحت عيوشة تنام وبجوارها دفاترها وكتبها، فهي قبل أن تنام، تقرأ وتكتب، لتتدرب على القراءة والكتابة. كما أصبحت كلما ذهبت إلى سوق القرية، ورأت أطفال المدرسة يمضون في طريقهم إلى بيوتهم، إلا وأحست بأحاسيس الأمومة، من رقة وحنان، وجَيَشَانٍ في العواطف، وكأنها أم كبيرة، لها ألف قلب، وبكل تلك القلوب تحب آلافَ الأطفال.

مع أنها لم تنس حبها للفتى حسن، الذي أصبح معها يكونان أسرة واحدة، سيما بعد أن تطوعت أمه بتركه يحيا مع عيوشة في بيتها، ليزورها مرتين أو ثلاثا في الأسبوع، وكانت الدراجة هي الوسيلة التي يتنقل بها الفتى حسن إلى المدرسة، وفي يوم الأحد يرافقها إلى سوق القرية، ليبيعا الغلال التي تجنيها عيوشة من الحقل، وليشتريا حاجيات البيت من زيت وسكر وزيت الوقود للمصباح وتوابل، وإن وجدا سمكا طريا يشتريانه، وقد وجدت عيوشة في

حسن ابنا لها لم تلده من صلبها ولكنها تبنته فصار ولدا لها، كما وجد فيها حسن معينا له على دراسته، وقلبا يزخر بالحب والحنان، فلم ينس أمه، ولكنه ظل وفيا لحب عيوشة، كما ظلت وفية لما كان قد قدمه لها من مساعدة يوم كانت لا تملك شيئا.

(43)

أجمل النهايات

ويمكن أن نتخيل ما صارت إليه أحوال عيوشة، وما أتى به الزمان من حوادث. فيمكن للفتى حسن، وبرعايتها، أن يكون قد وصل إلى الجامعة، فتخرج منها مهندسا أو طبيبا أو مدرسا، ولعلها اليوم تفرح به عريسا في ليلة عرسه، ودموع الفرح تطفر من عينيها.

ولكن لا أحد يصدق أن عيوشة بعد أن أصبحت تقرأ وتكتب، قد أخذت ترسل إلى المدينة من يأتيها بالجرائد، لتتطلع على الأخبار، كما أنها قد اشترت جهاز تلفزيون يعمل ببطارية، ومع تقدمها في السن، واكتسابها للتجربة والخبرة في الحياة، فقد أخذت تزور بيوت نساء القرية، وتقوم بتوعيتهن بحقوقهن، مع أن ذلك لم يغضب رجال القرية، الذين كانت توعي نساءهم بحقوقهم، من أجل تكامل حقيقي بين الرجل والمرأة، وتضامن داخل الأسرة.

وربما لا يصدق أحد، أن عيوشة قد أصبحت عضوا في مجلس الجماعة القروية، تحضر الاجتماعات، وتدافع عن مصالح السكان، وتخطب في الناس، وتدعو إلى التعاون والتضامن من أجل المصلحة العامة التي هي فوق المصلحة الخاصة، فأحبها السكان، وتجمعوا من حولها.

ولا عجب في ذلك، فهي امرأة عصامية، لم تنتظر أن تسمح لها الظروف بأن تحقق ما تريد، بل إنها قد قهرت المصاعب بعزمها وإرادتها، ونسيانها لما كان قد حل بها من كارثة يوم هدمت السيول بيتها، فلو كانت قد استسلمت للحزن لما نالت ما نالته.

وها هي عيوشة، ما تزال تفلح أرضها بنفسها، وتبيع غلال الحقل في السوق، حتى وهي عضو في مجلس الجماعة القروية، لأن فرصة لقائها بالناس في السوق، هي التي تمكنها من معرفة مشاكلهم، ورغباتهم.

ذات يوم، جاء حسن لزيارة أمه عيوشة، ومعه ابنتاه مريم وسعاد، وزوجته الطبيبة مثله في عيادة مستقلة عن عيادته، وعند مدخل البيت جرت مريم وسعاد تقبلان جدتهما عيوشة، ففرحت بالبنتين، وبعد الاستراحة طلب حسن من عيوشة أن تذهب معهم إلى بيته في المدينة، لقضاء بعض الأيام، فاعترضت وقالت له لمن أترك هذا الدجاج، وهذا الماعز، ولمن أترك شؤون الحقل، بل لمن أترك كلبي الوفي، من سيطعمه؟

ثم ابتسمت وأضافت: وشؤون الجماعة، والاجتماعات، لمن أتركها؟

هنأتها زوجة حسن على إرادتها في العمل، وعدم استسلامها للراحة.

وذبحت عيوشة ديكين كبيرين، للإعداد الطعام، فبدأت بهمة ونشاط تحضر الفطائر وأنواع الرغيف التي تحبها البنتان مع العسل والزبدة.

وحالما وضعت عيوشة صحنا من عسل النحل فوق المائدة، نظرت إلى حسن نظرة ذات معنى، ففهم معنى نظرتها، وعاد كل واحد منهما يتذكر.

لكن البنتين مريم وسعاد خرجتا إلى الحقل، تقطفان منه زهور الأقحوان.

أما عيوشة فقد شردت، وقالت وهي مبتهجة ها هو الله قد منحني ولدا وحفيدتين، ثم طفرت دموع الفرح من عينيها وقالت:

[الله يرحمك يا حمودة. انظر إلى عيوشة كيف صارت. أرضنا طيبة يا حمودة، وأناسها طيبون، ولكن ما أحوجنا إلى حب الآخرين، وإلى التسامح، وإلى مد الجسور بين الناس.

حمودة، هل ترى اليوم ما صارت عليه القرية؟ إنك إن رأيتها فلن تعرفها. بنينا مسجدا أكبر من الذي كان ليتسع للمؤمنين، وبنينا ثلاث مدارس، ومستشفى صار أحد أجنحته مخصصا للولادة، ولقد أقنعنا نساء القرية بأن الولادة في المستشفى تكون أكثر ضمانا لصحة المرأة وصحة المولود.

ثم انظر إلى الطرق التي مددناها بين أطراف القرية ووسطها، حتى لا يبقى هناك سكان معزولون.

وانظر إلى شبكة الكهرباء، وإلى هوائيات التلفزيون فوق سطوح المنازل.

حمودة. الله يرحمك. كنت أتمنى أن أعيش معك حتى الموت، ولكنها إرادة الله.

حمودة. ها هي مريم ابنة حسن تجلس في حِجْري وأمها الطبيبة تضع لنا الطعام على المائدة. أنت لا تعرف من هو حسن، ومن هي زوجته. حسن هو ذلك الراعي الذي أصبح طبيبا في المدينة، وزوجته هي الطبيبة حسناء.

حمودة. لعلك لا تفهم. أو لعلك لا تصدق. ولكن هذا ما حدث].

أكل الجميع، وبدأت السهرة بنقاش طويل بين عيوشة وبين الدكتورة حسناء، زوجة الدكتور حسن، حول تنظيم حملة للوقاية من الأمراض التي تنتشر في القرية، وحول طرق مكافحتها.

(44)

سُنّةُ الحياة

وفي الغد، في الصباح الباكر، كانت عيوشة قد أشعلت النار في الفرن، وحلبت حليبا من العنزات، وهي نشطة تقوم بإعداد الفطور، لحسن وأسرته، فأفطر الجميع. وفي المساء، أشعلت عيوشة النار في الفرن، وقد كانت ترغب في أن تعد للعشاء أكلة تحبها الدكتورة حسناء، وسرعان ما نظرت إلى خيط الدخان الذي كان يعلو من الفرن، ويتصاعد، فتذكرت أن حمودة لو كان الآن في الحقل يقتلع الأعشاب الضارة من بين النباتات لكان قد عرف أن عيوشة تعد الرغيف والشاي، وأنها سوف لن تحتاج إلى أن تناديه ليأتي لتناول العشاء، فالوقت وقت غروب، والعشاء سيكون جاهزا بعد حين، بيض وزيت زيتون وخبز ساخن وشاي. كل يا حمودة. ولا تنس غدا إن وجدت سمكا في السوق أن تأتينا منه. لا تنس زيت الغاز للمصباح.

لكن عيوشة دون أن تشعر، نادت حمودة بأعلى صوتها، وكأنه سوف يرد عليها من الحقل. وبدا لها وكأنها قد سمعته يرد:

ــ أهاو.

فاقشعر بدنها، ونظرت إلى سماء الصيف التي أنذرت بسحب سوداء.

لكنها ابتسمت وقالت:

ــ إن حدث ما كان قد حدث من جديد، فالعالم يستمر، كما يستمر الإنسان، وتستمر الحياة.

وعادت تتأمل السماء، تقرأ فيها تقلبات الطقس، وقالت:

ــ إن أراد الله أن يحدث ما كان قد حدث من جديد، فعيوشة أخرى لابد أن الله سوف يُلْهِمُهَا ما كان قد ألهمني.

الفهرست

* أخفق أجنحة.. 5
* الخفافيش.. 193
* دم الوعول.. 351
* عيوشة امرأة الشمس والقمر........................ 535

صدر عن

وزارة الثقافة

الأعمال الكاملة
محمد عزالدين التازي

الروايات

الجزء الأول

■

الجزء الثاني

■

الجزء الثالث



الثمن :
45 درهما